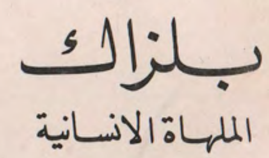




حول كاترين دي مديسي

(دراسات فلسفية)

وهي تضم : مقدمة تاريخية
القسم الاول : المعذب الكالفني
القسم الثاني : اعتراف الروجيريين
القسم الثالث : الحلمان

ترجمة : ميشيل خوري
مراجعة : عبود كاسوحة

روايات بلزاك ٢٧

بلزاك

الملهاة الإنسانية

حول كاترين دي مديسي

(دراسات فلسفية)

وهي تضم : مقدمة تاريخية

القسم الاول : المعذب الكالفني

القسم الثاني : اعتراف الروجيريين

القسم الثالث : الحلمان

ترجمة : ميشيل خوري

مراجعة : عبود كاسوحة



العنوان الأصلي للكتاب :

BALZAC
LA COMÉDIE HUMAINE

SUR CATHERINE DE MÉDICIS

ÉTUDES PHILOSOPHIQUES

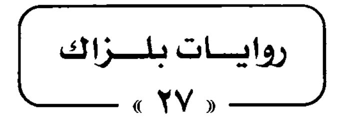
الملهاة الإنسانية La Comédie Humaine / بلزاك؛ ترجمة ميشيل خوري. - دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠. - ٤٢٣ ص؛ ٢٤ سم. - (روايات بلزاك؛ ٢٧).

المحتوى : حول كاترين دي مديسي : دراسات فلسفية

١- ٨٤٣ ف ب ل ز م ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- بلزاك ٥- خوري ٦- السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٠٨٣ / ٦ / ٢٠٠٠



حول كاترين دي مديسي

إهـــــداء

إلى السيد المركيز دي باستوريه[1]

عضو أكاديمية الفنون الجميلة

هل علينا ونحن نفكر بالعدد المدهش من المؤلّفات المنشورة للبحث عن منطقة من جبال الألب عبر منها هانيبعل[2]، دون أن نعرف اليوم فيما إذا كانت وفقاً لما

(١) آمده د دافيد مركيز دي باستوريه: (١٧٩١ - ١٨٥٧) اشتهر كملكي مدافع عن حق البوربونيين أكثر من شهرته كمؤرخ، وإذا كان في العام ١٨٢٩ وفي مقدمة كتابه «**تاريخ سقوط الامبراطورية اليونانية**، يؤكد أنه يعد تاريخ القرن الخامس عشر فإنه لم ينشره، كما أنه لم ينشر عن القرن السادس عشر والسابع عشر إلا روايات تاريخية ضعيفة، وكتيباً بعنوان «**الوسائل التي استخدمها هنري الرابع ليؤمّن العرش**، وهو مخصّص في الواقع لتشجيع بدايات الملكية الثانية، لكنه ساهم فترة في ادارة صحيفة «لاكوتيديين» وبقي معارضاً لملكية تموز، وأدار أملاك الكونت دي شامبور.

(٢) يلحُّ بلزاك على هذه المناقشة الساخرة عن عبورها نيبعل للألب، فيضعها أولاً في مشروع إهداء **للأخوين** (المتصيّدة)، مقابلاً تفاهة هذه الأحداث مقارنة مع الأحداث السريّة الكبرى للقلب البشري، وهكذا يقابل بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث، بين التنقيب المتبحّر ودراسات التقاليد والأفكار والمراجع التي يعدّدها بلزاك مستعارة على الأرجح من أحد المؤلفين الذين ذكرهم وهو لاروزا (التاريخ الناقد لعبور هانيبعل جبال الألب، ١٨٢٦) فيما عدا ما يتعلّق بنابوليون وكوشار. وإذا كان نابوليون قد مر في العام ١٧٩٦ عن طريق معبر بوشيتا الكبير، فلا يفترض أبداً أن يكون هذا هو الطريق الذي سلكه هانيبعل، و«بحث» كوشار حول هذا الموضوع بقي بدون نشر وقد أعادته حملات إيطالية إلى الأذهان، وكان موضع جدل في القرن الثامن عشر.

ذكره هوتيكر وريفاز هي المسار من ليون، إلى جنيف عبر ممرّسان برنار ثم وادي داوست. أو وفقاً للترون، وفولار، وسان سيمون[1]، وفورتيا دوربان كانت من الإيزر ـ غرنوبل ـ سان بونّه ـ جبل جنيفر ـ فنستريل ـ ممر سوز أو هي وفقاً لرأي لاروزا عبر مون ـ سنيس وسوز، أو وفقاً لسترابون وپوليب ودي لوك عبر الرون ـ ڤيين ـ إيين ـ مون ـ دو ـ شا. أو هي وفقاً لرأي بعض المفكرين عبر جنوه ـ لا بوشتا ـ لاسكريفيا وهو رأي اشاركهم فيه، كما أن نابوليون قد اعتمده دون اعتبار للخلّ الذي عولجت به الصخور الألبية من قبل بعض العلماء[2] أن نندهش يا سيدي المركيز لرؤية مدى الإهمال في التاريخ الحديث، ومدى الغموض في النقاط الأكثر أهمية، بينما الافتراءات الأكثر شناعة ما تزال تثقل على الأسماء التي يجب تبجيلها؟ فلنلاحظ ونحن نمرّ أن عبور هانيبعل قد أصبح اشكالياً لكثرة الايضاحات حوله؛ وهكذا فإن الأب منستريه يعتقد أن نهر سكورا الذي أشار إليه پوليب هو السّون، بينما رأى فيه لترون ولاروزا وشويغوزر الإيزر. أما كوشار العالم الليوني فيرى فيه الدروم؛ فبينما يرى كل ذي عينين بين سكورا وسكريڤيا تشابهات جغرافية ولغوية كبيرة، دون الأخذ بالحسبان ترجيحاً شبه مؤكدّ بغرق الأسطول القرطجني في سبيزيا أو في خليج جنوه. كنت سأقدّر تلك الأبحاث الدؤوب لو أن الشك تطرّق إلى معركة كان، أما ونتائجها معروفة، فما فائدة تسويد كل هذا الورق بكل هذه الإفتراضات التي هي نوع من الزخرفات للفرضية، بينما التاريخ الأكثر أهمية في الوقت الحاضر، تاريخ الإصلاح ممتلىء بالغموض الشديد، بحيث نجهل اسم الرجل الذي سيّر زورقاً على البخار في

---

(١) هو مكسمليان هنري مركيز دي سان سيمون (١٧٢٠ - ١٧٩٩) الذي يتحدث عن الموضوع في مقدمة كتاب «تاريخ حرب الألب أو حملة ١٧٤٤».

(٢) تلميح إلى مختلف تفسيرات نصّ «تيتليف» ويظهر جيش هانيبعل يخترق طريقه في الجليد، بعد إحراق محطبة فوق الصخور ثم صب الخلّ على ضرامها لتحطيمها.

برشلونة[1]، في الزمن الذي كان فيه لوثر وكالفن يبتكران تمرّد الفكر؟ أعتقد أن لنا الرأي ذاته، بعد أن قام كل منا من جهته، بإجراء الأبحاث ذاتها على الوجه العظيم والجميل، وجه كاترين دي مديسي؛ وهكذا فكّرت أن الدراسات التاريخية عن هذه الملكة ستكون مقدّمة بشكل ملائم إلى كاتب يتقصى منذ فترة طويلة تاريخ الحركة البروتستانتية، وبذلك أوجه لخُلُق الرجل نصير الملكية ولأمانته تحية إكبار عامة، قد تكون قيمتها الثمينة في ندرتها.

باريس

---

(١) صاحب تجربة برشلونه هو سليمان دي كو، وقد لحقت التعاسة هذا الرجل الكبير دائماً، حتى بعد موته، إذ بتر اسمه أيضاً، وسليمان الذي رسمت صورته الأصلية وهو في السادسة والأربعين من العمر وجدها مؤلّف **الملهاة الإنسانية** في هايدلبرغ وقد ولد هذا الرجل في كو في نورماندي. (ملاحظة من بلزاك). وفي اعتراف الروجيريين (ومنذ الطبعة الأولى ١٨٣٦ التي ظهرت بعنوان سرّ الروجيريين) يتعرّض بلزاك لموضوع هذه التجربة، وفي العام ١٨٤٢ في الفترة التي كتب فيها هذا الإهداء، جعلها موضوعاً لمسرحية بعنوان **موارد كينولا**.

تعود التجربة إلى العام ١٥٤٣ وفي نسبتها إلى سليمان دي كو خطأ تاريخي.

ولد سليمان نحو العام ١٥٧٦ ونشر في العام ١٦١٥ فقط «**أسباب القوى المحرّكة**» وبلزاك بالذات يذكر هذا التمييز في مقدمة مسرحيته المؤرخة في ٢ نيسان ١٨٤٢ لكن اسم سليمان دي كو تردّد بكثرة بعد انتشار رسالة مزيفة نسبت إلى ماريون دلورم تذكر أنه احتجز كمجنون بناء على أوامر ريشليو، وقد تحدّث عنه أراغو مطوّلاً في مقال ظهر العام ١٨٣٧ بعنوان «ملاحظات عن تاريخ البخار».

مقـــــدّمـة

تعوّد الناس على رفع أصواتهم مشيرين إلى المفارقة، كلما وقع العلماء على خطأ تاريخي فادح فسعوا إلى تصحيحه.

لكن يثبت لمن يدرس التاريخ الحديث بعمق أن المؤرّخين كذابون محظوظون يعيرون أقلامهم للمعتقدات الشعبية، كمعظم صحف هذه الأيام التي لا تعبّر إلا عن آراء قرّائها.

بدت الاستقلالية التاريخية أقل نجاحاً بكثير لدى العلمانين منها لدى رجال الدين، فمن البندكتيين، وهم أحد مفاخر فرنسة، وردتنا أكثر الأنوار صفاءً في مادة التاريخ، شريطة ألا تكون مصلحة رجال الدين عرضة للتهديد. وهكذا فمنذ منتصف القرن الثامن عشر قام علماء جدل كبار متبحرّون في الدين، فأقرّوا بضرورة تقويم الأخطاء الشعبية السائدة لدى المؤرخين، فنشروا أعمالاً متميّزة، ومن هؤلاء السيد لونوا[1] الملقب بـ «**مدّقق القديسين**»، الذي أعلن حرباً قاسية على القديسين الذين دخلوا تهريباً إلى الكنيسة فبدأ منافسو البندكتيين؛ وهم الأعضاء الأقل شهرة في أكاديمية التدوين وعلوم الأدب، بكتابة مذكرات حول نقاط تاريخية غامضة، وهي **مذكراتهم** الشديدة الروعة بما تتضّمنه من أناة، وتنقيب، ومنطق. فسلّط ڤولتير غالباً باهتمام شقي، وبهوى حزين، نور فكره على أحكام تاريخية

---

(١) يخصص «بايل» في «**قاموسه**» مقالاً عن هذا اللاهوتي الذي يعود إلى القرن السابع عشر والمشهور بنقده للعبادات، وأشير إلى لقبه في عدة طرف.

مسبقة، وعمد ديدرو لأجل هذا الهدف إلى وضع كتاب مطوّل عن عصر من التاريخ الامبراطوري لروما[1] ولولا الثورة الفرنسية لتمكن **النقد** المطبّق على التاريخ، على الأرجح، من تحضير العناصر لتاريخ جيّد وحقيقي لفرنسة، جمعت إثباتاته منذ مدة طويلة من قبل رهباننا البندكتيين الكبار. وترجم لويس السادس عشر، ذو الفكر الصائب بنفسه المؤلّف الانكليزي الذي جرّب فيه وَالْبُول أن يوضّح ريتشارد الثالث والذي كان موضع اهتمام كبير في القرن الماضي[2].

كيف يمكن لشخصيات بمثل شهرة الملوك والملكات، وكيف يمكن لأشخاص بمثل أهمية قادة الجيوش أن يصبحوا موضوع كره أو سخرية؟ فما بين أغنية على مارلبورو وتاريخ انكلتره، يحار نصف الناس، كما يحارون بين تاريخ شارل التاسع والمعتقدات الشعبية حوله فالشعب يخلق في كل العصور، التي تحدث فيها معارك كبرى بين الجماهير والسلطة، شخصية **أشبه بالغول**، إن سمح بالمجازفة بكلمة تعبّر عن كلمة منصفة. وهكذا ففي زمننا، لولا **مذكرات القديسة هيلانة**، ولولا الخلاف بين الملكيين والبونابرتيين، لما لزم إلا الشيء البسيط لطمس مزايا نابوليون كلها فيكفي بعض آباء من نوع دي برادت[3]، وبعض مقالات أخرى في الصحف، وليتحول نابوليون من امبراطور إلى غول. فكيف يمكن للخطأ أن ينتشر ويوحي باليقين؟ هذا اللغز يتم أمام أعيننا دون أن نتبيّن ذلك. وما من أحد يشك في ما

---

(١) الكتاب هو «دراسة حول ملكية كلود ونيرون (١٧٧٨).

(٢) نسب إلى لويس السادس عشر ترجمة «الشكوك التاريخية عن حياة وملك ريتشارد الثالث (لندن ١٧٦٨) وهو مؤلّف جرّب فيه هوراس والبُول أن يبرّر جزئياً سياسة هذا العاهل وسلوكه، وهو الذي قسا التاريخ عليه في حكمه.

(٣) **الأب دي برادت**: (١٧٥٩ - ١٨١٧) بارون في عهد الامبراطورية، كلّف عدة مرّات بمهمات دبلوماسية، لكنه تحالف فيما بعد مع لويس الثامن عشر قبل أن ينضمّ في العام ١٨٢٧ إلى صفوف المعارضة الحرّة. له عديد من المؤلفات التي نشرها في عهد الملكية الثانية تهاجم بعنف الامبراطورية والامبراطور، هكذا في كتابه: «تاريخ السفارة إلى دوقية فرسوفية الكبرى في العام ١٨١٢ (نشر باريس ١٨١٥) كتب: «إن نابوليون يسمن في العواصف، وهو معاد لراحة العالم، كعدائه لراحة نفسه... ويقول عنه في المقدمة: إنه مجنون بهذا التشوّش في الأفكار الناتج عن الانتفاخ والمغالاة».

أعطت المطبعة من قوّة وتماسك، سواء للحسد المنصب على كبار الأشخاص أو للسخريات الشعبية التي تلخص حدثاً تاريخياً باتجاهه العكسي؛ وهكذا فقد أطلق اسم الأمير دي پولينياك في فرنسة كلها على كافة الخيول التي تُساط، ومن يعلم أيَّ رأي سيتكوّن في المستقبل حول الانقلاب الذي أحدثه الأمير دي بولينياك[1]؟ بنزوة من شكسبير؛ وربّما بدافع انتقام، كذلك الذي ردّبه بومارشه على برجاس (برجارس)[2]؛ يعتبر فالتساف في انكلتره نموذجاً للسخرية، فاسمه يثير الضحك. إنه ملك المهرجين، وهو بدين بشكل فاحش، وعاشق ببلاهة، وتافه، وسكير، وعجوز، ومفسد. بينما كان فالتساف أحد الشخصيات الأكثر أهمية في عصره، فهو فارس يحمل وسام ربطة الساق، ويتقلّد قيادة عليا، وعند تسنّم هنري الخامس العرش، لم يكن السير فالستاف قد تعدّى الرابعة والثلاثين من العمر، وقد تميّز كقائد في معركة أزينكور، وأسر فيها دوق آلنسون، واستولى في العام ١٤٢٠ على مونترو التي جرى الدفاع عنها ببسالة، وتغلب أخيراً في عهد هنري السادس على عشرة آلاف فرنسي، وليس معه إلا ألف وخمسمئة جندي قد هدّهم التعب وأنهكهم الجوع! ذاك بشأن الحرب. فحبذا لو انتقلنا من ذلك إلى موضوع الأدب، والمثال لدينا رابله رجل قنوع لم يكن يشرب إلا الماء، لكنه اعتبر مغرماً بالمآكل الفاخرة، ومعاقراً مستديماً للخمرة، وقد نسجت حوله ألف حكاية مثيرة للسخرية وهو مؤلّف أحد أجمل الكتب في الأدب الفرنسي: **بنتا غرويل**. أما آرتن صديق تيتيان، وفولتير عصره، فله في أيامنا هذه، شهرة تتعارض مع مؤلفاته، ومع طبعه، وقد نُسب إليه فجور في الفكر يتناسب مع كتابات ذلك العصر حيث للمجون رايته، وحيث الملكات والكردينالات يكتبون الحكايات المسماة في أيامنا

---

(١) أوحى بولينياك بالقرارات الأربعة التي سببت ثورة ١٨٣٠ وهي:
١ - تنظيم الصحافة ٢ - حلّ المجلسين ٣ - تغيير قانون الانتخاب ٤ - دعوة هيئة الناخبين.

(٢) - كان برجاس خصماً لبومارشيه في القضية الأخيرة المدويّة التي أتهم بالأشتراك فيها وقد نجح برجاس بتكرار الضربات ومضاعفتها في إثارة الرأي العام. ولم يتمكن حكم البرلمان لصالح بومارشيه من إيقاف تيارات النقد المعارضة.

تذكر بومارشية كل ذلك فأنشأ في مسرحيته **الأم المذنبة** شخصية «**الدسَّاس**» الذي سمّاه في جناس تصحيفي (بعد تبديل الأحرف) بجارس.

هذه إباحية(١). يمكن أن نضاعف إلى ما لا نهاية الأمثلة من هذا النوع. وفي فرنسية، وفي المرحلة الأكثر أهمية من تاريخنا الحديث، ما من امرأة، باستثناء برونهو أو فريد يغوند(٢)، تألمت من الأخطاء الشعبية، مثل كاترين دي مديسي، بينما ماري دي مديسي، وجميع أعمالها كانت ضارة بفرنسة(٣)، قد أفلتت من العار الذي وجب أن يكتنف اسمها؛ فماري قد بددت الكنوز التي جمعها هنري الرابع، ولم تبرأ أبداً من ملامة درايتها بمقتل الملك، فقد كان **إبرنون خلّها الوفي**، وهو لم يتفاد البتّة ضربة رافيّاك وكان يعرف أنَّه لا يتورّع عن شيء، وقد اضطرت ابنها إلى نفيها من فرنسة، حيث شجعت ابنها الآخر غاستون على التمرّد، أخيراً فإن انتصار ريشليو عليها في **يوم المغبونين** لم يتمّ إلا بفضل ما كشفه الكردنيال

---

(١) كان بلزاك يعرف جيّداً القصاصين الايطاليين والفرنسيين القدماء أراد أن ينهج على أسلوبهم الفكه في **قصص ماجنة**، أما الملكة التي ورد ذكرها فهي مرغريت دي نافار أخت فرانسوا الأول، بالرغم من أن القصص المأساوية أكثر أهمية من القصص الماجنة في كتابها: «**هبتامرون**» أما صيغة الجمع فلعلها تفخيم بلاغي، إلا إذا كان بلزاك يتذكر المشهد اللطيف الوارد لدى برانتوم، حيث تبدو كاترين دي مديسي وليّة العهد آنذاك ونسيبتها مرغريت دي فرانس، دوقة ساڤوا المستقبلية وقد اهتمتا بكتابة قصص على نسق ملكة نافار: «لكنهما عندما اطلعتا على قصص الملكة، اغتاظتا من قصصهما وألقتاها في النار». أما بالنسبة للكردنيالات فإن هذا التلميح يبقى غامضاً، إذ ما من أحد منهم كتب قصصاً. وربما فكّر بلزاك ببندلو مطران آجن ومن محاسيب هنري الثاني الذي يمدحه بلزاك في اهداء «**المستخدمين**» وكذلك في «**الأهل الفقراء**» أو بآرتن الذي طمح إلى الكردنيالية.

(٢) أول استعارة من منتخبات لدرودورادية بعنوان «مذكرات تاريخية وأدبية وطرف عن ملكات فرنسة والوصيات على العرش - طبع امستردام ١٧٧٦ - وهو في ٦ أجزاء تختصر في «**طُرَف عن الملكات**» وهو يعتبر إلى جانب **سيرة الحياة العامة** لميشو من المصادر الرئيسية لهذه المقدمة.

برونهو (٥٣٤ - ٦١٣) ملكة أوسترازي إحدى ممالك الغوليين في فرنسة منافسة المملكة الأخرى نوسترية وعلى رأسها الملكة فريد غوند (٥٤٥ - ٥٩٧) زوجة الملك شيلبريك الأول.

عملت فريد غوند على قتل غالسونيت زوجة الملك شيلبريك الأول وأخت برونهو وحلت مكانها وقام صراع دموي بين برونهو وفريد غوند دمّر مملكتي ارسترازي ونوسترية ولم ينته إلا بعد موت فريد غوند وقتل برونهو على يد كلوتير الثاني ابن فريد غوند وملك نوسترية.

(٣) يتحدث بلزاك هنا عن مرحلة درسها في العام ١٨٣٠ عندما فكر بكتابة رواية تاريخية عن القرن السابع عشر بعنوان «الكردينالات الثلاثة» وليختصر دور ماري دي مديسي، لجأ إلى وثيقة منشورة من قبل لابلاس في الجزء الثاني من وثائق هامة.

للويس الثالث عشر من وثائق سريّة حول موت هنري الرابع، أما كاترين دي مديسي، فإنّها بعكس ماري، أنقذت تاج فرنسة، فحافظت على السلطة الملكية في ظروف لو تعرّض لها أي أمير كبير آخر لرزح تحت وطأتها، وعلى رأسها أطماع المتآمرين أمثال دي غيز وآل بوربون، ورجال من أمثال كردينالي اللورين، والبالافرنين، وأمراء كونده، والملكة جان دالبر، وهنري الرابع، والقائد دي مونمورنسي، وكالفن، وآل كولينيي، وتيودور دي بيز، مما ألزمها بأن تبدي أندر المزايا وأثمن مواهب رجل الدولة تحت وابل سخريات الصحافة الكالفينية فتلك هي وقائع محققة بالتأكيد، وهكذا فبالنسبة لمن ينقب في تاريخ القرن السادس عشر في فرنسة يبدو وجه كاترين دي مديسي كوجه ملك كبير. فما أن تبدّدت الافتراءات بالوقائع المهتدى اليها عبر تناقضات النقد والهجاء، والطرف المختلفة، حتى تجلّى كل شيء لعظمة تلك المرأة الفريدة التي لم تتأثّر بضعف جنسها، وعاشت عفيفة وسط غراميات البلاط الملكي الأكثر غزلاً في أوروبة[1]؛ وعرفت رغم نقص الأموال، أن تبني صروحاً تستحق الإعجاب، كأنها تريد أن تعوّض عن الخسارة التي سببها الكالفينيون الذين ألحقوا بالفن جروحاً لا تقل عن جروحهم للهيئة السياسية، وقد حصرت بين امراء يعتبرون أنفسهم ورثة شارلمان، وفرع آخ ثان متآمر أراد أن يدفن خيانة قائد البوربون تحت العرش؛ فاضطرّت لمحاربة هرطقة مستعدة لافتراس الملكية، وكانت بدون أصدقاء ولاحظت الخيانة في صفوف الحزب الكاثوليكي، والجمهورية في الحزب الكالڤني، فاستخدمت السلاح الأكثر خطراً، لكنه الأكثر يقيناً في السياسية وهو البراعة! فعزمت على أن تلعب على التوالي ورقة البروتستانيتين الاصلاحيين، راديكاليي ذلك الزمن، الذين يحلمون بجمهورية مستحيلة، مثل، أبناء زمننا هذا الذين ليس لديهم شيء

---

(١) إن هجّائي القرن السادس عشر ينسبون إليها، بالعكس، عدة علاقات حميمة، ودرو دو راديه في كتابه «طرف عن الملكات – المنشور في امستردام ١٧٧٦» ينسب إليها ميلاً إلى الغزل، لكن لتور في كتابه «التاريخ العام ١١ جزءاً طبع لاهاي ١٧٤٠» هو المعتمد من قبل بلزاك وفي رأيه أنها «كانت مترفعة عن الحبّ الجسماني، ومنصرفة بشكل كلّي إلى مشاريعها الكبيرة الهامة».

يصلحونه. وهكذا تمكّن آل فالوا من الاحتفاظ بالعرش طيلة حياتها. «وتُو» المؤرخ الكبير، فهم تماماً قيمة تلك المرأة فهتف عند موتها: «إنّها ليست امرأة، إنّها الملكية التي عانت الموت»[1] والواقع أن الإحساس بالملكية كان في أعلى درجاته لدى كاترين، فدافعت عنها بشجاعة وثبات يستحقان الإعجاب، والملامات التي يوجهها اليها الكتاب الكالفنيون، كانت بداهة أسس مجدها، وقد تحمّلتها من أجل انتصاراتها. وهل يكون النصر إلا بالخدعة؟

المسألة كلها هنا، أما موضوع العنف فهذه الوسيلة تتعلق بإحدى النقاط الأكثر قابلية للجدل في السياسة، والتي حلَّت في عصرنا وسط الساحة التي وضعت فيها صخرة كبيرة من مصر للعمل على نسيان قتل الملك[2]، ولعرض شعار النظام الحالي للسياسة المادية التي تحكمنا وقد جرى حله في الأديرة والكرمليات وجرى حله على درجات سان روش وجرى حله؛ أمام اللوفر في العام ١٨٣٠، مرة أخرى من قبل الشعب ضد الملك، كما جرى حله بعد ذلك من قبل أحسن الجمهوريات. وقام به لافاييت ضد الفتنة الجمهورية في سان مرّي وشارع ترانسنونيان[3] فعلى نظام شرعيّ أو لا شرعي أن يدافع عن نفسه عندما يتعرض للهجوم، لكن الشيء الغريب هو أنّه حين يحقق الشعب على النبالة انتصاراً بطولياً، فإن السلطة تعتبر مجرمة في صراعها مع الشعب؛ أما إن سقطت أخيراً

---

(١) يبدو أن هذا القول ليس لتو، وإنما هو ذكرى شاهدة قبرها وقد كتب عليها إيتين باسكية بيتين من الشعر ذكرهما درو دو راديه في «طرف عن الملكات: الجزء الرابع»

«وبموتها أخشى، يا شعب فرنسة
«أن تكون برقدتها قد ماتت الملكية»

(٢) إشارة إلى المسلّة المصرية التي وضعت وسط ساحة الكونكورد حيث أعدم لويس السادس عشر.

(٣) يسرد بلزاك هنا «حوادث العنف» المرتكبة من قبل الأحزاب المختلفة: في ١٧٩٢ ضد الكرمليات والأديرة من قبل متطرفي الثورة الجبليين؛ في ١٧٩٥ من قبل الترفيدوريين في مواجهة التمرّد الملكي والتي انتهت إلى سحقها أمام كنيسة سان روش (أخذ هذا المشهد مكانه في رواية **سيزار بيروتو**)، في العام ١٨٣٠ من قبل «الشعب ضد شارل العاشر، في ١٨٣٢ و١٨٣٤ في مواجهة الفتن الجمهورية ضد حكومة لويس فيليب. وقد اعتبر لافاييت أثناءها أن لويس فيليب مثَّل «أفضل الجمهوريات».

بعد لجوئها إلى القوة فإنها تعتبر سلطة حمقاء. إن الحكومة الحالية حاولت بقانونين اثنين أن تنقذ نفسها من ذات الشرّ الذي أصاب شارل العاشر، والذي أراد ذلك العاهل أن يتخلص منه بقرارين؛ أليس في ذلك سخرية مرّة؟ فهل يُسْمح للسلطة بالمكر ضد من يمكرون بها؟ وهل عليها أن تقتل الذين يريدون قتلها؟ إن مذابح الثورة جاءت رداً على مذابح سان بارتلمي[١]، والشعب، وقد غدا ملكاً فَعَلَ بالنبالة والملك ما فعله الملك والنبالة بمتمردي القرن السادس عشر؛ وهكذا فإن الكتاب الشعبيين، الذين يعرفون جيّداً، أن الشعب عند أحداث كهذه، سيقوم بالتصرف ذاته، لا عذر لهم عندما يلومون كاترين دي مديسي وشارل التاسع. إن كل سلطة كما قال كازيمير پريه، بتعلّمها كيف تكون السلطة، هيْ تواطؤ مستمر[٢] إننا نبدي الإعجاب بالحِكم المعادية للمجتمع التي يطلقها كتاب جريئون، فلماذا إذا السخط الذي يبدو في فرنسة على الحقائق الاجتماعية التي يُنادى بها بجرأة؟ هذا السؤال يفسّر وحده جميع الأخطاء التاريخية. طبّقوا حلّ هذا الطلب على المذاهب المدمّرة التي تطري الأهواء الشعبية وتتملقها، وعلى المذاهب المحافظة التي تكبح المبادرات الهمجية أو المجنونة في الشعب، تجدوا السبب لعدم شعبية، بعض الشخصيات أو شعبيتها. فقد كان لوباردمون ولافماس مثل بعض أشخاص أيامنا هذه، مخلصين في الدفاع عن السلطة التي يؤمنان بها[٣]، والجميع يخضعون للملكية

---

(١) تلميح إلى ما ورد في خطاب كاترين دي ديسي في **الحلمين** (القسم الثالث من الرواية).

(٢) يصعب تفسير هذه العبارة!» هل يتعلق الموضوع بسياسة كازيمير پريد بعد ١٨٣٠ عندما أصبح وزيراً ثم رئيساً للوزراء هل قصد في مواجهة حلفاء الأمس الذين لاموه على عدم فهم الحركة الاصلاحية أن يبرهن أن حكومته ستكون في آن واحد حرّة ونظامية، وانها ستحترم «مبادىء ثورة تموز» أي «مقاومة تعدّي السلطة» و«واحترام اليمين الذي أقسمه» إذ لا نتصوّر التصريح بحكمة هي أقرب إلى المبادىء المكياڤلية.

(٣) كان كلاهما من «الأتباع» المخلصين والمؤمنين بوجهات نظر ريشليو وقد عملا كمحققين وحكمين في القضايا التي كلفا بها، وكانا مندوبين مطلقي الصلاحية من السلطة المركزية. وكان لافماس يكلف بالتحقيقات في القضايا السياسية أما لوباردمون فقد خصّص للقضايا الدينية وخاصة قضية أوربان غراندية وراهبات لودون.

ما سواء كانوا جنوداً أو قضاة. لو كان دورتز[1] في أيامنا هذه لأقيل من منصبه لتجاهله أوامر وزيره وقد أبقاه شارل التاسع في منصبه حاكماً لمنطقة. إن سلطة الجميع لا تحسب حساباً لأحد، أما سلطة الفرد فهي مضطرة لأن تحسب حساب الرعايا، الكبار منهم أو الصغار على حد سواء.

لاحظت كاترين، ومثلها فيليب الثاني ودوق دالب، ومثلها آل غيز والكردينال غرانفل، لاحظوا جميعاً المستقبل الذي يدّخره «الاصلاح» لأوروبة، فرؤوا الملكيات، والدين، والسلطة تتقوّض كلّها! فكتبت كاترين سريعاً من عمق مكتب ملوك فرنسة قراراً بالموت ضد هذا التفكير التجريبي الذي يهدّد المجتمعات الحديثة، وهو قرار آل إلى التنفيذ بواسطة لويس الرابع عشر. ولم يكن نقض براءة نانت تصرفاً سيئاً[2]، إلا بسبب سخط أوروبة على لويس الرابع. ولو أن الأمر حدث في زمن آخر لما شجعت انكلترة وهولندة والامبراطورية الجرمانية المنفيين الفرنسيين في تلك البلدان ولما حضّت على الثورة في فرنسة.

لماذا نرفض حتى أيامنا هذه، على العدوَّة الجليلة لأكثر الهرطقات عقماً، العظمة التي كسبتها من صراعها معها بالذات؟ كتب الكالفينيون كثيراً ضد

---

(١) أدريان داسبرمون فيكونت دورتز، حاكم بايون، غداة يوم مذبحة سان بارتلمي، رفض تنفيذ أمر الملك بقتل البروتستانت في مدينته، رغم الرسائل الملكية الصريحة الموجهة إليه وقد ردّ عليها: «يا سيّدي، عممت أمر جلالتكم على أفراد حاميتي والمحاربين لديّ، فلم أجد بينهم إلا المواطنين الصالحين والجنود الشجعان، لكنني لم أجد فيهم جلاّداً واحداً.

(٢) براءة نانت: براءة منحها هنري الرابع في ٣ نيسان ١٥٩٨ لتنظيم الشرط القانوني للكنيسة البروتستانية في فرنسة وبموجبها أصبح الكالفينيون أحراراً في ممارسة شعائرهم الدينية في الأمكنة المسموح لهم بها، كما اعتبروا من الناحية الحقوقية هيئة منظمة يتقاضون أمام محاكم نصف أعضائها منهم، ومنحوا كامل الحقوق السياسية، كما ضمنت لهم من الناحية العسكرية مئات الأمكنة الآمنة لمدة ثمان سنوات.

لكن لويس الرابع عشر نقض هذه البراءة، ببراءة معاكسة صدرت في فونتنبلو في ١٨ تشرين أول ١٦٨٥ ألغى بموجبها جميع الامتيازات الممنوحة للبروتستنت وحظّر عليهم الاجتماعات العامة، وكان من نتائجها أن هُدِمت معابدهم واضطر ١٠٠ - ٣٠٠ ألف بروتستنتي فرنسي إلى الهجرة إلى سويسرة وألمانية. (ملاحظة من المترجم).

مكَرْشارلِ التاسع، لكن بالتجوّل في فرنسة، وبالتعرف على دمار العديد من الكنائس المَهدّمة، وبقياس الجروح الهائلة التي سببها البروتستانتيون للجسم الاجتماعي، وبإدراك حجم الانتقامات التي نفّذوها، وبالتأسّف على نكبات الفردية، نرى أن ندرة جرح فرنسة الحالي كافية في قضايا حرية المعتقد التي أثيرت من قبلهم، ولتساءلنا حينئذ في أي طرف يقبع الجلادون؟

لقد قالت كاترين في القسم الثالث من هذه الدراسة[1]: «هناك للأسف كتاب منافقون في جميع العصور مستعدون للبكاء على مئتي لئيم قتلوا في الوقت المناسب». لو كان لقيصر، وهو يجرب أن يستدر شفقة مجلس الشيوخ على حزب كانلنيا، صحف ومعارضة تمتثل لأوامره، لتمكن على الأرجح من الانتصار على شيشرون.

اعتبار آخر يفسر السخط التاريخي والاجتماعي على كاترين. فالمعارضة كانت دائماً بروتستانتية، لأنها لم تكن لها من سياسة إلا **الرفض**؛ وقد ورثت نظريات اللوثريين، والكالفنيين، والبروتستانت حول كلمات الحرية والتسامح والتقدّم والفلسفة، الرهيبة. وقد لزم لمعارضي السلطة انقضاء قرنين من الزمن لإقامة مذهب **حرية الاختيار** المريب، كما لزم مرور قرنين آخرين لبسط أول لازمة في حرية الإختيار، وهي حرية المعتقد ويسعى قرننا الحالي لأن يقيم اللازمة الثانية وهي الحرب السياسية. نادت كاترين والكنيسة بعد الشوط الذي قطعتاه والشوط المتبقي لهما بالمبدأ الشافي للمجتمعات الحديثة: **إيمان واحد، ورب واحد**[2]، مع استخدام حقهما في حياة وموت المبتدعين، وحتى لو لم تنجح، فإن الأجيال اللاحقة حكمت بصواب رأي كاترين؛ فناتج حرية الاختيار، والحرية الدينية والحرية السياسية (دون الالتباس مع الحرية المدنية) هي فرنسة الوقت الحاضر، ما هي فرنسة

---

(١) في الحُلُمين.

(٢) «لكم ربٌّ واحد، وإيمان واحد» هذه فقرة من رسالة القديس بولس إلى كنيسة أفسس (٤, ٦) وهذه الدعوة إلى وحدة المسيحين أصبحت منذ القرن الخامس عشر شعاراً سياسياً، وفي العام ١٨٣٠ وفي **الحلمين**، جعلها بلزاك على فم كاترين، وباسم هذا المبدأ ما فتىء يدين الاصلاح الديني وجميع ما يترتب عليه من نتائج.

١٨٤٠ . بلاد مهتمّة حصراً بالمصالح المادية، دون وطنية، ودون معتقد حيث السلطة دون قوة؛ وحيث الانتخابات وهي ثمرة حرية الاختيار، والحرية السياسية، لا ترفع إلا قليلي الذكاء، وحيث القوة الوحشية أصبحت ضرورية ضد أحداث العنف الشعبية، وحيث الجَدَل الممتد إلى أتفه الأشياء يخنق كل فعالية للهيئة السياسية، والمال يسيطر على كل الامور، والفردانية وهي الناتج الرهيب لتقسيم المواريث إلى ما لا نهاية، تلغي العائلة، وتفترس كل شيء، حتى الأمّة التي ستسلمها الأنانية يوماً ما إلى الاجتياح. قد يقال «لماذا ليس القيصر؟» وكأن هذا يمثل قول: «لماذا ليس دوق أورليان؟» لم يعد الاهتمام منحصراً بأشياء كبيرة، وخلال خمسين سنة، قد لا يعود الإنسان مهتماً بشيء.

هكذا بالنسبة لكاترين، وبالنسبة لجميع من يؤمن بمجتمع جيّد التنظيم، فإن **الإنسان الاجتماعي**، الرَعْيّة، ليس له حرية اختيار، وينبغي أن لا يجاهر بمبدأ حرية المعتقد أو أن تكون له حرية سياسية، أمّا وليس من مجتمع يمكن أن يقوم بلا ضمانات تعطى للرَعْيّة ضد الحاكم، فحريات الرعية **تغدو** خاضعة للقيود. فالحرية مرفوضة، لكنّ الحريات مقبولة على أن تكون حريات محدّدة وممّيزة. فهذا ملائم لطبيعة الأشياء وهكذا فمن المؤكّد أن يغدو خارجَ القدرة البشرية منعُ حرية التفكير؛ وما من حاكم يستطيع أن ينتزع الأموال؛ والسياسات الكبرى التي قهرت في هذا الصراع (وقد دام خمسة قرون) اعترفت لرعاياها في هذا المجال بحريات كبيرة، لكنها لم تقبل بحرية نشر أفكار معادية للمجتمع، ولا بحرية غير محددة للرعية. فبالنسبة لها **رَعِيَّة وحرٌ** هما في السياسة تعبيران يتناقضان، كذلك فإن تعبير «المواطنين **الأحرار جميعاً**» يشكّل لغواً تكذّبه الطبيعة في كل لحظة، إن الاعتراف بضرورة الدين، وبضرورة السلطة، وبأن يترك للرعايا حق إنكار الدين ومهاجمة العبادة، ومعارضة ممارسة السلطة بالكلام العلني الذي يمكن تبليغه وتعميمه بالفكر، هي أمور مستحيلة لا يريدها كاثوليكيو القرن السادس عشر أبداً. للأسف! فإن انتصار الكالفنية سيكلّف فرنسة غالياً بل أكثر مما كلفتها مبادئها حتى الآن، لأن البدع الدينية والسياسية، والإنسانية، والمساواتية، الخ . . . هي ذيول للكالفنية.

وبرؤية أخطاء السلطة، وازدرائها للعقل، وحبها للفوائد المادية حيث تريد أن تثبت نقاط ارتكازها، وهي الأكثر خداعاً من جميع الوسائل إن لم يقيّض لها عونٌ الهي؛ فإن عبقرية الهدم ستتغلب من جديد على عبقرية الصيانة والبقاء؛ أما المهاجمون، وليس لديهم شيء يخسرونه، فيطمحون إلى أن يربحوا كل شيء، وهم متفاهمون بشكل يثير العجب، بينما خصومهم الأغنياء لا يريدون القيام بأيّة تضحية، من مالهم أو كرامتهم ليكسبوا تعلّق المدافعين عنهم[١].

جاءت المطبعة لتساعدالمعارضة التي بدأت مع الغودويين[٢] والآلبيين[٣]، فما أن تخلّص الفكر البشري من ضرورة التركيز ليبقى بالشكل الأكثر امكاناً للانتشار، حتى ارتدى العديد من الألبسة، وغدا معبراً عن الشعب نفسه، بدلاً من أن يبقى معبراً عن البديهات بشكل الهي نوعاً ما ووجب الصراع ضد تعدديتين: تعددية الأفكار، وتعدديّة البشر، وناءت السلطة الملكية بتلك الحرب، ونحن نشهد في أيامنا هذه في فرنسة آخر تركيبة لها مع عناصر تجعلها في موقف صعب، إن لم نقل في وضع مستحيل. إن السلطة فعالية ومبدأ الانتخاب جدل، ولا وجود لسياسة ممكنة مع جدل مستمر. فعلينا بالتالي أن نقدّر عالي التقدير المرأة التي عرفت كيف تخمن هذا المستقبل وتصارعه ببسالة. وإذا كان لآل بوربون أن يخلفوا آل ڤالوا

---

(١) هذا النقد الموجّه للملكية تموز صاغه بلزاك أكثر من مرة وبتعابير متقاربة: فقد وجهه منذ العام ١٨٣٢ في طبيب الريف كما وجهه في العام ١٨٤٠ في مقال في المجلة الباريسية (مقال «حول العمال» بتاريخ ٢٣ آب ١٨٤٠، ثم في الأشهر التي سبقت أو تبعت انشاء هذه المقدمة، في فصل من رواية كاهن القرية بعنوان «ثورة تموز وتقييمها في مونتنياك» وفي مقدمة الملهاة الإنسانية، وفي مذكرات زوجتين شابتين. . .
لعل ذلك كان فاتحة لمنهج يجرّب فيه من جديد أن ينخرط في الحياة السياسية النشطة.

(٢) الغودويون: أعضاء طائفة مسيحية تأسّست في ليون العام ١١٧٩ من قبل بيير ڤالدو تؤمن بالتوراة كإيمانها بالإنجيل وقد انتشرت في وديان جبال الألب ثم اندمجت بالكالفنية في القرن السادس عشر (ملاحظة من المترجم).

(٣) الآلبيون: أعضاء طائفة آمنت بالمانوية الفارسية وانتشر أعضاؤها حول مدينة آلبي جنوب فرنسة في القرن الثاني عشر، وقد أمر البابا إينوسنت الثالث بشن حملة صليبية عليها في العام ١٢٠٩ كان من جرائها إثارة الفوضى والنهب في بزيه، وكاركاسون وانتهى أمر هذه البدعة بعد تدمير مونسغور في العام ١٢٤٤ (ملاحظة من المترجم).

ويجدوا تاجاً يرثونه فالفضل في ذلك يعود إلى كاترين دي مديسي. لنفترض أن النديب الثاني[1] قد تمرَّد، فأياً كانت قوة البيارني[2]. يبقى من المشكوك فيه أن يتمكن من الاستيلاء على التاج، دون النظر كم يكلف غالياً الثمن المتوجب تسديده لدوق مايين ولمن بقي من حزب دي غيز.

ليست الوسائل الضرورية التي استخدمتها كاترين، التي عليها أن تلوم نفسها على موت فرانسوا الثاني، وعلى موت شارل التاسع وقد حدث كلاهما في الوقت المناسب لانقاذها[3]، هي، كما تلاحظون، هدف اتهامات الكتاب الكالفنيين والحديثين. فإن لم يكن هنالك تسميم، كما قال الكتاب الرصينون، كانت هنالك ترتيبات أكثر جرميّة، فما من شك في أنها منعت پاره من إنقاذ الأول، وأنّها انزلت بالثاني قتلاً معنوياً بالتقسيط. إن سرعة موت فرانسوا الثاني، والمهارة التي تمتّ بها ميتة شارل التاسع لم تضر البتة بمصالح الكالفانيين، إن أسباب هذين الحدثين تكمن في مستوٍ عال، ولم يشتبه بها كتاب ذلك العصر ولا أناسه، ولم يحزرها إلا أمثال دى تو ولوسبيتال[4] والعقول الأخرى الأكثر سمواً، أو زعماء الحزبين المدافعين عن التاج أو الطامعون فيه، الذين يجدون الوسائل الضرورية لذلك. إن الأغاني الشعبية تهاجم، وهذا أمر غريب. عادات كاترين؛ ونحن نعرف طرفَة ذلك الجندي في مركز حراسة قصر تور وهو يشوي أوّزة أثناء اجتماع بين كاترين وهنري الرابع، وراح الجندي يترنم بأغنية تنتقص من الملكة بمقارنتها بمدفع من أكبر عيار يملكه الكالفنيون. واستل هنري الرابع سيفه ليقتل الجندي، لكن كاترين أوقفته واكتفت

(١) هو ابن الدوق دي غيز، وأطلق عليه هذا اللقب بسبب أثر جرح في الوجه كوالده (المترجم).

(٢) لقب يطلق على الكونت سيّد مقاطعة بيارن في البيرنيه، وعاصمتها پو، وكانت تتمتع بشبه استقلال ذاتي حتى بعد أن ضمت لفرنسة في العام ١٦٢٠ (المترجم).

(٣) تلميح إلى معارضة الملكة للعملية الجراحية التي أراد امبرواز پاره إجراءها لإنقاذ فرانسوا الثاني مما سيرد ذكره في رواية «الشهيد الكالفني» وكذلك إلى تشجيعها لشارل التاسع على حياة التهتّك بعد أن لاحظت رغبته بالحدّ من تدخّلها في شؤون الحكم.

(٤) دي تو: رئيس مجلس طبقات الشعب. ولوسبيتال رئيس السلطة القضائية (المترجم).

بأن صاحت بالجندي الشاتم: «ويحك! إن كاترين هي التي أعطتك الأوزة[١]!».

وإذا كانت إعدامات آمبواز قد نسبت إلى كاترين، وإذا كان الكالفنيون قد جعلوا من تلك المرأة السامية المسبّب الرئيس لجميع النكبات المحتومة في ذلك الصراع، فقد اعتبرت كما اعتبر فيما بعد روبسبيير[٢] الذي يبقى الحكم عليه للتاريخ. فيما عوقبت كاترين بقسوة لتفضيلها دوق آنجو[٣] الذي كان أطوع لها من أخويه الأكبرين، وما إن وصل إلى العرش باسم هنري الثالث، حتى أظهر كجميع الأبناء المدلّلين لا مبالاة كبرى تجاه أمه، وغرق إرادياً في فجور جعل منه مثيلاً لما جعلته أمه من شارل التاسع، زوجاً من دون ولد، وملكاً من دون ورثة. وللأسف فدوق ألنسون وهو آخر ولد ذكر لكاترين مات ميتة طبيعية. وقد قامت كاترين بجهود خارقة لمكافحة أهواء ابنها، إنّما حفظ التاريخ ذكرى عشاء النساء العاريات الذي أقيم في قاعة قصر شنونصو عند العودة من بولونية وهو يشير إلى أن هنري الثالث استمر في عاداته السيئة[٤]. لّخصت الكلمة الأخيرة لتلك الملكة الكبيرة سياستها، وهي منسجمة مع الموقف الحازم الذي تأخذ به جميع الحكومات في ظروف مماثلة.

---

(١) الواقع أن الأمر يتعلق بطرفتين متميزتين ذكرتا في كتاب «**طُرَف عن الملكات**» الأولى تتعلّق باللقب وتفسره بتلميح لمدفع مركز الحراسة. والثانية بجنديين يغنيان أغنية مقذعة وهما يشويان أوزّة، وقد ذكرهما درو دو راديه ليبرهن أن كاترين دي مديسي تتذوّق النكتة. ودمجهما بلزاك في حكاية واحدة، وبدّل المنظور لكنه لم يصحّح تاريخ الواقعة فليس هنري الرابع هو الذي هدّد الجنديين، إذا أن الواقعة في العام ١٥٦٢ وهنري آنذاك في التاسعة من عمره. إنما المهدّد والده أنطوان دي بوربون ملك نافار.

(٢) المقارنة تعود إلى **الحلمين**، وكذلك إلى التلميح إلى روبسبيير في **الشهيد الكالفني** وصورة روبسبيير المهتم بالنظام والوحدة قد رسمها لوران السان سميوني «**تفنيد كتاب الأب دي مونغايار ١٨٢٨**» ومن قبل نوديه في مقالاته في **مجلة باريس** (نيسان وأيلول ١٨٢٩).

(٣) في العام ١٨٣٦ وفي سرّ الروجيريين رفض بلزاك هذا التفضيل ليبرز كاترين كملكة لا هوى لديها إلا السياسة، وحافظ على هذا الرأي عند دمج أقسام هذه الرواية رغم هذه العبارة في المقدّمة.

(٤) الطرفة شهيرة، لكن النيّة المنسوبة إلى كاترين تبدو من ابتكار بلزاك. فمزِراي الذي يتحدث عن هذا المشهد يرى في هذا العشاء «حيث كانت أجمل نساء البلاط نصف عاريات وقد استخدمن للخدمة على الموائد والصدور عارية والشعور متناثرة كالعرائس» مثالاً معبّراً عن بذخ البلاط وعن إسراف الملكة الوالدة (من كتاب تاريخ فرنسة - ١٦٤٣ - ١٦٥١).

فعندما جاء هنري الثالث إلى قرب سريرها وهي على فراش الموت ليعلن لها أن عدو التاج قد قتل، قالت: التفصيل جيّد، يا ولدي، والآن يجب إعادة الخياطة[١]، وهي تقصد بذلك أن على العرش أن يتصالح سريعاً مع بيت اللورين ويستغلّهم، وهذه هي الطريقة الوحيدة لمنع تأثيرات حقد آل غيز، وذلك بأن يخلق لديهم الأمل بإمكان توثيق روابطهم مع الملك، لكن هذا المكر المستمر للمرأة ولإيطالية الذي اعتمدت عليه باستمرار كان يتناقض مع الحياة الشهوانية لهنري الثالث. فما إن ماتت الجدّة (**أم الجيوش**) حتى ماتت سياسة آل فالوا.

قبل المباشرة بكتابة تاريخ الطبائع السائدة، حرص مؤلّف هذه الدراسة على أن يتابع بأناة ودقة أهم العصور الملكية في تاريخ فرنسة، وصراع البورغونيين والآرنياك، وآل غيز وآل ڤالوا، وقد احتل كل صراع قرناً كاملاً، وكان هدفه أن يكتب تاريخ فرنسة الجذاب[٢]. وكانت ايزابيل دي بافارية، وكاترين وماري دي مديسي، نسوةً ثلاثاً يشغلن مكانة كبيرة في هذا التاريخ الممتد بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر وينتهي بلويس الرابع عشر؛ كانت كاترين بين هذه الملكات الثلاث أجملهن وأكثرهن إثارة للاهتمام. كانت هيمنة رجولية لا تعيبها الغراميات الرهيبة لإيزابيل، ولا تلك الأكثر رهبة، رغم أنها أقل شهرة لماري دي مديسي، وقد استدعت ايزابيل الانكليز إلى فرنسة ضد ابنها، وأحبَّت دوق أورليان، أخا زوجها، وبوابوردون. وحساب ماري دي مديسي كان أفدح لكن لا هذه ولا تلك لديها العبقرية السياسية. في هذه الدراسات، وفي تلك المتوازيات توطّدت قناعة المؤلّف بعظمة كاترين، وبإلمامه بالصعوبات المتجددة في وضعها، اكتشف

---

(١) تلميح إلى مقتل هنري دي لورين، دوق دي غيز، في بلوا، في ٢٣ كانون أول ١٥٨٨، وماتت كاترين في ٥ كانون ثاني ١٥٨٩، وهذا القول مأخوذ من «طرف الملكات» وكذلك لقب «أم الجيوش» الذي يلي ذلك.

(٢) عدا الملاحظات والشذرات بقيت بيبلوغرافية معدة من قبل بلزاك عن ملكية شارل السادس والقرن السادس عشر، كما أن بلزاك في العام ١٨٢٤ كان يخطط لرواية تصف صراع البورغونيين والارنياك وهي بعنوان «**المفصول**» كما أن في فاتحة **الثوار الملكيين**» تحدث عن سعة قراءاته في العام ١٨٢٨.

كم كان المؤرخون، وقد تأثّروا جميعاً بالبروتستانت، غير منصفين حيال تلك الملكة، وقد بقيت لديه النظرات الإجمالية الثلاث التالية وهي: تصارع بعض الآراء الخاطئة عنها، وعن الشخصيات المحيطة بها، وعن شأن عصرها. وإذا كان هذا المؤلَّف قد أُدرج بين **الدراسات الفلسفية** فلأنه يظهر روح عصر[١]، ويرى فيه بوضوح تأثير الفكر؛ لكن قبل الدخول في الحلبة السياسية حيث تُرى كاترين في صراع مع الصعوبتين الكبريين في مسيرتها، من الضروري أن نعرض ملخصاً عن حياتها السابقة، أعدّ من وجهة نظر نقد متجرّد لتمكن الإحاطة بالمجرى شبه الكامل لهذا الوجود الواسع والملكي حتى الفترة التي يبدأ فيها القسم الأوّل من هذه الدراسة.

لم يكن في أي زمن قط، وفي أي بلاد، وفي أيّة عائلة مالكة، احتقار **للشرعية** مثل الاحتقار السائد في عائلة مديتشي الشهيرة (واسمها يلفظ في فرنسة مديسي)، فلديها بالنسبة للسلطة ذات المبدأ الذي يسود حالياً في روسية: كل زعيم يصل إلى العرش، يغدو هو الحقيقي، وهو الشرعي؛ وقد كان ميرابو على حقّ عندما قال: «ليس في عائلتي إلا زواج واحداً غير متكافىء، هو زواج آل مديسي[٢]». إذ بالرغم من جهود النسّابين الأجراء، من المؤكّد أن آل مديسي كانوا قبل آفرار دي مديسي القاضي البلدي في فلورنسة، العام ١٣١٤، تجاراً بسطاء غدوا أغنياء جداً. وأوّل شخصية من تلك العائلة بدأت بإشغال مركز عام في تاريخ الجمهورية التوسكانية هو سلفسترو دي مديسي وقد غدا قاضياً بلدياً في ١٣٧٨، ووُلِدَ له ولدان كوسم ولوران دي مديسي.

من كوسم تحدّر لوران البديع، ودوق نمور، ودوق أوربن وهو والد كاترين،

---

(١) في العام ١٨٤٠ وضع بلزاك هذه القاعدة: «هدف الرواية التاريخية أن تعبّر عن روح عصر وتبرز منه المغزى الفلسفي.

(٢) هنا تبدأ الاستعارات من «السيرة الشاملة» للويس غابرييل ميشو، حيث أخذ منها كل الشرح عن آل مديسي والعلاقات المتغيّرة بين كلمنت السابع وشارل كنت، ونزوة ميرابو مستخلصة من المقال الأوّل عن سلفسترو دي مديسي وهي منسوبة إلى ميرابو الأب.

والبابا ليون العاشر، والبابا كلمنت السابع، والكسندر وهو ليس دوق فلورنسة فقط كما قيل، وإنما دوق «دلاستيا دي پينا» وهو لقب منحه إياه البابا كلمنت السابع كتوجّه إلى لقب دوق توسكانية الأكبر.

ومن لوران تحدّر بروتوس الفلورنسي، ولورنزنيو الذي قتل الدوق الكسندر، وكوسم أول دوق أكبر، وجميع أمراء توسكانية حتى العام ١٧٣٧ العصر الذي انطفأ فيه هذا الفرع. لكن ما من أحد من هذين الفرعين؛ فرع كوسم، وفرع لوران ساد بشكل خط مباشر مستمر، حتى الفترة التي خضعت فيها توسكانية لوالد ماري دي مديسي، وبدأ كبار دوقاتها يتتابعون بشكل طبيعي. هكذا فإن الكسندر دي مديسي الذي حصل على لقب «دلاستيادي پينا» والذي قتل من قبل لورنزنيو كان ابن الدوق أوربن والد كاترين ومن أَمَة مغربية. وهكذا كان للورنزينو الابن الشرعي للوران حق مضاعف في قتل الكسندر كمغتصب في العائلة وكمضطهد للمدينة كما أن بعض المؤرخين يعتقدون أن الكسندر كان ابناً لكلمنت السابع؛ وما دفع إلى الاعتراف بهذا الابن السفاح رئيساً للجمهورية ولعائلة مديسي هو زواجه من مرغريت دوتريش ابنة شارل كنت غير الشرعية.

رضي فرنسوا مديسي زوج بيانكا كاپلو بولد اشترته تلك الڤينيسية من أوساط الشعب ابناً له، والشيء الغريب أن فرديناند عندما خلف فرنسوا ثبّت لهذا الولد حقوقه، وهذا الولد المسمى دون انطوان دي مديسي اعتبر خلال أربعة عهود من السيادة، وكأنّه من العائلة، واكتسب ودّ كل واحد منها وقدّم خدمات كبيرة لها؛ فكان موضع أسف الجميع. كان لجميع آل مديسي الأوائل أولاد سفاح، وكانت حظوظهم طيّبة، وهكذا فإن الكردينال جول دي مديسي الذي أصبح بابا باسم كلمنت السابع كان ابناً غير شرعي لجوليان الأول، كما أن الكردينال هيبوليت دي مديسي كان أيضاً ابن سفاح وكاد أن يصبح بابا وزعيماً للعائلة.

إن بعض هواة الطرف يدّعون أنّ الدوق أوربن والد كاترين قال لها: «إن الفتاة الذكيّة تعرف دائماً كيف ترزق بأولاد» وذلك بشأن تشوّه خلقي لدى هنري خطيبها، والابن الثاني لفرنسوا الأول. والحال أن لوران دي مديسي الثاني، دوق

أوربن، ووالد كاترين، تزوّج للمرة الثانية في العام ١٥١٨، مادلين دلاتور دوفري، وتوفي في ٢٨ نيسان ١٥١٩ بعد عدة أيام فقط من وفاة زوجته التي قضت أثناء وضع ابنتها كاترين؛ إذاً فكاترين غدت يتيمة الأبويين منذ أن رأت النور. من هنا المغامرات الغريبة في طفولتها الممتزجة بصراعات الفلورنسيين الدامية الذين يريدون استرداد حريتهم من آل مديسي الهادفين إلى السيطرة على فلورنسة مع توخي منتهى الحذر، حتى أن والد كاترين كان يحمل لقب دوق أوربن. وبعد موته غدا الزعيم الشرعي لآل مديسي البابا ليون العاشر الذي حكم فلورنسة بواسطة هذا الابن غير الشرعي لجوليان. جول دي مديسي وكان آنذاك كردينالاً. كان ليون العاشر عم والد كاترين، أما هذا الكردينال جول، وقد غدا البابا كلمنت السابع، فلم يكن إلا عمها البعيد - عم اليد اليسرى[١]، أو ما أطلقه برانتوم[٢] على هذا البابا بسخرية: **عم في نوتردام**. وخلال حصار آل مديسي لفلورنسة للدخول إلى المدينة احتجز الحزب الجمهوري كاترين، وكانت في التاسعة من عمرها، في دير، بعد أن جرّدوها من جميع أملاكها، وأرادوا، بناءً على اقتراح من رجل يدعى باتيست سي، أن يضعوها بين فتحتي رمي قذائف مدفعية؛ بينما ذهب برنار كاستيغليون إلى أبعد من ذلك في مجلس عقد ليبحث ويبت في هذه القضية، فارتأى بدلاً من تسليم الفتاة إلى البابا المطالب بها أن تسلّم إلى الجنود ليلحقوا بها العار[٣]. وهكذا نرى أن جميع الثورات الشعبية تتشابه. كما نرى أن سياسة كاترين التي شجعت بقوة هيمنة السلطة الملكية، يمكن أن تكون قد تأثّرت بمثل تلك المشاهد التي تتذكرها دون شك بنت إيطالية وإن كانت في التاسعة من عمرها.

كانت لا شرعية محتد الكسندر دي مديسي بذاتها سبباً لارتقائه، فقد دعمه البابا كلمنت السابع الابن اللاشرعي بدوره كما دعمه الامبراطور شارل كنت بدافع حبّه لابنته اللاشرعية أيضاً مرغريت. وهكذا كان دافع واحد يحفّز البابا

(١) يتضح المعنى حين نعلم أنهم يقولون بالفرنسية: «زواج اليد اليسرى»، على زواج المتعة.

(٢) ذكر برانتوم هنا استناداً إلى كتاب «**طرف الملكات**».

(٣) استعارة مستمدة بالحرف تقريباً من «**طَرَف** الملكات».

والامبراطور، في ذلك العصر كانت البندقية تسيطر على التجارة في العالم، وكانت رومة تحكمه معنوياً، وإيطالية تسوده بشعرائها وقادتها ورجال الدولة الموعودين فيها؛ فلم ير في أيّ زمن تجمّع عدد من العباقرة في بلد واحد بمثل تلك الوفرة والإثارة للفضول. كانوا كثُراً حتى أقلّ الأمراء اعتبر من كبار الرجال. كانت إيطالية تعجُّ بالمواهب، والجسارات، والعلوم، والأشعار والثروات، والعلاقات الغرامية، رغم تمزقها بالحروب الأهلية، وأنها ملتقى الغزاة المتنازعين على أجمل مقاطعاتها. عندما يكون الرجال على مثل هذه الدرجة من القوّة فإنّهم لا يخشون الاعتراف بفضلهم. يتجلى هنا، دون شك، هذا العصر الذهبي لأبناء الزنا. لكن مع ذلك يجب أن نعترف بهذا الحق للأبناء غير الشرعيين لآل مديسي، لما أبدوه من حماس لمجد تلك العائلة وزيادة ثرواتها وسلطاتها. وهكذا فما إن استقر الدوق دلا ستيا دي يينا، ابن المغربية، كحاكم مطلق الصلاحية في فلورنسة، حتى تبنى مصلحة البابا كلمنت السابع من أجل كاترين ابنة لوران الثاني، دوق أوربن، وكانت آنذاك في الحادية عشرة من عمرها.

عندما ندرس سير الأعمال ومسيرة الناس في هذا القرن السادس عشر المثير للفضول، لا ينبغي أن ننسى أبداً أن للسياسة آنذاك عنصراً رئيساً هو ذلك الدهاء المستمر الذي يهدم في جميع السجايا ذلك التصرف المستقيم، وتلك القدرة التي تتصوّرها المخيّلة لدى جميع النوابغ، هناك يتجلى بصورة خاصة ما يغفر لكاترين. إن هذه الملاحظة تجد مبرراً لجميع اتهامات الكتّاب البروتستانت المبتذلة والحمقاء. كان ذلك أجمل عصر لتلك السياسة التي كتبت شرعتها من قبل ميكافلي كما من قبل سبينوزا، وأتت من هوبز كما من مونتسكيو، لأن **حوار سيلا وأوقراط**[1] يحتوي على الفكر الحقيقي لمونتسكيو الذي لا تسمح له روابطه

(١) في **حوار سيّلا وأوقراط** يبرز مونتسكيو سيّلا ليبرر الابعادات التي قادت إلى الموت العديد من الرومانيين، والموضوع والتعابير المستخدمة تتوافق تماماً مع خطاب كاترين في «**الحلمين**» وفي «المقدّمة» يبدأ سيّلا هكذا: «أتسمون جرائم... ما سبّب خلاص الجمهورية؟» كذلك فإن مكيافلي، وهوبز، وسبينوزا ذكروا أيضاً في مقدمة «الملهاة الإنسانية» كمعدّي العلم الذي طبقه رجال الدولة».

مع مجموعة الموسوعيين أن يبسطه بوجه آخر. هذه الأسس هي اليوم المبادىء الخفية لجميع الحكومات التي تحبك فيها مخططات لهيمنات واسعة. وقد وجّهنا اللوم في فرنسة إلى نابوليون عندما استخدم هذه العبقرية الإيطالية، وهي ملء إهابه، إنما لم تنجح تركيباتها معه دائماً. لكن شارل كنت وكاترين، وفيليب الثاني، وجول الثاني ما كانوا ليتصرفون إلا بمثل تصرفه في القضية الإسبانية. ولو نظرنا في الزمن الذي ولدت فيه كاترين، إلى التاريخ، من وجهة نظر الاستقامة، لبدا رواية مستحيلة؛ فشارل كنت، المضطر لدعم الكاثوليكية ضد هجمات لوثر الذي يهدّد العرش بتهديده رئاسة البابا، سمح بمحاصرة روما وأودع البابا كلمنت السابع السجن. وكلمنت السابع هو الذي ما من عدو له أشدّ ضراوة من شارل كنت، قام بالتودُّد إليه ليستطيع تثبيت ألكسندر دي مديسي في فلورنسة. وزوّج شارل كنت ابنته لهذا الدعيّ ابن الزنا، الذي ما إن وطدّ سلطانه، حتى حاول بالاتفاق مع كلمنت السابع الإضرار بشارل كنت بالتحالف مع فرنسوا الأول، بواسطة كاترين دي مديسي، وقد وعده كلاهما بمساعدته على استعادة إيطالية. ولورنزنيو دي مديسي عمل نديماً ورفيق فجور للدوق الكسندر ليتمكن من قتله[1]. وقد وصلت رغبة إزاحة الكسندر عن عرشه وقتله بفيليب ستروزي، وهو من كبار نبلاء ذلك الزمن حداً، أقسم فيه أن يزوّج كلّ ولد من ولديه بإحدى بنات قاتل الكسندر، وقد نفذ فعلاً كلُّ ولد، بما يشبه الورع، وصية الأب؛ بينما كان بإمكان كل واحد منهما أن يحققّ مصاهرة أكبر العائلات بمساعدة كاترين، فأحدهما كان مزاحم دوربا، والآخر كان مارشال فرنسة[2]. وقد انتقم كوسم دي مديسي خليفة الكسندر، ولا قرابة بينهما، لمقتل هذا الطاغية بالطريقة الأكثر ضراوة، وبإصرار استمر لمدة اثنتي عشر سنة كان حقده فيها يزداد ضد أولئك الذين أوصلوه بعملهم

---

(١) هذا هو موضوع مسرحية موسّه **لورانزاسيو** (١٨٣٤)، وكل ما قيل هنا عن لورنز، مستمدٌّ من مقال في **السيرة الشاملة** عن الكسندر دي مديسي.

(٢) الرواية منقولة من مقال في **السيرة الشاملة** عن فيليب ستروزي، لكن بلزاك بمحاولته تدقيق اسمي الولدين قد أخطأ فالمارشال بيير ستروزي تزوّج فعلاً ابنة لورنزينو، أما أخوه ليون «منافس دوربا» فقد دخل في فرقة فرسان «القديس يوحنا المقدسي» ومات عازباً.

في نهاية الأمر إلى السلطة. كان كوسم[١] في الثامنة عشرة عندما استلم الحكم، وكان أول عمل قام به هو التصريح بأن لا حقوق لأبناء الكسندر الشرعيين بالعرش، في ذات الوقت الذي دعا فيه إلى الانتقام!...

وأكدّ شارل كنت حرمان حفيده - ابن ابنته - من ميراث والده بالاعتراف بسلطة كُوسْم الذي نصبّه الكردينال سيبو، وسرعان ما نفاه كوسم، فاتهم الكردينال سيبو، صنيعته هذا الكوسم، وقد أصبح أوّل دوق كبير، بأنه أراد أن يسمّم ابن الكسندر. هذا الدوق الكبير، المتمسّك بسلطانه بقدر تمسّك شارل كنت بعرشه، فَعَلَ كما فعل الامبراطور، فتنازل لابنه فرانسوا، بعد أن قتل ابنه الآخر دون غارسيا، انتقاماً لموت الكردينال جان دي مديسي، الذي قتله غارسيا. كان من الواجب أن يخلص كوسم الأوّل وابنه فرانسوا جسماً وروحاً لعرش فرنسة، وهو القوّة الوحيدة التي يمكن أن تدعمهما لكنهما عملا خادمين لشارل كنت ولفيليب الثاني وبالتالي عدوين خفيّين، جبانين وخؤونين لكاترين دي مديسي إحدى مفاخر هذا البيت. هذه هي الخطوط الرئيسة المتناقضة وغير المنطقية، وحوادث المكر، والدسائس السوداء لعائلة مديسي فقط. فهل يمكن من هذا المجمل أن نحكم على الأمراء الآخرين في ايطالية وأوروبة؟ كان من التعليمات السرية المزوّد بها جميع موفدي كوسم الأوّل إلى بلاط فرنسة أمرّ بتسميم ستروزي قريب الملكة كاترين إن وجدوا إليه سبيلا. وكان شارل كنت قد قتل ثلاثة من سفراء فرانسوا الأوّل[٢].

(١) توصل كوسم بعد إحدى عشر سنة من موت الكسندر إلى قتل لورنزو.

(٢) في الصيغة النهائية للمقدمة كُرر هذا التلميح مرتين. ويحتمل أن يكون بلزاك تذكّر الجزء الثالث من تاريخ **شارل كنت** لروبرتسون الذي استعاره في العام ١٨٢٥: «في العام ١٥٤١، وبعد اتفاقات سريّة مع السلطان سليمان، أرسل فرانسوا الأوّل سفيرين إلى البندقية، وفي الطريق هو جما، وقتلا، وسرقت أوراقهما، وقد أتهمت حكومة ميلاني بتنظيم الكمين لمصلحة شارل كنت، وطلب الملك تعويض ترضية من الامبراطور.

أيكون خطأ حديث بلزاك عن ثلاثة سفراء؟ أم أنه فكّر أيضاً بقضية أكثر قدماً وهي موت مرقي في العام ١٥٣٥؟ كان مرقي مندوباً مرسلاً من الملك إلى دوق ميلان، وفي نزاع دامٍ قتل خصمه فاقتيد إلى المحاكمة، وحكم عليه بالموت ونفّذ الحكم، وكان هذا لمصلحة شارل كنت: «وقد رأى بلاط فرنسة في هذه القضية مؤامرة مدبّرة وفي الامبراطور المدبّر الحقيقي لهذه الإهانة».

في مطلع شهر تشرين أول ١٥٣٣ انطلق الدوق دلاستيا دي پينا من فلورنسة إلى ليفورن ترافقه الوريثة الوحيدة للوران الثاني، كاترين دي مديسي. كان الدوق وأميرة فلورنسة، وهذا هو اللقب الذي أطلق على تلك الفتاة، وكانت آنذاك في الرابعة عشرة من عمرها، قد غادرا المدينة محاطين بمجموعة كبيرة من الخدم، والضباط، وأمناء السرّ، تسبقهم فرقة مسلحة، وتتبعهم مجموعة من الفرسان. لم تكن الأميرة الشابة تعرف شيئاً عن قدرها، ولا تعرف من هذه الرحلة إلا أن البابا سيقابل في ليفورن الدوق الكسندر، لكن زوج عمتها فيليب ستروزي[1] كشف لها عند ذاك عن المستقبل الذي ينتظرها.

تزوّج فيليب ستروزي كلاريس دي مديسي أخت لوران دي مديسي من أبيه، ولوران هو، دوق أوربن، ووالد كاترين، وقد تمّ هذا الزواج ليدعم من جهة قضايا آل مديسي بواحد من أصلب دعائم الحزب الشعبي، وليهيّء من جهة أخرى استدعاء آل مديسي المبعدين آنئذ، لكنه لم يغيّر من صلابة هذا المناضل الذي اضطهده حزبه لعقده هذا الزواج ورغم التغيّرات الظاهريّة لسلوكه المتأثّره بهذه المصاهرة، فقد بقي أميناً للحزب الشعبي وصرّح بأنه معارض لآل مديسي منذ أن لاحظ نيّتهم على إخضاع فلورنسة. وقد صمد هذا الرجل الشجاع حتى أمام عرض أمارة عليه من قبل ليون العاشر؛ ووجد فيليب ستروزي نفسه في تلك الفترة ضحية لسياسة آل مديسي المترجرجة في وسائلها إنَّما الثابتة في أهدافها؛ وبعد أنّ تحمل قسطه من مصيبة احتجاز كلمنت السابع، الذي فاجأه آل كولونا، فالتجأ إلى قصر سان - انج[2]، سلّمه البابا كرهينة واقتيد إلى نابولي، وما إن حصل البابا على حريته، حتى هاجم أعداءه بقساوة، وكاد ستروزي يفقد حياته، واضطرّ لأن يدفع

---

(١) يستمد بلزاك من «السيرة الشاملة» معلوماته عن فيليب ستروزي وعن لوران دي مديسي.

(٢) كانت عائلة «كولونا» القوية تشكّل في روما حزباً معارضاً لكلمنت السابع (جول مديسي) ومؤيّداً لشارل كنت؛ وقد جرّب الكردينال بومبي كولونا في العام ١٥٢٦ أن يختطف البابا الذي لجأ إلى قصر سان- آنج. وفي العام ١٥٢٧ بعد الاستيلاء على رومة ونهبها انتهى به الأمر ليتوسط ما بين البابا كلمنت السابع الأسير آنذاك وشارل كنت.

مبلغاً كبيراً من المال ليخرج من السجن الذي ضيّق عليه الخناق فيه. وما أن استرد حريته، حتى انتابته بوحي الطبيعة السمحة في الرجل الشريف، بساطة المثول أمام كلمنت السابع، ولعل هذا كان مزهواً بتخلصه منه. والمؤكد أن البابا خجل من سلوكه حتى استقبل ستروزي أسوأ استقبال. هكذا بدأ ستروزي منذ مطلع الشباب خبرة الحياة التعسة للإنسان المستقيم في السياسة الذي لا يزيغ وجدانه أمام نزوات الأحداث، ولا تطمئن أفعاله إلا للفضيلة، فيجد نفسه عندئذ مضطهداً من الجميع: من الشعب لأنه يعارض أهواءه العمياء، ومن السلطة لأنه يعارض اغتصاباتها. إن حياة هؤلاء المواطنين الشجعان عذاب لا يتحملونه إلا بدافع من صوت ضميرهم الصارخ، وبعاطفة الواجب الاجتماعي البطولية التي تملي عليهم سلوكهم تجاه جميع الأمور. كان هناك كثير من هؤلاء الرجال في جمهورية فلورنسة، وكلّهم شجعان مثل ستروزي، كاملون كخصومهم في حزب آل مديسي، رغم انحدارهم بالحيلة الفلورنسة. أي شيء أجدر بالإعجاب في مكيدة آل پازي من سلوك عميد تلك العائلة، وهو صاحب التجارة الواسعة، الذي يسدّد جميع حساباته مع آسية والشرق وأوروبة، قبل أن ينفذ هدفه الواسع، حتى إن قضى لا يخسر وكلاؤه شيئاً.

هكذا فإن تاريخ إشادة بيت آل مديسي من القرن الرابع عشر حتى القرن الخامس عشر يبقى واحداً من أجمل ما يجب أن يكتب لا سيما أن عبقريات كبيرة قد ساهمت فيه. إنّه ليس تاريخ جمهورية، ولا تاريخ مجتمع أو حضارة خاصة، وإنّما هو تاريخ **الإنسان السياسي** والتاريخ الأبدي للسياسة. تاريخ المغتصبين والغزاة. بالعودة إلى فلورنسة، وطد فيها فيليب ستروزي الشكل القديم للحكم، وأخرج منها هيبوليت دي مديسي وهو ابن زنا آخر، وهذا الاسكندر الذي يسير معه الآن. وخشي عندئذ من تقلّبات الشعب، ولما كان يخشى أيضاً انتقام كلمنت السابع، فقد ذهب يشرف على محل تجاري واسع أنشأه في ليون وأقام صلات له مع أصحاب مصارف في البندقية، وروما، وفرنسة واسبانية. شيء غريب! هؤلاء الرجال الذين يحملون ثقل القضايا العامة، والصراع المستمر مع آل مديسي، دون

الأخذ بالاعتبار صراعاتهم الخاصة داخل حزبهم، ينهضون أيضاً بأعباء التجارة ومضارباتها، ويتعاطون أعمال البنوك وتقيداتها، حيث تعدّد العملات المفرط وتزييفاتها تجعل هذه الأعمال أكثر صعوبة مما هي عليه في الوقت الحاضر (وقد أتت كلمة بنك من المقعد الذي كانوا يجلسون عليه ويستخدمونه لإرنان القطع الذهبية والفضية التي يتعاملون بها).

وجد فيليب في موت زوجته التي كان يعبدها ذريعة للانصراف إلى متطلبات الحزب الجمهوري؛ وبعد أن أصبحت الشرطة في كلّ الجمهوريات على وجه من الرهبة غدا معها كل انسان جاسوساً باسم الحرية التي تبرر كلّ شيء. ولم يَعُد فيليب إلى فلورنسة إلا عندما اضطرت تلك المدينة للخضوع إلى نير الكسندر؛ لكنه ذهب أولاً لمقابلة البابا كلمنت السابع الذي كانت قضاياه قد تحسّنت حتى أن موقفه تجاهه قد تغيّر. وكان آل مديسي في فترة تحقّق انتصارهم بحاجة ماسّة لرجل مثل ستروزي ليمهد الطريق على الأقل أمام تولي الكسندر السلطة؛ وعرف كلمنت كيف يقنع ستروزي بالانضمام إلى مجلس مستشاري ابن الزنا الذي سيبدأ باضطهاده للمدينة، وارتضى فيليب بمنصب سناتور في المجلس. لكنه لاحظ خلال سنتين ونصف، وعلى مثال يسينيك وبوروس قرب نيرون، بدايات الاستبداد، ورأى نفسه آنئذ عرضة لريبة الشعب وموضع شبهات من آل مديسي الذين كان يقاومهم حتى توقّع في تلك الفترة حلول كارثة. وهكذا فما إن علم من الدوق الكسندر بمفاوضات زواج كاترين من أحد أبناء العائلة المالكة في فرنسة[1] حيث قد يتمّ العقد في ليفورن التي اتّفق المتفاوضون على موعد لقاء فيها، حتى وضع لنفسه مشروع الانتقال إلى فرنسة، وأن يرتبط بمصير قريبته التي يلزمها وصيّ على العرش. واغتبط الكسندر لإمكان التخلّص من رجل قليل التساهل في ما يخصّ مصالح فلورنسة، فدعم هذا القرار الذي يجنّبه تدبير اغتيال، ونصح ستروزي بأن يتولّى شؤون بيت كاترين. والواقع أنّ آل مديسي عملوا، من أجل إدهاش بلاط

---

(١) عودة إلى سيرة كاترين، مأخودة من كتاب «**طُرَف الملكات**»، وطبعة العام ١٧٧٦ منه تعطي جداول أنساب عن المصاهرات بين آل مديسي، وآل ستروزي، وآل ستوارت.

فرنسة، على تأليف حاشية ذات امتياز تحف بتلك التي أطلق عليها دون أي مسوغ لقب **أميرة فلورنسة**، والتي سميت أيضاً دوقة أوربن الصغيرة.

كان الموكب الذي سار على رأسه الدوق الكسندر، وكاترين وستروزي، يتألّف من أكثر من ألف شخص عدا الحرس والخدم؛ وكانت نهايته ما تزال في فلورنسة، حين كانت مقدمته تتجاوز أوّل قريّة خارج المدينة، حيث يُجدل في الوقت الحاضر قش القبعات. وبدأ يُعرَف في أوساط الشعب أن كاترين ستتزوج أحد أبناء فرانسوا الأوّل، لكن ذلك لم يتعدَّ الشائعة التي أخذت تتجلّى حقيقة في أعين أهل توسكانية بهذه المسيرة الظافرة من فلورنسة إلى لينورة؛ ووفقاً للتحضيرات التي تطلّبتها، شكّت كاترين في أن يكون الأمر متعلقاً بزواجها، فقد كشف لها عمّها عن المشاريع الخائنة لعائلتها الطموح، التي أرادت لها ولي العهد زوجاً، وكان الدوق الكسندر ما يزال يؤمّل في أن ينجح دوق ألباني في تغيير قرار ملك فرنسة، الذي مع رغبته في الحصول على دعم آل مديسي في إيطالية، لم يشأ أن يتخلّى لهم إلا عن دوق اورلئان. هذه النظرة الضيّقة جعلت فرنسة تفقد إيطالية، ولم تمنع كاترين البتة من أن تغدو ملكة.

كان دوق ألباني هذا، ابن الكسندر ستيوارت، وشقيق جاك الثالث، ملك اسكوتلندة، قد تزوّج آن دلاتور دي بولوني، شقيقة مادلين دلاتور دي بولوني أم كاترين، فهو إذاً زوج خالتها. أما مصدر غنى كاترين وقراباتها مع كبار العائلات فآت من ناحية امّها؛ فالأمر الغريب أن ديان دي بواتيه منافستها كانت ابنة خالة لها، فجان دي بواتيه والد ديان هو ابن حنة دلاتور دي بولوني عمة دوق أوربن والدة كاترين. كذلك فإن ماري ستيورات التي غدت كنتها هي قريبة لها من ناحية الأم.

عرفت كاترين آنئذ أن بائنتها النقدية ستكون مئة ألف دوكا. وكانت الدوكا قطعة ذهبية بحجم إحدى اللويسات الفرنسية القديمة لكنها بنصف سمكها، وهكذا فإن مئة ألف دوكا في ذلك الزمن تعادل، مع الأخذ بالاعتبار القيمة العالية للذهب آنذاك، ستة ملايين من الدوكات الحالية، والدوكا الحالية تعادل اثني عشر فرنكاً

تقريباً. ويمكن أن نحكم على أهمية بنك فيليب ستروزي في ليون لأنه هو الذي سلَّم هذا المبلغ الكبير من الذهب. كذلك فإن كونتية أوفرني ولوراغي اعتبرتا ملحقتين ببائنة كاترين، كما قدّم لها البابا مئة ألف دوكا أخرى من الجواهر والأحجار الكريمة وغيرها من هدايا الزواج التي ساهم بها الدوق الكسندر أيضاً. بوصولها إلى ليفورن، وجب أن تزهو كاترين، وهي فتاة في أول شبابها، بالعظمة الباذخة التي أظهرها البابا كلمنت، عمّها في نوتردام، وكان آنذاك زعيم آل مديسي، ليتفاخر على بلاط فرنسة، فقد وصل في إحدى تلك السفن الشراعية الحربية المكسوة بشكل كامل بالحرير القرمزي المزيّن بالأهداب الذهبيّة. والمغطاة بخيمة من قماش مذهب. كانت تلك السفينة، التي كلّفت زخارفها وزيناتها نحو عشرين ألف دوكا، تحتوي على عدة غرف مخصصة لخطيبة هنري دي فرانس، وكلها مؤثثة بأفخم الرياش التي أمكن لآل مديسي جمعها، وكانت ثياب المجدّفين في غاية الروعة، أما القبطان على رأس الطاقم فرئيس دير من فرسان رودس[1] وكانت إقامة البابا وحاشيته في سفن ثلاث أخرى مماثلة، أما سفن دوق ألباني في المرسى المجاورة لسفن كلمانت السابع فتشكل معها أسطولاً صغيراً مهيباً. قام الدوق الكسندر بتقديم ضباط بيت كاترين للبابا، ثم عقد معه اجتماعاً سرياً قدم له خلاله، على الأرجح، الكونت سباستيان مونتكو كولي، الذي ترك فجأة كما قيل، خدمة الامبراطور، مع جنراليه انطوان دي ليف، وفرديناند دي غونزاك، هل كان بين ابني الزنا جول والكسندر، تصميم مسبق على أن يجعلا من دوق أورليان ولياً للعهد؟ ما هي المكافأة التي وُعد بها الكونت سباستيان مونتكوكولي الذي كان قبل أن يلتحق بخدمة شارل كنت قد درس الطب؟ يلتزم التاريخ الصّمت حول هذه النقطة، وسنرى مع ذلك أية غيوم حجبتها! ذلك التعتيم هو

---

(١) استعان بلزاك في وصف هذه السفن المكسوة بالحرير ببعض الكتب التاريخية في بروفنس إلى جانب «**طرف الملكات**» إذ أنّ درو دي رادية لم يصف هده السفن الأربع العائدة إلى فرسان رودس بزينتها الرائعة والتفاصيل الدقيقة الصحيحة عنها.

الذي دفع حديثاً مؤرخين رزينين ومنصفين إلى قبول براءة مونتكوكولي[١].

عرفت كاترين عند ذاك رسمياً من فم البابا الزواج الذي رتّب لها، فدوق ألباني لم يستطع، إلا بصعوبة كبرى، أن يحظى من ملك فرنسة بتنفيذ وعده السابق باتخاذ كاترين زوجة لابنه الثاني، ومن هنا كان تلهف البابا كلمنت كبيراً إلى حدّ خشي فيه أن يجد مشاريعه وقد انتابها الفشل سواء بمكيدة من الامبراطور، أو بازدراء من فرنسة التي كان كبار رجال المملكة فيها غير راضين عن هذا الزواج، لذلك فإنّه أبحر سريعاً متجهاً نحو مرسيليا، فوصلها نحو شهر تشرين أوّل ١٥٣٣، ورغم غنى آل مديسي وبذخهم فإن بذخ العائلة المالكة الفرنسية كان طاغياً، ولإظهار مدى إسراف هؤلاء المصرفيين فإن الأثني عشرية[٢] التي وضعها البابا في جهاز العروس كانت مؤلّفة من مداليات ذهبية ذات قيمة تاريخية لا تقدّر بثمن لأنها كانت فريدة لا ثاني لها. لكن فرنسوا الأوّل المحبّ للأبّهة والاحتفالات تميّز في تلك المناسبة، فدامت أفراح عرس هنري دي ڤالوا وكاترين أربعة وثلاثين يوماً. ولا جدوى أبداً من تكرار التفاصيل التي ذاع صيتها في كل حكايات البروفنس ومرسيليا بخصوص تلك المقابلة الشهيرة بين البابا وملك فرنسة التي أشير فيها إلى فكاهة لدوق ألباني حول وجوب الانقطاع عن أكل اللحم[٣]، وهو لَبْس مازح تحدّث عنه برانتوم، واستمتع به البلاط كثيراً، وهو يعطي فكرة عن الطبائع في ذلك العصر. بالرغم من أن هنري دي فالوا لم يكن يكبر كاترين إلا بعشرين يوماً، فقد أراد البابا من هذين الولدين أن يتمما عملية الزواج جسدياً عقب الاحتفال به عقديّاً، لشدّة خشيته من مكر السياسة والحيل السائدة في ذلك العصر، ويتحدث التاريخ عن أن

---

(١) سيعود بلزاك في الصفحات القادمة لشرح دور مونتكوكولي في وفاة ولي العهد. وهذه التفاصيل مستقاة من **السيرة الشاملة**، ومن **تاريخ شارل كنت**، بما فيها إمكانية براءة مونتكوكولي.

(٢) لم يتضمن أي وصف لاحتفالات الزواج، ولم يذكر أي مؤرخ هذه «الاثني عشرية» التي حملتها كاترين دي مديسي مع النفائس التي أتت بها. إنّما يذكر بَلْزاك في رواية **أوجيني غرانده** أن الاثني عشرية هدية زواج تعود إلى تاريخ قديم في وسط فرنسة.

(٣) لم يذكر درو دو راديه شيئاً عن هذا الموضوع لكن بلزاك تذكّر برانتوم في «احاديث عن كاترين دي مديسي» حيث يتحدّث مطولاً عن مزحة فكاهية قام بها دوق ألباني مع ثلاث سيدات أردن الحصول من البابا على إعفاء يتيح لهن أكل اللحم في أيام الصيام فادعى اللبس متظاهراً بالاعتقاد «بأنّهن يقصدن عدم أكل لحوم الأحياء».

البابا كلمنت أراد أن يحصل على براهين الإتمام الفعلي للزواج فبقي مدة أربعة وثلاثين يوماً بشكل خاص في مرسيليا مؤمّلاً أن تبدو على قريبته الشابة علائم منظورة عن اتمام هذه العملية، لأن كاترين وهي في الرابعة عشرة، كانت بالغة؛ ومن ما شكّ في أنه بعد سؤاله العروس الشابة، قال لها هذه الكلمات الشهيرة لمواساتها، وقد نسبت خطأً إلى والد كاترين: «إن الفتاة الذكية تجد دائماً الوسيلة للحصول على ذريّة». أثيرت أغرب التخمينات حول عقم كاترين الذي استمر عشر سنوات. وقليل من الأشخاص يعرفون في الوقت الحاضر أن عدة مؤلّفات في الطبّ تحتوي نسبياً على شرح لهذه الحالة الخاصة؛ وقد قامت افتراضات كانت غير محتشمة إلى حدٍّ لا يمكن ذكرها، غير أنه يمكن قراءة «بايل» في مقال عن «فرنل»[1] فهذا يعطي مدى الفريات الغريبة التي كانت ترزخ تحتها تلك الملكة التي حُرّفت جميع تصرفاتها. كان سبب عقمها ناتجاً عن هنري الثاني فقط. تكفي الملاحظة، ونحن في زمن ما من أمير فيه كان يتضايق من وجود أبناء سفاح له، أن ديان دي پواتيه الأكثر حظوة من الزوجة الشرعية لم يكن لها أولاد؛ والطب الجراحي يعرف جيّداً العيب الخلقي لهنري الثاني، زد على أنه شرح بفكاهات سيدات البلاط اللواتي جعلن منه الراهب سان ڤيكتور[2]، في زمن كان للغة الفرنسية فيه مزايا اللغة اللاتينية ذاتها. وما أن أجريت العملية الجراحية اللازمة للأمير حتى تمّ من بعدها أحد عشر حمل لكاترين ورزقت بعشرة أولاد، ومن حسن حظ فرنسة أن هنري الثاني تأخر في الإنجاب، فلو جاءه أولاد من ديان لتعقّدت السياسة بشكل غريب، فعندما أجريت العملية الجراحية لهنري، كانت الدوقة؛ دي فالنتينوا قد بلغت صبوة الكهولة للنساء؛ هذه الملاحظة وحدها تبرهن على أن تاريخ كاترين دي

---

(١) قدّم درو دو راديه مادة هذا التعليق حول عقم كاترين دي مديسي، والمرجع **لقاموس** «بايل» فبايل في الملاحظة «ك» لمقاله عن فرنل يعلّق بتفصيل واضح على «الرأي الواسع الانتشار» الذي ينسب إلى الطبيب فرنل شفاء هذا العقم ويروي ما نُقل عن فاريّا ومزراي مضيفاً إليه تعليقات الأطباء:

«نصح فرنل هنري الثاني أن «يجامع» كاترين في أيام طمثها - حيث يكون المهبل «الضيّق جداً أو الجاف جداً قد توسّع وترطّب؛ أو أنه وجد له وسيلة لأن يعالج إزالة هذه الموانع الطبيعية».

(٢) يذكر بلزاك عن برانتوم «أحاديث عن كاترين دي مديسي» التلاعب بالكلمات التي وجد درو دو راديه أن من المتعذر روايتها.

مديسي يجب أن يصاغ بشكل كلّي، ووفقاً لكلمة شديدة العمق لنابوليون فإن تاريخ فرنسة لا ينبغي أن يكون إلا بمجلّد واحد، وإلا لزمه ألف مجلّد.

كانت إقامة البابا كلمنت السابع في مرسيليا، مقارنة بسلوك شارل كنت مع سلوك ملك فرنسة، تعطي تفوقاً واسعاً للملك على الامبراطور، كما في كل أمر في الواقع، وهذه هي الخلاصة الوجيزة لهذه المقابلة كما ذكرها أحد المعاصرين(١).

« من بعد اصطحاب قداسة البابا إلى القصر الذي جُهز لاستراحته من عناء السفر خارج المرفأ، انسحب كل إنسان إلى حيّه حتى اليوم التالي للاحتفال بدخوله رسمياً؛ هذا الاحتفال الذي تمّ بفخامة وبهاء كبيرين. كان البابا يجلس على كرسي يحمله رجلان على الأكتاف، وهو في ثيابه البابوية، ما عدا التاج، وقد سيّرت أمامه فرس بيضاء تحمل أدوات المذبح المقدسة، ويقودها رجلان، وهي في أبهى عدة وعنان من الحرير الأبيض. سار وراء البابا موكب الكرادلة على أفراسهم الخاصة ثم السيدة دوقة أوربن في أروع مظهر يرافقها عدد كبير من النبيلات والنبلاء سواء من فرنسة أو من إيطالية وبهذا الموكب سار قداسة الأب إلى المكان المعدّ لإقامته، ثم انسحب الجميع بكل نظام ودون أي جلبة بينما كان البابا يدخل في هذا الموكب المدينة، كان الملك يصل فوق فرقاطته إلى المرفأ وينزل في المكان الذي غادره البابا ليهيء نفسه للذهاب في اليوم التالي ليقدّم الولاء لقداسة الحبر الأعظم كملك مسيحي ورع.

انطلق الملك في اليوم التالي إلى مقرّ إقامة البابا يرافقه أمراء العائلة المالكة أمثال سيادة الدوق دي ڤندوموا (والد الوكيل الأسقفي دي شارتر) والكونت دي سان پول، والنبيل دي مونبنسيه، ودلاروش - سور - إيون، والدوق دي نمو أخو الدوق دي ساڤوا الذي مات في تلك المقاطعة، ودوق ألباني، والعديدون غيرهم من الكونتات والبارونات والنبلاء، وكان إلى جانب الملك موجهه الأكبر النبيل دي

(١) هذا المعاصر هو غيوم دو بلاي، والاستشهاد الذي أضافه بلزاك لوصف درو دو راديه لاحتفالات الزواج يعطي واقعاً مثيراً للإعجاب أمكن لبلزاك أخذه من مجموعة بتيتو (١٨١٩ - ١٨٢٦) «مجموعة مذكرات تتعلّق بتاريخ فرنسة».

مونمورونسي. ما إن وصل الملك إلى القصر حتى استقبله البابا وكل رهط الكرادلة في مجمع إنساني كبير. بعد هذا الاجتماع انسحب كل إلى المقرّ المخصّص له، واصطحب الملك معه بعض الكرادلة للاحتفاء بهم، ومنهم الكردينال دي مديسي ابن شقيق البابا، وهو انسان عظيم وكبير التقدير. وفي اليوم التالي بدأ المندوبون المحدّدون من كل من البابا والملك اجتماعاتهم ليبحثوا الأمور التي جرت المقابلة من أجلها، فعولجت أولاً قضية الإيمان وتمّ التبشير ببراءة بابوية لكبح البدع والهرطقات ومنع الأمور من الوصول إلى احتدام أكبر مما هي عليه. ثم تمّ عقد قران الدوق دورلئان الابن الثاني للملك وكاترين دي مديسي دوقة أوربن ابنة شقيق قداسته ضمن الشروط التي اقترحت على دوق ألباني أو بما هو قريب منها وكان عقد القران في منتهى الأبهة وقد باركه الحبر الأعظم، وبعد انتهاء مراسم الزواج عقد قداسة الحبر الأعظم مجمع كرادلة رسم بموجبه أربعة كرادلة من المخلصين للملك وهم الكردينال لڤنور مطران ليزيو ومعرف الملك والكردينال دي بولوني من آل شامبر وشقيق دوق الباني من أمه والكردينال دي شاتيون من آل كولينيي وابن شقيق النبيل دي مونمورنسي، والكردينال دي جيفري».

عندما قدم ستروزي البائنة في حضرة رجال البلاط، بدت الدهشة على النبلاء الفرنسيين وقالوا بصوت عال إن هذا قليل جداً في زواج غير متكافىء (ماذا كانوا سيقولون في هذه الأيام؟) وقد ردّ عليهم الكردينال هيبوليت عندئذ: «أنتم لم تطلعوا إذاً على أسرار ملككم، فقد التزم قداسته بمنح فرنسة ثلاث لآلىء لا تقدّر بثمن: جنوة، وميلانو ونابولي»[1] ترك البابا الكونت سباستيان مونتكوكولي يقدّم نفسه للبلاط الفرنسي حيث عرض خدماته ووضع اللوم على أنطوان دي ليڤ وفرديناندي غونزاغ فقبل عذره، لكن مونتكو كولي لم يعد تابعاً في الخدمة لكاترين التي غدت حاشيتها مؤلّفة كليّاً من الفرنسيين والفرنسيات إذ بموجب قرار ملكي تمّ تنفيذه بموافقة كلّية من البابا منحت كاترين الجنسية الفرنسية قبل الزواج بموجب براءة خاصة، أما مونتكوكولي فقد ألحق كاسباني أولاً بحاشية الملكة أخت شارل كنت، ثم نقل بعد ذلك إلى خدمة ولي العهد كساقي.

---

(١) طرفة شهيرة نقلها أيضاً درو دو راديه بتعابير مماثلة إنّما نطق بها ستروزي ذاته فقال: «إن كلمنت السابع قد التزم بمنح الملك اضافة إلى الدوطة ثلاث لآلىء لا تقدّر بثمن هي جنوه، وميلانو، ونابولي».

وجدت دوقة أولئان نفسها ضائعة كلّياً في بلاط فرنسوا الأوّل، فقد هام زوجها الشاب بديان دي بواتيه، وهي من يمكنها في المحتد منافسة كاترين، كما أنها سيّدة أكثر ظهوراً منها، ووجدت ابنة مديسي نفسها منقادة للملكة إليونور أخت شارل كنت ودوقة ديتامب التي تعتبر بزواجها من عميد بيت آل بروس إحدى النساء الأرفع لقباً في فرنسة. كما أنّ خالتها دوقة ألباني، وملكة نافار، والدوقة دي غيز، والدوقة دي ڤندوم، وزوجة القائد العام، ونساء عديدات أخريات ذوات مقام رفيع كنّ يتفوقن سواء بمحتدهن أو بحقوقهن أو بقدرتهن في البلاط الأكثر فخامة الذي عرفه ملك فرنسي، دون أن نستثني بلاط لويس الرابع عشر، على ابنة عطّاري فلورنسة، الأكثر شهرة، وأكثر غنى من ناحية دلاتور دي بولوني عائلة أمّها منها من ناحية عائلتها آل مديسي.

وجد الجمهوري فيليب ستروزي قريبته في وضع سيّء وصعب، ووجد نفسه عاجزاً عن توجيهها وسط المصالح المتضاربة، فتركها منذ السنة الأولى، كما أنه استدعي إلى إيطالية بموت البابا كلمنت السابع. كان سلوك كاترين، إذا فكرنا آنذاك أنها كانت في الخامسة عشر من عمرها، نموذجاً في التعّقل: فقد تعلّقت بشكل وثيق بحميها الملك بحيث تلازمه أكثر ما تستطيع، فتتبعه ممتطية حصاناً في الصيد وفي الحرب. وقد أنقذ تدلهها بفرنسوا الأوّل آل مديسي من كل شبهة عقب حادثة تسميم وليّ العهد[1]، فقد كانت كاترين، وكذلك دوق أورليان مع الملك في بروفنس ذلك أن فرنسة كانت آذاك مهدّدة بالغزو من قبل شارل كنت شقيق الملكة وبقي البلاط كله على مسرح مباهج الزواج، الذي غدا مسرحاً لإحدى الحروب الأكثر ضراوة، وفي الفترة التي اضطر فيها شارل كنت إلى الهرب تاركاً بقايا جيشه في بروفنس؛ عاد ولي العهد باتجاه ليون عن طريق الرون، وتوقف ليقضي الليل في تورنون، و خلال تسلية له، قام ببعض التمارين الرياضية العنيفة التي كان قد ألفها

(١) حادثة تسميم ولي العهد هي أحد العناصر النادرة من هذه المقدمة التي لم يعتمد فيها بلزاك على **طُرَف الملكات**، فظروفها وكذلك التمرينات الرياضية التي كان يجريها الأميران أثناء وجودهما رهينتين في اسبانية مستمدة من مجموعة بتيتو المعتمدة في ملاحظاتها على **مذكرات غليوم** دي بلاي.

هو وأخوه أثناء احتجازهما كرهائن، وأحسّ بالحرّ الشديد، والزمن آنذاك شهر آب، فطلب كأس ماءٍ قدّمه له مونتكوكولي مثلّجاً، فسقط ولي العهد ميتاً. كان الملك فرنسوا الأول يحب ابنه حتى العبادة، وكان ولي العهد، باعتماد جميع المؤرخين، أميراً مكتمل الأوصاف. وقد أعطي هذا الأب في قنوطه منتهى الأهمية والضجّة الإعلامية للتحقيق الذي جرى مع مونتكوكولي وكلّف بذلك أكبر قضاة ذلك العصر علماً ومقدرة، وبعد أن تحمّل الكونت المتهم ببساطة التعذيبات الأولى دون أي اعتراف، انتهى إلى الإدلاء باعترافات أتهم فيها باستمرار الامبراطور شارل كنت وقائديه أنطوان دي ليڤ وفرديناند دي غونزاك. لم يكتف فرنسوا الأوّل بهذه الإجراءات، فما من قضية نوقشت مثل هذه القضية علناً ورسمياً، وهذا ما قام به الملك وفقاً لما ذكره شاهد عيان[1].

«جمع الملك في ليون جميع أمراء العائلة المالكة، وجميع الفرسان أصحاب الرتب وغيرهم من الشخصيات الهامة في مملكته، وسفير البابا وقاصده الرسولي، والكرادلة الموجودين في بلاطه، وكذلك سفراء انكلترة، واسكوتلندة والبرتغال، والبندقية، وفرّاري، وغيرهم. وجميع الأمراء وكبار النبلاء الأجانب سواء من ايطالية أو من ألمانية، ممن كانوا يقيمون في بلاطه آنذاك مثل الدوق دويتمبرغ، وألمن، وأدواق السوم وأريان، وآتري؛ وأمير مِلْف (وهو الذي أراد سابقاً أن يتزوّج كاترين) وامير ستيليان ونابوليتين، والنبيل هيبوليت دست، والمركيز دي فيجيف من آل تريڤولس، الميلاني، والنبيل جان پول دي سير الرومي، والنبيل سيزار فرغوز الجنيفي، والنبيل آنيبال دي غونزاك المانتوي وغيرهم عديدين. وأمام هذه الجموع قرئت تفاصيل دعوى **الرجل التعس** الذي سمّم المرحوم ولّي العهد، مع التحقيقات، والاعترافات، والمقابلات، وغير ذلك من المظاهر الارتسامية المتبْعة

(١) الشاهد العيان هو غليوم دو بلاي، لكن العبارة الأخيرة من الاستشهاد لا تتطابق مع النصّ المنشور في مجموعة بتيتو ولا في مختلف مجموعات المذكرات المنشورة منذ نهاية القرن الثامن عشر. أيكون بلزاك قد استقاها من إحدى حكايات البروفنس؟!.

في القضايا الجرمية، ولم يُرد أن ينفذ الحكم قبل أن يبدي جميع الحاضرين رأيهم في هذه القضية الهائلة والبائسة.

يمكن أن يبدو وفاء الكونت مونتكوكولي وإخلاصه ومهارته غريبة في عصر من إفشاء الأسرار عام، حيث كل الناس، حتى الوزراء يتحدّثون عن أصغر حَدَث لهم إصبع فيه، لكن الأمراء كانوا يجدون آنئذ أعواناً مخلصين أو يعرفون كيف يختارونهم. وهكذا صُودف عندئذ ملكيون من أمثال موري[1] لإيمانهم بقضيتهم لا تطلبوا شيئاً جليلاً من **المصالح**، لأن المصالح يمكن أن تتغيّر، ولكن توقّعوا كل شيء من العواطف، من الإيمان الديني، ومن الإيمان الملكي، ومن الإيمان الوطني، فهذه المعتقدات الثلاثة تنتج لوحدها أمثال برترو في جنيف، وسيدني وسترافورد في انكلتره، وقتلة توماس بكيت، وأمثال مونتكولولي، وجاك كور، وجان دارك، وريشليو ودانتون، وبونشان، وتالمون، وكلمنت، وشابوت[2] ـ الخ إن شارل كنت

(١) حكم على موري بالموت لتواطئه مع فِيشي في محاولة اغتيال لويس فيليب بتاريخ ٢٨ تموز ١٨٣٥ المسماة «الآلة الجهنمية» وقد انكر بعناد التهمة وبقي مصمماً على الإنكار حتى النهاية.

(٢) يعدّد بلزاك أمثلة مختلفة اختارها ويربط فيما بينها الإخلاص لقضية ما. «يبدأ بمثالين عن جمهوريين» أولاً. **برترو** وهي هفوة، والاسم الحقيقي **برتليه** هذا القاضي الجنيفي الذي ناضل من أجل استقلال مدينته جنيف وقد أعدم في العام ١٥١٩ بعد أن استولى عليها أنصار شارل الثالث دوق ساڤوا، وتنسب إليه هذ العبارة «ستغدو جنيف حرّة، أما أنا فسأفقد من أجل ذلك الآن رأسي». **الجرنون سيدني**: كونت دي لسيستر، كان في القرن السابع عشر خصماً صريحاً للملكية الإنكليزية، دون أن ينضمّ لكرومويل، وقد اتهم في أيام شارل الثاني بالإشتراك في مؤامرة ري ـ هاوس (١٦٧٨) وأعدم في ١٦٨٣ ومات ببسالة.

بعد ذلك يتطرق إلى ملكيين: ونتورث كونت **سترافورد** كان أحد دعائم الحكم المطلق لشارل الأوّل، وحكم استبدادياً إيرلندة، ثم قاد الجيش ضد الاسكتلنديين الثائرين، وقد تمكن پيم أحد زعماء الحزب الشعبي المدعوم من مجلس العموم أن يوجه إليه أصابع الاتهام وتخلى الملك لخصومه عنه، وصعد إلى منصة الإعدام ـ بهدوء تام ـ، وقد قال عن نفسه إنه ذاهب إلى النوم (١٦٤١)، وقد عرض الفنان دلاروش في صالون ١٨٣٧ لوحة فنية تمثل سترافورد يسير إلى الموت ـ أما قتلة توماس بكيت «فيمكن اعتبارهم مدافعين عن السلطة الملكية في مواجهة أسقف كنتربري، وبالرغم من أنّ هنري الثاني قد تنصّل منهم فالأرجح أنهم عملوا بأمر منه. أما الأمثلة الأخرى فمأخوذة من تاريخ فرنسة، وأقلُّها شهرة مستمدة من المرحلة الثورية التي درسها بلزاك في «**الثائرين الملكيين**». فالمركيز دي بونشان هو أحد قادة التمرّد القاندي، وقد اصيب بجراح خطيرة في معركة شوله (١٧٩٣) واشتهر بشهامته حتى أنه قبل موته أعطى =

قد استخدم كبار الشخصيات لتنفيذ مقتل سفراء فرانسوا الأول الثلاثة؛ وبعد ذلك بعام قتل لورنزينو ابن عم كاترين الدوق الكسندر[1] بعد مواربة استمرت ثلاث سنوات وفي ظروف أمكن أن يلقب فيها بروتوس الفلورنسي. وميزة الشخصيات لا تقفل إلا جزئياً باب الشبهات. وموت البابا ليون العاشر، وكذلك موت كلمنت السابع لا يبدوان طبيعيين[2]، وقد أخذ ماريانا، مؤرّخ فيليب الثاني، بالمزاح، موضوع إعلان تسميم ملكة اسبانية، ابنة فرنسة عند قوله: «أراد الله، من أجل مجد عرش اسبانية، التعمية على قلب الأطباء الذين عالجوا الملكة، وذكروا أنها مصابة باستسقاء (نتيجة الحَمَل)[3]. عندما أجاز الملك هنري الثاني لنفسه حديث غيبة لا

= الأمر بالإفراج عن خمسة آلاف أسير جمهوري كان الفنديون يريدون ذبحهم في كنيسة سان فلوران. وفي العام ١٨٢٤ عرض دافيد دانجه المثّال التمثال المصورّ لتلك الواقعة. وأنطوان فيليب دلا ترمواي أمير تالمون كان أيضاً أحد قادة التمرّد الفاندي وقد كشف أمره في فوجير، وهو بثياب فلاّح، فألقي القبض عليه وأعدم في لاڤال العام ١٧٩٤.

أما التلميحان الأخيران فهما أكثر إبهاماً فكلمنت قد يكون جاك كلمنت الراهب المؤتمري قاتل هنري الثالث.

لكن من هو شابوت؟ لا يمكن أن يكون عضو الجميعة التأسيسية اليعقوبي الذي حكم عليه بالموت لتواطئه مع المضاربين بالأسهم، فهو ليس أبداً مثالاً لتضحية، ولا لحماس لقضية.

إنما وضعه مع كلمنت يدفع إلى التفكير بأنه على الأرجح أحد شابوت القرن السادس عشر لكن أيّهم؟

قد يكون فيليب دي شابوت أميرال بريون، الذي حكم عليه في أيام فرنسوا الأول بتهمة الاختلاس، ثم أعيد إليه اعتباره؛ لكنه مات على ما يقال من الألم الذي سببه له هذا الحكم ضده.

(١) سبق أن ذكر كيف لجأ لورنزينو إلى مصادقة الدوق الكسندر ومنادمته تمهيداً لقتله.

(٢) المصادر هنا غير واضحة، لكن بلزاك لا يدعي فمرجعه المفضل درو دو راديه يشير إلى أنه قد اشتبه بأن موت ليون العاشر نتج عن السم. كما أن مقالة نقد وهجاء تعود للقرن السادس عشر بعنوان: «بيان رائع عن حياة وأعمال وتصرفات مجون كاترين دي مديسي» تقول عن كلمنت السابع: (وهكذا مات مكروهاً من كل انسان حتى لا يستبعد أن يكون طبيبه كورت قد أعطاه السم).

(٣) يتمسك بلزاك بهذه «الكلمة» لماريانا، فيذكرها في رسالة للسيدة هانسكا في العام ١٨٣٤ عند تفكيره بكتابة مأساة تاريخية بعنوان «**فيليب المحتشم**» كان يودّ أن تمثّل مشهداً للملك اسبانية في مواجهة ولده دون كارلوس، وزوجته اليزابيت دي فرانس، والواقعة المأساوية لموت دون كارلوس بعد أن أوقف وسجن من قبل والده بالذات (١٥٦٨) وهي حدث تاريخي شهير استوحى منه سان ريال قصة تاريخية (١٦٧٢) كما استوحى منه شيلر مسرحية في العام ١٧٨٧. كما أن موت الملكة الشابة الذي حدث بعد فترة =

يغسل عاره إلاّ ضربة سيف وجد لاشاتينييره تابعاً أمينا يتلقاها عنه[1]، في ذلك العصر كان الأمراء والأميرات يتلقون أطعمتهم ضمن أدوات مائدة محفوظة في صناديق مقفلة يحتفظن بمفاتيحها[2] ومن هنا نشأ حقّ **حيازة القتل** وهو رتبة شرف ألغيت في عهد لويس الرابع عشر.

مات ولي العهد مسموماً بذات الطريقة وربّما بذات السم الذي استخدم لموت المدام[3] في عهد لويس الرابع؛ وكان البابا كلمنت السابع قد توفي منذ سنتين، والدوق الكسندر غارقاً في فجوره، حتى بدا عليه أنه غير مهتم بارتقاء دوق

= وجيزة من موت الأمير ولي العهد، وقد كانت خطيبته لفترة، أثار التخيّلات إلى درجة سريان إشاعة تفيد أن فيليب الثاني قد عمل على تسميمها بدافع الغيرة.

لكن الجزويتي ماريانا، المعاصر للأحداث أوقف مؤلّفه تاريخ اسبانية عند العام ١٥١٥ وما من شخص بين المؤرّخين لعهد فيليب الثاني ينسب إليه مثل هذه التهمة - حتى ذلك الذي ينسب موت الملكة إلى خطأ الطبيب (سيزار كامبانا في مؤلّفه حياة الكاثوليكي دون فيليب الثاني).

(١) إن قصة المبارزة التي انتصر فيها جارناك بضربة سيف غير متوقعة أصابت لاشاتينييره في مأبض ركبته بلغت من الشهرة حداً تعددت فيه رواياتها بحيث لا يعرف إلى أيّها استند بلزاك في ذكر الواقعة. والواقعة تعود إلى أواخر عهد فرنسوا الأول حيث انقسم البلاط إلى فريقين أحدهما يؤيّد الدوقة ديتامب عشيقة الملك والآخر مؤيد لديان دي بواتيه وولي العهد الملك المستقبلي هنري الثاني، بحيث أخذت الفضيحة اتجاهاً سياسياً.

وفقاً لما ذكره برانتوم فإن جارناك قد باح لولي العهد بخبر مفاده أنه قد ضاجع سيّدة «نسيبة له تكاد تكون بمثابة أمّه» وكرّر ولي العهد الشائعة، وذاع الخبر واعتبرت حظوة جارناك في القصر تعود إلى علاقته بامرأة أبيه، فاشتكى إلى الملك مدّعياً أن أحدهم قد «اختلق عنه هذا الخبر» أو ذكر كذباً أنه صرّح به» وتحمّل لاشاتينييره نديم ولي العهد المفضل مسؤولية الشائعة: «حرصاً على شرف سيّده، وقد رأى الموقف المحرج الذي تورّط فيه، وخشي من إدانة الملك له، خاصة وأن جارناك كان قد تزوّج أخت السيّدة ديتامب خليلة الملك، فصرح بأنه هو مطلق الإشاعة وأنه يقبل تحدي المبارزة بشأنها» (برانتوم - **كبار القادة الفرنسيين**. الأميرال دي شاتيون) وقد عارض فرنسوا الأول المبارزة، لكن بعد موته، سمح بها هنري الثاني، وتمّت بحضور جميع رجال البلاط بتاريخ ١٠ تموز ١٥٤٧.

(٢) «القفل أو الكدنة» صندوق خاص كانت توضع فيه جميع أدوات المائدة الضرورية، والملح والسكر والفلفل، وحتى نكّاشات الأسنان، التي يستعملها الملك، أو الأمراء أو الأدواق وكبار الأعيان، وكان بمثابة احتياط ضد التسميم.

(٣) لقب كان مطلق في بلاط فرنسة على بنات الملك، وبنات وليّ العهد، وزوجة شقيق الملك.

أورليان العرش، وكاترين آنذاك في السابعة عشر من عمرها يملؤها الاعجاب بحميّها، وقد كانت إلى قربه عند وقوع الحادثة؛ وبدا شارل كنت وحده صاحب المصلحة في هذا الاغتيال، إذ أن فرنسوا الأوّل كان يعدُّ ولده لمصاهرة توسع من ملكية فرنسة وتزيد من قدرتها، فاعترافات الكونت مونتكوكولي كانت قائمة بمهارة كبيرة على أهواء وسياسة تلك الفترة: فشارل كنت قد هرب بعد أن شاهد اندحار جيوشه في بروفنس مع ما في ذلك من خيبة له ولشهرته ولآماله في السيطرة. ومن الملاحظ، رغم أن التعذيب كان سائداً وطالما انتزع اعترافاً كاذباً من بريء، أنّ فرنسوا الأوّل ترك للمتهم حرية الكلام وسط مجمّع محترم وأمام أشخاص يمكن أن تجد البراءة نصيباً من الانتصار بينهم؛ فالملك الذي كان يتوخى الحقيقة سعى إليها بوجدان طيّب.

لم يتحسن وضع كاترين رغم المستقبل الباهر الذي انفتح أمامها، فالبلاط لم يتغير فيه شيء بعد موت ولي العهد، ويخشى أن يسبّب لها عقمها الطلاق خاصة بعد وصول زوجها إلى العرش، وكان قد وقع منذ ذلك الحين في غرام ديان دي بواتيه التي تجرّأت على أن تنافس مدام ديتامب عشيقة الملك. وهكذا ضاعفت كاترين من اهتمامها، ومن ملاطفاتها لحميّها مدركة أنه سندها الوحيد. فالسنوات العشر الأولى لكاترين انقضت في هموم متجدّدة ناتجة عن آمال الحمل التي تخيب دون انقطاع، ومتاعب تنافسها مع ديان. لكم أن تتصوّروا حياة أميرة شابة ترقبها عشيقة غيور، يسندها حزب كبير هو الحزب الكاثوليكي وقد ازدادت قوّة هذه القهرمانة (وهذا هو اللقب الذي أطلق على ديان في عهد فرنسوا الأول) بعد أن زوّجت ابنتيها الواحدة لروبير دي لامارك، دوق دي بويون، وامير سيدان؛ والأخرى لكلود دي لورين، دوق دومال. كانت كاترين ضائعة وسط حزب السيّدة ديتامب، وحزب القهرمانة المسيطرين على البلاط واللذين جعلا السيطرة فيه وفي السياسة موزّعة بين هاتين العدوّتين الرهيبتين، وقد جربت كاترين في آن واحد أن تكون صديقة للسيدة ديتامب ولديان دى بواتية، وهكذا فتلك التي وجب أن تكون ملكة كبيرة لعبت دور الخادمة، لكنها تدرّبت على هذه السياسة ذات الوجهين التي

غدت سرّ حياتها. وقد وجدت **الملكة** نفسها فيما بعد بين الكاثوليك وبين الكالڤنيين كما كانت **كامرأة** من قبل وطيلة عشر سنوات بين السيدة ديتامب والسيدة دي بواتيه. ودرست تناقضات السياسة الفرنسية؛ فرنسوا الأوّل يدعم كالڤن واللوثريين ليزعج شارل كنت، وبعد أن حمى الإصلاحيين وساعدهم خفية وبأناة في المانية، وبعد أن سمح بإقامة كالڤن في بلاط ناڤار، نقم عليهم بقسوة لا حدّ لها، ورأت كاترين إذن ذلك البلاط ونساءه، يتلاعبن بنار البدع والهرطقة، ديان على رأس الحزب الكاثوليكي مع آل غيز بسبب دعم السيدة ديتامب لكالڤن والبروتستانت فقط؛ هكذا كانت التربية السياسية لتلك الملكة التي لاحظت في حكومة ملك فرنسة شطط بيت مديسي وانقساماته. فولي العهد يعارض والده في كلّ الأشياء، فكان مثال الولد العاق متناسياً أقسى حكم الملكية، إنّما أصدقها، وهي أن العروش متضامنة، وأن الابن الذي يمكن أن يعارض سياسة أبيه في حياته، يجب أن يسير على نهجه بعد توليه العرش مكانه. وسبينوزا الذي لم يكن في السياسة أقل منه عمقاً في الفلسفة قال عن الوضع الذي يحلُّ فيه ملك مكان آخر، عقب فتنة أو اغتيال: «إذا أراد الملك الجديد أن يضمن عرشه، ويؤمّن على حياته، فعليه أن ينتقم لموت سلفه بمنتهى الحزم بحيث لا تخالج عند ذاك أياً كان الرغبة في القيام بعمل مماثل؛ ولكن لينتقم له بجدارة. فلا يكفي أن يسفح دم رعاياه وإنما يجب أن يأخذ بالمبادىء الأساسية لمن حلّ محله، وأن يسير على ذات الطريق الذي سلكه في الحكم[1]». تطبيق هذه الحكمة منح فلورنسة لآل مديسي فكوسم الأوّل خليفة الدوق الكسندر، قتل بعد أحد عشر عاماً قاتل سلفه البروتوس الفلورنسي في البندقية، وكما سبق أن ذكرنا، كان يضطهد دون انقطاع آل ستروزي. إن نسيان هذه الحكمة هو الذي ضيّع لويس السادس عشر؛ فقد خالف هذا الملك كل مبادىء

(١) هذا الاستشهاد «**اللاهوتي - السياسي**» مأخوذ من مقال «سبينوزا» من **السيرة الشاملة** لكن بلزاك يحرّف قليلاً المعنى ليكيّفه وفق رأيه: إنّه رأي يتعلق «بحلف ملك مقتول» ويلائم جيّداً وضع كوسم دي مديسي، لكنه لا يعني بالضرورة أن يتبع الولد سياسة أبيه تماماً، ولا يكفي ذلك لإدانة هنري الثاني أو لويس السادس عشر.

الحكم بإعادة البرلمانات التي ألغاها جدّه، فقد كانت نظرة لويس الخامس عشر صائبة، وكانت المجالس العامة[1]، وكان خطأ لويس الخامس عشر بتهديمه ذلك الحاجز الذي يفصل العرش عن الشعب أنه لم يعوّض عنه واحداً أكثر قوة منه، أخيراً أنه لم يعوض عن البرلمانات ببنية قوية لسلطة مجالس المقاطعات، فهناك كان يمكن معالجة أمراض الملكية، وهناك كان يمكن التصويت على الضرائب وتنظيمها، والاصلاحات الضرورية البطيئة للنظام الملكي.

كان أوّل عمل لهنري الثاني أن منح ثقته لمونمررونسي قائد الجيش، الذي كان والده قد فرض عليه قيوداً حدّت من أهميته، فغدا عند ارتقاء هنري الثاني العرش، مع ديان دي بواتية، المرتبط معها بشكل وثيق، رجل الدولة الأوّل؛ ووجدت كاترين نفسها أقل سعادة وقوة وهي ملكة فرنسة منها وهي وليّة للعهد. إنما بدءاً من العام ١٥٤٣، أخذت ترزق في كل عام ولداً ولمدة عشر سنوات. وراحت تنشغل بواجباتها الأمومية طيلة المدة التي شملت السنوات الأخيرة من ملك فرنسوا الأوّل وكل مدة حكم هنري الثاني تقريباً، وليس من المستحيل أن نرى في مثل هذه الخصوبة المستمرة تأثير منافسة تريد أن تبعد عنها الزوجة الشرعية. وكان من المتوجب لهذه الهمجية في السياسة الأنثوية أن تعتبر أحد مطاعن كاترين ضد ديان، لكن هذه المرأة السامية، وقد وجدت نفسها بعيدة عن إدارة القضايا العامة، أمضت الوقت وهي تلاحظ مصالح جميع رجال البلاط، وجميع الأحزاب التي تشكل

---

(١) برلمان Parlement: كان البرلمان في فرنسة يعني حتى عهد الثورة مجلس قضاء أعلى مستقلاً عن البلاط الملكي، من حقّه أن يوجّه بموجب خطاب للملك اعتراضاً على قرار أو مرسوم يرى فيه بعض المساوىء وكان لكل مدينة كبرى برلمانها.

أما المجالس العامة: أو مجلس الطبقات Etats généraux فهو مجلس يضمُّ ممثلين عن طبقات الأمة الثلاث النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة، البورجوازيين. وهذا المجلس ذو مهمة استشارية ولا يجتمع إلا بناءً على دعوة الملك وفي الحالات الهامة بكامل أعضائه في المملكة الفرنسية (قبل الثورة). وقد كان لكل مقاطعة مجلس عام أو مجلس طبقات يتألف أعضاؤه من ممثلي الطبقات الثلاث في المقاطعة ويجتمع خاصة للنظر في الضرائب المترتبة في كل مقاطعة للبلاط الملكي والحكومة، هذه الضرائب التي كانت تسمّى «الهبة المجانيّة». (ملاحظة من المترجم).

فيه. كان جميع الايطاليين الذين تبعوها عرضة لشبهات عنيفة فبعد إعدام مونتكوكولي أثار دي مونمورونسي قائد الجيش، وديان دي بواتيه، ومعظم دعاة السياسة في البلاط الشكوك حول آل مديسي، لكن فرنسوا الأول ردعهم دائماً، وهكذا فإن آل غوندي، وبيراغ، وستروزي، وروجييري، وسرديني[1]؛ أخيراً كلٌّ أولئك الذين يسمُّون إيطاليين والذين تبعوا كاترين، وجدوا أنفسهم مضطرين ليبدوا مزيداً من اليقظة والتعقّل والسياسة والجرأة ليبقوا في البلاط في جوّ من عدم الرضى يحيط بهم، وخلال هيمنة ديان دي بواتيه فإن محاباة كاترين لها بلغت حدّاً دفع بالأشخاص الماكرين ليروا في ذلك برهاناً على عمق الرياء الذي أوجبه الناس والأحداث وسلوك هنري الثاني على كاترين؛ وقد ذهبوا بعيداً في ذلك مدّعين أنها لم تطالب البته بحقوقها، لا كزوجة ولا كملكة؛ لكن عاطفة الاعتزاز بالنفس، التي تميّزت كاترين بأعلى درجة منها، منعتها دون شك من أن تطالب بما سمّاه المؤرخون حقوق الزوجة، والأحد عشر حملاً والأولاد العشرة يُفسرون سلوك هنري الثاني الذي هيّأ له وضع زوجته في تلك الأحوال الحرية لقضاء وقته مع ديان دي بواتيه. لكن من المؤكّد أن الملك لم يقصّر أبداً في ما يتوجّب عليه، فقد أعد للملكة **دخلة** لحفلة تتويجها فاقت حفلات كل من سبق أن توّجن ملكات. وتشير سجلات البرلمان، كما تشير سجلات ديوان المحاسبة، إلى أن هاتين المؤسستين الكبيرتين في الدولة مشتا بكاملهما أمام كاترين خارج باريس وحتى سان لازار، وهذا وصف دوتيّه[2] لذلك الاحتفال:

نصبت في سان لازار منصة كبيرة يعلوها عرش - يسميه دوتيه **أريكة**

(١) يذكر المؤرخون والنقّا دون عندما يتعرّضون لحاشية كاترين الإيطالية دائماً آل غوندي، وآل بيراغ؛ أما آل سرديني فلم يذكروا أبداً إلا عند زواج سيبيون سرديني بإيزابيل دي ليموي. لكن المؤرخين يذكرونه كواحد ممن اغتنوا باستثمارهم المملكة، وقد ضمّ إليهم بلزاك آل روجيري ليعطي دوراً تاريخياً للخيميائيين اللذين أبرزهما في قسم **اعتراف الروجيريين** وبما أن كوسم وحده هو المشهور فإنه لم يشر إلا إليه بمناسبة قضية لامول. لكنه لا ينتمي إلى الحلقة السياسية لآل غوندي أو لآل بيراغ.

(٢) كان دوتيّه موثّقاً في باريس، والوصف أعلاه لدخول الملكة باريس مأخوذ عن **طرف الملكات** مع الإشارة إلى أنه من اعداد الموثق دوتيه.

الصمدة - استقرّت كاترين عليه، وهي ترتدي فروة دون أكمام تبرق بالأحجار الكريمة، ومخصّراً ومعطفاً ملكياً وعلى رأسها تاج مرصع باللآلىء والألاميس تسنده المارشالة لا مارك وصيفة الشرف الأولى، وقد وقف حولها أمراء العائلة المالكة وغيرهم من الأمراء والنبلاء وقد ارتدوا أفخم الثياب، ومستشار فرنسة مرتدياً ثوباً مذهباً مشكّلاً على قماش أرجواني. وأمام الملكة وعلى المنصة ذاتها جلست اثنتاعشرة دوقة أو كونتيسة في صفين وقد ارتدين فروات المخمل. والمخصرات والمعاطف والأطُر أي التيجان الصغيرة المخصصة للدوقة أو الكونتيسة وهنا دوقات، استوتفيل ومونبونسية البكر والصغرى واميرة دلا روش سور - إيون، ودوقات دي غيز، ونيفرنوا، وأومال، ودي فالنتينوا (ديان دي بواتيه) ومدموازيل فرنسة (هي ابنة الملك سفاحاً، لكن معترف بها وقد منحت لقب دوقة كاسترو - فارنيز ثم غدت دوقة مونمورنسي - دمفيل) ثم السيدة زوجة قائد الجيش، والآنسة دي غور. عدا آنسات عديدات لم يجدن مكاناً. وكان رؤساء المحاكم الأربع وبعض أعضاء البلاط، والكاتب الموثّق دوتيّه قد صعدوا إلى المنصة فقدّموا احتراماتهم للملكة وهم يجثون باسناد الركبة على الأرض ووجّه الرئيس الأوّل ليزه خطاباً للملكة أجاب عليه المستشار جاثياً أيضاً وكان دخول الملكة إلى باريس نحو الساعة الثالثة بعد الظهر في محفّة مكشوفة وقد جلست مقابلها مدام مرغريت دي فرانس وسار على جانبي المحفّة الكرادلة دامبواز، ودي شاتيون، ودي بولوني، ودي لننكور في ثيابهم الكهنوئية. نزلت الملكة من على المحفّة في كنيسة نوتردام واستقبلها مجلس الكهنة بكامله. وبعد إقامة الصلاة توجّهت عبر شارع دي لا كالاندر إلى القصر حيث أعد العشاء الملكي في الصالة الكبرى وبدت جالسة وسط مائدة من مرمر تحت قبّة من مخمل نثرت عليها أزهار زنبق مذهبة.

من المناسب هنا تقويض أحد هذه الآراء الشعبية الخاطئة التي يردّدها بعض الأشخاص عن سوقال خاصة، فقد زعم أن هنري الثاني قد اندفع في تناسي التقاليد حتى أنه وضع الحرف الأوّل من اسم عشيقته على الصروح التي نصحته كاترين باتمام بنائها أو بالبدء بها بعد تخطيط رائع، إنما الحرفان الموجودان في

اللوفر يكذّبان في كل يوم أولئك القليلي الفطنة والتبصّر الذين يصدّقون تلك الحماقات التي تسيء مجاناً إلى سمعة ملوكنا وملكاتنا فـ H هنري الثاني وحرفا C المتقابلان ظهرياً لكاترين يبدوان وكأنهما حرفا D لديان[1]، هذا التوافق قد أعجب هنري الثاني لكن ذلك لا ينفي أبداً أن الرمز الملكي يحمل الحرفين الأوليين من اسمي الملك والملكة وهذا صحيح أيضاً بحيث أن هذا الرمز موجود على «عمود» سوق هال القمح[2] الذي أشارت كاترين منفردة ببناء قصر لها فيه كما يمكن أيضاً أن نجد هذا الرمز نفسه في سراديب مدفن سان دنيس على القبر الذي أشادته كاترين لنفسها قبل وفاتها، وقرب قبر هنري الثاني حيث نقشت صورتها عن الطبيعة من قبل النحات الذي مُثلت أمامه لهذا الغرض[3].

في مناسبة احتفالية في الفترة التي ذهب فيها هنري الثاني في حملته على المانية، عهد بالوصاية على العرش خلال غيابه، وكذلك في حال موته لكاترين، وذلك بتاريخ ٢٥ آذار ١٥٥٢ وقد شهد ألدُّ أعداء كاترين، مؤلّف «بيان مدهش حول انحرافات كاترين الثانية»[4] بأنها قامت بهذه الوصاية بشكل استحق الثناء العام، وأن الملك هنري الثاني كان راضياً عن ادارتها وهو صاحب النظرة الخاصة بالرجال والمال. أخيراً فعقب يوم سان - كنتين المشؤوم حصلت كاترين من الفرنسيين على مبالغ كبيرة أرسلتها إلى الملك الموجود في كومنيي، بذلت كاترين

(١) العالم سوفال (١٦٢٠ - ١٦٧٠) له كتاب (تاريخ وأبحاث الأوابد في مدينة باريس - ٣ أجزاء - ١٧٢٤) وهذا الابهام في الأحرف غالباً ما أثار نقاشاً من قبل البحّاثة والمنقّبين.

(٢) بني سوق هال القمح في العام ١٧٦٨ وتقوم مكانه الآن بورصة التجارة، لكن العمود الذي نصب أمام قصر كاترين في ذلك المكان والمعروف باسم قصر سواسون، هذا العمود وحده ما يزال قائماً.

(٣) التلميح غامض ففي سان دنيس يوجد ضريحان لكاترين دي مديسي وهنري الثاني، ويبدو أن بلزاك كان يفكر بالتمثال المعدّ من قبل جرمن بيلون حيث مُثّلت وهي نصف مضطجعه ونصف عارية لكن القاعدة لا تحمل أي رمز، أما القبر الآخر حيث سرير العرض الممثل لجثماني الملك والملكة فهو يحمل رموزاً إنّما هو إعادة تمثيل، إذ أن سريري العرض الأصليين من البرونز كانا قد صهرا في العام ١٧٩٢، ولم يكونا قد جُدّدا في العام ١٨٤٨.

(٣) عنوان مؤلّف دي راديه «**بيان مدهش حول حياة وأعمال وانحرافات كاترين دي مديسي**» ويبدو أن هناك خطأً طباعياً أو في الاختصار إذ لم يشر أبداً لكاترين بلقب الثانية، وفات بلزاك التصحيح.

في السياسة جهوداً خارقة لتحظى بقليل من النفوذ، وكان لها من الفطنة ما مكّنها من أن تكسب تأييد قائد الجيش، وهو صاحب النفوذ في عهد هنري الثاني. ونحن نعرف الجواب الرهيب الذي نطق به الملك لمونمورونسي(١)، وقد كان هذا الجواب نتيجة النصائح القيمّة التي أعطتها كاترين في الفترات القليلة التي كانت فيها منفردة بالملك، وشرحت له فيها السياسة الفلورنسية القائمة على إحداث التفرقة بين كبار رجال المملكة وتوطيد السلطة الملكية على أنقاضهم(٢)، وهو النظام الذي استنّه لويس الحادي عشر وسارت هي على نهجه، واتبعه فيما بعد ريشليو، أما هنري الثاني، الذي لم يكن يرى إلا بعيني ديان وقائد الجيش فقد كان ملكاً إقطاعياً وصديقاً للبيوتات الكبيرة في مملكته.

بعد المحاولات غير المجدية التي بذلها قائد الجيش من أجلها، والتي يمكن إعادتها إلى العام ١٥٥٦، راحت كاترين تتقرّب إلى آل دي غيز، وتبني خطة لفصلهم عن حزب ديان لكن للأسف كانت تجمع ديان وقائد الجيش مع آل غيز عاطفة معاداة البروتستانت فلم يكن بينهم في صراعهم ذلك العداء الناتج عن الموضوع الديني. زد على أن ديان عارضت جهاراً مشاريع الملكة بمغازلتها آل غيز، وإعطائها ابنتها زوجة لدوق أومال؛ بل إنّها ذهبت إلى أبعد من ذلك، حتى أن بعض المؤلّفين يدعون أنها منحت أكثر من الملاحظات البريئة للرجل الظريف الكردينال دي لورين، وهجاؤو ذلك الزمن وضعوا حول هذا الموضوع الرباعية التالية عن هنري الثاني(٣).

يا صاحب الجلالة، إن تركت الأمور تسير، كما يرغب شارل(*).

---

(١) قال الملك: «يا شريكي أنت لا تعرف طبع امرأتي: إنّها أكبر مشوّشة في الدنيا فإن سمح لها التدخل في شؤون الحكم أفسدت كل شيء» وقد استمد بلزاك هذا الحوار من درو دو راديه وسجّله في **سر الروجيريين** لكنه حذفه بعد ذلك».

(٢) شعار آل مديسي الذي ذكره مزراي في «**تاريخه**» (فرّق تَسُدُ) وكان بلزاك يرى في سياسة التفرقة التي مارستها كاترين باستمرار، التصرّف الواعي والضروري «لملك كبير» بينما رأى النقّاد وكثير من المؤرخين - منهم دي تو - رغم إعجابهم بها بهذه السياسة طمعاً أنانياً ووسيلة غير مجدية غالباً.

(٣) مأخوذة من درو دو راديه أيضاً.

(*) شارل: هو الاسم الأوّل للكردنيال دي لورين (ملاحظة من بلزاك).

وكما تريد ديان بزيادة هيمنتها عليك.

تصهرك، وتعجنك، وتطريك، وتعيد سكبك، وتقليبك

فانّك لن تكون عندئذ صاحب جلالة، وإنما مجرّد قالب من شمع[1]. ليس متعذراً الإيمان بصدق دلائل الألم ومظاهر الإسى التي بدت على كاترين عند موت هنري الثاني. فبفعل هذا الهوى غير المتزعزع الذي أبداه الملك نحو ديان دي بواتيه وجب على كاترين أن تلعب دور المرأة المهجورة التي تعيد زوجها، وقد استمرت كجميع النساء الذكيات في مواربتها ولم تفتأ تتكلّم بحنان عن هنري الثاني. كانت ديان، كما هو معروف، قد لبست ثياب الحداد طيلة حياتها على السيد دي برزه زوجها، وكان لوناها الأبيض والأسود؛ وظهر الملك بهما في السباق الذي مات فيه. فكاترين بدورها وربما بدافع مضاهاة منافستها لبست ثياب الحداد على هنري الثاني طيلة حياتها؛ وكانت تظهر حيال ديان دي بواتيه بمنتهى المكر الذي لم ينتبه له المؤرخون. فعند موت الملك، وجدت الدوقة دي فالنتينوا نفسها لا حظوة لها، ومهجورة بلؤم من قبل قائد الجيش، الرجل الذي برهن على أنه أدنى من السمعة الطيّبة التي يتمتع بها. قدّمت ديان للملكة أرضها وقصرها في شنونصو، وقالت كاترين عند ذاك أمام شهود: «لا يمكنني أن أنسى أنها كانت مصدر بهجة لعزيزي هنري، وأنا خجلة من قبول هديتها، وسأعطيها مقابلاً لها وأنا اقترح لها ملكيتي في شومون - سور - لورا» والواقع أن صكّ التبادل قد جرى في بلُوا في العام ١٥٥٩، وقد حافظت ديان بفضل صهريها دوق أومال ودوق دي بويوي، والأخير أمير حاكم، على كلّ ثروتها وتوفيت بسلام في العام ١٥٦٦، وعمرها ست وستون عاماً. فهي إذاً أكبر بتسعة عشر عاماً من هنري الثاني. وهذان التاريخان المأخوذان عن شاهدة قبرها من قبل المؤرخ الذي اهتم بوقائع حياتها في أواخر القرن الماضي يوضّحان جيّداً بعض الغوامض التاريخية إذ أنَّ بعضاً من المؤرخين جعلها في الأربعين من العمر عند الحكم على والدها في العام ١٥٢٣ بينما ذكر البعض الآخر

---

(١) يجب ملاحظة الطباق في اللغة الفرنسية بين صاحب الجلالة SIRE وقالب الشمعCIRE .

أنها كانت في السادسة عشرة آنذاك، والواقع أنها كانت في الرابعة والعشرين من عمرها وبعد قراءة كل ما يتعلق بتصرفها مع فرنسوا الأول بسيئاته وحسناته، في الفترة التي كان فيها بيت پواتيه يتعرّض لخطر كبير، لا نريد تأكيد أو نقض أي شيء. فهنا أحد المسالك التي بقيت غامضة في التاريخ، ويمكننا أن نرى مما يحدث في أيامنا أن الوقائع تزيَّف في اللحظة نفسها التي تحدث فيها. علّقت كاترين آمالاً كبيرة على عمر منافستها وجرّبت عدة مرّات أن تطيح بها، ونشأ عن ذلك صراع خفيٌّ رهيب. وكادت كاترين ذات يوم أن تحقّق آمالها. ففي العام ١٥٥٤ كانت السيّدة ديان مريضة، فرجت الملك أن يذهب إلى سان جرمن ريثما تبلو من وعكتها، فهذه المغناج المتأنّقة لم تشأ أن تظهر بمظاهر الضعف الواجب معالجتها، أو دون ألق زينتها. عمدت كاترين من أجل استقبال الملك عند عودته على أن تقيم له حفلة باليه تقدم خلالها ست فتيات مسرحية شعرية أمامه، وقد اختارت من بين هؤلاء الفتيات الاسكتلندية الآنسة فلمنغ[1] قريبة زوج خالتها الدوق ألباني وهي من أجمل فتيات عصرها، في شقرتها وبياض بشرتها. ثم إحدى قريباتها كلاريس ستروزي، الإيطالية الرائعة الجمال ذات الشعر الأسود الفاحم واليدين المسبلتين في بهاء نادر، وإلى جانبهما الآنسة لويستون وصيفة الشرف لدى ماري ستيوارت، وماري ستيوارت نفسها، واليزابيت دي فرانس التي غدت فيما بعد تلك الملكة الاسبانية التعسة والآنسة كلود. كانت كلود في الثامنة، وماري ستيوارت في الثانية عشر واليزابيت في التاسعة، وبديهي أن الملكة أرادت أن تبرز الفتاتين كلاريس ستروزي، والآنسة فلمنغ واظهارهما دون منافسات لهن أمام اختيار الملك، ولم يقاوم الملك الإغراء واختار الآنسة فلمنغ، وكان له منها ابن سفاح هو هنري دي فالوا، كونت آنغولم. التقيُّ الأكبر في فرنسة[2]. لكن اعتبار ديان وتأثيرها لم يتزعزعا أبداً، وكما غفرت فيما بعد السيّدة دي بومبا دورزلّة لويس الخامس

(١) الواقع أنها الآنسة ن. فلامن، وفي فصل من طُرَف الملكات يُذكَر حفل الباليه هذا، وتاريخه واسماء وأعمار الراقصات. ثم علاقة الملك بالآنسة فلامن «بعد ثلاث أو أربع سنوات منه» وقد حذف بلزاك المدة وأضاف نيّة الملكة من إقامته ووصف الفتاتين الشابتين فيه.

(٢) التقي الأكبر: هو لقب نبالة مختلط بصفة دينية كان يمنح قديماً في العهود الملكية في فرنسة.

عشر، كذلك غفرت الدوقة دي فالنتينوا! لكن أي حبّ دفع كاترين إلى هذه المحاولة؟ أهو حب السلطة، أم حب الزوج؟ النساء وحدهن يقررن!.

يتحدّثون كثيراً في هذه الأيام عن الإباحة الجريئة للصحافة؛ لكن من الصعب أن نتصورّ إلى أيّة درجة بلغ تأثيرها في مطلع ظهور الطباعة. من المعروف أولاً أن لارتين، وهو فولتير عصره، كان يهزُّ عرش الملوك خشية نقده وأولّهم شارل كنت. ولكن قد لا نعلم إلى أي مدى بلغت جرأة الهجائين. هذا القصر المسمى شنونصو الذي **أعطي** لديان، إنه لم يُعطَ عطاءً، وإنَّما توسّل إليها أن تقبله لتنسى إحدى أشنع المنشورات التي ظهرت ضد امرأة والتي تبيّن مدى عنف الصراع بينها وبين السيّدة ديتامب. ففي العام ١٥٣٧، وكانت في الثامنة والثلاثين من العمر، قام شاعر شامبني اسمه جان ڤوته بنشر مجموعة من القصائد اللاتينية تتضمن ثلاث قصائد في هجائها، ويجدر الاعتقاد بأن الشاعر كان قد ضمن حماية إحدى الجهات القوية له إذ أن مجموعته كانت مستهلة بتقريظ له من قبل سلمون مكرِن الوصيف الأوّل في جناح الملك، وهذا هو المقطع الوحيد الذي يمكن ذكره من هذه القصائد الهجائية المعنونة (ضد بواتيه، المرأة العجوز في البلاط) وهو يقول.

«إن الطُعْمَ المصبوغ لا يجذب الطريدة أبداً».

ثم بعد أن يقول لها: «إنّها تصبغ وجهها وتشتري أسنانها وشعر رأسها» يقول: «وتشتري أيضاً «الزائد النعومة» مما يكوّن المرأة، لكنك لن تحصلي منه بعد ذلك على ما تريدينه من عشيقك، إذ يجب أن تكوني حيّة بينما أنت ميتة لا حياة فيك».

هذه المجموعة المطبوعة لدى سيمون دي كولين، كانت مهداةً إلى مطران!... إلى فرنسوا بوهيه[1]، وهو أخو ذلك الذي أراد أن ينقذ حظوته في البلاط ويستغفر عن جريمته، فقدّم بمناسبة تولي هنري الثاني العرش قصر شنونصو الذي بناه والده توماس بوهيه مستشار الدولة في عهد أربعة ملوك: لويس الحادي

---

(١) في الواقع أن المجموعة الشعرية مؤلفة من أربعة كتب، وقصائد الهجاء موجودة في الكتابين الأولين وهما مهديان «إلى الشعراء الفرنسيين» بينما الكتابان الأخيران قد أهديا إلى مطران سان مالو. فرنسوا بوهيه.

عشر، وشارل الثامن، ولويس الثاني عشر، وفرنسوا الأوّل. إن قصائد الهجاء المنشورة ضد السيدة دي بومبادور، أو ضد ماري انطوانيت تعتبر لا شيء بالمقارنة مع هذه الأبيات التي كتبها هذا الفدائي؟! ولا شكّ في أنّ نهاية هذا الثوته كانت سيئة جداً! وهكذا فإنّ أرض شنونصو وقصره لم يكلفا ديان دي بواتيه[١] إلا غفران شتيمة طلب منا الإنجيل مسامحة لا عنيها. وهكذا فإن الغرامات المفروضة على الصحافة كانت، دون أن يقرّرها قاضٍ، أقسى بكثير مما تحكم به محاكم هذه الأيام.

كان من الواجب على ملكات فرنسة اللواتي يترملن أن يبقين في غرفة وفاة الملك مدة أربعين يوماً، دون أن يرين نوراً إلا ضوء الشموع؛ ولا يخرجن إلا بعد دفن الملك. هذه العادة غير القابلة للنقض أغاظت كثيراً كاترين التي كانت تخشى التحايلات لكنها وجدت وسيلة للتخلص منها؛ ذلك أن الكردينال دي لورين كان خارجاً ذات يوم (في ذلك الزمن! وتلك الفترة!)، صباح يوم باكر من منزل «الرومية الفاتنة» وهي غانية شهيرة كانت تقيم - أيام هنري الثاني - في شارع كولتور - سانت كاترين، فتعرّض له مجموعة من الفاسقين، وهذا ما أدهش قداسته!» وفقاً لقول هنري إيتين، وراجت شائعة بأن الملحدين ينصبون له كمائن، ولهذا السبب قرّر البلاط الانتقال من باريس إلى سان جرمن؛ ولم ترد الملكة أن تكون بعيدة عن ابنها الملك فانتقلت إلى هناك معه. بارتقاء فرنسوا الثاني العرش، خيل لكاترين أن بإمكانها استلام زمام السلطة، لكن كانت تلك آونة خيبة أمل توّجت بقسوة ستة وعشرين عاماً من الآلام مرّت عليها في بلاط فرنسة، فقد هيمن آل غيز على السلطة بجرأة لا تصدق، فغدا الدوق دي غيز على رأس الجيش بعد

---

(١) يدل هذا السرد على طريقة بلزاك في استغلال الحدث، ففي الفصل المتعلّق بديان دي بواتيه يتحدث درو دو راديه مرتين عن بوهيه دون أن يذكر فيما إذا كان الشخصان من عائلة واحدة. لكن بلزاك بمناسبة اهداء مجموعة ثوته إلى فرنسوا بوهيه يبتكر قصة إهداء قصر شنونصو إلى ديان من قبل ابن توماس لتنسى الإهداء الموجّه إلى أخيه فرنسوا، والواقع أن انطوان بوهيه اضطرّ أن يتنازل عن القصر لأن والده توفي مديونا لخزانة الدولة وليس كما سبق أن قال بلزاك في قصة **المعلم كورنليوس** أن القصر بني من الكنز الذي وجده بوهيه المذكور. وهكذا نرى كم يختلط الواقع التاريخي بابتكار الحدث لدى بلزاك واستغلاله في الرواية.

إبعاد القائد عنه، واستلم الكردينال المالية والإكليروس، وبدأت كاترين حياتها السياسية بإحدى تلك المآسي، التي دون أن يكون لها بريق سابقاتها، لم تكن الأقل إيلاماً. لكنها عوّدتها دون شك على مجابهة الانفعالات الرهيبة في الحياة. ومع تظاهرها بالاتفاق مع آل غيز، جربّت أن تؤمن انتصارها بالاعتماد على آل بوربون.

وسواء أكانت كاترين بعد أن جربت دون جدوى الوسائل الأكثر عنفاً، قد أرادت لتستعيد الملك أن تستخدم الغيرة، أم أنها وقد وصلت إلى شباب الكهولة بدا لها من الظلم ألا تعرف الحبّ، فأبدت اهتماماً كبيراً بنبيل من العائلة المالكة هو فرنسوا دي ڤندوم ابن لويس دي ڤندوم (البيت الذي تحدّر منه آل بوربون)(١) وهو ڤيدام (وكيل أسقفي) شارتر، وبذلك اللقب اشتهر في التاريخ. كان حقد كاترين الخفي على ديان قد تكشّف في ظروف عديدة لم يعرها المؤرخون المهتمون بالمصالح السياسية أي انتباه. وقد نتج تعلّقها بالڤيدام عن شتيمة وجهها الشاب إلى عشيقة الملك. فقد أرادت ديان أحسن المصاهرات لابنتيها اللتين تعودان إلى أعرق العائلات النبيلة في المملكة وطمحت إلى شرف مصاهرة البيت المالك في فرنسة، وجاء من طرفها من يقترح على الڤيدام الزواج من ابنتها الثانية التي غدت دوقة أومال. وكان ڤيدام شارتر وأمير كونده قد وفدا على بلاط الملك فرنسوا الأولّ، فرأى أن من الحكمة أن يبقيهما في الفقر وعهد اليهما بوظيفة حاجبين عاديين براتب سنوي ألف ومئتي إكو، وهو ما يعطى لأبسط النبلاء. وبالرغم من أن ديان دي بواتيه قد وعدت الڤيدام بأملاك واسعة عدا عن حظوة الملك وما ينتج عنها من وظيفة سامية فإن الڤيدام رفض العرض. ثم تزوّج هذا البوربوني العاصي جان ابنة البارون دى استيساك ولم يُرزق منها أولاداً. بادرة الاعتزاز هذه قربّت بشكل طبيعي الڤيدام إلى كاترين التي كانت تستقبله بودّ ظاهر، وجعلت منه صديقها المخلص وقد شبّه المؤرّخون آخر أدواق آل مونمورونسي الذي أعدم في تولوز بڤيدام شارتر من حيث الكياسة والجدارة والموهبة. لكن هنري الثاني لم يبد أيّة غيرة، ويظهر أنّه افترض أن ملكة فرنسة لا تخلّ بواجب الشرف، وأن ابنة مديسي لا تنسى المكانة التي منحها

(١) آل فندوم من حلفاء آل بوربون.

إياها ابن ڤالوا؛ وكانت الملكة في الفترة التي قيل عنها فيها أنها تغازل الڤيدام قد هجرت بشكل كليّ تقريباً من قبل الملك بعد ولادة آخر طفل لهما، وهكذا لم تفدها هذه المحاولة ومات الملك وهو تحت لواء الولاء لديان دي پواتيه. إذاً كانت الملكة كاترين عند موت الملك، تحت شبهة علاقة غرامية مع الڤيدام، وهو وضع يتلاءم تماماً مع طبائع ذلك الزمن حيث كان الحب يعتبر فروسياً تماماً، وإباحياً تماماً وحيث أجمل التصرفات كما الأكثر استحقاقاً للوم تبدو طبيعية. إنّما وكما يحدث دائماً، فإنَّ المؤرخين قد ارتكبوا خطأ اتخاذ الاستثناء قاعدة. فقد جعل أبناء هنري الثاني الأربعة وضع البوربونيين في حالة العدم، فكانوا جميعاً في منتهى الفاقة، مثقلين بالإزدراء نتيجة خيانة قائد الجيش التي ألقيت على عاتقهم، رغم الأسباب التي أكرهت قائد الجيش على الخروج من المملكة. كان ڤيدام شارتر بالنسبة لأمير كونده الأوّل، ما كان ريشيلو لمازارين؛ والده في السياسة، وقدوته، وأكثر من ذلك معلمه في الغزل والملاطفة؛ وقد أخفى طموح بيته المفرط تحت مظاهر الخفّة. ولم يكن في وضع يمكنه من الدخول في صراع مع آل غيز، وآل مونمورونسي، وأمراء اسكوتلندة، والكرادلة، وآل بويون؛ فتميّز بلطفه الجمّ، وحسن تصرفه، وروحه المرحة التي أكسبته حظوة لدى أكثر النساء جاذبية، وقلوب أولئك اللواتي لا يفكّر بهن؛ فكان واحداً من أولئك الرجال المحظوظين الذين لا يقاوم اغراؤهم، والذين بفضل الحب ملكوا وسائل المحافظة على مستواهم؛ فآل بوربون لا يتكدرون كما تكدّر جرناك من اغتياب لاشاتينيره، وقد قبلوا بكل طيبة خاطر الأراضي والقصور التي منحتها لهم خليلاتهم، بدليل أن أمير كونده قد قبل ملكية أرض سان فاليري من السيدة مارشالة دى سان آندره.

عند موت هنري الثاني، وخلال الأيام العشرين الأولى من الحداد، تغيّر إذا وضع الڤيدام كلياً، فقد كان موضع اهتمام الملكة الأم، وهو يغازلها بقدر ما تسمح ملكة بغزلها وبمنتهى السريّة، وقد بدا مقدّراً له أن يلعب دوراً ذا أهمية، والواقع أن كاترين قد عَزمت على الاستفادة منه، فتلقّى منها رسائل موجّهة إلى أمير كونده تبيّن فيها ضرورة التحالف معها ضد آل غيز، وعلم آل غيز بهذه المكيدة فدخلوا إلى

حجرة الملكة لينتزعوا منها أمراً بوضع القيدام في الباستيل؛ ووجدت كاترين نفسها تحت قسوة الأمر الواقع فأذعنت، وبعد عدة أشهر من السجن، أطلق سراح القيدام ليموت في يوم خروجه من الباستيل، وقبل وقت قصير من مؤامرة آمبواز.

هكذا انتهى حب كاترين دي مديسي الأول والوحيد وقد ادعى الكتاب البروتستنت أن الملكة عمدت إلى تسميم القيدام لتطمر في القبر علاقتها الغرامية[1] . . .

وهكذا تربّت تلك المرأة على ممارسة السلطة الملكية.

(١) يناقض بلزاك نفسه، إذ أنه وهو الحريص على أن يظهر كاترين ضحية، ذكر في القسم الثاني من هذه الرواية «**اعتراف الروجيريين**» (إن الكالفنيين، الذين افتروا عليها، لم يتمكنوا من أن يكتشفوا عشيقاً واحداً لها).

القسم الأوّل

المعذّب الكالفني

القسم الأوّل

المعذّب الكالفني

قليل من الأشخاص الآن يعرفون مدى شعبية مساكن البورجوازيين في باريس في القرن الرابع عشر، وكم كانت بسيطة حياتهم. ربّما كانت هذه البساطة في العقل والفكر سبب عظمة هذه البورجوازية القديمة، التي كانت بالتأكيد كبيرة وحرّة ونبيلة، ربما أكثر مما هي عليه بورجوازية اليوم. وتاريخها ينتظر من يدوّنه؛ وهو يتطلب وينتظر رجلاً عبقرياً. إنه مستوحى من الواقعة غير المعروفة التي تشكّل صميم هذه الدراسة والتي ستكون احدى الوقائع الأكثر تميّزاً في تاريخ البورجوازية؛ إنَّ هذه الفكرة ستكون على شفاه كل الناس بعد هذه القصة. هي المرة الأولى في التاريخ التي تسبق فيها الخاتمة الوقائع؟.

في العام ١٥٦٠ كانت بيوت شارع الفرّائين تجاور الضفة اليسرى لنهر السين بين جسر نوتردام وجسر أو شانج؛ ويشغل الطريق العام والبيوت المساحة الواقعة بين الرصيف والضفّة الحالية. كان كل منزل واقع على السين نفسه يسمح للسكان بأن ينزلوا إلى النهر بواسطة سلالم من خشب أو أدراج من حجر يحمي جانبيها شبك متين من الحديد ومجهزّة بأبواب مسمّرة. كان لهذه البيوت كما في البندقية باب على اليابسة، وباب على الماء. أما الآن ونحن نعدُّ هذه الوصف، فلم يبق إلا بيت واحد من هذا النوع يمكن أن يذكّر بباريس القديمة، وربّما سيختفي قريباً. إنّه قرب الجسر الصغير مقابل محرس أوتيل - ديو. كان كل مسكن يمثّل من جهة النهر الشكل الغريب الذي تطبعه عليه مهنة ساكنه أو عادات أهله أو طرافة الانشاءات

المبتكرة من قبل المالكين لاستخدام السين أو التجاوز عليه؛ والجسور المقامة جميعها قد زحمت بالطواحين، التي لا تعيقها حاجات الملاحة. كان السين في باريس يشكل أحواضاً مغلقة بقدر جسوره[١]. كانت بعض الأحواض في باريس القديمة هذه تقدّم للوحات الفنانين فوارق لونيّة ثمينة، وهل من غابة تمثّلتها هذه العضائد المتشابكة التي تدعم الطواحين والسكور الكبيرة، والدواليب؟ يا للتأثيرات الفريدة لهذه الدعائم المستخدمة لتجعل البيوت تتقدم فوق النهر! للأسف لم تكن اللوحات الزيتية تهتم بهذا النوع من المناظر، كما أن التصوير كان في المهد، وهكذا فقدنا هذه المشاهد المثيرة للفضول، والتي ما تزال تظهر، إنّما بشكل مصغّر في بعض مدن المقاطعات حيث الأنهار مفرّضه ببيوت من الخشب، وحيث الاحواض كما في قندوم مليئة بالأعشاب الطويلة النامية، فتقْسم بشبك واسع لعزل الملكيات القائمة على الضفتين.

يشير اسم هذا الشارع المحذوف الآن من المخطط[٢] إلى نوع التجارة التي كانت تمارس فيه، ففي ذلك الزمن كان التجار المنصرفون إلى صنف تجاري واحد أبعد من أن يتوزّعوا في المدينة، إنّما يتجمّعون معاً ويذود بعضهم عن البعض الآخر، ويتوحّدون اجتماعياً في النقابة التي تحدّد عددهم كما تضمّهم أخوية الكنيسة، وهكذا تتثبت لديهم الأسعار، كما أن المعلّمين لم يكونوا فريسة صنّاعهم، أو يذعنون لنزواتهم، بل بالعكس يعنون بهم، ويعاملونهم كأولادهم، ويوجهونهم إلى دقائق المهنة، ولكي يغدو الصانع معلّماً، عليه أن ينتج قطعة فنيّة[٣]، تقدّم دائماً إلى القديس شفيع أخويتهم. أتجرؤون على القول إن عيب

---

(١) المخطط المرسوم لباريس بين عامي ١٧٣٤ و١٧٣٩ يظهر هذا المنظر لباريس، وكان بلزاك يمتلك هذا المخطط المسمّى «مخطط تورغو».

(٢) إذا كان اسم «ڤيي بلتري» قد اختفى منذ مدة طويلة، فإن الشارع ما يزال يسى «لا بلتري» (شارع الجلود) لكن ليس من المؤكد أن يكون الفراؤون الذين أقامهم فيليب أوغوست فيه العام ١١٨٤ يرجعون إلى هذه التجارة أم أنهم قَرنوا مهنتهم بمهنة الصاغة التي سيتعرّض لها بلزاك.

(٣) يهتمُّ بلزاك بحياة النقابات، وهو مطلع بصورة خاصة على مجموعة بييرلوا «**مجموعة أنظمة ومزايا تجمّع تجار الصاغة والجوهرة في مدينة باريس - ١٧٣٤**».

المنافسة قد انتزع عاطفة الإتقان، وحَالَ دون جمال المنتجات، أنتم يا من خلق إعجابكم بتُحَف الصناعات القديمة مهنة تجارية جديدة هي تجارة الأشياء القديمة؟.

كانت تجارة الفراء في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تشكّل إحدى الصناعات الأكثر ازدهاراً، وكانت صعوبة تأمين الفراء الذي يجمع من البلدان الشمالية تتطلّب أسفاراً طويلة وخطيرة مما يوجب أسعاراً باهظة للمنتجات الفرائية، وعند ذاك وكما في الوقت الحاضر فإن السعر المرتفع يحرّض على الشراء والاستهلاك لأن الزهو والتفاخر لا يعرفان العوائق وفي فرنسة وبعض البلدان الأخرى لم تقتصر الأنظمة والقوانين على تخصيص لبس الفراء بالطبقة النبيلة، يشهد على ذلك الدور الذي يلعبه فرو «القاقم» في صنع الشعارات وإنَّما حظَّرت لبس بعض أنواع الفراء النادر مثل «الفير» وهو دون شك الزبلين الامبراطوري وخصّت به الملوك والأدواق وبعض كبار النبلاء المكلّفين بمهام خاصة[١]، وللفير درجات يميّز منها النفيس من الأدنى قيمة، وهذه الكلمة قد أهملت منذ نحو مئة عام بحيث أن عدداً لا يحصى من طبعات قصص پرو، التي تذكر خفَّ سندريّون الشهير المصنوع من فراء الفير الخفيف. ذكرت أن الخفَّ من «زجاج»[*] بحيث اضطرّ أحد الشعراء المتميّزين لتصحيح إملاء هذه الكلمة وتوجيه زملائه معدّي الروايات المسلسلة، بعد أن لاحظ أن قصة سندريلا استبدلت بالخفّ الرمزي حلقة، مما لا يعني الشيء الكثير[٢]. بالطبع فإن القرارات المتعلقة بلبس الفراء راحت تخالف باستمرار لحسن حظّ الفرّائين. وقد كان السعر العالي لبعض الأقمشة

---

(١) يستمد بلزاك معلوماته من كتاب «**نيكولادي لامار؛ المفصّل عن الشرطة** ١٧٠٥ - ١٧٣٨ - ٤ أجزاءً لكنه يهمل التاريخ عن خطأ أو ليزيد في أهمية المهنة التي يتحدث عنها فمنع البورجوازيين من ارتداء الفراء «الفير والقاقم» يعود إلى العام ١٢٩٤، كما صدرت أوامر أخرى لاحقة تخصّ المطرزات والحرير التي حلت محل الفراء الذي قلّ استعماله تدريجياً.

(*) الالتباس سببه جناس بالفرنسية بين لفظ «فير» للفرو و«فير» للزجاج.

(٢) الشاعر هو تيوفيل غوتية وقد كتب بتاريخ ٤ تشرين الثاني ١٨٣٩ مقالاً في «لابرس» يذكر فيه أن سندريون تعادل ديدمونه وخفّها من فرو وليس من (الزجاج) وهو لا يصلح طبعاً لصناعة الأخفاف. كما لوحظ خاصة أن كتيب سنرونتلا لروسيني حذف الخفّ ووضع مكانه سواراً من زجاج

وللفراء يجعل من الثوب أحد هذه الأشياء المستديمة المتينة المتماثلة للأثاث، والسلاح، ولوازم الحياة القاسية في القرن الخامس عشر؛ فقد كانت المرأة النبيلة، والسيد النبيل، والإنسان الغني، ككل بورجوازي يملك على الأكثر ثوبين لكل فصل، يدومان طيلة حياته وإلى ما بعدها؛ فقد كانت الثياب تورّث للأولاد؛ كما أن عقود الزواج كانت تتضمن بنداً خاصاً يتعلّق بالثياب والأسلحة، لما للقيمة الكبيرة للثياب في ذلك الزمن، وقد بطل هذا البند الآن بعد أن غدا تبديل الثياب عاماً وتجديدها لا يكلّف ثمناً باهظاً. استدعى الثمن الباهظ للثياب متانتها. كان هندام المرأة وأثوابها تعتبر رأسمالاً ضخماً، يحسب حسابه في المنزل، ويحفظ في خزائن عالية تصل إلى ارتفاع سقوف طوابق منازلنا الحديثة وثياب الزينة لامرأة العام ١٨٤٠ تكاد تعادل ثياب المنزل لسيدة محترمة من سيدات العام ١٥٤٠. أما اليوم فبعد اكتشاف أمريكا، وسهولة المواصلات، وانهيار الفوارق الاجتماعية الذي أدّى لانهيار امتيازات المظاهر، فقد تقلّصت تجارة الفراء حتى تكاد تكون معدومة الآن، فقطعة الفراء التي تباع اليوم، كما في السابق بعشرين ليرة، قد تبعت تخفيض قيمة الفضة، فليرة الفضة سابقاً كانت تعادل أكثر من عشرين فرنكاً، كما غدا باستطاعة فتاة البورجوازية الصغيرة، وحتى الغانية، اليوم، أن تحيطا بفرو السمور وشاحهما، وهما تجهلان أنهما لو كانت في العام ١٤٤٠ لقام شرطي مدينة مؤذٍ بإيقافهما على الفور واقتيادهما إلى قاضي الشاتلي[1]؛ والانكليزيات المهووسات بفرو القاقم لا يعرفن أن هذا الفرو الملكي كان خاصاً بالملكات والدوقات وأصحاب المهام السامية في فرنسا وهناك، حالياً عدة بيوت نبيلة تحمل اسم پلتيه أو لبلتية (الفرّاء) وبداهة أن أصلها يعود إلى جدّ قديم من أصحاب محلات الفراء ذلك أن أغلب الأسماء البورجوازية مستمدة من الألقاب المهنية.

هذا الاستطراد لا يفسر فقط النزاعات الطويلة حول حقّ التصدّر الذي جرى النزاع عليه خلال قرنين من الزمن بين أخويَّة الجوّاخين وأخويّة الفرَّائين والبزازين

(١) كانت الشاتليه هي مقرّ القضاء الباريسي الذي ينظر في القضايا المدنية.

(حيث كانت كل منهما تريد أن تسير في المقدمة، معتبرة أنها الأهم في باريس[١]، وإنما يبيّن أيضاً أهمية السيد لكاموس الفراء المحترم المعتمد للملكتين كاترين دي مديسي. وماري ستيورات، والمعتمد للبرلمان، ورئيس نقابة[٢] الفرائين والمقيم في ذلك الشارع.

كان منزل لكاموس أحد المنازل الثلاثة التي تشكّل الأركان الزاويّة للملتقى الواقع أسفل أوشانج، حيث لم يبق الآن إلاّ برج قصر العدل المشكّل للركن الرابع، وفي زاوية ذلك المنزل الواقعة على حافة جسر أوشانج والضفة المسماة الآن ضفة الزهور، هيّأ المهندس المعماري سناد كثيفة لتمثال للعذراء يضاء بالشموع دون انقطاع، وهو مزين بطاقات الزهور الطبيعية خلال الفصل الجميل، والأزهار الاصطناعية شتاء، ومن جهة شارع الجسر، كما من جهة شارع ڤيبي - بلتيه، كان المنزل يرتكز على دعامات خشبيّة؛ وجميع منازل الأحياء التجارية تشكل تحت هذه الدعامات أروقة يسير تحتها المشاة في حماية قباء، وعلى أرض قاسية من الوحل المجروف المتنافر الوعر قليلاً. في جميع المدن، أطلق على هذه الأروقة في فرنسة اسم «**الركائز**»، وهو اسم نوعي تضاف إليه الصفة الدالة على التجارة، مثل: ركائز الهال، وركائز القصابة تلك الأروقة التي تطلّبها المناخ الباريسي المتقلّب والممطر كانت تعطي للمدينة تشكلها المتميّز، لكنها اختفت الآن كليّاً؛ وكما أنه لم يبق على النهر إلا بيت واحد، فإنّ طولاً لا يزيد عن مئة قدم من ركائز الهال القديمة هو الذي صمد على عوامل الزمن، وقد لا تمرّ أيام إلا ونرى هذه البقية من المتاهة القائمة لباريس القديمة قد هُدمت[٣]، من المؤكّد أن وجود هذا الحطام من العصر الوسيط لا يتناسب مع عظمة باريس الحديثة، وهكذا فإنّ هذه الملاحظات لا تهدف

---

(١) كان المقام الأول في القرن السادس عشر للفرائين ويليهم الجوّاخون.

(٢) كان لكل نقابة ستة فروع ينتخب معتمدها أو رئيسها لمدة سنتين (من أولئك الأكثر ذكاء، وممن يتميّزون بالاستقامة وحسن السمعة) «عن فليبيان ولوبينو: **تاريخ باريس**».

(٣) اعتباراً من العام ١٨٣٠ بدىء في حي الهال هدم كثير من الشوارع ذات الركائز من أجل تعريضة، وقد فكر بلزاك خاصة بشارع لاتونلري (المسمى سابقاً شارع ركائز الهال الكبيرة) وقد هدم جزئياً في العام ١٨٤٤.

لاظهار الأسف على هذه الأجزاء من المدينة القديمة، وإنما إلى تثبيت صورتها بوصف آخر بقاياها الحيّة الموشكة على السقوط هباءً منثوراً، ولتبرير أوصاف ثمينة لتحفظ لمستقبل يطارد العصر الحالي.

كانت جدران هذا البيت مبنيّة بخشب مغطّى بالأردواز، والفجوات ما بين قطع الخشب مملؤة، كما هو الأمر حتى الآن في بعض المدن القديمة في المقاطعات، بآجر تشكل ثخاناته المتعاكسة رسماً يسمى الزخرفة الهنغارية، وقواعد النوافذ وعتباتها العليا، وهي من الخشب أيضاً، مليئة بالنقوش الزخرفية، مثل ركيزة الزاوية التي ترتفع فوق تمثال العذراء، ومثل الركائز في واجهة المتجر. كانت كل نافذة، وكل عضادة رئيسة تفصل بين الطوابق تظهر زخرفات أشخاص أو حيوانات خرافية راقدة فوق أوراق شجرية مبتكرة. ومن جهة الشارع كما من جهة النهر، كان البيت مغطّى بعمرة سقف مماثلة لورقتي لعب متساندتين بحيث تتشكل جبهة جملون على الشارع وأخرى فوق الماء، والسقف يبرز كما سقوف الشاليهات السويسرية، وبشكل عريض جداً فيتشكل في الطابق الثاني رواق خارجي مزين بدرابزين يمكّن السيدة البورجوازية أن تتجول تحت سقفه وهي تطلّ على الشارع أو على الحوض الواقع بين الجسرين وصفّي المنازل.

كانت البيوت الواقعة على النهر عندئذ ذات قيمة كبيرة. ففي ذلك العصر لم يكن تمديد المياه إلى المنازل سائداً، كما أن نظام المجارير لم يكن عاماً، ولم يكن إلا مجرور مزنّر للمدينة أنهاه أوبريو، الرجل العبقري ذو الإرادة القوية، الذي فكر في أيام شارل الخامس بتنظيف المدينة، فكانت البيوت، المماثلة لبيت لكاموس، القائمة على النهر تستمد منه الماء اللازم لحاجاتها الحيوية وتطرح فيه مياه الأمطار والمياه المنزلية. والأعمال الواسعة التي قام بها شيوخ التجار في هذا المجال اختفت أيضاً[١]، وتذكّر من هم في الأربعين من العمر وحدهم أنّهم شاهدوا هذه الهوّات

(١) يتحدث سوڤال بالتفصيل عن هذه الأعمال في كتابه «أثريات باريس».

التي تغيب فيها المياه في شارع مونتمارتر، وفي شارع التامبل، الخ. هذه الأشداق الواسعة المفتوحة[1] أدّت في تلك الأزمنة القديمة مهمات واسعة خيّرة؛ وستبقى أمكنتها دون شك ماثلة باستمرار بالإرتفاع المفاجىء للطريق في مكان انفتاحها؛ وهذا تفصيل آثاري آخر لن يجد المؤرخ تفسيراً له بعد قرنين من الزمن. في يوم ما من العام ١٨١٦، كانت إحدى صغريات الفتيات تحمل إلى ممثلة في مسرح الآمبيغو آلاميسها من أجل دور الملكة الذي ستمثله، وفوجئت بعاصفة مطرية جرتها بسرعة مشؤمة نحو مجرور شارع التامبل[2] حتى كادت تختفي فيه لولا نجدة أحد المارة الذي سمع صراخها، لكنها كانت قد تركت الألاميس تسقط منها، وقد عثر عليها في فتحة مراقبة المجرور. هذا الحدث أثار ضجة كبرى، ودّعم المطالبات المنادية بإزالة بالوعات المياه والفتيات الصغيرات معاً. كانت هذه المنشآت الغريبة ترتفع نحو خمسة أقدام وهي مجّهزة بشبك متحرك أو مسيّج بقضبان حديدية تحدّد مدى انغمار الأقبية بالمياه، عندما يطغى السيل الناتج عن هطول أمطار شديدة ومستمرة ويتوقف أمام الشبك المنغلق بأقذار الشوارع التي ينسى مجاورو النهر رفعها.

كانت واجهة مخزن السيّد لكاموس مضاءة لكنها مجهزّة بتزجيج مرّصص يجعل المكان معتماً وكان الفراء يُحمَل إلى الزبائن الأغنياء في منازلهم، أما أولئك الذين يحضرون للشراء في المتجر فتعرض عليهم البضاعة بين الركائز، وهم متضايقون جميعاً، ولنصرّح بذلك، خلال النهار من مناضد الصنّاع الجالسين على كراسي منخفضة، كما كنا نشاهد تحت ركائز سوق الهال منذ خمسة عشر عاماً. من هذه الأمكنة المتقدمة، كان الصناع والصانعات والمستخدمون يتبادلون الأسئلة، والأجوبة، وينادون المارّة، عادات وتقاليد تحدّث عنها والتر سكوت الشهير في قصته **مغامرات نيجل**. كان شعار المتجر الممثل لحيوان قاقم يتدلّى إلى الخارج كما

---

(١) يذكر ڤيكتور هوغو في «البؤساء» هذه الفوهات «للبالوعات القوطية القديمة» التي كانت مفتوحة وسط الشوارع التي كان يصل عرضها إلى ٣ أمتار وارتفاعها إلى مترين، وقد كانت الاستعاضة عنها بشقوق تحت الأرصفة تجديداً بدأ يتعمم شيئاً فشيئاً، وقد اختفت تلك الموجودة في شارع التامبل نحو العام ١٨٣٢، وفوهة شارع مونمارتر في العام ١٨٣٥.

(٢) كانت عائلة بلزاك أيضاً في العام ١٨١٤ تسكن شارع التامبل.

تتدلّى لافتات بعض فنادق القرى وهو معلّق في منصبة من حديد مذّهب، متقنة الصنع، وفوق صورة الحيوان وعلى أحد الوجوه كتب بأحرف كبيرة.

لكاموس فرّاء سيّدتنا الملكة وسيدنا الملك

وعلى الوجه الآخر:

سيّدتنا الملكة الأم والسادة أعضاء البرلمان.

كانت عبارة **سيدتنا الملكة الأم** قد أضيفت منذ فترة قصيرة فتذهيب الأحرف ما يزال لماعاً جديداً. هذا التغيّر يشير إلى الثورة الحديثة الناتجة عن الموت المفاجىء للملك هنري الثاني الذي غير أقداراً وحظوظاً كثيرة في البلاط واستهل حظوظ آل غيز.

كان القسم الخلفي من المتجر يطلُّ على النهر، وفي هذا القسم يجلس البورجوازي المحترم وزوجته الآنسة لكاموس. في ذلك الزمن لم يكن يحق لزوجة رجل غير نبيل أن تنادي بسيدة، لكن نساء بورجوازيي باريس يحق لهن لقب «دموازيل»[1] بسبب الامتيازات الممنوحة لأزواجهن والموثّقة من قبل بعض الملوك، لما قدموا من خدمات هامة لهم. بين هذا القسم الخلفي من المخزن والمتجر يدور لولب خشبي، هو نوع من سلم حلزوني، يُصعَد بواسطته إلى الطوابق العليا، حيث المخزن الكبير، وسكن الزوجين الكهلين، وإلى السّقائف المضاءة بكوى حيث يقيم الأولاد، والخادمة والصنّاع والمستخدمون.

(١) كان تعبير «دموازيل في القرن السادس عشر يميز نساء صغار النبلاء، وقد غدا منذ أيام شارل الخامس لبورجوازيي باريس بعض المزايا الممنوحة للنبلاء.

هذا التجمع من العائلات، والخدم، والصنّاع، والحيّز الصغير الذي يأخذه كل منهم داخل المنزل حيث ينام الصنّاع جميعاً في غرفة كبيرة تحت السطوح يفسّر عدد سكان باريس الكبير المتجمعين ضمن مساحة تعادل عشر مساحة المدينة الحالية، كما يبيّن جميع تفاصيل الحياة الخاصة الغريبة في العصر الوسيط، وخُدُع الحبّ التي مهما كان رأي المؤرخين الرصينين، لا توجد إلا لدى القصاصين، ولولاهم لكانت قد ضاعت. في ذلك العصر، فإن نبيلاً عالي القدر مثل الأميرال دي كولينيي مثلاً كان يسكن في ثلاث غرف فقط، وحاشيته في فندق مجاور. لم يكن في باريس آنئذ خمسون قصراً، نعني خمسين صرحاً تعود إلى الأمراء الحاكمين أو كبار الحاشية ممن هم أسمى مقاماً من أكبر الأمراء الألمان مثل دوق باڤاريا أو أمير ساكس.

كان مطبخ بيت لكاموس واقعاً تحت القسم الخلفي من المخزن على النهر، وكان له باب مزجّج يطلّ على شرفة حديدية يمكن للطباخة أن تسحب من خلالها الماء بواسطة دلو من النهر حيث يمكّن عند ذلك غسل الثياب في المنزل، فهذا القسم الخلفي هو بمثابة غرفة طعام ومكتب وصالة استقبال للتاجر؛ هنا، في هذه الغرفة الهامة، المزخرفة بنجارة خشبية ثمينة، المزّينة ببعض تحف فنية، وخزانة كبيرة؛ يمارس التاجر شؤون حياته: هنا وجبات العشاء البهيجة بعد العمل؛ وهنا المداولات السريّة حول المصالح السياسية للبورجوازية والملكية؛ وقد كانت نقابات باريس الرهيبة قادرة عندئذ على تسليح مئة ألف رجل؛ في ذلك الزمن ايضاً، كانت قرارات التجار مدعومة من مستخدميهم، وأجرائهم، وصناعهم، وعمالهم، وكان **شيخ التجار** يعتبر زعيماً للبورجوازيين يوجههم ولهم في بلدية باريس قصر يمكنهم الاجتماع فيه، وفي **ردهة البورجوازيين**(١) الشهيرة هذه جرت مداولات رسمية عامة؛ ولولا التضحيات المستمرة التي جعلت الحرب غير محتملة بالنسبة للنقابات التعبة من خسائرها ومن الجوع، لما تمكّن هنري الرابع على الارجح، وهو المتمرّد الذي غدا أخيراً ملكاً، من دخول باريس البتة.

(١) اسم قديم كان يطلق على دار بلدية باريس، وغالباً ما يذكره المعجميّون والمؤرخون بهذا المعنى.

كل واحد يمكنه الآن أن يتصور بسهولة مظهر هذه الزاوية من باريس القديمة حيث ينعرج الجسر والرصيف الآن، وحيث تتطاول أشجار رصيف الأزهار، وحيث لم يبق حتى هذا الوقت إلا برج الصرح العالي والشهير الذي أطلقت منه إشارة البدء بمذبحة سان بارتلمي[١]. شيء غريب! أحد هذه البيوت الواقعة عند قاعدة هذا البرج المحاط آنئذ بالحوانيت الخشبية؛ بيت لكاموس سيشهد ولادة إحدى هذه الوقائع التي تعدّ العدة لتلك الليلة من المذابح، واقعة للأسف أكثر ملائمة منها شؤماً على الكالفنية.

في الفترة التي بدأت فيها هذه الرواية، دفعت جرأة المذاهب الدينية الجديدة باريس إلى أن تضجُ بالشكوى. فقد قام! سكوتلندي اسمه ستيوارت بقتل الرئيس مينار، أحد أعضاء البرلمان الذي ينسب إليه الرأي العام المساهمة الكبرى في تعذيب المستشار آن دو بورغ الذي أحرق في ساحة غريف[٢]، بعد **خياط** المرحوم الملك، الذي عذب أثناء الاستجواب بوجود الملك وديان دي بواتيه[٣]، وشدّدت الرقابة في باريس، وكان الحرس النبالون يضطرون المارة أن يصلوا أمام تمثال العذراء لاكتشاف الهراطقة الذين يفعلون ذلك على مضض أو قد يرفضون القيام بهذا الواجب المخالف لمبادئهم[٤]. كان النّبالان اللذان يشغلان زاوية بيت لكاموس قد غادرا المكان، وهكذا أمكن لكريستوف ابن الفراء، المشتبه به بشدة أنه هجر الكاثوليكية، أن يخرج دون أن يخشى الزامه بالتعبد امام صورة السيدة العذراء. كانت الساعة السابعة مساءً، وقد هبط الليل، والشهر نيسان ١٥٦٠، لذلك بدأ صناع المتجر،

---

(١) أطلقت هذه الإشارة بقرع أجراس سان جرمن- لوكسروا

(٢) تأريخ صحيح: نفذ حكم الإعدام بآن دو بورغ في ٢٣ كانون أول ١٥٥٩، وقد قتل الرئيس مينار، المعارض له طيلة النظر في القضية، قبل عدة أيام من ذلك.

(٣) يذكر درو راديه أن ديان دي بواتيه حضرت هذا الاستجواب كرها بالبروتستانت، ويشير بهذا الخصوص إلى كتاب «تاريخ الشهداء» لجان كرسبن -«عندما يتحدث عن الخياط- أي خياط هنري الثاني»

(٤) من المعروف أن البروتستنت لايعترفون بشفاعة السيدة العذراء وهنا اشارة إلى مأساة جرمو: وبلبلة آمبواز أو اصلاح ١٥٦٠.

وقد خف مرور الناس من تحت ركائز الشارع اليمنى واليسرى، بإدخال البضائع المعروضة كعينات؛ وقد وقف كريستوف لكاموس الشاب المضطرم حمية، ابن الأثنين وعشرين عاماً، على عتبة باب المنزل، متظاهراً بالانشغال برؤية الصناع.

قال أحدهم لكريستوف وهو يشير إلى رجل يذهب ويجيء تحت الرواق بمسحة غامضة: «سيدي قد يكون هذا الشخص لصاً أو جاسوساً، فليس على كلّ حال مثل هذا الفظ رجلاً شريفاً، ولو أراد التداو ل معنا في أمر، لتوجه الينا مباشرة بدلاً من أن يدور كما يفعل الآن... وأية هيئة له- وراح يقلد ذلك المجهول- أنف غائر في معطفه! وعين صفراء! وشحوب جائع!

عندما لاحظ المجهول- الذي وصفه الصانع- كريستوف وحده على عتبة متجره، غادر سريعاً الرواق المقابل حيث كان يتحرك جيئة وذهاباً، فعبر الشارع، ثم توجه إلى تحت ركائز بيت لكاموس وعندما مرّ بمحاذاة المتجر قبل أن يعود الصناع لإغلاق المصاريع إقترب من الشاب وقال بصوت منخفض: «أنا شوديو[1].

عند سماع اسم واحد من أشهر الوزراء، وأحد أكثر المخلصين للمأساة الرهيبة المسماة «الاصلاح» ارتعش كريستوف رعشة قروي وفيّ تعرّف على ملكه المتنكّر، فقال كريستوف ليخدع الصناع الذين أحس بهم خلفه: «تريد على الأرجح رؤية الفراء؟ رغم أن الليل قد هبط سأعرض عليك بنفسي بعضها» ودعا الوزير بإشارة من يده للدخول، لكن هذا أجابه بأنه يفضل التداول خارجاً؛ فتناول كريستوف قبعته وتبع نصير كالفن.

بالرغم من صدور أمر بنفيه فإن شوديو هذا العميل السري المطلق الصلاحية لتيودور دي بيز ولكالفن اللذين يديران الحركة البروتستنتية الفرنسية من جنيف،

---

(١) يحرف بلزاك، كما فعل جرمو، اسم الوزير لاروش شانديو، وقد ذكر عدة مؤرخين ومؤلفو مذكرات -منهم بيير ماتيو، ودي تو، ورينيه دلابلانش، اتصالاته الوثيقة مع كالفن وسفراته المتعددة بين جنيف وفرنسة، فهو وفقاً لقول ماتيو أحد اثنين اعتمد عليهما كالفن لتقديم مخططاته وزرع الفوضى في فرنسة (بيير ماتيو- تاريخ فرنسة خلال ملكية فرنسوا الأول- حتى لويس الثالث عشر ١٦٣١).

كان يذهب ويجيء متحدياً العذاب القاسي الذي أقرّه البرلمان، بالاتفاق مع الكنيسة والملكية، وحكم به على أحد أعضاء حركتهم الاصلاحية آن دي بورغ الشهير ليجعل منه عبرة لمن يعتبر. هذا الوزير كان له أخ قبطان، من أحد أفضل جنود الأميرال كولينيي، وهو أحد الأذرع التي كان كالفن يحرك بها فرنسة في بداية الاثنين وعشرين عاماً من الحروب الدينية القريبة الاشتعال آنئذ. هذا الوزير هو أحد تلك المفاتيح وخيرة الذين يشرحون النشاط الواسع لحركة الاصلاح الديني.

أنزل شوديو كريستوف حتى حافة الماء ضمن ممر أرضي مماثل لنفق ماريون الذي ردم منذ نحو عشر سنوات. هذا الممر الواقع بين بيت لكاموس والمنزل المجاور له قائم تحت شارع ڤيي- بلتري ويسمى جسر الفرائين، وكان يستخدم من قبل صباغي «السيتة» للهبوط إلى النهر لغسل خيوطهم، وحرائرهم، وأقمشتهم. كان هناك زورق صغير يقوده ويحرسه بحار واحد، وكان جالساً في مقدمته رجل مجهول قصير القامة بسيط الهندام. وخلال لحظة أصبح الزورق وسط السين، وقد وجهه البحار إلى تحت أحد هذه العقود من الخشب في جسر أوشانج حيث ربطه بخفة إلى حلقة حديدية؛ ولم يكن أحد قد فاه بكلمة حتى الآن.

قال شوديو وهو ينظر إلى المجهولَين: «يمكننا أن نتكلّم هنا دون خوف، فلا جواسيس ولا خونة. - هل أنت مليء بهذا الاخلاص الواجب أن يتحلى به الشهداء؟ هل أنت مستعد لتحمل كل شيء من أجل قضيتنا المقدسة؟ أتخشى العذابات التي تحملها خياط الملك المتوفي، والمستشار دو بورغ، والتي يتوقعها معظمنا؟» قال ذلك لكريستوف وهو يبدي له وجهاً مشعاً.

أجاب لكاموس ببساطة وهو ينظر إلى نوافذ القسم الخلفي من المخزن: «أنا أقرّ بالإنجيل» وأرَته نظرته السريعة، وإنما الكاملة، المصباح المنزلي الموضوع على المنضدة حيث يراجع والده دون شك دفاتره التجارية وذكّره بريقه بأفراح العائلة والحياة المطمئنة التي تخلى عنها. عانقت نظرة الشاب هذا الحي الممتلىء بالوفاق البورجوازي حيث قضى طفولته السعيدة، وحيث تعيش بابيت لاليه، خطيبته،

وحيث كل شيء يعده بحياة ناعمة، ممتلئة بالغبطة. نظر إلى الماضي، ونظر إلى مستقبله، إنه يضحي بكل شيء، أو على الأقل يغامر بكل شيء. هكذا كان رجال ذلك الزمن.

قال البحار المندفع: «لا داعي للذهاب بعيداً، إننا نعرفه واحداً من **قديسينا!** ولو لم يقم الاسكوتلندي بالضربة، لتولّى هو الرئيس السافل مينار.

قال لكاموس: «نعم إن حياتي مكرسة للكنيسة وأبذلها بسعادة لانتصار الاصلاح الذي فكرت به بكل جدية. إنني أعرف ما نفعل لهناء الشعوب. بكلمتين: البابوية تدفع إلى العزوبية، والحركة الإصلاحية توجه إلى العائلة، لقد حان الوقت لتخليص فرنسة من رهبانها وتسليم أملاكهم للتاج الذي سيبيعها عاجلاً أو آجلاً للبورجوازية. فلنعرف كيف نموت من أجل أولادنا، ولنؤسس يوماً عائلاتنا الحرّة والسعيدة[1].

كانت أنوار الغَسَق الأخيرة تضيء وجه الشاب المتحمس، ووجوه شوديو، والبحار والمجهول الجالس على المقعد فتشكل منها لوحة تستحق الوصف بقدر ما يتضمن وضعها كل تاريخ ذلك الزمن، إن صحَّ ما يقال، إن بعض الرجال قد منحوا هبة اختصار روح عصرهم.

كانت حركة الاصلاح الديني التي حاولها لوثر في المانية، وجون كنوكس في اسكوتلندة، وكالفن في فرنسة، قد استحوذت بصورة خاصة على الطبقات الدنيا التي تغلغلت فيها الفكرة. أما كبار النبلاء فلم يدعموا هذه الحركة إلا ليستخدموها لمصالح غريبة عن القضية الدينية. إلى هذه الأحزاب المختلفة انضم المغامرون، والنبلاء المفلسون، والأولاد الثانون غير الوارثين، ممن تلائمهم جميعاً بلبلة الصفوف. لكن الإيمان بين الحرفيين، وأرباب التجارة كان صادقاً، وقائماً على حسابات صحيحة. فالشعوب الفقيرة انتمت سريعاً إلى عقيدة تعيد للدولة أملاك الكهنوت، وتلغي الأديرة، وتحرم كبار رجال الدين من مداخيلهم الواسعة؛

(١) يؤكد بلزاك على رابطة المصلحة بين البورجوازية وحركة الاصلاح الديني.

والتجارة بكاملها توقعت أرباحاً من هذه العملية الدينية، فأخلصت جسماً وروحاً ومحفظة. لكن الموعظة صادفت لدى شباب البورجوازية الفرنسية ذلك الاستعداد النبيل للتضحية من أي نوع كانت، مما يحمّس الشبيبة التي تجهل الأنانية. ورأى رجال نوابغ، وعقول نافذة، مما يصادف دائماً في صميم الشعوب، الجمهورية وافدة مع حركة الإصلاح الديني، وأرادوا أن يقيموا في كل أوروبة حكومة المقاطعات المتحدة التي ستنتهي إلى الانتصار في صراعها مع أكبر قوة في ذلك العصر، وهي اسبانية التي يحكمها فيليب الثاني والممثلة في هولندا بدوق دالب. وانبثق فكرجان هوتمن[١] عندئذ عن كتابه الشهير المتضمن هذا المشروع، والذي نشر في فرنسة خميرة هذه الأفكار المثارة مجدداً من قِبَل الرابطة[٢] التي أخمدها ريشليو، ثم لويس الرابع عشر، فعاودت الظهور مع الاقتصاديين، ثم مع الموسوعيين أيام لويس الخامس عشر، وتفجرت أيام لويس السادس عشر[٣] وكانت دائماً محمية بفروع الأبناء الثانين، فقد حماها آل أورليان في العام ١٧٨٩ كما حماها آل بوربون في العام ١٥٨٩. من يَقُل امتحاناً يَقُل تمرداً؛ وكل تمرد معطف يختبيء تحته أمير أو قِماط هيمنة جديدة. كان بيت آل بوربون وهم الأبناء الثانون لآل ڤالوا يتحركون في عمق حركة الإصلاح الديني. والقضية في اللحظة التي كان

---

(١) هو فرنسوا هوتمن، وكتابه الشهير **فرنكو- غاليا**، وقد نشر غداة مذبحة سان- بارتلمي حيث يرى فيه إنه إن لم يتم مشروع الجمهورية، فلا أقل من الاحساس بالأسف على الزمن الذي أجل فيه الشعب استخدام سلطته ليس فقط **لاختيار** مجموعة الدول، وإنما أيضاً لعزل الملوك، عدا عن حب مضمر لاصلاح النظام القديم. هذه النظرة السياسية كليا للإصلاح الديني تعتبر أساسية بالنسبة إلى تحليل بلزاك (المستند أيضاً إلى كتاب: مذكرات عن حالة فرنسة تحت حكم شارل التاسع لسيمون غولار ٣ أجزاء - ١٥٧٨)

(٢) الرابطة اتحاد كاثوليكي أنشأه الدوق دي غيز في العام ١٥٧٦ ضد الكالفنيين، ومن أجل إيصاله إلى العرش هو أو أحد ورثته وفي العام ١٥٨٨ أخذت الرابطة ببعض نظريات الحقوقيين البروتستانت للحد من السلطة الملكية ومعارضتها بسلطة المجالس؛ لكن الرابطة ضعفت بعد وصول هنري الرابع في العام ١٥٨٩ إلى العرش وتخليه عن الكالفنية وتحالفه مع فيليب الثاني ملك اسبانية.

(٣) هذه هي النظرية التي يؤكد عليها بلزاك منذ العام ١٨٣٠ والتي دعمها خصوم الاصلاح الديني كما قال بها مؤيدوه: كوندورسه وغيزو، وكذلك بونالد وصحفيو «لاكوتيديين» الذين رؤوا في ذلك أساس حركة الأفكار التي توطدت في القرن الثامن عشر وانتهت بالثورة الفرنسية.

فيها الزورق يعوم تحت عِقْد جسر أو شانح تعقدت بشكل غريب بطموح آل غيز الذين كانوا ينافسون البوربونيين، وهكذا فالتاج الممثل بكاترين دي مديسي، خلال ثلاثين عاماً، تمكن أن يصمد في المعركة بأن يجابه هؤلاء بأولئك، بينما وجد التاج نفسه، بدلا من أن تتناوشه عدة أيدٍ، أمام الشعب دون أي حاجز: فريشليو ولويس الرابع عشر قوضا حاجز النبالة، ولويس الخامس عشر قوض حاجز البرلمانات، وحين يكون الملك وحيداً أمام الشعب، كما كان لويس السادس عشر، فإنه يسقط دائماً.

كان كريستوف لكاموس يمثل تلك الشريحة المتحمسة والمخلصة من الشعب أحسن تمثيل: ففي وجهه الشاحب تلك الحدة والحرارة المميزتين لبعض الرجال الشقر، وشعره يميل إلى صفرة النحاس، وعيناه تبرقان بلون رمادي أزرق، وهنا فقط تظهر روحه الجميلة، إذ أن وجهه السيء الارتسام لا يخفي البتة عدم انتظام شكله، المثلث قليلاً، بتلك المسحة من النُبل التي تظهر على الأشخاص المهذبين، وجبهته المنخفضة لا تشير إلا إلى طاقة كبيرة. وتبدو الحياة وكأنها لا تستمد مبدأها إلا من صدره الغائر قليلاً؛ عصبي أكثر منه دموي، يبدي للناظر لون بشرة معروقة، ضعيفة لكنها صلبة؛ وأنفه المستدق يكشف عن لطف شعبي، كما أن هيئته تعبر عن ذكاء قادر على أن يسلك جيداً على نقطة من الدائرة دون القدرة على أن يلم بمداها[1]. عيناه بقوس حاجبيهما، المزين بزَغب أبيض، البارز كأنه إفريز تحيط بهما بعمق هالة زرقاء شاحبة تنتهي قرب منشأ الأنف ببياض براق، مما يشير بشكل دائم تقريباً إلى إثارة مفرطة. إن كريستوف هو الشعب المضحي، الذي يقاتل لكن تسهل خديعته، إنما على درجة من الإدراك ليتبنّى فكرة ويخدمها، كثير النبل بحيث يترفع عن الاستغلال، وكثير الشهامة بحيث لا يبيع نفسه. إلى جانب ابن لكاموس الوحيد كان شوديو، هذا الوزير المتحمس، ذو الشعر الداكن، النحيل من سهر الليالي، الشاحب الوجه، ذو الجبين المشع كفاحاً، والفم البليغ لساناً، والعينين الغامقتين الملتهبتين والذقن القصير الناهض، سينصبغ جيداً بالايمان المسيحي الذي

---

(١) يلاحظ التحفظ الذي يشير إلى دور ثانوي لكريستوف.

منح الحركة الاصلاحية عدداً من الرعاة المتعصبين الصادقين الذين ألهبوا السكان بفكرهم وشجاعتهم. انه رفيق كالفن وتيودور دي بيز، وهو يتباين على نحو رائع مع ابن الفراء، إنه يمثل جيداً القضية الحية التي ترى نتيجتها في كريستوف. لايمكن تصور مصدر قيادة بغير هذا الشكل للقوى الآلية الشعبية.

أما البحّار فهو رجل متهور، اسمرَّ لونهُ من الحياة الطليقة، تكون من ندى الليالي ووهج النهار؛ بفم مغلق، وحركة سريعة، وعين برتقالية شرهة كعين نسر، وشعر أسود جَعد. إنه صورة المغامر الذي يجازف بكل شيء في أمر، كما يخاطر المقامر بثروته على ورقة حظ. كلُّ شيء فيه يكشف عن أهواء رهيبة، جرأة لا تنثني أمام عقبة. عضلاته الحية تعرف كيف تصمت وكيف تتكلم، يبدو في هيئته جسوراً أكثر منه نبيلا، أنفه الشامخ رغم رقته يوحي بالصراع، يبدو سريع الحركة وماهراً يمكن أن تخاله في كل الأزمنة زعيم حزب، لو أنه لم يكن في حركة الاصلاح، لكان بيزار أو فرنان كورتز أو مورغان المدمر(١)، فعالية عنيفة.

كان المجهول الجالس على مقعد، والملتف بوشاحه ينتمي بكل بداهة إلى الطبقة الأكثر رفعة في المجتمع، فأناقة هندامه، بجودة تفصيل وقماش ورائحة ثيابه؛ وشكل وجلد قفّازيه تشير كلها إلى أنه رجل من البلاط، كذلك فوقفته، واعتزازه، وهدوؤه، وشكل نظراته تشير إلى أنه رجل قتال. مظهره يقلق أولاً، ويوحي بالمهابة. إن احترام الذات يوحي باحترام الرجل وهو قصير القامة وأحدب، لكن تصرفانه تعوض في لحظة عن عيوب شكله(٢)، فما أن ارتفعت الكلفة قليلاً، حتى بدا عليه المرح في التصميم، وحيوية يتعذر تحديدها تجعله

(١) ثلاثة مغامرين مشهورين: في بداية القرن السادس عشر استولى بيزار علي البيرو، وكورتز على المكسيك، وفي القرن السابع عشر اشتهر مورغان بجرأته وعنفه؛ إن لعبة التماثلات المألوفة لدى بلزاك هدفت إلى تعظيم لارنودي

(٢) هذه التفاصيل تشير إلى أن بلزاك لا يكتفي أبداً بمصدر واحد، ففي مأساة جرمو «يبدو كونده صغير القامة، حسن البنيان» لكن لي لابورور قال عنه «إنه أكثر لطفاً من أخوته، بالرغم من أنه صغير القامة أحدب، لأن فيه ضمن جسم مشوه، كل كنوز العقل والشجاعة».

محبباً، له العينان الزرقاوان، والأنف المعقوف لآل ناڤار، الشكل الاسباني لهذا الوجه ذي القسمات البارزة، الذي يجب أن يكون نموذجاً لملوك البوربون.

خلال بضع كلمات أخذ المشهد أهمية فائقة.

قال شوديو في اللحظة التي أنهى فيها لكاموس الشاب عبارته: إيه! الواقع أن هذا البحار هو لارنودي، ثم اشار باحترام إلى الأحدب الصغير قائلاً. «وهوذا سمو امير كونده[1]».

هكذا كان هؤلاء الرجال الأربعة يمثلون إيمان الشعب، وذكاء الكلمة، ويد الجندي، والملكية المحتجبة في الظل.

قال الوزير بعد توقف لتخفيف اندهاش لكاموس الشاب: «تريد أن تعرف ماذا ننتظر منك، وكي لا ترتكب أي خطأ، فإننا ملزمون باطلاعك على أهم أسرار الحركة الاصلاحية».

تابع الأمير ولارنودي كلام الوزير بحركة منهما. وبعد أن صمت هذا للحظة لإتاحة المجال للأمير للكلام بنفسه إن أراد. لكن الأمير كجميع كبار قادة المؤامرات، الذين يتبعون نظام عدم الظهور إلا في اللحظة الحاسمة لزم الصمت؛ ليس عن جبن: ففي هذه الظروف، وهو روح المؤامرة، لن يتراجع ضمن أي خطر،

---

(١) تعود فكرة جمع هذه الشخصيات الثلاثة إلى جرمو، على الأرجح؛ ففي اللوحة الأولى من المأساة، يطرح لارنودي فكرة اللقاء بين أمير كونده وشوديو، وقد كان كونده في الواقع «زعيم المؤامرة» (وفقاً لبرانتوم: كبار القادة الفرنسيين ...).

في العام ١٥٦٠ عندما قرر أمير كونده و«مجلسه الاستشاري» أن يتحركوا ضد الدوق دي غيز وأخيه الكردينال دي لورين، اختاروا لارنودي النبيل الجريء الصلب المنتمي إلى الحركة الاصلاحية لينظم ويقود بشكل مكشوف المجابهة. وفي شهر شباط جمع في نانت جمعية ادعى أنها تمثل الطبقات الثلاث وقد ضمت كثيراً من خصوم آل غيز، ثم جمع جنوداً من كل مكان تقريباً في فرنسة وحدد الهجوم في شهر آذار، وكانت النية هي احتجاز الأخوين دي غيز ولكن دون التعرض للملك الشاب (وفقاً للمؤلفين البروتستنت)، وقد زيف بلزاك التأريخ، إذ أن قصته تبدأ في نيسان كما أنه رغم مصادره، أراد أن يجعل مغامرة الشاب لكاموس قبل تشويشات آمبواز.

وهو يجازف برأسه، لكنه بنوع من الوقار الملكي تخلى عن شرح هذا المشروع للوزير واكتفى بدراسة الأداة الجديدة التي وجب أن يستخدمها.

قال شوديو بلهجة الهوغنوت: «يا بني، سنخوض مع المومس الرومية أولى المعارك، فخلال أيام سيموت فدائيونا على منصات الإعدام أو سيموت آل غيز. وقريباً إذا سيكون الملك والملكتان تحت سلطتنا. هوذا أول لجوء للسلاح لديانتنا[1] في فرنسة، ولن تلقيه فرنسة إلا بعد أن تفوز بكل شيء: فالأمر يتعلق بالأمة، كما ترى وليس بالمملكة. إن معظم الكبار في المملكة يرون إلى أين يريد أن يصل كردينال اللورين والدوق أخوه، فتحت ذريعة حماية المذهب الكاثوليكي يريد آل لورين المطالبة بتاج فرنسة كإرث لهم، وباعتمادهم على الكنيسة جعلوا منها حليفاً هائلاً فأصبح الرهبان دعامات لهم وأتباعاً وجواسيس. إنهم يتحركون كأوصياء على العرش الذي يريدون اغتصابه، وكحماة لآل ڤالوا الذين يريدون إبادتهم؛ وإذا كنا قد عزمنا على النهوض بالسلاح، فذلك لأن الأمر يتعلّق بآن واحد بحريات الشعب، وبمصالح النبالة المهددة أيضاً. فلنخنق في المهد عصبة مقيتة كعصبة البورغونيين الذين أغرقوا سابقاً باريس وفرنسة بالنار والدم[2] لقد وجب وجود لويس الحادي عشر لينهي خصومة البورغونيين للتاج، واليوم سيعرف أمير كونده كيف يمنع آل لورين من تجديد هذه الخصومة، إنها ليست حرباً أهلية، وإنما مبارزة بين آل غيز وحركة الاصلاح الديني، مبارزة حتى الموت، فإما أن نطيح برؤوسهم، وإما أن يطيحوا برؤوسنا.

هتف الأمير: «أحسنت التعبير»

وتناول لارنودي الكلام فقال: «في مثل هذه الظروف، ياكريستوف، نحن

---

(١) الواقع أن مهمة لكاموس حدثت بعد أول «حمل سلاح» ضد الحكومة لكن بلزاك يقرنها ببلبلة آمبواز فيعدّل التأريخ لكنه يستطيع أن يبسط لوحة تاريخيه مستعينا بالمأساة التي رسمها جرمو (انظر: ألبر جرمو: بلبلة أمبواز أو الحركة الاصلاحية في العام ١٥٦٠ - «باريس ١٨٢٩»)

(٢) تلميح إلى إحدى المراحل الأثيرة على بلزاك، فالعجوز لكاموس بدوره سيدير أيضاً صراعات البورغونيين والآرمنياك.

لا نريد أن نهمل شيئاً في سبيل تضخيم حزبنا، إذ أن للحركة الإصلاحية حزباً، هو حزب أصحاب المصالح المهملة. والنبلاء الذين ضحى بهم آل لورين، والنقباء القدامى الذين عوملوا بفظاظة في فونتينيبلو[١] حيث طردهم الكردينال، بعد أن أمر بنصب المشانق ليعلق عليها أولئك الذين جاؤوا يطلبون من الملك أجور استعراضاتهم[٢] ومستحقاتهم المتأخرة.

تابع شوديو وقد لاحظ نوعاً من الذعر على كريستوف: «وهذا يا بني ما يجبرنا على طلب النصر بالسلاح بدلا من تحقيقه بالإقناع، وتحمل العذاب؛ والملكة الأم على أهبة الأخذ بوجهة نظرنا، ليس لأنها تريد أن تتخلى عن مذهبها، فهي لم تصل بعد إلى هذه القناعة، لكن قد يُلزمها انتصارنا بذلك. وأياً كا ن الأمر فهي مهانة وقانطة خشية أن ترى السلطة التي أملت أن تمارسها بعد موت زوجها تنتقل إلى أيدي آل غيز، وقد ذعرت من النفوذ الذي أخذت تمارسه الملكة الشابة ماري نسيبة آل لورين ومساعدتهم. على الملكة كاترين أن تكون مستعدة لدعم الأمراء والنبلاء الذين سيحاولون مد يد المساعدة لتحريرها. وفي هذه الفترة ورغم إخلاصها لآل غيز في الظاهر[٣]، فإنها تكرههم، وتتمنى خسارتهم وستستعين بنا ضدهم، لكن سمو الأمير سيستغلها ضد كل شيء؛ سوف تعطي الملكة الأم موافقتها على مخططاتنا، وسيكون قائد الجيش إلى جانبنا، وقد ذهب سمو الأمير وقابله في شانتيي[٤]، لكنه لايريد أن يتحرك إلا بأمر من سادته. لكن خال سمو الأمير لن يتركه في حيرة، وهذا الأمير الشهم لن يتردد في تعريض نفسه للخطر ليقنع آن دي

---

(١) شوديو يذكر هنا عملاً أرعن لآل غيز، فقد صدر مرسوم في تموز ١٥٥٩ بتسريح عدد من أفراد الجيش غدوا دون عمل منذ صلح كاتو كامبر يزي فحضر هؤلاء إلى فونتينبلو حيث البلاط مطالبين بتشغيلهم أو دفع تقاعد لهم، لكن الكردينال دي لورين المكلف بادارة المالية طلب منهم التفرق ولترويعهم نصب مشنقة قرب القصر.

(٢) المقصود عرض الملك لهم قبل توجيههم إلى الحروب وبالتالي دفع رواتبهم.

(٣) هذا هو جواب الكردينال دي لورين في مسرحية جرمو: «صحيح أن الملكة الأم صديقتنا، إنما في الظاهر لكنها في صميم قلبها تكن لنا غيرة خفية

(٤) هذا التفصيل قد يكون من خيال جرمو في مسرحيته

مونمورونسي. كل شيء جاهز، وقد وقع الاختيار عليك لتنقل إلى الملكة كاترين عرضنا بالتحالف، ومشاريع المراسيم وأسس الحكومة الجديدة. إن البلاط في بلوا. وكثير من جماعتنا سيكونون هناك لكن هؤلاء سيكونون قادتنا مستقبلاً. وكما يقول سمو الأمير - وأشار إليه بيده - لا ينبغي أن نعرضهم للشبهات: يجب أن نضحي بأنفسنا من أجلهم. إن الملكة الأم وأصدقاءنا هم موضع رقابة دقيقة، بحيث يتعذر استخدام شخص معروف أو ذي أهمية وسيطاً؛ فسيشتبه به سريعاً ولا يمكنه توصيل نيتنا إلى الملكة كاترين. إن الله قد أرسل لنا في هذه الفترة الراعي داود ومقلاعه لضرب جليات دي غيز. إن والدك، مع أسفنا عليه، كاثوليكي ورع، وهو فراء الملكتين، ويقوم دائماً بإجراء بعض قياسات لهما، فاعمل على أن يرسلك في مثل هذه المهمة إلى البلاط، فإنك لن تثير الشبهات ولن تعرض الملكة كاترين لشيء. جميع رؤسائنا قد يخسرون رؤوسهم نتيجة تهور يدفع إلى الاعتقاد بتواطؤ الملكة الأم معنا. وحيث يسوء الحذر من الكبار ويقرع جرس الإنذار، فإن صغيراً لا شأن له مثلك، لا يثير أي اهتمام. أترى؟ إن لآل غيز كثيراً من الجواسيس حتى لم نجد التحدث دون خوف إلا على صفحة النهر. وها أنت يا بني، كحارس يطلب منه الموت على محرسه. فاعرف جيداً، أنه إن كشف أمرك فسنتخلى عنك كلنا، وسنلقي عليك إن لزم الأمر الخزي والعار، وسنقول عند الحاجة إنك صنيعة آل غيز يستغلونك لضربنا، وهكذا فإننا نطلب منك تضحية كاملة[١].

قال أمير كونده: إن هلكت في هذه المهمة، فأقسم لك بشر في أن تكون عائلتك مقدسة لدى آل ناڤار وسأضعها في قلبي ولن ينقصها أي شيء.

قال كريستوف دون أن يفطن إلى أن هذا المتآمر غسقوني[٢]: تكفيني هذه الكلمة يا أميري، ونحن في فترة ينبغي فيها على واحد، أميراً كان أم بورجوازياً، أن يقوم بواجبه.

---

(١) وفقا للسيرة الشاملة، التي استمد منها بلزاك قصته فإن شوديو هو الذي كلّف لكاموس بأن يحمل للملكة الأم اقتراحات الاصلاحيين السرية.

(٢) تعقيب كونده وملاحظة الروائي تفسر أوهام كريستوف التي لا يتخلص منها إلا في النهاية.

قال لارنودي وهو يضع يده كتف كريستوف: «هوذا هوغنوتي حقيقي. غداً سنكون السادة».

تابع الأمير: أريد أن أبين لك أيها الشاب انه إن كان شوديو يعظ، والنبيل يتسلّح فإن الأمير يقاتل، وهكذا ففي هذه المغامرة تتساوى جميع المجازفات.

قال لارنودي: اصغ اليّ، لن أسلمك الأوراق اللازمة إلا في بوجنسي، فلا ينبغي تعريضها للخطر خلال الرحلة كلها، ستجدني قرب المرفأ: وسيكون وجهي، وصوتي، وثيابي في تغير تام، بحيث يمكن ألا تعرفني، لكن سأقول لك «أأنت من الشطار» فتجيبني: «مستعد لخدمتك» أما فيما يتعلق بالتنفيذ، فهاك الوسائل، ستجد حصاناً في بنتفلوري قرب سان جرمن لوكروا، تسأل عن جان لبرتون، فيقودك إلى الإسطبل فيعطيك أحد خيولي القادرة على أن تقطع هذه الفراسخ الثلاثين في ثمان ساعات. اخرج من باب بوسي، ومع برتون إجازة مرور خاصة بي، فخذها لك وسر مباشرة متجنباً دخول المدن، ويمكنك أن تصل عندئذ مع الفجر إلى أورليان.

سأل لكاموس الشاب: والحصان؟

قال لارنودي: «لن ينفق قبل أورليان، اتركه على ربض بانيه، لأن الأبواب ستكون محروسة جيداً، ويجب عدم إثارة الشبهات، وعليك يا صديقي أن تلعب دورك كما ينبغي، يمكنك أن تختلق القصة التي تبدو لك مناسبة للوصول إلى البيت الثالث على يسارك عند دخولك إلى أورليان. وهو يعود إلى صانع قفازات اسمه توريون[1]؛ تقرع الباب ثلاث مرات، هاتفاً: «خدمة السادة دي غيز!» إن الرجل ظاهرياً من أنصار آل غيز المتحمسين، لكن نحن الأربعة فقط نعرف أنه من جماعتنا؛ وسيقدم لك صاحب زورق مخلصاً، من أنصار آل غيز على شاكلته، طبعاً؛ انزل إلى المرفأ سريعاً، وسيمخر بك سريعاً في زورق مدهونٍ بالأخضر

---

(١) إلى بيت توريون هذا لجأ أيضاً والد كريستوف عند محاولة إنقاذه.

بحرف أبيض، وستصل إلى بوجنسي في اليوم التالي نحو الظهر؛ وهناك سأجد لك زورقاً آخر يصل بك إلى بلوا دون التعرض لأي خطر، فأعداؤنا آل غيز لا يراقبون نهر اللوار، وإنما المرفأ فقط، وهكذا يمكنك أن تشاهد الملكة في ذات اليوم أو في اليوم التالي.

قال كريستوف وهو يشير إلى جبينه: «إن كلماتك قد ثبتت هنا».

قبل شوديو صنيعته بانبثاق ديني فريد، كان فخوراً به؛ وقال له، وهو يشير إلى ألوان الغروب التي تصبغ بالحمرة السطوح القديمة المكسوّة بالأردواز والخشب وتزلق بريقها عبر غابة الركائز حيث يثور الماء: «فليحرسك الله».

قال لارنودي لكريستوف وهو يصافحه بحرارة: «أنت من سلالة جاك بونوم العريقة[1]» قال الأمير للشاب وهو يشير له بحركة ملاطفة لا حد لها، فيها تعبير صداقة تقريباً:

«سنلتقي مرة أخرى، أيها السيد»

وببعض ضربات مجذاف، وضع لارنودي الشاب المتآمر على درجة السلم المؤدي إلى بيته، واختفى الزورق سريعاً تحت عقود جسر أوشانج.

هز كريستوف شبك الحديد وصاح، وسمعته الآنسة لكاموس[2] ففتحت إحدى نوافذ القسم الخلفي من المتجر وسألته كيف له أن يكون في ذلك المكان، فأجابها كريستوف بأنه يكاد يتجمد وينبغي أولاً العمل على إدخاله.

قالت البورغونية: «يا سيدي، خرجت من الشارع وعدت من النهر، إن والدك سيكدّره ذلك».

كان كريستوف مايزال شارد الذهن من مسارة وضعته على علاقة مع أمير

---

(١) تشخيص للفلاح الفرنسي المخلص، والكلمة مستعملة بهذا المعنى منذ القرن الرابع عشر، وقد جددها تييري في العام ١٨٢٠ في كتابه «القصة الحقيقية لجاك بونوم» يظهر فيه شقاء الطبقة الفلاحية.

(٢) «الآنسة لكاموس»: هي والدة كريستوف، وسبق أن ذُكِر أن نساء العائلات البورجوازية الغنية يمنح لهن لقب «آنسة».

كونده، ولا رنودي، وشوديو، وهو أكثر تأثراً أيضاً بمشهد متوقع لحرب أهلية محتمة، فلم يجب وصعد بسرعة من المطبخ إلى القسم الخلفي من المتجر؛ لكن والدته عندما رأته وهي العجوز الكاثوليكية الحانقة، لم تستطع أن تتمالك غيظها وقالت: «أراهن على أن الرجال الثلاثة الذين كنت تتحدث معهم هم من البرو...

قاطعها العجوز الحذر ذو الشعر الأبيض، وهو يقلب دفتراً كبيراً: «اصمتي يازوجتي» ثم التفت إلى ثلاثة فتيان أنهوا منذ مدة طويلة عشاءهم وصاح بهم: «ايها التنابل ! ماذا تنتظرون للذهاب إلى النوم؟ إنها الثامنة، ويجب أن تستيقظوا في الخامسة صباحاً، وعليكم أن تأخذوا للرئيس دي تو قلنسوته ومعطفه[1]. اذهبوا أنتم الثلاثة وخذوا معكم عصيكم وخناجركم، لتكونوا في موقف قوة إن صادفتم سفلة من أمثالكم.

سأل أحد الصناع: «هل علينا أن نأخذ صدرة القاقم[2] التي طلبتها الملكة الشابة، والتي يجب أن تودع في قصر سواسون حيث توجد إرسالية عاجلة للملكة الأم سترسل إلى بلوا؟

أجاب رئيس نقابة الفرائين: كلا، إن حساب الملكة كاترين قد وصل إلى ثلاثة آلاف إكو ويجب الانتهاء من تصفيته، وأنا أفكر بالذهاب إلى بلوا.

- قال كريستوف وهو ينظر إلى علبة وجب أن تحوي صُدرة الملكة: «لا أرتضي يا والدي وأنت في هذا العمر والزمن يمر أن تعاني في الطرقات، إنني في الثانية والعشرين من العمر ويمكنك أن تستخدمني لمثل هذه المهام.

هتف الشيخ بالصناع الذين هرعوا فجأة إلى خناجرهم ومعاطفهم وفراء السيد دي تو[3]: «هيا، هل تسمرتم على المقعد؟»

---

(١) كان رئيس برلمان باريس يلبس معطفاً مبطناً بفرو القاقم وقبعة من الفراء ذاته.

(٢) صدرة القاقم: صُدرة من الفراء دون اكمام يتزين بها وكانت ترتد يها الملكة وكبار نبيلات العصر

(٣) لعل بلزاك كان يقصد دي تو المؤرخ الشهير، واسمه الأول جاك أوغوست، لكنه كان في السابعة من عمره في العام ١٥٦٠، إنما والده هو رئيس برلمان باريس في العام ١٥٦٢.

في اليوم التالي، كان برلمان باريس يستقبل في قاعته كرئيس، ذلك الرجل الشهير الذي وقّع قرار موت المستشار دي بورغ، ووجب أن يحاكم قبل نهاية العام أمير كوندة.

نادى الشيخ العجوز الخادمة وقال يا: بورغونية، اذهبي إلى شريكي لاليه واطلبي منه أن يأتي للعشاء معنا على أن يقدم النبيذ ونقدم نحن «الأدام[1]»، أكدي عليه أن يصحب ابنته معه. كان نقيب الفرائين شيخاً وسيماً في الستين من العمر ذا شعر أبيض وجبهة عريضة ظاهرة، وكان فراء القصر منذ أربعين عاماً، وشهد جميع أحداث ملكية فرنسوا الأول واستمر محافظاً على ثقة الملك به رغم تنافس النساء. كان شاهداً على وصول كاترين دي مديسي الشابة التي لم تبلغ الخامسة عشر من عمرها إلى البلاط الملكي، ولاحظها تنثني تحت وطأة الدوقة ديتامب عشيقة حميها الملك ثم تحت وطأة الدوقة دي فالنتينوا عشيقة زوجها، لكن الفراء عرف جيدا كيف يتصرف خلال هذه الأطوار الغريبة حيث كان التُجار المتعاملون مع القصر يذهبون ضحية سخط الخليلات، فكان حذره معادلاً لثروته، وبقي دائماً في بساطة مفرطة، لم توقعه العجرفة في أشراكها فبقي متواضعاً، مثال اللطف والكياسة والمسكنة في القصر أمام الأميرات والملكات والخليلات فحفظ في بساطته شعار بيته. إن مثل هذه السياسة تشير حتماً إلى رجل نبيه، نافذ البصر؛ وبقدر ما كان يبدو لين العريكة خارج منزله بقدر ما كان مستبداً فيه، كان سيداً مطلقاً في عائلته، مبجلاً من زملائه، فحظي نتيجة محافظته الطويلة على المقام الأول في تجارته بتقدير واسع. زد على أنه كان يقدم بكل طيبة خاطر خدمات عديدة للناس، ومن أهمها المعونة التي بذلها طويلاً لأشهر جراحي القرن السادس عشر، امبرواز پاره[2] الذي تمكن بفضله من الانصراف إلى دراساته. كان لكاموس في كل المتاعب والنزاعات التي تحصل للتجار موقفاً متسامحاً وهكذا متّن التقدير العام مركزه بين أقرانه؛ كما حفظ

---

(١) الأدام La Fripe: هي كل ما يؤكل مع الخبز، وقد فسر بلزاك الكلمة بذاته في أوجيني غرانده.

(٢) انظر بدايات الجراح دسبلين

في قصة قداس الملحد هذا الابتكار من الروائي يبرز العلاقات التي يقيمها بعد ذلك بين الشخصيتين.

له طبعه الخدوم حظوته في البلاط وبعد أن نشط في إدارة أملاك الخورنية العائد لها، قام بكل ما هو ضروري ليحتفظ بسمعته الطيبة تجاه كاهن كنيسة سان - بيير - أوبوف[1] الذي كان يعتبره من أتقى رجال باريس وأكثرهم اخلاصاً للمذهب الكاثوليكي، وهكذا فعند دعوة المجالس العامة سمي بإجماع الأصوات ممثلاً عن الطبقة الثالثة- طبقة الشعب- بتأثير نفوذ كهنة باريس، وقد كان في ذلك الزمن كبيراً. هذا العجوز هو واحد من أولئك الطموحين الصامتين البعيدي الغور، الذين يطأطئون الرأس أمام كل انسان، وهم ينزلون صعداً بين مركز وآخر دون أن يُعرف كيف وصلوا، لكنهم يتربعون بارتياح هناك حيث لم يجسر انسان قط، حتى بين الأكثر جرأة، على الاعتراف بأنه كان يتطلع إلى مثل هذا الهدف في بدء حياته، فالبون شاسع، والمطبات التي يجب تجاوزها أو الالتفاف حولها عديدة. لم يكن لكاموس، وهو صاحب الثروة الواسعة المخبوءة يريد أن يتعرض لأي خطر، وكان يعدُّ مستقبلاً باهراً لولده، وبدلاً من أن يكون لديه ذلك الطموح الشخصي الذي غالباً ما يضحي بالمستقبل من أجل الحاضر، كان لديه طموح العائلة، وهو عاطفة فقدت في أيامنا هذه بعد أن خنقتها ترتيبات قوانيننا الحمقاء حول المواريث، وقد كان لكاموس يتطلع إلى مستقبل بعيد يغدو فيه حفيده رئيساً أولاً في برلمان باريس.

كان كريستوف فليون دي تو المؤرخ المشهور[2]، وقد تلقى أحسن العلوم لكن هذا قاده إلى الشك وإلى التمحيص الذي يتعرض له الطلاب والكليات في الجامعة. كان يقوم في تلك الفترة بدراسته ليكون محامياً، هذه الدرجة الأولى في سلك القضاء. كان الفراء القديم متردداً بشأن مستقبل ابنه: فبدا حيناً يريد أن يجعل

(١) ينتخب وكلاء أملاك الكنيسة من البورجوازيين أصحاب السمعة الطيبة وخاصة من رؤساء النقابات المهنية، وقد كانت كنيسة سان بيير أوبوف إحدى أقدم كنائس «السيته» في باريس وقد هدمت في العام ١٨٣٧.

(٢) عندما يتكلم دي تو المؤرخ عن «كاموس» الشاب يؤكد أنه «يعرفه خاصة» ويسميه فرانسوا وهذا صحيح، لكن والد المؤرخ رئيس البرلمان، الملتبس مع ولده اسمه كريستوف، ومن هنا تسمية شخصية بلزاك الروائية.

من كريستوف خليفته في مهنته، ويريد حينا آخر أن يجعل منه محامياً، لكنه كان يطمح بجد من أجل أن يحظى ولده بمنصب مستشار في البرلمان. فهذا التاجر أراد أن يجعل عائلة لكاموس في مرتبة هذه العائلات البورجوازية الباريسية العريقة والشهيرة أمثال آل باسكية، ومولِه، وميرون، وسغيه، ولاموانيون، ودوتيه، ولكوانيو، ولكالوبيه، ولغوا، وآرنولد، التي خرج منها القضاة البلديون، وكبار مشايخ التجار الذين وجد العرش بينهم العديد من المدافعين عنه. وهكذا من أجل أن يحافظ كريستوف يوماً على مستواه أراد أن يزوجه من ابنة أغنى صاغة حي «السيته» زميله لاليه[1]، وهو ذلك الرجل الذي قدم ابن أخيه فيما بعد لهنري الرابع مفاتيح مدينة باريس. كان الهدف المنغرز بعمق في قلب هذا البورجوازي هو ان يستخدم نصف ثروته، ونصف ثروة الصائغ من أجل حيازة أرض واسعة وهامة يمكن حيازة لقب نبالة عن طريقها، وهو هدف طويل وصعب في ذلك الزمن، لكن هذا السياسي العميق كان يفهم جيداً عصره بحيث لا تفوته الحركات الكبيرة التي تتهيأ: كان يرى جيداً ويرى بشكل صحيح الأحداث متوقعاً انقسام المملكة إلى معسكرين. فالعذابات التي لا طائل منها في ساحة الاستراباد؛ وتنفيذ الإعدام بخياط هنري الثاني، ثم ذلك التنفيذ الأكثر حداثة بالمستشار آن دو بورغ؛ والتواطؤ الحالي لكبار النبلاء، وتواطؤ عشيقة الملك فرانسوا الأول[2] مع الاصلاحيين البروتستنت كلها كانت قرائن رهيبة، وقد قرر الفراء أن يبقى كاثوليكياً وملكياً وبرلمانياً، مهما حدث؛ لكن وافقه، في سره، أن ينتمي ابنه الى الإصلاحيين، فهو على درجة من الغنى تمكنه من افتداء ابنه إن اتهم بالتآمر، وإن غدت فرنسة كالفينية أمكن لابنه أن ينقذ العائلة إن حدثت مثل تلك الفتن الباريسية الهوجاء التي ماتزال ذكراها ماثلة لدى البورجوازية والتي تجددت خلال عهود ملكية أربعة. لكن الفراء العجوز كان في أفكاره، كلويس الحادي عشر، لا يقولها حتى لنفسه؛ وهو في

---

(١) لاليه هو إذا لويليه شيخ التجار الذي عمل في العام ١٥٩٤ على دخول هنري الرابع إلى مدينة باريس.

(٢) العشيقة هي الدوقة ديتامب. واسمها الأول آن دي پيسلو (١٥٠٨-١٥٨٠).

عمقه يذهب حتى إلى خداع زوجته وولده. فهذا الشخص الوقور غدا منذ زمن طويل زعيم الحيّ الأكثر سكاناً والأكثر غنى في باريس، وهو حي مركز المدينة فهو مأمور الحي، لقب سيغدو ذا شهرة كبيرة بعد خمسة عشر عاماً من ذلك التاريخ[1] كان يرتدي الجوخ كجميع البورجوازيين الحريصين على التقيد بالمراسم المحددة للنفقات الكمالية، كحرصه على لقب «السيد» لكاموس (الممنوح من قبل شارل الخامس لبورجوازيي باريس، والذي يسمح لهم بشراء إقطاعية نبالة، ومناداة زوجاتهم باللقب اللطيف: «آنسة»)، فهو لا يحمل سلسلة ذهبية، ولا يرتدي حريراً، وإنما صداراً متقناً بأزرار فضة كبيرة سوداء[2]، وجوارب مجوخة[3] تصل إلى مافوق الركبة، وحذاءً ذا شبكتين من جلد؛ قميصه من قماش ناعم يخرج بشكل ثنيات مقببة خارج سترته نصف المفتوحة وسرواله. بالرغم من أن الوجه الجميل والعريض لهذا العجوز كان يتلقى كل ضوء المصباح، تعذر على كريستوف أن يخمن الأفكار الكامنة تحت اللون اللحمي الهولندي لبشرة، والده الشيخ، غير أنه كان يدرك كل ما يعلقه العجوز من آمال على تقربه الودود لبابيت لاليه، وهكذا ابتسم بمرارة، فهو في موقف رجل اتخذ قراره، وهو يستمع إلى دعوة خطيبته.

بعد أن خرجت البورغونية، مع الصناع نظر العجوز لكاموس إلى زوجته نظرة تنطق بكل ما في طبعه من حزم وسيطرة، وقال لها بصوت قاس: «لن يهدأ لك بال قبل أن تقودي هذا الابن إلى حبل المشنقة بلسانك اللعين».

---

(١) كان مأمور الأحياء على رأس الميليشيا البورجوازية يسهرون على الأمن في أحياء باريس الستة عشر وفي أول شباط ١٥٧٧ (أي بعد أكثر من خمسة عشر عاماً- بقليل- من مغامرة كريستوف- أمر هنري الثالث، الذي كان يجهد ليرأس العصبة بتكليفهم بالتجول في بيوت البورجوازيين لحمل منشورات العصبة وتوقيع بنود التقيد بها.

(٢) صدرت عدة مراسيم وأوامر في القرن السادس عشر تنظم لبس الحرير والمخامل، منها ما صدر في العام ١٥٦٣ يمنع على غير أصحاب الأزرار- أي النبلاء- تزيين ثيابه بسلاسل الذهب أو المجوهرات أو لبس الحرير.

(٣) يتحدث بلزاك كثيراً في رواياته الحديثة عن الجوارب المجوخة، وتشير المعاجم إلى أنها تعني جوارب طويلة محاكة بحيث تظهر كالجوخ.

قالت بسحنة متجهمة: «أفضل أن أراه محاكماً ولكن مُنقذاً من أن أراه منعماً مع الهوغنوت، كيف يمكن أن أتصور ولداً حملته في أحشائي تسعة أشهر ليس كاثوليكياً ورعاً، ويأكل من بقرة كولاس[1] بحيث يكون مصيره جهنم إلى الأبد»، وانخرطت بالبكاء.

قال الفراء: «أيتها العجوز الغبية، دعيه يعيش إذاً على الأقل لهدايته وتحويله عن رأيه لقد نطقت أمام صناعنا بكلمة يمكن أن تضع النار في منازلنا فتحرقنا جميعاً كالبراغيث في فراش من قش» رسمت الأم إشارة الصليب على صدرها وجلست صامتة.

توجه الرجل بعد ذلك إلى ولده وهو يلقي عليه نظرة قاض وقال: «اما الآن، فاشرح لي أنت ماذا كنت تفعل هناك على الماء ... تعال إلى هنا لأكلمك».

وجذب ابنه من يده ومال على أذنه هامساً: «ماذا كنت تفعل هناك مع أمير كونده. فارتعد كريستوف. أتظن أن فراء البلاط الملكي لا يعرف جميع الوجوه؟ أتعتقد أنني أجهل ماذا يحدث؟ إن سيدنا المعلم الأكبر[2]. قد أمر بتوجيه الجيش إلى أمبواز، سَحْب الجيش من باريس وإرساله إلى آمبواز، بينما البلاط في بلوا، وسيره عن طريق شارتر وڤندوم بدلاً من أن يأخذ طريق أورليان، ألا يعني لك هذا شيئاً؟ يوجد قلاقل قطعاً. لو أن الملكتين أرادتا صداريهما لأرسلتا تطلبانهما. ربما قرّر أمير كونده أن يقتل السادة آل غيز، كما أنهم بدورهم فكروا في التخلص منه،

(١) مقولة شعبية كانت تعني نحو القرن السادس عشر الإنتماء إلى البروتستنتية، وتعود في الأساس إلى طرفة أشار إليها ليتوال في «جورناله» بتاريخ ١٠ أيلول ١٦٠٥ بمناسبة منع «اغنية كولاس» التي تثير النزاع: «أغنية ضد الهوغنوت تذكر دخول بقرة إلى أحد معابدهم، قرب شارتر أو أورليان فقاموا بقتلها، ولما تبين أنها تعود إلى أحد الفقراء، قاموا بجمع التبرعات لتسديده ثمنها، وفي رواية أخرى أنهم قاموا بتوزع قطعها فيما بينهم، وقد رددت العبارة حديثاً في اوبرا هزلية لها رول في العام ١٨٣٢ «**مرج رجال الدين**» حيث ينشد بعض الجنود عن نبيل هوغنوتي شاب: «انه يقيم احتفالاً على فروج، في يوم جمعة، يا للفضيحة، انه من جماعة بقرة كولاس».

(٢) هذا هو لقب الدوق دي غيز، المعلم الأكبر في بيت الملك.

وسيستخدم الأمير الهوغنوت ليدافع عن نفسه. ماذا يمكن أن يفعل ابن فراء في هذا الصراع؟ عندما تتزوج، عندما تغدو محامياً وعضواً في البرلمان، ستغدو، بمثل حذر أبيك. على ابن فراء، أمام مذهب جديد، أن ينتظر انتماء جميع الناس، قبل أن ينتمي بدوره إليه. أنا لا أدين الإصلاحيين الدينيين، فليست هذه مهنتي؛ لكن البلاط كاثوليكي، والبرلمان كاثوليكي، والملكتين كاثوليكيتان، ونحن نزود الجميع ببضاعتنا، فيجب أن نكون كاثوليكيين. لن تخرج بعد الآن من هنا، يا كريستوف، أو أنني ساضعك لدى الرئيس دي تو، عرابك، ليعهد إليك بتسويد كتابة الصحائف ليلاً ونهاراً بدلاً من أن تسود روحك في مطبخ هؤلاء الشياطين المتخذين مقراً لهم في جنيف.

قال كريستوف وهو يستند إلى ظهر الكرسي التي يجلس عليها العجوز: «أبي، أرسلني إلى بلوا لأحمل للملكة ماري صدارها وأطلب مالنا من دراهم لدى الملكة الأم، ودون ذلك سأضيع! وأنت الحريص عليّ ستخسرني.

ردد العجوز دون أن يظهر أية دهشة: «تضيع؟ إن بقيت هنا فلن تضع أبداً؛ فأنا سأجدك دائماً».

- سأُقتل هنا.

- كيف؟

- إن أكثر الهوغنوت حماساً سلطوا أنظارهم عليّ لأخدمهم في أمر ما، فإن تراجعت عما وعدت به، فسيقتلونني في وضح النهار، في الشارع، هنا قتل مينار، لكن إن أرسلتني إلى البلاط الملكي من أجل أعمالك، فربما تمكنت أن أبرز مسلكي من ناحيتين. إما أن أنجح دون التعرض لأي خطر، وبذلك أكتسب مكاناً مرموقاً في الحزب، أو إن كان الخطر كبيراً فلن أقوم إلا بالمهمة العائدة إليك.

نهض الأب عن كرسيه وكأنه كان يجلس فوق حديد يتوهج احمراراً وقال: «اتركينا يا زوجتي، واحرصي على ألا يدخل علينا أحد في خلوتنا أنا وكريستوف». بعد أن خرجت السيدة لكاموس، أمسك الفراء بابنه من زر سترته

وقاده إلى زاوية الصالة التي تشكل ركن الجسر، وهمس في أذنه كما فعل عندما كان يكلمه عن أمير كونده: ««كريستوف، كن هو غنوتي، إن اقتنعت بهذه الرذيلة، إنما بحذر، في أعماق القلب، وليس بطريقة يشار فيها اليك بالبنان في الحي. فما اعترفت لي به يبرهن على أن قادة الحركة شديدو الثقة بك. ماذا عليك أن تفعل إذا في البلاط الملكي؟

أجاب كريستوف: «لا أتمكن من أن أقول لك، لأنني أنا نفسي لا أعرفه بعد.

همهم العجوز. وهو ينظر إلى ابنه، وقال في نفسه «هذا الغر يريد أن يخدع أباه، لكنه لن يذهب بعيداً» ثم تابع كلامه معه قائلاً بصوت منخفض: «لن تذهب إلى البلاط لتنقل مشاعر الود للسادة آل غيز، ولالسيدنا الملك الشاب، ولا للملكة الشابة ماري، فجميع هذه القلوب كاثوليكية، لكنني أقسم على أن الإيطالية تضمر أمراً ما ضد الاسكتلندية وضد آل لورين، إنني أعرفها: إن لديها رغبة عارمة في أن تضع يدها في العجين! كان المرحوم الملك يخشاها حتى أنه فعل كما يفعل الصاغة: يفلون الألماس بالألماس، ويجابهون امرأة بأخرى. ومن هنا كره الملكة كاترين للدوقه دي فالنتينوا المسكينة التي أخذت منها قصر شنونصو ولولا السيد قائد الجيش لخنقت الدوقة على الأقل... تراجع يا ولدي، لا تضع نفسك بين يدي هذه الإيطالية التي لا عاطفة لها إلا في مخها: أسوأ أنواع النساء! ثم هتف الأب وهو يلاحظ أن كريستوف يتهيأ للرد عليه: نعم، إن ما أرسلت بشأنه إلى البلاط سيسبب لك وجع رأس كبير. يا ولدي، إن لدي مشاريع عديدة لمستقبلك، فلا تفسدها بتقديم خدمة للملكة كاترين، لكن، أستحلفك بالمسيح! لا تجازف برأسك! هؤلاء السادة آل غيز سيقطعونه كما تقطع البورغونية جرزة لفت، لأن الأشخاص الذين يستغلونك سيتخلون عنك كلياً.

قال كريستوف: أنا أعرف هذا يا أبي.

- هل أنت على هذه الدرجة من القوة؟ تعرف هذا وتجازف؟!

- نعم يا ابي.

هتف الأب وهو يضم ولده إلى صدره: قسماً بابن أوس[1]، أنت جدير بابيك وستكون فخر العائلة ويمكننا أن نتفاهم، وأنا أرى أن والدك العجوز يمكنه أن يبرر سلوكه أمامك. لكن لا تكن أكثر هوغنوتية من السادة آل كولينيي! ولا تستل السيف، ستكون رجل قلم ابق في دورك المستقبلي كقاض. هيا لا تقل لي شيئاً إلا بعد النجاح. إذا لم يصلني شيء منك بعد أربعة أيام من وصولك إلى بلوا، فإن صمتك يشير إلى أنك في خطر، وسيذهب العجوز لإنقاذ الشاب. أنا لم أبع الفراء خلال اثنين وثلاثين عاماً، دون أن أعلم ما في بطائن المعاطف في البلاط الملكي، ولدي ما يفتح أمامي الأبواب.

- هيا إذاً، تمّم الحساب، اكتب رسالة إلى الملكة، أريد أن أسافر في الحال، وإلا فإن الخطر الأكبر واقع.

- تسافر! ولكن كيف؟

- سأشتري حصاناً. اكتب، واستعن بالله.

هتف الفراء بزوجته: «هيه، أيتها الأم! أحضري دراهم لولدك.

أسرعت الأم بالدخول وفتحت خزانتها، وأخرجت كيساً قدمته لابنها. فقبلها وهو بالغ التأثر قال الأب: إن الحساب جاهز، وها هو، وسأعد كتاباً للملكة.

وضع كريستوف ورقة الحساب في جيبه. وقال الأب: «لكنك ستتعشى معنا على الأقل، فبين هذين الطرفين يجب أن تتبادل المحابس أنت وابنة لاليه».

هتف كريستوف: «حسناً سأذهب في طلبها».

كان الشاب يحترس من تقلبات والده، الذي لم يدرك تماماً طبعه. وصعد إلى غرفته، وارتدى ثيابه، وأخذ حقيبة، وهبط بخطا خفيفة ووضعها على مبسط

(١) طريقة في القسم الساخر على طريقة رابله، ومما يتلاءم مع مهنة الفراء، فمن المعروف أن ابن اوس ذو جلد ناعم يستخدم كفراء.

المتجر مع معطفه وخنجره قال الأب وهو يسمع حركات ابنه : «يا للشيطان ماذا تفعل؟»

قبل كريستوف والده على الخدين ، وهمس في أذنه : «لا أريد أن يحس أحد باستعدادي للرحيل ، وقد وضعت لوازمي على المبسط»

قال الأب : «هاك الرسالة»

تناول كريستوف الورقة وخرج وكأنه ذاهب ليأتي بجارته الشابة .

بعد لحظات قليلة من انطلاق كريستوف وصل الجار لاليه مع ابنته تسبقهما خادمة تحمل ثلاث زجاجات من النبيذ المعتق .

هتفت الخادمتان العجوزان : «ايه! أين كريستوف؟»

ردت بابيت مندهشة : كريستوف؟ ولكننا لم نره!

قال لكاموس : ولدي فكه ومزهو بنفسه! وهو يخدعني كأنني غر في عمره ، يا شريكي إلى أين سنصل؟ إننا نعيش في زمن يرجح عقل الابناء فيه على الآباء .

قال لاليه : «ولكن الحي يذكر منذ مدة انه من أكلة بقرة كولاس» .

قال الفراء للصائغ : «دافع عنه من هذه الناحية ، يا شريكي ، فالشباب أهوج ، وهو يركض وراء الأشياء الجديدة ، لكن بابيت ستهدئه ، فهي أكثر جدة من كالفن .

ابتسمت بابيت ، فهي تحب كريستوف وتغتاظ من كل ما يقال ضده؛ إنها إحدى فتيات البورجوازية العريقة ، وقد نشأت في كنف أم لم تفارقها : هيئتها لطيفة لائقة كوجهها ، وكانت ترتدي ثوباً من قماش صوفي بألوان رمادية متناسقة : وياقتها المثناة ببساطة تتمايز ببياضها مع ثوبها ، وهي تعتمر قبعة مخمل داكن تشبه طاقية طفل لكنها مزينة بكشاكش وأهداب ، من نسيج شاف أسمر بلون قشر الدباغة ، تتدلى على جانبي وجهها . وبالرغم من أنها شقراء وبيضاء كالشقراوات ،

فإنها تبدو ماكرة نبيهة مع أنها تخفي مكرها تحت مظهر فتاة رفيعة التهذيب. وبينما كانت الخادمتان تروحان وتجيئان وهما تضعان الغطاء، والأباريق، وصحون القصدير الكبيرة، وأدوات المائدة، بقي الصائغ وابنته، والفراء وزوجته أمام مدفأة عالية ذات حافة مهدبة من الصَرْج الأحمر المحاط بأهداب سوداء، لايقولون شيئاً، ورغم سؤال بابيت أين يمكن لكريستوف أن يذهب، فإن أم الهوغنوتي الشاب وأبوه أعطيا أجوبة غامضة لكن عندما جلست العائلتان إلى المائدة، وذهبت الخادمتان إلى المطبخ، أخبر لكاموس كنته المستقبلية أن كريستوف قد ذهب إلى البلاط.

قالت: إلى بلوا! ويقوم بمثل هذه الرحلة دون أن يودعني؟!

قالت الأم الكهلة: كان الموضوع عاجلاً.

قال الفَراء مستأنفاً المحادثة المتوقفة: سنشهد قلاقل في فرنسة: فالبروتستنت يتحركون.

قال لاليه غير القادر أن يرتفع إلى أعلى من المستوى التجاري: «إن انتصروا، فلن يتم ذلك إلا بعد حروب ضارية تسوء فيها حالة التجارة».

- إن أبي الذي شهد نهاية الحروب بين البورغونيين والآرمنياك قال لي إن عائلتنا لم تكن لتنقذ لو لم يكن أحد أجداده من الغوا[1] أحد هؤلاء الجزارين الشهيرين في الهال المؤيدين للبورغونيين بينما الجد الآخر وهو لكاموس كان من حزب الآرمنياك، وكانا يتظاهران بأن كلاً منهما سيسلخ جلد الآخر أمام الناس، بينما كانا متفاهمين تماماً ضمن العائلة، وهكذا فلنجرب أن ننقذ كريستوف، فربما انقذنا عند الحاجة!

قال الصائغ: إنك داهية أريب ياشريك!

---

(١) كان الدور الذي لعبه الجزارون إلى جانب البورغونيين معروفاً، وقد سمي «توماس غوا» وأولاده الثلاثة- الجزارين من قبل مور يري في معجمه، وفيليبيان في كتابه **تاريخ باريس**.

أجاب لكاموس: كلا! يجب على البورجوازية أن تفكر بنفسها، فالنبلاء والشعب حاقدون عليها كل من جهته، والبورجوازية الباريسية تسبب المخاوف للجميع باستثناء الملك الذي يعرف أنها إلى جانبه.

سألت بابيت بخجل: «أنت الخبير بكل شيء، والذي رأى أشياء كثيرة، هل لك أن تشرح لي ماذا يريد البروتستنت؟

- هتف الصائغ: حدثنا عن هذا يا شريك، كنت أعرف خياط المرحوم الملك، واعتبره رجلاً ذا طبائع بسيطة، دون عبقرية كبيرة، كان شبيهاً بك تقريباً، وكأنه سلّم الله دون اعتراف، ومع ذلك كان غارقاً في أعماق ذلك المذهب الجديد، هو الرجل الذي تساوي أذناه نحو مئة ألف إكو. كانت لديه أسرار ينبغي كشفها حتى شهد الملك ودوقة دي فالنتينوا التحقيق معه.

قال الفراء: «أسرار رهيبة، ثم تابع بصوت منخفض: «يا أصدقائي، إن البروتستنتية تريد أن تدخل البورجوازية في أراضي الكنيسة، فبعد الغاء الامتيازات الكهنوتية، يزمع البروتستنت أن يطلبوا مساواة البورجوازية بالنبالة فلا يبقى غير الملك فوق جميع الناس، هذا إن بقي ملك في الدولة.

هتف لاليه: يريدون إلغاء العرش.

قال لكاموس: هيه! يا شريك، في هولندة، يحكم البورجوازيون أنفسهم بأنفسهم، بواسطة مساعدي عمدة ينتخبون بأنفسهم رئيساً مؤقتاً.

هتف الصائغ: ليحيا الله! ياشريك. يجب أن تتم هذه الأشياء الجميلة لدينا ونبقى كاثوليكيين.

- إن عمرنا المتقدم لن يتيح لنا أن نرى انتصار بورجوازية باريس، لكنها ستنتصر، يا شريك، كما في كل زمن! آه! يجب أن يعتمد عليها الملك ليتمكن من الصمود، وقد بعنا دائماً مساندتنا غالياً. في المرة الأخيرة، منح جميع البورجوازيين النبالة وسُمح لهم بشراء أراض إقطاعية وحمل أسماء شرف دون أن يحتاجوا إلى

رسائل عاجلة من الملك. فأنت كما أنا حفيدي غوا من جهة الأمهات، ألا نعادل النبلاء حقاً؟

هذه العبارة أرعبت الصائغ والمرأتين فتبعها صمت عميق، فخمائر ١٧٨٩ كانت تلسع منذ ذلك العهد دم لكاموس الذي لم يبلغ من العمر حداً يجعل جسارات بورجوازيي العصبة تفوته سأل لاليه السيدة لكاموس: هل مبيعاتكم جيدة رغم هذه البلبلة؟

أجابت: هذا دائماً يسبب الضرر.

قال لكاموس: من أجل هذا رغبت في أن أجعل من ابني محامياً فالدعاوي والمحاكمات لا تنقطع.

بقيت المحادثة عند ذاك على أرضية أمور مشتركة وعامة أدخلت السرور على نفس الصائغ الذي لا يحب التشويشات السياسية ولا ابتكارات الفكر الجريئة.

كان ضفتا اللوار من بلوا حتى آنجه هدفاً لإيثار الفرعين الأخيرين من السلالة الملكية اللذين شغلا العرش قبل آل بوربون. هذا الحوض الجميل استحق تماماً الأمجاد التي خصه بها الملوك، حتى قال فيه أحد كتابنا اللبقين منذ عهد قريب[1] ما يلي:

«في فرنسة مقاطعة لا نستطيع أن نعطيها كل ما تستحقه من إعجاب. معطرة كايطالية، مزهرة كضفتي الوادي الكبير، وعدا عن ذلك فهي جميلة بمظهرها الخاص، فرنسية بالكامل، وكانت دائماً فرنسية، بعكس مقاطعاتنا الشمالية المهجنة بالتأثير الألماني، ومقاطعاتنا الجنوبية التي عاشت في تسرٍّ مع العرب، والإسبانيين، وجميع الشعوب التي طمعت فيها.

هذه المقاطعة النقية، الطاهرة، الباسلة، الوفية هي التورين، ففرنسة التاريخية هنا! الأوفرني هي الأوفرني، واللانغدوك ليست إلا اللانغدوك؛ لكن

---

(١) هوليون غوزلان في **كتاب البريجات** (١٨٣٩)، وكان بلزاك قد ذكر ذلك في طبعة «سوفرن».

التورين هي فرنسة؛ والنهر الأكثر قومية بالنسبة لنا هو اللوار الذي يسقي التورين؛ لذلك علينا ألا نندهش كثيراً من كمية الأوابد القائمة في المناطق التي استمدت اسمها واشتقاقات اسمها من نهر اللوار، في كل خطوة نقوم بها في بلاد السحر هذه نكتشف لوحة إطارها نهر أو شكل بيضوي هادىء يعكس في أعماقه السائلة قصراً، ببريجاته، وغاباته، ومياهه المتدفقة. وقد كان طبيعياً أن تفضل الملكة العيش هنا، حيث أقامت منذ زمن طويل بلاطها، وجاءت إليها لتتجمّع الثروات الكبيرة، وتمايزات العِرَق والاستحقاق وأن ترتفع هنا قصور كبيرة ككبرها».

أليس من غير المفهوم ألا تتبع الملكة الرأي الذي أعطاه بشكل غير مباشر لويس الحادي عشر بجعل تور عاصمة المملكة؟ فهناك وبدون نفقات كبيرة يمكن أن يجعل نهر اللوار صالحاً للملاحة الملائمة للمراكب التجارية والسفن الحربية الخفيفة؛ وهناك يكون مركز الحكومة في منأى عن هجوم عسكري مفاجىء غازٍ، ولما احتاجت المواقع الشمالية! كلّ هذه الأموال من أجل تحصيناتها التي لم تقل كلفتها وحدها عمَّا أنفق على أبّهات ڤرساي. لو استمع لويس الرابع عشر إلى نصيحة ڤوبان الذي أراد أن يبني له مقره بين اللوار والشير فربما ما حدثت ثورة ١٧٨٩. هذه الضفاف الجميلة تحمل إذاً، بين مكان وآخر علامات الحنو الملكي. فقصور شامبور، وبلوا، وآمبواز، وشنونصو، وشومون، وبلسيس- لي- تور وكل ما بناه، ماليَّونا، ونبلاؤنا، وخليلات ملوكنا في ڤِرتز، وآزي- لي- ريدو، وأوشه وڤيلاندري، وفالانسي، وشانتلو، ودورتال؛ التي اختفى بعضها، ولكن معظمها مايزال حياً، هي أوابد رائعة تخيم عليها عجائب ذلك العصر الذي أساءت فهمه الملة الأدبية في القرون الوسطى[1] بين جميع هذه القصور، يعتبر قصر بلوا وهو مقرّ البلاط آنذاك، أحد الأوابد التي وضعت فيها عظمة آل أورليان وآل فالوا أزهى طوابعها، فهو الأكثر إثارة لفضول المؤرخين، والآثاريين والكاثوليك. كان

---

(١) اللمحة التاريخية، والطبوغرافية، والوصف التي تلي، تخرج ما بين ذكريات رحلة قام بها بلزاك في تورين خلال شهر نيسان ١٨٤١، واستعارات أحياناً حرفية من **تاريخ قصر بلوا** نشره لاسوسي في العام ١٨٤٠ مع لوحات ومخطط تاريخي للقصر.

آنذاك منعزلاً بشكل كامل، فالمدينة، وهي نطاق محاط بأسوار قوية مزينة بأبراج تنبسط أسفل القلعة، لأن هذا القصر كان في الواقع قلعة ودار نزهة في آن واحد، أمّا في أعلى المدينة حيث تمتد المنازل المتراصة والسطوح الزرقاء كما تمتد اليوم أي من اللوار حتى قمة الهضبة المشرفة على الضفة اليمنى من النهر، فيقع نَجْد مثلث مقطوع من الغرب بجدول لم تعد له من أهمية اليوم، لأنه يسيل أسفل المدينة، أما في القرن الخامس عشر فكان يشكل، وفقاً لقول المؤرخين، وادياً كبيراً بقي منه طريق عميق ضيق، أشبه بالهوة بين الضاحية والقصر.

على هذا النجد ذي الإشراف المباشر شمالاً وجنوباً بنى كونتات بلوا، وفقاً لطراز العمارة في القرن الثاني عشر، قصراً أقام فيه آل تيبو الشهيرون اعتباراً من تيبو المخاتل، أوتيبو العجوز وذريته بلاطاً شهيراً[١]، في أزمنة الاقطاع الخالص هذه، حيث لم يكن الملك إلا «أولاً بين قرنائه» وفقاً لتعبير جميل قال به ملك بولونية. كان كونتات شمبانية، وبلوا، وآنجو، والبارونات البسطاء في نورماندي، وأدواق بريتانية يقدمون سلسلة من الحكام ويصدرون الملوك إلى الممالك الأكثر زهواً؛ وآل بلا نتاجينه في أنجو، وآل لوزينيان في بواتو، وآل روبر في نورماندي، يغذون بجرأتهم السلالات الملكية، وأحياناً يرفضون الارجوان، كما فعل دو غليكن[٢] مفضلين أن يبقوا فرساناً بسطاء حملة سيف على رأس قيادة الجيش. وعندما ضم التاج كونتية بلوا إلى أملاكه بنى لويس الثاني عشر، الذي فضل هذا الموقع ليبتعد، على الأرجح، عن بلسيس المرتبط بذكرى مشؤومة، بنى بالمقابل، مقراً سكنياً يجمع بين قصر كونتات بلوا وباقي المنشآت القديمة، التي لم يبق منها إلا الصالة الواسعة التي كانت تجتمع فيها المجالس العامة في أيام هنري الثالث، وقبل أن يغرم فرانسوا الأول بشامبور، أراد أن يكمل القصر بإضافة جناحين آخرين إليه،

---

(١) يعدّد لاسوسي بعد تيبو المخاتل أو العجوز مالك كونتية بلوا في العام ٩٢٤ ذريته وخاصة آل تيبو في القرن الثاني عشر الذين أقاموا غالباً في القصر.

(٢) غليكن أو دغوسكلن كما ذكر في السيرة الشاملة لميشو، أو السيرة الجديدة العامة لهوفر في العام ١٨٥٧. (١٣١٥-١٣٨٠) «برتران» قائد جيش حارب لمصلحة شارل دي بلوا شارل الخامس ضد «الإسبان ثم ضد الإنكليز».

وبذلك يكتمل المربع، لكن شامبور حوله عن بلوا. حيث لم يبن إلا مقراً سكنياً، غدا بالنسبة له ولأحفاده كل القصر. هذا القصر الثالث الذي بناه فرانسوا الأول كان أكثر سعة وزخرفة من قصر اللوفر، المسمى لوفر هنري الثاني؛ إنه من أروع ما أقامته الهندسة المعمارية المسماة هندسة عصر النهضة. وهكذا ففي زمن سادته هندسة غيور، ولم يعد من اهتمام فيه بالعصر الوسيط، وفي حقبة لم يكن الأدب فيها مقترناً بالفن بمثل الصلة الوثيقة في أيامنا هذه؛ فإن لافونتين قد قال عن قصر بلوا، بلغته المليئة بالطيبة:

«إن ما فعله فرنسوا الأول، وأنا اشاهده من الخارج، ليسرني كثيراً، فهناك العديد من الأروقة الصغيرة، والنوافذ الصغيرة، والشرفات الصغيرة، والتزيينيات الصغيرة دون انتظام ودون ترتيب، إن في ذلك شيئاً كبيراً، يعجبني كثيراً[1].

قصر بلوا إذا له فضل تمثيل ثلاثة أنواع من الهندسة المعمارية المختلفة، وثلاثة عصور، وثلاثة أنظمة، وثلاث سيادات؛ وهكذا لا يوجد مقر ملكي يمكن مقارنته وفق هذا المنظور بقصر بلوا. هذه المنشأة الواسعة تقدم في نطاق واحد، وفي بلاط واحد، لوحة كاملة صحيحة لهذا التمثيل الكبير للطبائع ولحياة الأمم المسمى الهندسة المعمارية في الفترة التي كان فيها كريستوف ذاهباً إلى البلاط، كان القسم من القصر، المشغول في أيامنا هذه بالبناء الرابع المنشأ بعد سبعين عاماً من ذلك التاريخ من قبل غاستون، الأخ المتمرد للويس الثالث عشر، خلال نفيه، هذا القسم كان رياضاً وحدائق مكشوفة متوزعة بين أكوام حجرية للبناء وأبراج غير منتهية في قصر فرانسوا الأول، وهذه الحدائق كانت تتصل بواسطة جسر تتجلى الجرأة في إشادته، ويتذكر معمرو منطقة بلوا رؤية تهديمه[2]، مع رياض أخرى أقيمت من الجهة

---

(١) لامبالاة فرانسوا الأول، وكذلك قول لافونتين الممثل به واردة في كتاب «تاريخ قصر بلوا».

(٢) يميز لاسوسي في كتابه «تاريخ قصر بلوا» الحديقة العالية عن الحديقة المنخفضه في موقع ساحة اليسوعيين الحديثة، ويشير إلى الجسر الواصل بينهما، لكن بلزاك يضيف هنا تفصيلاً لم يذكره لاسوسي، وهو يعود إلى زيارته، فخلال الثورة، في الفترة التي جزئت فيها الحدائق المنخفضة وبيعت، هدم الجسر، لكنه ليس جسر القرن السادس عشر الذي لم يعد له وجود، وإنما الجسر الذي انشيء مكانه في أيام غاستون دي أورليان (ل. برجفين وآ. دوبره: **تاريخ بلوا**، بلوا ١٨٤٦).

الأخرى من القصر، وهي وفقاً لحالة الأرض تقع على مستواه نفسه؛ وكان النبلاء الملحقون بالملكة آن دي بريتاني أو أولئك الوافدون من مقاطعة بريتانية لمقابلتها أو التشاور معها أو نقل أخبار المنطقة لها، ينتظرون هناك مواعيد استقبالها لزائريها أو نهوضها أو نزهتها، لذلك أطلق تاريخيا على ذلك الموقع اسم **مجثم البريتانيين**، وهو في يومنا هذا حديقة مثمرة لأحد البورجوازيين وتشكل مطلاً على ساحة اليسوعيين[١]. كانت تلك الساحة تقع ضمن حدائق ذلك المقر الجميل المنقسمة إلى عالية وواطئة، ومانزال حتى يومنا هذا نرى على بعد كبير تقريباً من ساحة اليسوعيين جناحاً بنته كاترين دي مديسي، ووفقاً لما يذكره مؤرخو منطقة بلوا[٢] فقد اقامت فيه حمّاماتها.

هذا التفصيل يسمح بالعثور على الموقع وتحديد الوضع غير المنتظم للحدائق التي تصعد وتهبط متبعة تموجات الأرض الوعرة بشدة حول القصر، مما زاد في منعته، وسبب كما سنرى حيرة الدوق دي غيز. كان بالامكان الوصول إلى الحدائق عن طريق أروقة داخلية أو خارجية، أهمها ما يسمى رواق الوعول بسبب تزييناته، وينتهي هذا الرواق إلى الدَرَج الرائع الذي أوحى دون شك بدرج شامبور المضاعف الشهير، فهو يوصل بين طابق وآخر حتى الأجنحة السكنية. وبالرغم من أن لافونتين قد فضَّل قصر فرانسوا الأول على قصر لويس الثاني عشر، فلربما ستعجب بساطة قصر الملك الفنانين الحقيقيين بقدر ما سيعجبون بعظمة الملك الفارس. فأناقة الدرجين الموجودين في كل طرف من قصر لويس الثاني عشر، والنقوش الرائعة، المبتكرة، التي تعزز فيه، والتي افترسها الزمن، لكن ماتزال بقية منها تسحر الأَثَريين، كل شيء، حتى التوزّع شبه الديري للأجنحة السكنية يكشف عن بساطة

---

(١) هذه الواقعة تعود إلى برانتوم، وقد نقلها لاسوسي في نقده لمخطط القصر الذي أرفقه ڤيته في مسرحيته **دول بلوا**، ويبدو أن بلزاك لم يع جيداً مؤلفه الذي يذكر ملاحظتين متميزتين: احداهما عن مصطبة **مجثم البريتانيين** الواقعة في نهاية الفناء، والثانية حول أرض ساحة اليسوعيين التي كانت تشغلها الحدائق.

(٢) تفصيل لم يذكره لاسوسي ولا سابقوه، وإنما أكده كتاب **تاريخ بلوا** لبرجفين ودوبره.

في التقاليد. بديهي أن البلاط لم يكن قد وجد بعد، ولم يكن قد وصل إلى هذه التطورات التي منحه إياها فرانسوا الأول ثم كاترين دي مديسي على حساب الخسارة الكبرى للتقاليد الإقطاعية. لكن ونحن ننظر بإعجاب إلى معظم المنصات، وإلى تيجان بعض الأعمدة وإلى بعض التماثيل الصغيرة ذات الرقة الساحرة، يستحيل ألا نتصور مرور ميشيل كولومب، ذلك المثال الكبير، ميشيل آنج بريتانية، من هنا، ليصنع ما يرضي ملكته آن التي خلدها في قبر أبيها، آخر أدواق بريتانية(١).

أيا كان قول لافونتين فليس ما يفوق المسكن المترف لفرنسوا الأول فخامة؛ فبفضل شيء من لامبالاة فظة، قد تكون نسياناً، ماتزال الأجنحة التي شغلتها آنئذ كاترين دي مديسي وابنها فرانسوا الثاني تبدي لنا الآن تنظيماتها الرئيسة. وهكذا يمكن للمؤرخ أن يرى فيها مجدداً المشاهد المفجعة لمأساة الاصلاح الديني التي يشكّل الصراع المضاعف لآل غيز وآل بوربون ضد آل ڤالوا أحد مشاهدها الأكثر تعقيداً قبل أن يحلها.

إن قصر فرانسوا الأول يطغى بشكل كلّي على سكن لويس الثاني عشر بكتلته المهيبة. وهو من جهة الحدائق المنخفضة، أي من الساحة الحديثة المسماة ساحة اليسوعيين، يظهر القصر في ضعف ارتفاعه تقريباً من جهة الفناء، فالطابق الأرضي، حيث تقوم الأروقة الشهيرة، يشكل من جهة الحدائق طابقاً ثانياً، وهكذا فالطابق الأول الذي كانت تسكن فيه عندئذ الملكة كاترين هو ثالث، والأجنحة الملكية في الرابع فوق الحدائق المنخفضة، التي كانت في ذلك الزمن منفصلة عن الأساسات بخنادق عميقة، فالقصر الذي يبدو شاهقاً من الفناء، يبدو إذا عملاقاً عند النظر إليه من أسفل الساحة، كما رآه لافونتين، الذي يعترف بأنه لم يدخل إلى الفناء، ولا إلى الأجنحة. فمن ساحة اليسوعيين يبدو كل شيء، صغيراً؛ الشرفات التي يتنزهون عليها، والأروقة ذات التنفيذ المدهش، والنوافذ المزخرفة التي تبدو

(١) لا نعرف إلا تفاصيل قليلة عن حياة النحات ميشيل كولومب، والمأثور عنه أنه بريتاني، وقد أمكن التحقق من أنه معد زخارف ضريح الدوق فرنسوا والد الملكة آن دي بريتاني: انظر متحف العائلات، ١٨٣٨ رقم ٣١١.

فتحاتها بقدر غرف جلوس في سعتها، والتي كانت تستخدم كغرف جلوس، وهي أشبه بهذه التفننات المرسومة كتزينيات في أوبراتنا الحديثة، التي يجعل منها الرسامون قصور جنيات. أما من الفناء، ومع أن الطوابق الثلاثة فوق الطابق الأرضي هي بارتفاع جناح الساعة في قصر التويلري، فإن الدقة اللامتناهية في تلك الهندسة تظهر بكياسة، وتفتن الانظار المندهشة. هذا القسم الرئيس من الجناح، حيث كان ينعقد بلاط الملكة كاترين الباذخ، وبلاط الملكة ماري ستيوارت، كان مقسوماً ببرج سداسي الشكل، يدور في قفصه المجوف درج من حجر، نزوة مغربية نفذها عمالقة وعمل بها أقزام؛ وهو يعطي لتلك الواجهة مظهر الحلم، وتشكل منصات الدرج لولباً ذا مقاصير مربعة تتصل بالشقوق الخمسة في ذلك البرج، وترتسم بين مسافة وأخرى خرجات عرضانية مطرزة بنقوش زخرفية من الخارج والداخل. لايمكننا أن نقارن هذا الإبداع المدهش في تفاصيله البارعة والدقيقة المليئة باعاجيب تنطق بها هذه الأحجار، إلا بالنقوش الغزيرة المحفورة بعمق في عاج الصين أو دييب[1]. أخيراً كان الحجر أشبه بقطعة من مخرمات «الغيبور». فالأزهار ووجوه البشر والحيوانات تنزل على طول تعاريق الضلوع، وتتضاعف بين درجة وأخرى، وتتوج ذلك البرج بغَلَق عَقْد تصارعت فيه أزاميل فن القرن السادس عشر مع نحاتي الصور البسطاء الذين نقشوا قبل ذلك بخمسين سنة مغاليق عَقْدِ درجي قصر لويس الثاني عشر. وأياً كانت دهشتنا ونحن نرى هذه الأشكال المتَجددة بإطناب لا يكلُّ، فإننا نلاحظ أن فرنسوا الأول قد أعوزته الدراهم من أجل بلوا، كما أعوزت لويس الرابع عشر من أجل فرساي؛ فأكثر من تمثال صغير يظهر رأسه الجميل الناعم، وهو يخرج من كتلة حجرية بالكاد قد شذبت؛ وأكثر من نجمية عجيبة أشير إليها فقط ببضع ضربات إزميل في حجر مهجور حيث أزهرت الرطوبة فطورها العفنة المخضرة. وعلى الواجهة، إلى جانب منمنمات نافذة، تقدم النافذة المجاورة كتلها الحجرية المشرَّمة بعامل الزمن الذي نقشها على طريقته. هناك ترى

---

(١) اشتهرت دييب بدءاً من القرن الخامس عشر بأعمال الحفر على العاج، وبعد تقهقر في القرن الثامن عشر، عادت في القرن التاسع عشر إلى تقليد الأشغال الصينية.

الأعين الأقل خبرة فنية، والأقل تمرساً، تبايناً رائعاً بين هذه الواجهة حيث الروائع تتدفق، والواجهة الداخلية لقصر لويس الثاني عشر المؤلف في الطابق الأرضي من بضع قناطر ذات رشاقة ناعمة، تدعمها عميدات تستند في قواعدها على منصات أنيقة، ومن طابقين فوقه نقشت نوافذهما ببساطة جذابة، ويمتد تحت القناطر رواق تغطت جدرانه برسوم زخرفية وكذلك رسم سقفه، إذ أننا مانزال نجد عليه حتى الآن بقايا هذا الجلال المقلد لإيطالية والذي ينبىء بإرساليات ملوكنا، فقد كانت منطقة ميلانو تعود إليهم. تقوم في مواجهة قصر فرنسوا الأول كنيسة كونتات بلوا ذات الواجهة المتناسقة مع هندسة المقر السكني للويس الثاني عشر. ما من لوحة يمكن أن تصف المتانة المهيبة لكتل هذه الاجسام الثلاثة من الأبنية، ورغم عدم التوافق في زخرفتها، فإن الملكية القادرة والقوية التي تعبر عن كبر مخاوفها بكبر احتراساتها، استخدمت رابطة بين المنشآت الثلاثة ذات الطبيعة المختلفة حيث اثنان منها يسندان صالة المجالس العامة الواسعة والعالية كأنها كنيسة. فلا البساطة ولا قوة الكينونات البورجوازية، الموصوفة في بداية هذه القصة، والتي يتمثل الفن فيها دائماً، تنقص هذا السكن الملكي بكل تأكيد. فبلوا هو الموضوع الخصب والشيق الذي أعطته البورجوازية والإقطاع والمال والنبل، العديد من الإجابات الحية في المدن والأرياف. فأنتم لا تختارون بوجه ما بديلا لسكن الأمير الذي ساد باريس في القرن السادس عشر. وغنى الألبسة النبيلة، وترف الزينة النسائية ينبغي أن تتناسق على نحو منسجم مع هذه الحجارة التي شغلت بغرابة فحين يصعد ملك فرنسة من طابق لآخر على درج قصره الرائع في بلوا، يكتشف أكبر امتداد لهذا اللوار الذي يحمل إليه أخبار كل المملكة التي يقسمها إلى نصفين متجابهين وشبه متنافسين. لو أن فرنسوا الأول بدلاً من أن يذهب إلى سهل ميت قاتم على بعد فرسخين من هنا، وأقام شامبور في مقابل هذا القصر وفي المكان الذي كانت تمتد فيه الحدائق التي وضع غاستون فيها قصره، لما وجدت فرساي أبداً، ولغدت بلوا بالضرورة، عاصمة لفرنسة. أربعة من آل ڤالوا وكاترين دي مديسي بذروا ثرواتهم في قصر فرنسوا الأول في بلوا؛ لكن من لا يخمن كم بذر التاج فيه، وهو ينظر بإعجاب إلى

الأسوار المنيعة الموصلة بين الأبنية والمشكلة للعمود الفقري لهذا القصر، حيث أعدت مهاجع عميقة، وسلالم سرية، ومكاتب، والتي تحوي قاعات بمثل سعة قاعة المجلس، قاعة الحرس والغرف الملكية، حيث في أيامنا تأوي بكل راحة فرقة مدفعية[١]. مع ذلك إذا لم يدرك الزائر في البدء أن الروائع التي في الداخل تتصل مع تلك التي في الخارج، فإن بقايا مكتب كاترين دي مديسي، حيث سيصل كريستوف، تشهد كفاية على أناقة الفن الذي عَمَر هذه الأجنحة بأشكال حية فالسلمندرات[٢] تتألق بين الأزهار وألوان رسّامي القرن السادس عشر تزين بلوحاتها البراقة الأقنية الأكثر قتامة. في هذا المكتب يمكن للملاحظ أن يرى حتى يومنا هذا آثار هذا الشَغَف بالتذهيب الذي حملته كاترين من إيطالية، ذلك أن أميرات بيتها يحببن، وفقاً للتعبير اللطيف للمؤلف الذي ذكر سابقاً[٣] أن يلبّسن القصور الفرنسية بالذهب الذي ربحه أجدادهن في تجارتهم، وأن يوقعن بثرواتهن على جدران الصالات الملكية.

كانت الملكة الأم تشغل في الطابق الأول جناح الملكة كلود دي فرانس[٤]، زوجة فرنسوا الأول حيث ماتزال ترى النقوش الدقيقة لحرف C المضاعف، ترافقها صور ذات بياض ناصع: طيور التم وزهور الزنبق، وهو ما يعنيه شعار تلك الملكة باللاتينية CANDIDIOR CANDIDIS «أكثر بياضاً من أبيض الأشياء سيّما أن اسمها يبدأ بحرف C كاسم كاترين. هذا الحرف الذي يلائم إذا في آن واحد ابنة لويس الثاني عشر، كما يلائم أم آخر ملوك ڤالوا؛ فما من شبهة، رغم عنف فريات

---

(١) تؤخذ بالمعنى الحقيقي إذ أن القصر كان في العام ١٨٤٠ ثكنة، ولم تبدأ أعمال الترميم فيه إلا في ١٨٤٥.

(٢) كان السلمندر هو شعار الملك فرنسوا الأول.

(٣) المقصود به الكاتب ليون غوزلان وقد سبق لبلزاك الاستشهاد به وله في «كتاب البريجات» تعبير مشابه «عطار وفلورنسة المتوجون، آل مديسي يصفحون بالذهب المصكوك الذي ربحوه في تجارتهم جدران القصور وأعالي أفاريزها.

(٤) توزع الأجنحة في القصر مأخوذ عن لاسوسي- تاريخ قصر بلوا- ١٨٤٠.

الكالفنيين لطخت وفاء كاترين دي مديسي لهنري الثاني[١] وبديهي أن الملكة الأم، وما يزال لديها ولدان صغيرا السن (وهما صبي غدا فيما بعد دوق آلنسون، وابنة هي مرغريت التي تزوجها فيما بعد هنري الرابع، وكان شارل التاسع يناديها مارغو) كانت تحتاج الطابق الأول كله وتشغله.

كان الملك فرنسوا الثاني والملكة ماري ستيوارت يشغلان في الطابق الثاني الجناح الملكي الذي كان يشغله فرنسوا الأول، والذي شغله فيما بعد هنري الثالث.

كان الجناح الملكي وكذلك جناح الملكة الأم مقسومين على طول القصر وفي كل طابق إلى قسمين بهذا الجدار الشهير الفاصل وسماكته أربعة أقدام والذي تستند عليه الجدران الهائلة التي تفصل ما بين القاعات، وهكذا كانت الأجنحة في الطابق الأول كما في الطابق الثاني تتألف من قسمين متميزين: القسم الموجه نحو الجنوب، وعلى الفناء وهو يستخدم للاستقبال وللشؤون العامة، بينما توزعت الشقق السكنية، اتقاء للحرارة على القسم الشمالي الذي يشكل الواجهة الرائعة ذات الشرفات والأروقة المطلة على مناظر ڤندوموا، وعلى مجثم البريتانيين وحفر المدينة وهي الواجهة الوحيدة التي تحدث عنها شاعرنا الأساطيري الكبير لافونتين الطيب.

كان من المفروض أن ينتهي قصر فرنسوا الأول ببرج هائل بدىء به، ووجب أن يستخدم ليشكل الزاوية الضخمة التي يرسمها القصر عندما يدور حول نفسه، والتي فتح جانبها فيما بعد غاستون ليتمكن من أن يلحم بها قصره، لكنه لم ينه مشروعه، وبقي البرج خراباً. وقد استخدم هذا البرج الملكي سجناً أو زنزانات وفقاً للتقاليد الشعبية[٢]. هل من شاعر يتجول في قاعات هذا القصر، الثمينة جداً للفن وللتاريخ، لا ينتابه ألف أسف، لا يغتمُّ لفرنسة، حين يرى زخارف مكتب كاترين دي مديسي الرائعة وقد طُليت بالكلس، وكادت تطمس، بناء على أوامر المقدم آمر

---

(١) لكن بلزاك لمح في المقدمة إلى استلطافها لڤيدام دي شارتر.

(٢) وفقاً لما أشار إليه لاسوسي في كتابه عن القصر.

الثكنة (فقد غدا هذا المقر الملكي ثكنة اثناء جائحة الكوليرا[١] . فالتلبيسة الخشبية لمكتب كاترين دي ميديسي، الذي سيرد ذكره، هي آخر ذخيرة من الأثاث النفيس الذي جمعه خمسة ملوك من هواة الفن اذا تجولنا في متاهة هذه الغرف، والقاعات، والأدراج، والأبراج، يمكن أن نقول في أنفسنا بتأكيد مروع: هنا ماري ستيوارت كانت تتملق زوجها لحساب آل غيز، وهنا شتم هؤلاء كاترين دي مديسي، وفيما بعد، في هذه الساحة سقط بالافره (النديب) الثاني تحت طعنات المنتقمين للتاج، وقبل ذلك بقرن كان لويس الثاني عشر يشير بيده للكردينال دامبواز صديقه للمجيء إليه، ومن هذه الشرفة استقبل دي ابرنون المتواطىء مع راڤاياك، الملكة ماري دي مديسي، وكان يعلم، على ما يقال بالمؤامرة لقتل الملك، ولم يحرك ساكناً وسهل تنفيذها بنجاح؛ في هذه الكنيسة التي تمت فيها خطبة هنري الرابع ومرغريت دي ڤالوا تُخصِّف فرقة الجنود المعسكرة الآن أحذتيها[٢] هذا الأثر الرائع الذي تحيا فيه مجدداً طرازات عديدة، وحيث تمت أعمال كبيرة، هو في حالة من الانحطاط تلحق العار بفرنسة، فيالألم أولئك المحبين لأوابد فرنسة القديمة وهم يشعرون أن مصير هذه الأحجار الناطقة فناً وسحراً سيكون كزاوية شارع ڤيي- بلتري وربما لا يبقى من ذكرها إلا ما تسجله هذه الصفحات.

من الضروري أن نشير إلى أن آل غيز، من أجل تشديد الرقابة على البلاط، وبالرغم من أن لهم قصراً خاصاً بهم في المدينة. وما يزال موجوداً حتى الآن، حصلوا على حق الإقامة في الجناح الواقع فوق جناح لويس الثاني عشر، وهو الذي أقامت فيه بعد ذلك دوقة دي نمور في سقائف الطابق الثاني.

---

(١) تفصيل يوكد عليه لاسوسي أيضاً فيذكر أن جميع النقوش الداخلية قد غابت تحت طبقات عديدة من طلاء الكلس، لكن التلميح إلى وباء الكوليرا الذي حدث في العام ١٨٣٢ خاص ببلزاك، نتيجة زيارته للمكان بالتأكيد.

(٢) جميع هذه التفاصيل التاريخية مأخوذة عن لاسوسي، لكن بلزاك يضيف شيئاً من الطرفة الروائية حول هرب ماري دي مديسي «التي نزلت وفق رواية لاسوسي من إحدى النوافذ بواسطة سلم من الحبال بمساعدة رجال الدوق دي ابرنون- كما أنه يشير إلى ما سبق أن ذكره في «المقدمة» حول معرفتها بالمؤامرة على قتل هنري الرابع زوجها.

نُقِل الملك الشاب فرنسوا الثاني والملكة الشابة ماري ستيوارت، المغرم أحدهما بالآخر وهما ابنا السادسة عشرة من العمر، نقلا فجأة خلال الشتاء القاسي من قصر سان جرمن، الذي رأى الدوق دي غيز أن من السهل مهاجمته إلى هذا المكان الحصين الذي يشكله قصر بلوا، المنعزل من ثلاث جهات بجروف، ويشكل مدخله مكاناً محمياً يسهل الدفاع عنه بشكل رائع. كان لآل غيز، أخوال الملكة، أسباب رئيسة تدفعهم إلى عدم السكن في باريس، ولاستبقاء البلاط الملكي في قصر يمكن تأمين الرقابة والدفاع بسهولة عن سوره، كان يدور حول العرش صراع بين آل لورين وآل ڤالوا، لم ينته إلا في هذا القصر عينه بعد ثمانية وعشرين عاماً، في ١٥٨٨، عندما استمع هنري الثالث، تحت انظار أمّه نفسها، المهانة في هذا الوقت بخزي من آل لورين إلى سقوط أشجع آل غيز بلافره الثاني ابن بلافره الأول[1] الذي سخر من كاترين دي مديسي وسجنها وتجسس عليها وهددها.

كان قصر بلوا بالنسبة لكاترين السجن الأكثر ضيقاً. فقد أملت بعد موت زوجها، الذي كان دائماً يقيد حركاتها بصلابة وحزم، في أن تمارس السلطة الملكية، لكنها رأت نفسها قد وضعت بخلاف ذلك، في عبودية من قبل غرباء، في طرائقهم المهذبة عنف يفوق ألف مرة فظاظة السجانين. فما من مسعى لها يمكن أن يخفى عليهم؛ اما النساء اللواتي من حولها ويمكن أن يخلصن لها، فإما أنّ لهن عشاقاً مخلصون لآل غيز، أو أنهن محاطات بالجواسيس. والواقع أن الأهواء في ذلك الزمن كانت تظهر بالغرابة التي تشيعها فيها دائماً المنافسة الشديدة بين المصلحتين المتعاكستين في الدولة. والعلاقات الغرامية التي استغلتها كاترين كانت أيضاً إحدى وسائل آل غيز، وهكذا فأمير كونده زعيم الاصلاحيين الدينيين الأول، كانت له زوجة المارشال دي سان آندر، صاحبة، بينما كان زوجها الروح المتفانية

---

(١) لقب الكونت فرنسوا دي غيز ببلافره (النديب) لإصابته بجرح بليغ بسهم دخل في حلقه خلال إحدى المعارك (مما سيأتي ذكره) ولقب ابنه هنري بلافره الثاني.

للمعلم الأكبر[١]، والكردينال دي لورين الذي برهنت قضية ڤيدام شارتر أن كاترين عدا عن أنها لا تقهر، فإنها لا تغوى، يطرح رغم ذلك شباكه حولها. فحركة جميع هذه الأهواء إذاً تعقِّدُ بشكل غريب مجريات السياسة إذ تجعل منها مباراة شطرنج مضاعفة حيث يجب مراقبة قلب الرجل ورأسه، للتأكد من أن أحدهما لن يخيب الآخر إن سنحت الفرصة. وبالرغم من أن كاترين كانت دون انقطاع تحت رقابة الكردينال دي لورين أو الدوق دي غيز اللذين يحذرانها، فإن عدوتها الأكثر حميمية والأكثر مهارة كانت كنتها الملكة ماري، الشقراء الصغيرة الماكرة، كخادمة مغناج في مسرحية، المزهوة كواحدة من آل ستيوارت تتجلّى بثلاثة تيجان[٢]، المتقنة كعالمة عريقة. المنافقة كخريجة دير، المغرمة بزوجها كغانية تهوى عاشقها، المخلصة لأخوالها المعجبة بهم والسعيدة لرؤية زوجها فرنسوا الثاني يشاركها، بمساعدتها طبعاً، ذلك الإعجاب والرأي فيهم. والحماة بالنسبة للكنة هي دائماً شخصية غير محبوبة، وخاصة عندما تحمل الحماة التاج وتريد أن تحتفظ به، وهذا ما أظهرته كاترين المتهورة؛ فوضعها السابق عندما كانت ديان دي بواتيه مهيمنة على هنري الثاني كان أكثر تحملاً: فقد كانت تحظى على الأقل بالإجلال الواجب لها كملكة، وباحترام البلاط، بينما في هذه الفترة حيث لا يوجد حول الدوق والكردينال إلا صنائعهم، وهما يجدان متعة في تحقيرها، فهي حبيسة رجال البلاط، وتتلقى كل يوم، بل كل ساعة، ضربات تنال من عزة نفسها، ذلك أن آل غيز استمروا في النهج الذي تبناه من قبل المرحوم الملك زوجها.

ربما كانت السنوات الست وثلاثون[٣] التي كدّرت فرنسة قد بدأت بالحدث الذي تولى فيه ابن فراء الملكتين الدور الأكثر خطورة، والذي جعل منه الشخصية

---

(١) المعلم الأكبر لقب أطلق على الدوق فرنسوا دي غيز لسيطرته على البلاط الملكي.

(٢) تاج فرنسة الذي تحمله وتاج اسكوتلندة إرث أهلها، وتاج أنكلترة وايرلندة الذي تطمع فيه.

(٣) لماذا ستة وثلاثون عاماً؟ بدأت بلبلة آمبواز في ١٥٦٠، ومقتل هنري الثالث في ١٥٨٩ وتكريس هنري الرابع في ١٥٩٤ وبراءة نانت في ١٥٩٨ انما الواقع أن المفاوضات بدأت في ١٥٩٦، وكذلك التحاق آخر المؤتمرين

الرئيسة في هذه الدراسة، فالخطر الذي سيتعرض له هذا البروتستنتي المتحمس غدا جلياً صبيحة اليوم الذي غادر فيه مرفأ بوجنسي، وهو مجهز بالوثائق الثمينة التي تعرض للشبهات أعلى رؤوس النبالة، وتوجه عبر النهر إلى بلوا برفقة النصير الداهية، لارنودي الجلود الذي سبقه إلى المرفأ.

بينما كان الزورق الصغير الذي يحمل كريستوف يندفع بريح خفيفة وهو يهبط النهر، كان الكردينال الشهير شارل دي لورين، والدوق الثاني دي غيز أحد كبار رجال الحرب في ذلك الزمن، يقفان كنسرين في أعلى صخرة، يتأملان وضعهما وينظران بحذر حولهما، قبل أن يوجها ضربتهما الكبرى التي يحاولان فيها للمرة الأولى القضاء علي البروتستنتية في فرنسة بدءا بامبواز، والتي تجددت في باريس بعد ذلك باثني عشر عاماً، في ٢٤ آب ١٥٧٢[1].

خلال الليل كان ثلاثة نبلاء ممن لعبوا دوراً كبيراً في مأساة الإثني عشر عاماً، التي تبعت هذه المؤامرة المضاعفة المحبوكة من قبل آل غيز من جهة ومن قبل البروتستنت من جهة معاكسة، قد وصلوا مطلقي العنان لخيولهم التي بَلَغت شبه نافقة إلى باب خفي في القصر يحرسه قادة وجنود ذوي إخلاص مطلق للدوق دي غيز معبود ممارسي الحرب. هذا الرجل الكبير يستحق التعريف به بكلمة تتحدث أولاً عن حظه وقدره:

أمه هي أنطوانيت دي بوربون النسيبة الكبرى لهنري الرابع. ما فائدة المصاهرات؟ إنه يهدف في هذه الفترة إلى الإطاحة برأس ابن عمه أمير كونده. وابنة أخته هي الملكة ماري دي ستيوارت؛ وزوجته آن ابنة الدوق دي فرار. وقائد الجيش الأكبر آن دي مونمورونسي يكتب إلى الدوق دي غيز بادئاً رسالته بكلمة «سيدي» كأنه يخاطب الملك، ومنهياً إياها ويختمها بتوقيع «خادمك المطيع» بينما

---

(١) هذه العلاقة يسجلها جرمو في بداية مسرحية «بلبلة امبواز» وهو يرى في تنفيذ الحكم على متآمري آمبواز المحاولة الأولى لما جرّبت سان بارتلمي أن تتممه بعد ذلك.

يجيبه دي غيز المعلم الأكبر في بيت الملك بادئاً جوابه: «السيد قائد الجيش» ويوقع كتوقيعه بالنسبة للبرلمان: «**صديقك العطوف**[1]».

أمـا الكـردينال دي لورين أخـو الدوق فكان يلقب «**بابا عـبر الألب**[2]» ويخاطب بصاحب القداسة كما سماه إتيين، وكان مسيطراً على كل رهبانيات فرنسة، ويقف من البابا موقف الندّ للندّ. كان معتداً بفصاحته، ويعتبر أحد أقوى لاهوتيي عصره، وهو يشرف في آن واحد على فرنسة وإيطالية بواسطة ثلاث رهبانيات يطيعه اتباعها إطاعة مطلقة، ويعملون من أجله ليلا ونهاراً ويخدمونه كجواسيس وكمستشارين.

هذه الكلمات القليلة تشرح إلى أي مدى من السلطة وصل كل من الكردينال والدوق؛ ورغم غناهما ومداخيل مراكزهما العليا، كانا مترفعين عن المكاسب بعمق، أو أنهما كثيرا الحماس لتيار سياستهما، وشديدا الأريحية أيضاً، حتى أن الاثنين كانا مديونين، ولكن دون شك على طريقة قيصر[3]؛ وهكذا عندما دبر هنري الثالث مقتل بالافره الثاني الذي هدد عرشه، تدمر بيت آل غيز حتماً. فالنفقات التي أسرفوا فيها خلال قرن لاغتصاب التاج تفسر التدهور الذي وصل إليه هذا البيت في أيام لويس الثالث عشر ثم لويس الرابع عشر؛ بينما بيَّن الموت المفاجىء لزوجة شقيق الملك لأوروبة كلها الدور المعيب الذي انحط إليه الفارس دي لورين[4]. كان الكردينال والدوق دي غيز، وهما يعتبران نفسيهما ورثة

---

(١) استمد بلزاك هذه المعلومات من كتاب السيرة الشاملة الذي خصص فصلاً لكلود دي لورين الكردينال، وآخر لفرنسوا دي لورين، دوق دي غيز.

(٢) يذكر مزراي في «تاريخ فرنسة- ١٦٤٣ - ١٦٥١» أن البابا كان يخشى من جهوده في «إضعاف سلطة رومة والبابوية» ويسميه «البابا الصغير ما وراء الجبال».

(٣) تذكر «السيرة الشاملة» نفقات الكردينال دي لورين وديونه لزيادة عدد أتباعه والموالين له.

(٤) يؤكد سان سيمون أن موت هذه الزوجة كان بتأثير سم أرسله الفارس دي لورين، صديق زوجها الموجود آنذاك في المنفى، لهذا الغرض إلي صديقه المركيز ديفيات، والفارس دي لورين هو الابن الثاني لهنري دي لورين دوق إلبوف، الذي يعتبر جده الأكبر كلود دي لورين دوق دي غيز الأول والد فرنسوا.

الكارلوفنجيين المنتزعي الملكية، يتصرفان بوقاحة حيال كاترين دي مديسي حَمَاة ابنة اختهما؛ وكانت الدوقة دي غيز لا تدخر أي إذلال لكاترين، فهذه الدوقة هي من آل دسْت[١]، وكاترين من آل مديسي ابنة التجار الفلورنسيين المُحَدثي النعمة الذين لم يقبلهم ملوك اوروبة حتى الآن ضمن الرعيل الملكي؛ وهكذا فإن فرنسوا الأول اعتبر زواج ابنه بابنة مديسي زواجاً غير متكافىء، ولم يرض به إلا لاعتقاده أن هذا الابن الثاني لن يرث العرش، ومن هنا كانت زيادة غضبته عندما مات ولي عهده مسموماً من قبل الفلورنسي مونتكوكولي. كما أن آل دست يرفضون الاعتراف بآل مديسي كأمراء ايطاليين؛ فهؤلاء التجار القدامي أرادوا في الواقع منذ ذلك الوقت أن يحلوا المشكلة المستحيلة لعرش تحيط به مؤسسات جمهورية، ولم يوافق على لقب الدوق الأكبر إلا في وقت متأخر جداً من قبل فيليب الثاني، ملك اسبانية، لآل مديسي، الذين اشتروا هذا اللقب بخيانتهم لفرنسة، المحسنة إليهم، وبارتباط ذليل ببلاط اسبانية الذي كان يعاكسهم خفية في إيطالية[٢].

«لا تداهن إلا أعداءك» هذه هي العبارة التي يبدو أن كاترين اعتبرتها القانون السياسي لتلك العائلة من التجار التي لم ينقصها عظماء الرجال إلا في الفترة التي غدت فيها مقاديرها كبيرة، فتعرضت باكراً إلى هذا الانحطاط النوعي الذي تنتهي إليه السلالات الملكية والعائلات الكبرى[٣].

خلال ثلاثة أجيال، كان هناك دائماً نبيل من آل لورين كرجل حرب، وآخر من العائلة ذاتها كرجل دين، لكن ما قد يكون غير مستغرب هو أن رجل الدين،

---

(١)عائلة دست هي المنافسة لعائلة مديسي على دوقية توسكانية وفلورنسية، وقد حكمت فراري ومودين ورجيو

(٢) ذكرى من «السيرة الشاملة»: حصل كوسم دي مديسي من البابا في العام ١٥٦٩ على لقب دوق توسكانية الأكبر، لكن لا النمسة ولا اسبانية اعترفتا له بذلك، وكان الفونس دست منافسه على اللقب لكن ابن كوسم فرنسوا تمكن بخضوعه لفيليب الثاني من الحصول علي مرسوم من الامبراطور مكسميليان الثاني بتحويل توسكانة إلى دوقية كبرى وتسميته لها في ٢٢ تشرين الثاني ١٥٧٥ واعترفت اسبانية له بذلك.

(٣) هذه هي مقدمة المقال المكتوب عن كاترين دي مديسي في «السيدة الشاملة» تقريباً.

كان يبدو دائماً في وجهه، كما في وجه الكردينال دي لورين الحالي شَبَهٌ بوجه كزيمنس[١] الذي كان يشبهه بدوره الكردينال دي ريشيلو. فهؤلاء الكردينالات الخمسة كان لهم وجه، مكّار ورهيب في آن واحد؛ بينما كان وجه رجل الحرب من النموذج الباكي والجبلي الذي عرف به هنري الرابع. لكن الغريب أن يحدث لكل من الأب والابن جرح كبير في وجهه يحدث ندبة بليغة لم تفقده الظرف والبشاشه اللذين يستهوي بهما، إلى جانب الشجاعة الفائقة، قلوب جنوده.

من الطريف أن نذكر كيف حدث للمعلم الأكبر هذا الجرح وأين، لأنه شفي منه بجرأة أحد شخصيات هذه القصة، وهو امبرواز پاره، المدين بالفضل للكاموس نقيب الفرائين. في حصار كاليه، اخترق سهم وجه الدوق، فدخل من وجنته تحت العين اليمنى ليخرج من رقبته تحت الأذن اليسرى ويبقى مستقراً في وجهه، وطُرِحَ الدوق في خيمته ضمن الأسف العام للاعتقاد بأنه ميت لا محالة، وكان فعلاً سيموت لولا التصرف الشجاع والإخلاص اللذان بدرا من آمبرواز پاره. قال آمبرواز مخاطباً الحضور الذين يذرفون الدموع: «إن الدوق لم يمت، يا سادة، لكنه سيموت سريعاً إذا لم أجرؤ على معالجته كما يبدو لي، وسأقوم بهذه المحاولة أيا كانت العاقبة متحملاً مسؤولية عملي كما ترون؟» ووضع رجله اليسرى على صدر الدوق، وثبت أظافره في خشب السهم، وبدأ يزحزحه تدريجياً إلى أن انتهى سحب الحديد من رأس الدوق وكأنه يتعامل مع شيء جامد وليس مع رأس انسان[٢] وإذا كان الأمير قد شفي بعد هذه المعالجة الجريئة، فإنه لم يستطع الحيلولة دون أن يظهر في وجهه نتيجة هذا الجرح الرهيب ندبة كبيرة أطلق عليه بعدها اللقب الذي اشتهر به. ولسبب مشابه أطلق على ابنه اللقب ذاته[٣].

---

(١) كزيمنس: كردينال ووزير اسباني (١٤٣٦ - ١٥١٧) كان مستشاراً للملكة ووصياً على العرش.

(٢) القصة مأخوذة من مجموعة: «قطع شيقة» للابلاس حيث ذكرت الحادثة بالتفصيل وقد أخذ بلزاك وصف الجرح، ومناجاة پاره وحركاته، وحده المكان قد تغير إذ اعتبر بلزاك الحادثة في كاليه (١٥٥٨) بدلا من بولونية (١٥٤٥).

(٣) تشير السيرة الذاتية في مقال هنري دي لورين دوق دي غيز إلى أنه لقب ببلافره «النديب» وقد منح صفة الثاني تمييزاً له عن أبيه فرنسوا الملقب بلافره (النديب) الأول.

اعتبر هذان الأميران اللورينيان مهيمنين على الملك فرنسوا الثاني بشكل كامل، وقد كانت زوجته مسيطرة عليه بحب متبادل مفرط، عرفا كيف يستفيدان منه، فسادا عندئذ على فرنسة ولم يكن لهما عدو في البلاط إلا كاترين دي مديسي، وهكذا لم يسبق أن مارس سياسيون كبار لعبتهم بمثل هذه الفطنة والحذر، فالوضع المتبادل لكاترين الطموح أرملة الملك هنري الثاني، ولبيت لورين الطموح بدوره، كان يتجلى، إن صح القول، بهذا المكان الذي يشغلونه على مصطبة القصر أثناء فترة الضحى التي سيصل فيها كريستوف. كانت الملكة المتظاهرة بودّ عميق لآل غيز قد طلبت إطلاعها على الأنباء التي حملها النبلاء الثلاثة الوافدون من أنحاء مختلفة من المملكة لكنها قوبلت بإذلال صرفها بتهذيب من قبل الكردينال، فراحت تتنزه في طرف الرياض، من جهة اللوار حيث أقامت لفلكيها روجييري مرصداً[١] مايزال يشاهد حتى الآن في مكان مشرف على هذا الوادي الرائع، بينما كان الأميران اللورنيان من الجهة المقابلة التي تطل على ڤندوموا حيث يبدو القسم الأعلى من المدينة، ومجثم البرتيانيين، وباب القصر الخفي.

كانت كاترين قد خدعت الأخرين وتحايلت عليهما بكَدَر متصنع، إذ أنها كانت سعيدة جداً لإمكانها التحدث مع أحد النبلاء الذين وصلوا بسرعة؛ وهو مؤتمن سري لها يلعب بجرأة لعبة مزدوجة، لكنه بالتأكيد يكافأ بسخاء. هذا النبيل هو شيفرني المعتبر في الظاهر النفس المتفانية في خدمة الكردينال دي لورين، إنما هو في الحقيقة خادم مخلص لكاترين. كان لكاترين أيضاً نبيلان وفيان لها، هما الأخوان غوندي، وهما صنيعتها، لكن هذين الفلورنسيين كانا موضع شبهة آل غيز بحيث لا تستطيع أن ترسلهما إلى الخارج، فكانت تحتفظ بهما في البلاط، حيث كل كلمة من كلماتهما، وكل تصرف من تصرفاتهما موضع دراسة، لكنهما

---

(١) يتحدث لاسوسي أيضاً عن هذا المرصد مشيراً إلى أنه في موقع مطل على منظر رائع. لكن التلميح إلى روجييري يتجاوب مع رغبة بلزاك في اعطائه دور الشخصية المتجددة الظهور فهو إلى جانب الملكة في ١٥٦٠ كما سيظهر في ١٥٧٣ فيسجل الروائي استمرارية الحاشية الايطالية حول كاترين وإيمانها بعلوم السحر.

بدورهما كانا يدرسان الأخوين دي غيز ويقدمان النصح لكاترين. كان هذان الفلورنسيان يحافظان في حزب الملكة الأم على إيطالي آخر هو بيراغ[1] وهو بيمونتي ماهر يتظاهر كشيفرني بأنه قد تخلّى عن ولائه للملكة الأم ليرتبط بالأخوين دي غيز، وهو يشجعهما في مشاريعهما، بينما يتجسس عليهما لحساب كاترين. كان شيفرني وافداً من إكوان وباريس؛ أما الوافد الأخير فكان سان- آندره المسمى مارشال فرنسة، والذي غدا شخصية كبيرة، بحيث أن الأخوين دي غيز، وهو صنيعتهما جعلا منه ثالث العصبة الثلاثية التي شكلاها في السنة التالية ضد كاترين. وقبل شيفرني وسان آندره، كان قد وفد باني قصر دورتال فييڤيل، المسمى أيضاً نتيجة وفائه لآل غيز مارشالا لفرنسة؛ وكان قد وصل سراً، ثم رحل سراً، دون أن ينفذ أحد إلى المهمة التي كلفه بها المعلم الأكبر؛ أما سان آندره فقد كلّف باتخاذ الإجراءات العسكرية اللازمة لجذب جميع البروتستنت المسلّحين إلى آمبواز؛ وذلك بعد قيام مجلس تشاور بين الكردينال دي لورين، والدوق دي غيز، وبيراغ، وشيفرني، وفييڤيل، وسان آندره؛ وإذا كان زعيما بيت اللورين قد اعتمدا على بيراغ، فهذا يدفع على الاعتقاد بأنهما واثقان من قوتهما فهما يعرفان أنه على اتصال بالملكة الأم، لكنهما يحتفظان به على الأرجح لينفذا إلى النيات الخفية لغريمتهما، كما تتركه بدورها قربهما. في مثل تلك الحقبة الغريبة، كان الدور المضاعف لبعض الرجال السياسيين معروفاً من الحزبين اللذين يستخدمانهم، وكانا بمثابة أوراق اللعب في أيدي المقامرين: الأكثر دهاء يكسب في النتيجة. كان الأخوان خلال ذلك المجلس في كتمان عصي على النفاذ، ومحادثة كاترين مع أصدقائها تفسر بشكل جلي هدف هذا المجلس الذي أقامه الأخوان غيز في الهواء الطلق، مع مطلع الفجر، في هذه الجنائن المعلقة، وكأن الجميع يخشون التحدث بين أسوار قصر بلوا كانت الملكة الأم، بذريعة تفحص المرصد الذي يبنى لفلكيها، تتنزه منذ الصباح مع الأخوين غوندي، وهي تنظر بعين القلق والفضول إلى الزمرة

---

(١) سيظهر شيفرني وبيراغ وغوندي موالين في العام ١٥٧٣ في **اعتراف الروجييرين** كما هم في العام ١٥٦٠ للملكة الأم كاترين دي مديسي

المعادية، وقد لحق بها شيفرني؛ وكانت على زاوية المصطبة المطلة على كنيسة سان نيكولا، وهي لا تخشى هناك أي تطفل. فالجدار على مستوى أبراج الكنيسة، والأخوان دي غيز مستمران في مداولتهما في الزاوية الأخرى من تلك المصطبة، في أسفل البرج الذي بدىء ببنائه يواصلان الذهاب والمجيء بين مجثم البرتيانيين والرواق عبر الجسر الذي يتصل مع الرياض والرواق والمجثم؛ وما من انسان أسفل هذه الهوة. تقدم شيفرني وتناول يد الملكة الأم ليقبلها، ودس في يدها مباشرة رسالة صغيرة دون أن يلاحظ ذلك الإيطاليان؛ ودارت كاترين بسرعة وذهبت إلى زاوية الدرابزين وقرأت ما يلي[١].

«أنت قويَّة بما فيه الكفاية لتحافظي على التوازن بين الكبار ولتجعليهم يتنافسون على من يقدم لك الخدمة الأفضل. إن بيتك مليء بالملوك، وليس لك أن تخشي آل لورين ولا آل بوربون، إن جعلت كلا منهما يناوىء الآخر، لأن هؤلاء وأولئك يريدون اغتصاب التاج من أولادك.

كوني سيدة لا عبدة لمستشاريك. ثبيتهم بتسليط بعضهم على بعضهم الآخر، وإلا فإن المملكة ستسير من سيء إلى أسوأ، ويمكن عند ذاك أن تحدث حروب خطيرة».

«لوسبيتال»

وضعت الملكة هذه البطاقة في فجوة مخصرها، وعزمت على إحراقها عندما تصبح بمفردها. سألت شيفرني: «متى رأيته؟»

- وأنا عائد من مقابلة قائد الجيش، في مِلُون حيث كان ماراً مع الدوقة دي

---

(١) نص هذه الرسالة مستمد من مسرحية جرمو إنما بدلا من أن يقتصر بلزاك على نقلها كلية في اللحظة المناسبة، أي عندما سيوقف امير كونده ويسجن في أورليان، فإن بلزاك يستفيد منها بشكل مضاعف فيسجل هنا الأمر الرئيس ويترك للحدث الأورلياني المقطع الأول الذي سيذكره في حينه.

بري التي كان متلهفاً لايصالها إلى ساقوا ليعود إلى هنا، ويجلو الأمور لرئيس القضاء أوليڤيه من ناحيته بآل لورين. إن السيد لوسبيتال قد قرر أن يتبنى مصالحكم بعد أن لاحظ الهدف الذي يرمي إليه السيدان دي غيز، لذا سيسرع بالعودة ليمنحك صوته في المجلس[1].

قالت كاترين: «أهو صادق؟ أنت تعلم أن اللورينيين قد أدخلاه في المجلس من أجل أن يهيمنا عليه.

- إن لوسبيتال فرنسي عريق المحتد لا يراوغ، اضافة إلى أن رسالته وثيقة ضمان كبرى.

- ما هو جواب قائد الجيش لهذين اللورينيين؟

- قال إنه خادم الملك وينتظر أوامره. وليتجنب الكردينال أية مقاومة، فإنه سيقترح بعد هذا الجواب تسمية أخيه القائد العام لجيوش المملكة[2].

قالت كاترين مرتاعة: «منذ الآن! وهل أعطاك السيد لوسبيتال أي رأي آخر بالنسبة لي؟.

- قال لي إنك قادرة وحدك يا سيدتي على حماية العرش من أطماع السيدين دي غيز

- لكن هل يعتقد أن بإمكاني استخدام الهوغنوت كحاجز حماية؟[3].

هتف شيفرني مندهشاً من عمق تفكيرها: آه! يا سيدتي، إننا لم نفكر في أن نعرضك لمثل هذه المجازفات.

---

(١) يسجل جميع المؤرخين، ومنهم مزراي في «تاريخ فرنسة» أن الملكة الأم دعمت لوسبيتال وأفادت منه لتقوي مركزها في المجلس.

(٢) كان دي غيز قائداً عاماً في عهد هنري الثاني في عامي ١٥٥٢, ١٥٥٧.

(٣) حاجز أو حصان الحماية: تعبير قتال يشير بمعناه الحرفي إلى كتلة كبيرة من الخشب مجهزة بأوتاد ذات رؤوس حديدية كانت تستخدم للدفاع عن معبر أو لسد ثغرة في سور أو للتحصن خلفها. ومعناها المجازي واضح: استغلال شيء كدرع وقاية.

أجابت الملكة الأم بنبرة هادئة " «هل يعرف الحالة التي أنا فيها؟»

- تقريباً. إنه يعتقد أنك أجريت صفقة المغبون بقبولك عند وفاة المرحوم الملك فتات دمار السيدة ديان نصيباً لك، واعتبر السيدان دي غيز أنهما متخالصان مع الملكة بإرضائهما الزوجة.

قالت الملكة وهي تنظر إلى الأخوين غوندي. «نعم لقد ارتكبت آنذاك خطأ كبيراً!»

عقب شارل دي غوندي: «هو من أخطاء الآلهة!»

قالت الملكة: يا سادة، إن انحزت بشكل مكشوف للبروتستنت غدوت أسيرة حزب من الأحزاب.

قال شيفرني بحماس: «سيدتي، إنني أؤيدك بشدة، يجب استخدامهم لاخدمتهم»

قال شارل دي غوندي: بالرغم من أن سَنَدك في الوقت الحاضر يبدو هناك، لا ينبغي ان نتجاهل أن النجاح والفشل كلاهما خطر.

قالت الملكة: أعلم ذلك! إن تصرفاً خاطئاً سيكون ذريعة يستغلها الأخوان دي غيز ليتخلصا مني.

تساءل شارل دي غوندي: أيمكن لابنة شقيق البابا، وأم أربعة أمراء قالوا، وملكة فرنسة وأرملة الملك الأكثر حماساً في اجتثاث الهوغنوت، والكاثوليكية الايطالية، وعمة ليون العاشر[1]؛ أن تتحالف مع البروتستنتية!.

أجابه ألبير: لكن أليس في دعم آل غيز مديد المساعدة للاغتصاب؟ إنكم تتعاملون مع بيت يستشف من الصراع بين الكاثوليكية والبروتستنتية تاجاً يريد الحصول عليه، ويمكن الاعتماد على البروتستنتية دون الارتداد عن الإيمان.

---

(١) ليست كاترين دي مديسي عمة ليون العاشر بل نسيبة قريبة في جذور مشتركة فجان دي مديسي البابا في العام ١٥١٣ باسم ليون العاشر هو ابن لوزان العجيب والد جد كاترين.

قال شيفرني: «فكري يا سيدتي أن بيتك الواجب أن يكون ملؤه الإخلاص لملك فرنسة، بينما يقضي وسيكون غداً مع البروتستنت إذا استطاعوا أن يجعلوا من دوق فلورنسة ملكاً.

قالت كاترين: «إنني مستعدة أن أمد اليد لفترة إلى الهوغنوت لأنتقم على الأقل من هذا الجندي، وهذا الكاهن، وهذه المرأة» وأشارت بيدها مرة بعد مرة، وبنظرة الإيطالية إلى الدوق والكردينال، وإلى الطابق من القصر الذي فيه جناح ولدها وزوجته ماري ستيوارت. ثم تابعت: «إن هذا الثلاثي قد انتزع من يدي مقاليد الدولة بعد أن انتظرت طويلا استردادها من تلك العجوز[1] التي حلت محلي».

ثم هزت برأسها مشيرة باتجاه نهر اللوار إلى موقع قصر شنو نصو الذي بادلته بشومون مع ديان پواتيه وقالت بالايطالية «ليس!» ثم تابعت: « يبدو لي أن هؤلاء السادة قُسس جنيف لا يفكرون بالتوجه إلي! وأنا، وجدانياً، لا أتمكن من الاتصال بهم، كما أن أحداً منكم لا يستطيع المجازفة معهم» ثم ضربت الأرض بقدمها وقالت لشيفرني «آمل أن تكون التقيت في إكوان بالأحدب[2]، فهو ذو فكر ثاقب.

أجاب شيفرني: «كان هناك ياسيدتي، لكنه لم يستطع أن يقنع قائد الجيش بالانضمام إليه. إن السيد مونمورونسي يريد فعلاً أن يقلب آل غيز الذين قيدوا صلاحياته وافقدوه مكانته، لكنه لا يريد مساعدة الهرطقة.

- أيها السادة من سيحطم هذه الأهواء الخاصة التي تضعف المملكة؟ حقاً يا الهي! ينبغي أن يقوم بعضُهم بضرب البعض الآخر، كما فعل لويس الحادي عشر، وهو الأعظم بين ملوكهم، إن في هذه المملكة أربعة احزاب أو خمسة، أضعفها حزب أولادي.

قال شارل دي غوندي: الإصلاح الديني البروتستنتي عقيدة، والأحزاب التي حطمها لويس الحادي عشر لم تكن إلا مصالح.

(١) المقصود بالعجوز ديان دي بواتية.

(٢) هو أمير كونده.

عقَب شيفرني: تقبع بعض الأفكار خلف المصالح دائماً وكانت تسمّى في عهد لويس الحادي عشر (الاقطاعات الكبرى).

قال ألبير دي غوندي: «اجعلي من الهرطقة فأساً ولن يكون لديك قبح التنكيل» هتفت الملكة: «إيه! إنني أجهل قوى هؤلاء الأشخاص ومخططاتهم، ولا أستطيع الاتصال بهم بأي وسيط موثوق، إن يضبطوني بمكيدة ما من هذا النوع، سواء من قبل الملكة الشابة التي تتابعني بعينيها كطفل في المهد، أو من قبل هذين السجانين اللذين لا يسمحان لأحد بدخول القصر، ينفوني من المملكة ويعيدوني إلى فلورنسة مع مواكبة فرقة حراسة رهيبة يقودها أحد ضراة آل غيز! شكراً يا أصدقائي! أوه! يا كَنّتي، أتمنى لك أن تصبحي يوماً أسيرة في منزلك[1]، لتعرفي عند ذاك مبلغ الألم الذي تسببينه لي».

هتف شيفرني: مخططاتهم، إن المعلم الأكبر والكردينال يعرفانها، لكن هذين الثعلبين لا يصرحان بها، اعرفي يا سيدتي كيف تجعلينهم يعلنان عنها وسأكرس نفسي من أجل أن أؤمن لك التفاهم مع أمير كونده.

سألت الملكة وهي تشير إلى الأخوين: لكن ما هي القرارات التي لم يستطيعا إخفاءها عنكما؟»

- إن السيدين دي فيفيل وسان آندره، قد تلقيا أوامر نجهلها، لكن يبدو أن المعلم الأكبر يحشد أفضل قواته على الضفة اليسرى. خلال أيام قليلة ستكونون في آمبواز، فالمعلم الأكبر قد جاء إلى هذه المصطبة يفحص الوضع، وهو لا يجد بلوا مؤاتية لأهدافه السرية». ثم أشار شيفرني إلى الجروف الوعرة المحيطة بالقصر وقال: «والحال ماذا يريد إذا؟ ما من مكان أكثر أمناً للبلاط من هذا المكان».

همس ألبير في أذن الملكة التي استغرقت في التفكير، «تنازلي أو املكي فعلاً».

---

(١) تلميح مضمر إلي مستقبل ماري ستيوارت المأساوي.

بدا تعبير رهيب من غضب داخلي على وجه الملكة العاجي الجميل، والتي لمّا تبلغ الأربعين من العمر لكنها تعيش منذ ستة وعشرين عاماً دون أية سلطة في بلاط فرنسة، وهي التي أرادت منذ وصولها أن تلعب الدور الأول فيه، وترددت بين شفتيها تلك العبارة الرهيبة الواردة على لسان دانتي، وقالت بعد تفكير: «لاشيء مادام هذا الوالد حياً! فإن امرأته الصغيرة ستسحره».

كانت تنهيدة كاترين مستوحاة من نبوءة غريبة، نطقت بها عرافة شهيرة قبل عدة أيام في قصر شومون على الضفة المقابلة من اللوار، حيث قادها روجييري، فلكيها، لتستشيرها هناك بشأن مصير أولادها الأربعة، وقد أتى بها سراً نوسترا داموس، رئيس الأطباء، الذي كان في ذلك القرن السادس عشر الكبير، يعتمد كما أمثال روجييري، وكاردان، وباراسلس وعديدون غيرهم، على علوم السحر والتنجيم؛ تلك المرأة التي أُفلتت حياتها من التاريخ، حددت مُلك فرانسوا الثاني بسنة واحدة فقط[1].

قالت كاترين لشيفرني: «ما هو رأيك حول كل هذه الأمور».

قال النبيل الحذر: «ستكون أمامنا معركة، فملك ناڤار...»

قاطعته كاترين قائلة: «أوه! قل ملكة نافار[2]!

قال شيفرني باسماً: هذا صحيح، إن الملكة قد أعطت للإصلاحيين البروتستنت زعيماً هو أمير كونده، وهو في وضعه كابن ثانٍ يستطيع أن يغامر بكل شيء، ولذلك فقد تحدث السيد الكردينال عن استدعائه إلى هنا.

هتفت الملكة: «فليأت، ففي ذلك إنقاذ لي!»

وهكذا توقع قادة حركة الاصلاح الديني الكبرى في فرنسة بحق، أن تكون كاترين حليفة لهم.

---

(١) هذا ماسيرد تفصيله في القسم الثاني من هذا الرواية «اعترافات الروجيريين»

(٢) جان دالبر، والدة هنري الرابع، والتي اشتهرت بقوتها وهيمنتها على زوجها الضعيف انطوان نافار، وقد «أثيرت قضية موتها المشبوه في «**اعترافات الروجيريين**»

هتفت الملكة: «إن في هذا الجانب مثيرٍ؛ فالبوربونيون يجربون استغلال الهوغنوت؛ والسادة كالڤن ودي بير وغيرهما يتلاعبون بالبوربونيين، فهل نحن على درجة من القوة بحيث نتلاعب بالهوغنوت، والبوربون، وآل غيز؟. في مواجهة هؤلاء الأعداء الثلاثة، يجب أن نعجم قوانا قبل أن نقرر أمراً.

أجابها ألبير: لكن الملك ليس معهم، وستنتصرين دائماً بنصرة الملك لك.

صرت كاترين بأسنانها وهي تقول في نفسها: «ياماريا الملعونة!»

قال بيراغ: إن آل لورين يفكرون بإمعان في أن ينتزعوا منك مودة البورجوازية.

لم يكن الأمل بالحصول على التاج، لدى زعيمي عائلة دي غيز المتفجرة نشاطاً، نتيجة خطة مهيأة، فما من بادرة تسمح بإعداد خطة أو إنعاش أمل؛ لكن الظروف كانت تخلق جسارتهم فالكردينالان والنديان وجدوا أنفسهم أربعة شخصيات ملؤها الطموح والتفوق في المواهب على جميع السياسيين المحيطين بهم، وهكذا فإن تلك العائلة لم تدمر إلا على يد هنري الرابع، المتآمر وخريج تلك المدرسة الكبرى التي كان معلموها كاترين والأخوين دي غيز، فاستفاد من جميع دروسهم.

في تلك الفترة وجد هذان الرجلان نفسيهما حكمي أكبر ثورة، جرت محاولة القيام بها في أوروبة، منذ ثورة هنري الثامن في انكلترة، والتي كانت نتيجة اكتشاف المطبعة. كانا خصمين للبروتستنتية فأمسكا بالسلطة بأيديهما، وأرادا خنق الهرطقة، لكن لئن كان خصمهما كالڤن أقل شهرة من لوثر، فقد كان أقوى منه إذ تطلع إلى حكومة حيث لم يرَ لوثر إلا عقيدة. وحيث كان شارب البيرة السمين، الألماني المغرم، يصارع الشيطان ويرمي محبرته في وجهه، كان البيكاردي المنحرف المزاج، الأعزب، يضع المخططات الحربية، ويقود المعارك، ويسلح الأمراء، ويثير الشعوب كلها، وهو ينثر المبادىء الجمهورية في قلب البورجوازيات، محاولاً أن يعوّض عن هزائمه المستمرة في ميادين القتال بنجاحات جديدة في فكر الأمم.

كان الكردينال دي لورين، والدوق دي غيز، وكذلك فيليب الثاني ودوق دالب يعرفون من أين تُستهدف الملكية، ومدى التحالف الوثيق الموجود بينها وبين الكثلكة. أما شارل كنت المنتشي من كثرة ما عبَّ من كأس شارلمان، والمعتز كثيراً بقوة ملكيته معتقداً أنه سيتقاسم العالم مع سليمان[1] فإنه لم يشعر في البدء بأن رأسه مهدد، ولما أطلعه الكردينال غرنفل[2] على اتساع الجرح، تنازل عن العرش. سيطرت على الأخوين دي غيز فكرة وحيدة، هي توجيه ضربة تقضي دفعة واحدة على الهرطقة؛ وقد جرّبا هذه الضربة للمرة الأولى في آمبواز، وجرباها للمرة الثانية في سان بارتلمي بالاتفاق عند ذاك مع كاترين دي مديسي بعد أن تنبّهت للخطر بفعل لهيب اثنتي عشرة سنة من الحروب، وأحست به خاصة بعد كلمة الجمهورية المعبرة والتي نُطِقَ بها فيما بعد مطبوعةً من قبل كتّاب البروتستنتية والتي خمنت سابقاً من قبل لكاموس، هذا النموذج الممثل للبورجوازية الباريسية.

كان الأميران في فترة توجيه ضربة مميتة لقلب النبالة لفصلها منذ البدء عن الحزب الديني، الذي يخسران بانتصاره كل شيء؛ وقد انتهيا من التداول حول الطريقة التي يكشفان فيها للملك انقلابهما السياسي؛ بينما كانت كاترين تتحدث مع مستشاريها الأربعة.

قال المعلم الأكبر الذي كان يدرك نوايا ملكة ناڤار، وعمقها: «إن جان دالبير تعرف جيداً ما تفعله، بتصريحها أنها حامية الهوغنوت! إنها تستخدم الحركة الاصلاحية كبش فداء تستغلها جيداً. والواقع أن جان دالبير كانت أحد الرؤوس الأكثر ذكاءً في ذلك الزمن.

---

(١) كان سليمان الأول منافس شارل كنت وحليف فرنسوا الأول، وقد وقف سداً مانعاً في وجه أطماع بيت النمسة، وأن يحبط مشاريع الملكية العالمية التي كانت تداعب خيال شارل كنت.

(٢) أنطوان غرنفل (١٥١٧ - ١٥٨٦): هو ابن نيكولا غرانفل (١٤٨٦ - ١٥٥٠) وزير العدل في مملكة نابولي، ووزير شارل كنت وكان انطوان بدوره إلى جانب ثوب الكردينالية، وزيراً لشارل كنت وحاكماً للبلاد الواطئة، أحس بالتمرد على الامبراطور فدفعه إلى التنازل عن العرش في ١٥٥٥.

ثم استأنف: «إن تيودور دي بيز مقيم في نيراك بعد أن ذهب لتلقي أوامر كالفن. فاي رجال يعرف هؤلاء البورجوازيون كيف يعثرون عليهم!».

هتف الكردينال: «آه! ليس بين رجالنا واحد من معدن لارنودي، انه كاتلينا[١] حقيقي»

أجاب الدوق: «مثل هؤلاء الرجال يعملون دائماً لحسابهم الخاص. ألست أنا الذي اكتشفت لارنودي؟ ألم أغمره بالرعاية؟ ألم أسهل له هربه عند الحكم عليه من قبل برلمان بورغونية، وعملت على إدخاله إلى المملكة مع الحصول على مراجعة لقضيته[٢]؛ وكنت مزمعاً أن أسهل له كل شيء بينما كان يدبر ضدنا مؤامرة شيطانية، هذا الانسان الغريب قد حالف بروتستنت المانية مع هراطقة فرنسة بعد أن تمكن من تجاوز الصعوبات الناتجة عن اختلاف لوثر عن آراء كالفن؛ وضمَّ كبار النبلاء الناقمين إلى حزب الإصلاحيين دون أن يلزمهم بالتخلي علانية عن الكاثوليكية. منذ العام الفائت كان لديه ثلاثون نقيباً يأتمرون بأمره! انه في كل مكان، وفي آن واحد: في ليون، ولانغدوك، ونانت!

أخيراً فقد أعد تلك الفتوى المنشورة في كل المانية، والتي يصرح فيها اللاهوتيون بإمكان اللجوء إلى القوة لتخليص الملك من سيطرتنا، وقد وزعها في كل المدن. بالتفتيش عليه في كل مكان لم يعثر له على أثر! مع انني لم أصنع له إلا كل خير، كان من الواجب أن أصرعه ككلبٍ، أو اضع جسراً من ذهب أمامه ليكون من أنصار بيتنا.

قال الكردينال: «إن بريتانية ولا نغدوك وكل المملكة قد أثيرت لتوجه لنا ضربة مفاجئة مميتة؛ فبعد احتفال أمس، أمضيت بقية الليل في قراءة كل

---

(١) كاتلينا: (١٠٩ - ٦٢ق.م) شريف روماني قام بمؤامرة ضد مجلس الشيوخ كشف عنها شيشرون في ٦٣ق.م

(٢) يبدو أن هذه المعلومات التي يسردها الدوق دي غيز عن لارنودي صحيحة إذ يذكرها برانتوم، كما أنها واردة في تاريخ فرنسة لفلي وغارنيه (١٧٥٥ - ١٧٨٦) وكذلك في **السيرة الشاملة** لميشو.

الاستخبارات التي وافاني بها رهباني، لكن المشبوهين لا يتعدون الآن إلا بعض النبلاء الفقراء، والحرفيين، وأشخاصاً من غير المهم شنقهم أو تركهم أحياء. أما آل كولينيي وكونده فلم يظهروا حتى الآن بالرغم من أنهم يحركون خيوط هذه المؤامرة.

قال الدوق: هكذا ما إن باعنا هذا المحامي، هذا الآڤنيل[١] سرّهم، ووشى بهم، حتى طلبت من براغلون أن يترك المجال للمتآمرين للسير حتى النهاية[٢]. فلا يداخلهم ارتياب ويعتقدون انهم سيباغتوننا، وعند ذلك قد يظهر قادتهم. رأيي أن نتركهم ينتصرون علينا لثمانية واربعين ساعة... قال الكردينال مرتاعاً، هذا يزيد بنحو نصف ساعة.

قال النديب: «ها أنت تتحلى بالشجاعة».

عقب الكردينال دون تأثر: «سواء أكان أمير كونده بين المتآمرين أم لم يكن؛ اذا تأكدّ لنا أنه الزعيم ضربنا ذلك الرأس، لننعم بالطمأنينة؛ لن نحتاج في هذه العملية إلى عدد من الجنود بقدر ما نحتاج إلى قضاة، ولن يعوزنا القضاة أبداً، والنصر في البرلمان هو دائماً أكثر ضماناً منه في ساحة القتال، وكلفته أقل.

- أجاب الدوق: أوافق بكل طيبة خاطر؛ لكن أتعتقد أن أمير كونده بلغت به القدرة حدا بحيث يشجع معه أولئك الذين جاؤوا يوجهون لنا هذه الهجمة الأولى؟ أليس هناك...

قاطعه الكردينال: ملك نافار

---

(١) وشى المحامي الباريسي آفنيل، المرتبط مع لارنودي، إلى الأخوين دي غيز بقلاقل آمبوازوبمخططات المتآمرين، وقد ذكر بلزاك قصة هذه الوشاية في قصص ماجنة تحت عنوان «ليلة غرام غالية».

(٢) هذه هي لعبة دي غيز في المأساة، وقد أعطى جرمو برهاناً عليها انتقال البلاط من بلوا إلى آمبواز

(٣) يتحدث جرمو عن علاقة ما بين الملكة الأم والكردينال: لكن بلزاك يريد أن يعطي صورة عن كاترين الملتفتة كلياً إلى السياسة فلا يأخذ من جرمو إلا ما يلائم هدفه.

أجاب الدوق: إنسان تافه يكلمني وهو يرفع قبعته احتراماً! أرى أن غنج الفلورنسية يعتمُ عليك الرؤية ...

قال رجل الدين: أوه! لقد اشتبهت بها؛ وأنا إن كنت أظهر لها الاستلطاف، فذلك لأعرف دخيلة نفسها وما في صميم قلبها.

قال الدوق بحماس: هذه امرأة لا قلب لها وهي أكثر طموحاً منا كلانا.

رد الكردينال على أخيه: أنت قائد مقدام، لكن تيقّن أن ثوبي وثوبها قريبان جداً، أحدهما من الآخر، وقد دفعت بماري لمراقبتها قبل أن تفكر بالاشتباه بها. إن في حذائي من الإيمان أكثر مما لدى كاترين؛ وإذا لم تكن هي روح المؤامرة فليس ذلك لنقص في رغبتها، ولكن سنحكم عليها من أرض الواقع وسنرى كيف ستدعمنا. إنني متأكد من أنها لم تجر حتى الآن أي اتصال مع الهراطقة.

قال الدوق: «حان الوقت لكشف كل شيء للملك وللملكة الأم التي لا تعلم شيئاً، وهذا البرهان الوحيد على براءتها. وربما يتم الانتظار لإبهارها باحتمالات النجاح. سيعرف لارنودي، وفقاً لما اتخذته من ترتيبات أننا قد أنذرنا؛ فقد وَجَب على نمور متابعة مفارز البروتستنت الذين وصلوا بالطرقات المختصرة عرضياً، وسيضطر المتآمرون للمجيء إلى ضربنا في آمبواز، حيث سأتركهم يدخلون إليها جميعهم. ثم أشار إلى جهات الصخرة الثلاث التي يقوم عليها قصر بلوا كما كان شيفرني قد فعل وقال: «هنا ستكون الهجمة دون أيّة نتيجة، وسيأتي الهوغنوت ويروحون حسب مشيئتهم فبلوا صالة ذات أربعة مداخل، أما آمبواز فهي كيس.

قال الكردينال: «لن أفارق الفلورنسية»

تابع الدوق وهو يتسلى برمي خنجره في الهواء ثم التقاطه من صَدَفته: «لقد ارتكبنا خطأ، يجب أن نتصرف معها كتصرفنا مع البروتستنت، نعطيها حرية الحركة لأخذها بالجرم المشهود» تطلّع الكردينال للحظة إلى أخيه وهو يهز رأسه.

قال المعلم الأكبر وهو يرى پارديان ذلك الشاب النبيل الذي غدا شهيراً في مواجهته للارنودي[1] وموتهما المتبادل: «ماذا يريد پارديان؟»

قال الشاب: «سيدي، هناك رجل على الباب يقول إنه مرسل من قبل فرّاء الملكة يحمل إليها قطعة من فرو القاقم. هل أدعه يدخل؟.

قال: إيه! نعم، إنّه صدار تحدثت عنه البارحة، دع صبي الدكان هذا يدخل، فستكون بحاجة إليه عندما ستسافر على طول نهر اللوار.

سأل المعلم الأكبر: من أين جاء هذا الوافد حتى لم يوقف إلاّ على باب القصر؟.

أجاب پارديان: لا أعلم.

قال النديب في نفسه[2]: «سأسأله عند الملكة» ثم قال لبارديان»: دعه ينتظر نهوضها في غرفة الحرس، لكن أهو شاب؟

- نعم يا سيدي وقد ذكر انه ابن لكاموس.

قال الكردينال، وهو كأخيه المعلم الأكبر قد وهب ذاكرة قيصر: «إن لكاموس كاثوليكي ورع، وكاهن سان بيير- أوبوف يعتمد عليه، إنه مأمور القصر في الحي.

قال المعلم الأكبر وهو يشد على الكلمات ليعطيها معنى يسهل إدراك مغزاه: «مع ذلك دع هذا الابن يتحدث قليلاً مع قائد الحرس الاسكتلندي؛ إن امبرواز هنا في القصر، وسنعرف بواسطته إن كان فعلاً ابن لكاموس. فمعرفته وثيقة بعائلة الفراء صاحب الفضل عليه فتش لي عن آمبرواز پاره».

في تلك اللحظة ظهرت كاترين وحدها أمام الأخوين اللذين هرعا لتقديم شعائر احترام كانت الايطالية ترى فيها مظاهر سخرية مستمرة.

---

(١) يمثل المشهد الثاني من مأساة جرمو المعنون «غابة شاتو- رينيو» تمثيلاً للواقعة.

(٢) يبدو التعقل مدهشاً ومبالغاً فيه، في هذا القسم من الرد، لكنه موجود في جميع حالات النص، وهو عند الاقتضاء مستساغ، ومدرك أكثر بالتنقيط.

قالت: أيَّها السيدان، ألا تتكرما فتذكرا لي ما يعدُّ؟ أتكون أرملة معلمكما القديم أقل اعتباراً في نظركما من السادة فييفيل وبيراغ وشيفرني؟

قال الكردينال بلهجة المتظارف: سيدتي؛ يتمثل واجبنا كرجال، قبل واجبنا كسياسيين، في عدم ترويع النساء بإشاعات كاذبة. لكن تطلب الأمر هذا الصباح، مداولات في شؤون الدولة، وعليك أن تعذري أخي لأنه بدأ بإعطاء أوامر عسكرية خالصة هي غريبة عن اهتماماتك؛ أما الأمور الهامة فستبحث، إن راق لك ذلك عند نهوض الملك والملكة، وقد قرب الموعد.

قالت كاترين متظاهرة بالذعر: «ما الأمر، سيدي المعلم الأكبر؟»

- البروتستنتية يا سيدتي، لم تعد هرطقة، إنها الآن حزب سيلجأ إلى السلاح لينتزع الملك من أحضانك.

توجهت كاترين والكردينال والدوق والنبلاء نحو الدرج عبر الرواق حيث هرع المتملقون الذين لا يحق لهم دخول الأجنحة، فاصطفوا كسياج.

كان غوندي أثناء حديث كاترين مع الأميرين اللورينيين، قد تفحصهما جيداً، واقترب من الملكة الأم وهمس في أذنها بهاتين الكلمتين، بالايطالية التوسكانية، وقد غدتا مثلاً يعبّر عن أحد وجوه هذا الطبع الملكي: (احقدي وانتظري)[1].

كان بارديان قد أعطى الأمر لحارس مدخل القصر بأن يسمح بدخول رسول فرّاء الملكة، ووجد كريستوف متثائباً أمام مدخل الرواق، منشغلاً بمشاهدة واجهة قصر الملك لويس الثاني عشر، حيث يوجد آنذاك عدد أكبر، مما هو الآن، من النقوش الماجنة، قياساً للعدد الباقي منها الآن؛ وهكذا فإن الفضوليين يلاحظون تمثالاً صغيراً لامرأة منقوشاً على تاج أحد أعمدة الباب، وقد شمَّرت ثوبها وأظهرت بمزاح:

---

(١) ذكر بلزاك هذا الشعار لكاترين دي مديسي في «عقد الزواج» أيضاً.

لراهب ضخم يجلس القرفصاء في تاج العمود المقابل في الكتف الثاني من إطار الباب[1] الذي يظهر من فوقه تمثال لويس الثاني عشر[2] . كانت عدة نوافذ من تلك الواجهة، قد زخرفت بالطريقة ذاتها، لكنها الآن للأسف قد تدمرت؛ وقد أمتعت في حينه كريستوف أو تظاهر بأنه تمتعه، بينما كان رماة الحرس يمطرونه بالسخريات.

قال حامل قربينة وهو يداعب تذخيرات سلاحه الجاهز بشكل قالب سكر والمعلقة على حمالته: «يبدو أن هذا الشخص سيقيم هنا!»

هتف جندي به: «إيه! أيها الباريسي، ألم ترتو من المشاهدة؟

وقال آخر: «إنه يتعرف على الملك الطيب لويس الثاني عشر».

تظاهر كريستوف بعدم السماع، وراح يبالغ في إبداء دهشته حتى أن وضعه الأبله كان له بمثابة جواز مرور متميز أما بارديان فقال له: «إن الملكة لم تنهض من نومها، تعال انتظرها في غرفة الحرس».

تبع كريستوف بارديان بهدوء، وتكلّف إظهار إعجابه بالرواق الجميل المقطع بشكل قناطر، حيث كان المتملقون في أيام لويس الثاني عشر ينتظرون تحت السقائف أثناء الطقس الرديء، مواعيد الاستقبال، وحيث يوجد الآن بعض النبلاء الملحقين بخدمة الأخوين دي غيز، ذلك أن الدرج الذي مايزال بحالة جيدة حتى يومنا هذا، ويقود إلى جناحهما كان في طرف ذلك الرواق، ضمن برج يثير بهندسته إعجاب الفضوليين.

---

(١) هذان النقشان مايزالان موجودين ولكن ليس على جانبي الباب إنما على الكنفين الداعمين لعقد النافذه المجاورة، وهذا التمثل مأخوذ من إحدى قصص لافونتين «العلاج» حيث برونل يسرق سيف البطلة مازفيز، فتلاحقه ويظهره لها بأن يرفع طرف ثوبه.

(٢) هذا التمثال قد أتلف خلال الثورة، لكن لاسوسي يضع رسمه، منقولاً عن فلبيان، في كتاب، تاريخ قصر بلوا.

صرخ بارديان وهو يرى لكاموس يتوقف أمام نقوش المنصات الخارجية الجميلة التي تضم، أو إن شئتم تفصل أعمدة كل قوس: «هيه! هل جئت لإجراء دراسات لنحت الصور في الحجر؟»

تبع كريستوف القائد الشاب نحو درج الشرف، إنما مع القاء نظرة لتقدير أبعاد هذا البرج شبه المغري بشيء من الانخطاف.

في تلك الضحوة الجميلة، كان القصر مليئاً بالضباط المرافقين والنبلاء المتجمعين زمراً يتحدثون، وألبستهم الزاهية تجعل الحياة تدب بألق في هذا المكان الذي تزيد من ألقه روائع الهندسة المعمارية المنتشرة في واجهته التي ماتزال جديدة.

قال بارديان للكاموس «ادخل من هنا» وهو يشير له ليتبعه عبر باب من خشب مزخرف بالنقوش في الطابق الثاني بعد أن فتحه حارس تعرف على بارديان.

يمكن لكل انسان أن يتصور دهشة كريستوف وهو يدخل إلى قاعة الحرس هذه البالغة السعة حتى أن الهندسة العسكرية اليوم قسمتها بحاجز لتصنع منها غرفتين، وهي تشغل الطابق الثاني في جناح الملك، كما تشغل في الطابق الأول في جناح الملكة الأم، ثلث الواجهة المطلة على الفناء، وهي مضاءة بنافذتين إلى يسار البرج ونافذتين إلى يمينه، هذا البرج الذي يبدأ منه درج الشرف الشهير. ذهب الضابط الشاب نحو باب غرفة الملكة والملك التي تطل على تلك القاعة الفسيحة وطلب من أحد وصيفي الخدمة أن يخبر السيدة دايل [1] إحدى وصيفات شرف المكة الشابة أن الفرّاء ينتظر في القاعة مع صدار الفرو الذي أوصت عليه.

وبإشارة من بارديان، ذهب كريستوف فجلس قرب ضابط إلى جانب موقد كبير بحجم متجر والده، قائم في أحد طرفي تلك القاعة الواسعة، في مواجهة موقد آخر مماثل له تماماً في الطرف الآخر؛ وراح يتحدث مع ملازم الحرس بحيث

---

(١) جرمو هو الذي جعل من السيدة دايل في مسرحيته وصيفة شرف أولى للملكة ماري ستيوارت. بينما يذكر برانتوم أنها كانت من حاشية كاترين دي مديسي بعد ترمُّلها.

أثار اهتمامه وهو يحدثه عن كساد التجارة؛ وبدا كريستوف تاجراً حقاً حتى أن الملازم نقل هذه الفكرة عنه إلى قائد الحرس الاسكتلندي الذي جاء إلى البهو يستجوب كريستوف وهو يتفحصه خفية وبعناية.

أياً كان انحياز كريستوف لكاموس، فإنه لم يتمكن من أن يفهم ضراوة هذه المصالح الباردة التي زلقه فيها شوديو: فبالنسبة للملاحظ عرف سرّ هذا المشهد، كما يعرفه المؤرخ الآن، كان هناك ما يبعث على الارتعاش لدى رؤية هذا الشاب، أمل عائلتين، مجازفاً به بين هاتين الآلتين القادرتين غير الرحيمتين: كاترين والأخوين دي غيز، لكن هل هناك جسارات كثيرة تقدر مدى أخطارها؟ توقّع كريستوف من الطريقة التي كان يُحرَس بها مرفأ بلوا، والمدينة، والقصر، أن يجد أشراكاً وجواسيس في كل مكان، فعزم على أن يخفي خطورة مهمته وتوتر أعصابه تحت المظهر الغبي والتجاري الذي أبداه، أمام أعين الشاب بارديان، الضابط في الحرس وأمام القائد الاسكتلندي.

كانت الحركة التي ترافق اليقظة في القصر الملكي قد بدأت تنشط، والنبلاء الذين يتركون الخيول، والخدم، ومعلمي الفروسية في الفناء الخارجي من القصر؛ إذ لا يحق لأحد إلا للملك والملكة أن يدخل إلى الفناء الداخلي ممتطياً حصانه[1] يدخلون مشاة ويصعدون زمراً الدرج الرائع، ويغزون قاعة الحرس الواسعة ذات الموقدين حيث الروافد القوية هي الآن بدون زخارفها، وحيث البلاط الأحمر الصغير البشع قد حل محل الفسفساء الجميلة ذات الأشكال المبتكرة التي كانت تفرش أرضية القاعة. وحيث كانت نجود التاج تستر الجدران العالية المطلية الآن بالكلس، والتي كانت تتنافس فيها فنون ذلك العصر الوحيد في سجل المآثر الإنسانية. كان الاصلاحيون الدينيون والكاثوليك يأتون لتقصي الأخبار، وتفحص الوجوه، وكذلك لاظهار المحاباة والتملق إلى الملك. كان تدله فرنسوا الثاني بماري

(١) في هذه الملاحظة يرد بلزاك على بعض الصور، وخاصة تلك التي افتتح بها لاسوسي كتابه «تاريخ قصر بلوا» وتبين الفناء الداخلي للقصر وقد بدا فيه الفناء بين جناحي قصر لويس الثاني عشر وفرنسوا الأول ممتلئاً بمجموعة من النبلاء على الخيول.

ستيوارت الذي لا يلقى أية معارضة لا من الملكة ولا من آل غيز؛ والمجاملات السياسية التي تنسجم معها ماري ستيوارت قد أبعدت الملك عن ممارسة سلطاته[١] وهكذا فقد كان، بالرغم من أنه في السابعة عشر من العمر، لا يعرف من شؤون الملك إلا تهيئة المسرات؛ ومن الزواج إلا الشهوات الحسية للهوى الأول، وكان كل واحد في الواقع يتزلف للملكة ماري ولخاليها الكردينال دي لورين والمعلم الأكبر...

تمت هذه الحركة أمام كريستوف، الذي كان يدرس وصول كل شخصية بفضول شَرِه جدّاً طبيعي. كان هناك سجف رائع يقف أمامه خادمان وحارسان من الفرقة الاسكتلندية، قيد الخدمة آنذاك وهو يشير إلى مدخل تلك الغرفة الملكية، التي كانت شديدة الشؤم على ابن المعلم الأكبر الحالي النديب الثاني، الذي قضى نحبه عند هذا السرير الذي تحتله الآن ماري ستيوارت وفرنسوا الثاني[٢]. كانت وصيفات شرف الملكة يشغلن الزاوية قرب الموقد الثاني المقابل لذلك الذي كان فرنسوا مايزال مشغولاً بالحديث إلى جانبه مع قائد الحرس. وكان هذا الموقد نسبة إلى موقعه يعتبر موقد الشرف، إذ أنه يشغل جدار صالة المجلس الضخم، مابين باب الغرفة الملكية وباب المجلس؛ بحيث أن الفتيات والنبلاء الذين لهم الحق بالوجود في هذا المكان هم من يحق لهم الوقوف في الممر الذي سيجتازه الملك والملكتان. كانت الحاشية واثقة أنها سترى الملكة كاترين لأن وصيفات الشرف الملحقات بها، وهن في ثياب الحداد، وككل البلاط، صعدن من جناحها[٣]، تتقدمهن الكونتة دي فيسك وأخذن أمكنتهن في زاوية المجلس مقابل فتيات الملكة الشابة اللواتي تتقدمهن الدوقة دي غيز، وكن يشغلن الزاوية المقابلة من جهة الغرفة الملكية. كان المتملقون قد تركوا مع هؤلاء الآنسات اللواتي ينتمين إلى العائلات

---

(١) هذا ما سجله المؤرخون عن فرنسوا الثاني.

(٢) تلميح إلى مقتل هنري دي لورين، دوق غيز الملقب بلافرة الثاني بناء على أمر هنري الثالث في ٢٣ كانون أول ١٥٨٨.

(٣) سبق أن ذكر أن الملكة الأم كانت تشغل جناح كلود دي فرانس في الطابق الأول.

الأولى في المملكة مسافة بضع خطوات لا يحق إلا لكبار النبلاء اجتيازها. وكانت الكونتة دي فييسك والدوقة دي غيز، وفقاً لطبيعة مسؤولياتهما، جالستين وسط هؤلاء الفتيات النبيلات الواقفات جميعهن. أحد الأوائل الذي جاؤوا واختلطوا بهاتين الكوكبتين هو الدوق دي أورليان شقيق الملك الذي نزل من جناحه الواقع في الطابق الأعلى، يرافقه السيد سيبيير مربيه. هذا الأمير الفتى الذي وجب أن يحكم قبل نهاية تلك السنة باسم شارل التاسع كان آنذاك في العاشرة من عمره، ويتميز بالخجل الشديد، وكان الدوق دانجو، والدوق دالنسون أخواه، والأميرة مرغريت التي غدت زوجة هنرى الرابع صغاراً جداً فلا يأتون إلى البلاط بل يظلون تحت رعاية أمهم في جناحها. كان دوق دي أورليان أنيق اللباس وفق ذوق العصر: سراويل من حرير، وثوب مخصر من جوخ مذهب مزخرف بأزهار سوداء، ومعطف من مخمل مطرز كامل السواد (كان الدوق مايزال بثياب الحداد على والده الملك)؛ وقد حَيا سيدتي الشرف وبقي واقفاً قرب وصيفات أمّه. كان منذ ذلك الحين ممتلئاً بالنفور نحو الموالين لآل غيز، فرد ببرود على كلمات الدوقة؛ واستند بذراعه على ظهر مقعد الكونته دي فييسك العالي؛ وبقي مربيه السيد دي سيبيير وهو أحد أمتن الناس خُلُقاً في عصره، خلفه كشكة فارس، كذلك آميوت[١] في ثوب الراهب البسيط يرافق الأمير، كان أحد مدرسي الأمير، ومدرساً لأخوته الثلاثة الباقين الذين عادت عليه مودتهم بنفع جليل. وبين موقد الشرف ومثيله الذي اجتمع حوله في الطرف الآخر من القاعة الحرس وقائدهم، وبعض رجال البلاط، وكريستوف الحامل لصندوق صدار الفرو، كما كان هناك رئيس القضاة أوليفيه حامي لوسبيتال وسلفه، وهو يرتدي الثوب المميز لرئيس القضاء في فرنسة، وهو يذهب ويجيء مع الكردينال دي كورنون[٢]، الواصل حديثاً من رومة، فيتبادل

---

(١) سمي آميوت هنا فقط وسيظهر في نهاية الرواية وهو انساني فرنسي (١٥١٣- ١٥٩٣) كان مربياً لشارل التاسع وهنري الثالث ومطرانا الأوكسر وقد ترجم بلوتارك وهليودور ولونغوس.

(٢) وفقاً للمؤرخ دي تو، فقد عاد الكردينال دي كورنون من رومة قبل قلاقل آمبواز وكانت الملكة الأم تعتمد عليه.

معه بعض كلمات هامسة وسط الاهتمام العام الذي يبديه نحوهم النبلاء المتجمعون علي طول الجدار الذي يفصل تلك القاعة عن غرفة الملك، وكأنهم نجد حيٌّ أمام النجود الأخرى الحافلة بآلاف الصور والأشخاص.

رغم خطورة الظروف الطارئة، كان البلاط يبدي المظهر المألوف لجميع البلاطات الملكية في جميع البلدان، وجميع العصور، وعند أكبر الأخطار: هناك رجال حاشية[1] يتحدثون دائماً بأمور مختلفة وهم يفكرون بأمور خطيرة، يخرجون وهم يدرسون الوجوه، ويهتمون بعلاقات الحب والزواج مع وارثات غنيّات وسط الكوارث الدامية.

سأل بوردي نبيل برانتوم، وهو يقترب من الآنسة دي پيين إحدى فتيات الملكة الأم: «ما رأيك بحفلة الأمس؟». قالت وهي تشير إلى مُنظمي الاحتفال الموجودين على عدة خطوات منها: «إن السيدين دي بايف ودو بلاي، ليس لديهما إلا الأفكار الجميلة» ثم أضافت بصوت منخفض: «لم يكن فيها شيء من حسن الذوق!»

قالت الآنسة دي لويستون من الجهة الأخرى: «ألم يكن لك دور فيها؟».

سأل أميوت السيدة فيبسك: «أي كتاب تقرئين يا سيدتي؟»

- «أماديس دي غول، للسيد دي إسارت، المفوض العادي في مدفعية الملك»

علّقت الفتاة الجميلة التي اشتهرت فيما بعد تحت اسم «فوسوز- الحفارة» عندما غدت وصيفة شرف الملكة مرغريت دي نا ڤار بالقول: «إنه كتاب جذاب»

قال آميوت: «هو جديد في أسلوبه» ثم أضاف موجهاً الكلام إلى برانتوم: «هل تتبنى هذه الهمجيات؟»

هتف برانتوم: ماذا تريد؟ إنه يعجب السيدات» ثم ذهب يحيي السيدة دي غيز التي كانت تحمل كتاب «سيدات بوكاس الشهيرات» قائلاً: «ستجدين فيه

---

(١) يدخل بلزاك في هذا المشهد كثيراً من الشخصيات التاريخية الحقيقية دوق اورليان ومربيه والسيدة دي فيبسك، والدوقة دي غيز، وعدا عن ذكر الكتب التي تقرؤها سيدات البلاط، والفكاهات الساخرة من آل غيز.

سيدات من بيتكم يا سيدتي، لكن السيد دي بوكاس أخطأ لأنه لم يعش في زماننا حيث المواد وفيرة لإغناء مؤلفه ...

قالت الآنسة الفاتنة دي ليموي للكونتة دي فيسك: «كم هو بارع هذا السيد دي برانتوم، إنه أتى إلينا أولاً، لكنه سيبقى في حيّ آل غيز».

أجابت السيدة دي فيسك وهي ترمق الآنسة الجميلة دي ليموي: «صه! اهتمي بما يخصك فقط! ...

كانت الفتاة الشابة متوجهة بعينيها نحو الباب، منتظرة رؤية سارديني النبيل الايطالي الذي ارتأت قريبتها[١] الملكة الأم أن تزوجها به بعد الحادث الطارىء الذي حدث لها في غرفة حمام الملكة كاترين بالذات وحظيت فيه بشرف عمل الملكة قابلة لتوليدها[٢]

قال السيد دي روبرته سكرتير الدولة وهو يحيي زمرة فتيات الملكة الأم: «وحق القديس آليبنتين[٣]، تبدو لي الآنسة داڤيلا وهي تزداد جمالاً يوماً بعد يوم».

لم يثر وصول سكرتير الدولة المعادل في رتبته سابقاً لوزير في الوقت الحاضر أية إثارة. وقالت الآنسة داڤيلا لدي روبرته: «إن كان هذا صحيحاً، يا سيدي، فأعرني إذاً» النشرة الهجائية المعدة ضد السيدين دي غيز، فأنا أعلم أنك قد استعرتها».

أجاب سكرتير الدولة وهو يتحول ليحيي الدوقة دي غيز: «ولكنها لم تعد معي».

---

(١) ذكر درو دو رادية هذه القرابة في **طُرَف الملكات** فايزابيل دي لِموي تنتمي إلى فرع ثان من آل لاتور دوفرني، بينما كاترين دي مديسي تنتمي من ناحية أمها مادلين دالاتوربولوني إلى الفرع البكر من هذه العائلة

(٢) يذكر درو دو راديه قصة ايزابيل دي لاتور المسماة الآنسه الفاتنة ليموي التي أغواها أمير كونده وولدت في «غرفة ملابس الملكة كاترين»، وهو يجعل الحادثة في العام ١٥٥٩ ويشير إلى زواجها بالنبيل الايطالي سيبيون سرديني.

(٣) قَسَم مستمد من كتابات رابله.

قال الكونت دي غرامون إلى الآنسة داڤيلا: «إنها معي، ولكنني لن أعطيها إلا بشرط».

قالت السيدة دي فييسك: «بشرط ... تبّاً!»

رد غرامون: «ولكنك لا تعلمين ماذا أريد.

قالت لاليموي: «أوه! هذا سهل التخمين».

كانت العادة الإيطالية في مناداة السيدات، كما ينادي الفالحون زوجاتهم «يا هذه» سائدة في بلاط فرنسة آنذاك

قال الكونت بحرارة: «أنت مخطئة في ظنك، فأنا أريد أن أكلفها بإيصال رسالة من ابن عمي دي جارناك للآنسة دي ماتا في الفريق الآخر.

قالت الكونتة دي فييسك: «لا تحرج فتياتي، فأنا مستعدة بذاتي أن أعطيها لها».

ثم سألت موجِّهة كلامها للكردينال دي تورنون: «هل وصلتك أنباء ما يحدث في الفلاندر يبدو أن أخباراً جديدة تثار حول السيد دغمون.

قال السيد سيبيير وهو يهز كتفيه بإشارة معبرة: «هو وأمير دورانج».

قال آميوت للكردينال دي تورنون الذي بدا مكفهر الوجه وقلقاًبين الفريقين بعد محادثته مع رئيس القضاء: «سيذهب دوق دالب والكردينال غرنَقْل إلى هناك، أليس كذلك يا سيدي؟» علّق دوق أورليان وهو الحدث الصغير ملمّحاً إلى الدور الذي قام به في العشية، ممثلاً فارساً يسيطر على هيدرا كُتبَ على جبهتها كلمة «الإصلاح البروتستنتي[1]»: «لحسن الحظ نحن هنا مطمئنون وليس علينا قهر الهرطقة إلا على المسرح»

---

(١) في مسرحية جرمو، فإن فرنسوا الثاني هو الذي أعد هذا الدور، مؤكداً على العنف الذي يجب أن يمارسه أخوه عند ضرب رأس الهيدرا- الممثل لرأس الهراطقة- لكن بلزاك حذف دور القسوة غير المناسب لصورة الفتى الخجول التي رسمها لشخصية شارل التاسع المستقبلي في اعترافات الروجييرين .

كانت كاترين دي مديسي قد وافقت الملكة ماري كنتها على إقامة صالة احتفالات وتمثيل في القاعة الواسعة التي أعدت فيما بعد لاجتماع المجالس في بلوا[1]، هذه القاعة التي سبق أن ذكرنا أنها ملتقى قصر فرنسوا الأول بقصر لويس الثاني عشر.

لم يجب الكردينال وتابع ذهابه ومجيئه وهو يتحدث بصوت منخفض مع السيد روبرته ورئيس القضاء؛ إن كثيراً من الأشخاص يجهلون الصعوبات التي صادفها مفوضو الدولة- الذين غدوا فيما بعد وزراء- في القيام بمهامهم وكم عانى ملوك فرنسة في خلق هذه الوظيفة وتحديد صلاحيتها، في تلك الفترة، اقتصرت مهمة مفوض الدولة مثل دي روبرته على كونه كاتباً لا أهمية له بين الأمراء وكبار النبلاء الذين يقررون شؤون الدولة[2]. ولم تكن هناك وظائف وزارية إلا لناظر المالية، ورئيس القضاء وحامل الأختام؛ وكان الملوك يمنحون مكاناً في مجلسهم برسائل صادرة عنهم- براءة ملكية- لمن يبدو لهم إمكان الإفادة منه، من رعاياهم، في إدارة شؤون الدولة العامة. فكان يمنح حق حضور المجلس لرئيس غرفة في البرلمان، أو لمطران، أو لمقرب من الملك لا صفة له.

وما إن يقبل العضو في المجلس، حتى يسعى إلى تقوية مركزه، بتقلد مهام للتاج تؤول إليها اختصاصات محددة، كما في الحكومات: كتقلد سيف قائد

---

(١) استخدمت قاعة المجالس كقاعة احتفالات، إنما في عهد هنري الثالث فقط، وعند وصول فرقة جلوزي الإيطالية، ويذكر أحد مؤرخي بلوا في القرن السابع عشر وهو ج. برنيه، بالعودة إلى برانتوم، أن تمثيليات عديدة منها **«سوفونيسب»** قد مثلت فيها في عهد هنري الثاني.

(٢) أحد هذه الاستطرادات التي يرى بلزاك أنها ضرورية لترتفع الرواية التاريخية إلى مستوى التاريخ؛ وكان يحرص على ذلك في التعديل الذي يجربه بين كل طبعة وأخرى، ومع محافظته على المادة الرئيسة يعدّل في الوقائع لتتناسب مع الحقيقة التاريخية، ففي العام ١٥٦٠، كان يوجد مفوض دولة باسم روبرته، وهو حفيد فلوريمون روبرته الشهير، وقد سمي بناءً على توصية من الدوق دي غيز كما يذكر بلزاك لوظيفة «مفوض دولة» ذات «البدايات غير الهامة».

- انظر **وظيفة مفوضي الدولة**؛ لفوقليه دي توك- باريس ١٦٨٨- كما أن **مفصّل الوظائف** للويزو يتعرض لتطور المهام الأخرى

الجيش العام، أو رئاسة فرق المدفعية، أو عصا المارشالية، أو القيادة العامة لبعض الحملات العسكرية، أو أمير الية البحرية، أو رئاسة السجون والأحكام بالأشغال الشاقة. أو السعي إلى مهمة ذات شأن في البلاط الملكي، كمهمة المعلم الأكبر للبيت الملكي التي كان يشغلها الدوق دي غيز.

سألت السيدة دي غيز مربي دوق أورليان: «أتعتقد أن دوق دي نمور سيتزوج فرانسواز؟ أجاب: «آه! يا سيدتي، أنا لا أعرف إلا تدريس اللاتينية».

هذا الجواب دفع إلى الابتسام من كان على مقربة تمكنه من سماعه. ففي تلك الفترة كان إغواء دوق دي نمور لفرنسواز دي رُوهن حديث المجالس؛ وبما أن الدوق دي نمور كان ابن عم فرنسوا الثاني، وهو على قرابة مضاعفة بآل ڤالوا من ناحية أمّه، حتى أن آل غيز ينظرون إليه كمغرر به وليس كغاوٍ، غير أن حظوة آل روهن بلغت من المكانة بعد ملكية فرنسوا الثاني حداً دفع الدوق دي نمور إلى مغادرة فرنسة بسبب القضية التي رفعها عليه آل روهن، إنما تمكن آل غيز بنفوذهم بعد ذلك من تسويتها[1]؛ يمكن لزواجه بالدوقة دي غيز، بعد مقتل بولترو أن يفسر جيداً سؤالها لآميوت، كاشفاً المنافسة القائمة بين الآنسة دي روهن والدوقة

قال الكونت دي غرامون وهو يشير إلى السادة دي كولينيي، والكردينال دي شاتيون ودانفيل، وتوره، وموره، وعدة نبلاء مشتبه بأنهم من أنصار الاصلاح الديني، وكانوا يقفونَ جميعاً بين نافذتين من الجهة الأخرى من الموقد: «انظروا إلى زمرة المستائين هناك»

قال سيبيير: «إن الهوغنوت يتحركون، ونحن نعرف أن تيودو دي بيز في نيراك ليحصل من ملكة ناڤار على تصريح بتأييد البروتستنتية بالارتداد عن

---

(١) هذا التلميح، وهو اضافة متأخرة لا يعود إلى حوار في مسرحية جرمو. لكن بلزاك يجدها مناسبة للتذكير بواحدة من أشهر مغامرات القرن السادس عشر. فقد تزوج الدوق دي نمور أرملة الدوق دي غيز في العام ١٥٦٦، في ذات السنة التي خرج فيها منتصراً من قضية الدعوى الطويلة التي أقامتها عليه فرنسواز دي روهن: «انه لم ينكر الكتابة التي يعترف بها بتصريحه الكلامي بالزواج من الآنسة دي روهن» كما يقول فاريا، لكنه لا يريد الاعتراف بها زوجة (من تاريخ شارل التاسع ١٦٨٤).

الكاثوليكية صراحة» ونظر إلى قاضي أورليان وهو أيضاً رئيس قضاة ملكة نافار وكان يلاحظ البلاط الملكي.

رد قاضي أورليان بجفاف: «وستفعل ذلك!».

كان هذا الشخصية الأورليانية شبيه جاك كور أحد أغنى بورجوازيي ذلك العصر، واسمه غروسلو ويقوم بتسيير شؤون الملكة جان دالبير في بلاط فرنسة.

قال رئيس قضاة فرنسة لرئيس قضاة نافار وهو يقدر أهمية تأكيد غروسلو: «أتعتقد ذلك؟»

قال الأورلياني الثري: «ألا تعرف أن هذه الملكة ليس لها من النساء إلا الجنس، وأن جميع طبائعها رجولية، إنها ذات ذهن متفتح على القضايا الكبرى وقلب لا تقهره أشدّ المحن».

قال رئيس القضاة أوليفيه للكردينال دي تورنون: «سيدي الكردينال، ما رأيك بهذه الجسارة؟»

أجاب الكردينال: «إن ملكة نافار قد أحسنت اختيار هذا الرجل رئيساً لقضاتها، وهو الذي يقرضُ آل لورين الأموال، ويقدم قصره لاستضافة الملك عند التحدث عن زيارة أورليان.

تبادل رئيس القضاة والكردينال عندئذ النظرات، دون أن يجرؤا على التعبير عن أفكارهما، لكن روبرته عبر لهما عنها، إذا اعتقد أن من الضروري أن يظهر مزيداً من الولاء لآل غيز لاسيما وأن هاتين الشخصيتين الكبيرتين تجدان نفسيهما أقلّ قدراً منهم، فقال: إنها مدعاة للأسف الكبير أن يتنكر آل نافار لدين آبائهم بدلاً من يتنكروا لعقلية الانتقام والثورة التي يبثها فيهم قائد جيش البوربون؛ إننا سنعود لمشاهدة صراع الآرمنياك والبورغونيين.

قال غروسلو: «كلا، لأن في الكردينال دي لورين شيئاً من لويس الحادي عشر»

أجاب روبرته: «وكذلك الشيء نفسه لدى الملكة كاترين».

في تلك اللحظة عبرت السيدة دايل الوصيفة المفضلة للملكة ماري ستيوارت القاعة، وتوجهت نحو غرفة الملكة، فأحدث دخولها شيئاً من الحركة.

قالت السيدة دي فيسك: «سندخل قريباً»

أجابت السيدة دي غيز: «لا أعتقد، فجلالتهما سيخرجان إذ سينعقد مجلس كبير.

انزلقت دايل إلى الغرفة الملكية بعد أن نقرت بشكل خفيف جداً على الباب كحكاك هرة، وهي طريقة محترمة ابتكرتها كاترين دي مديسي، وتبناها بلاط فرنسة.

قالت الملكة ماري وهي تظهر وجهها الأبيض النضر خارج السرير، وتزيح الستائر:

«كيف هو الطقس اليوم، يا عزيزتي دايل؟»

- آه! يا سيدتي ...

- مالك يا عزيزتي؟ لكأن الحراس في إثرك!

- أوه! يا سيدتي، أما يزال الملك نائماً؟.

- نعم

- سنترك القصر، وقد كلفني سيدي الكردينال بأن أنبئك بذلك لتهيئي الملك للمغادرة.

- هل تعلمين السبب، يا دايل الطيبة؟

- إن البروتستنت يريدون خطفكما ...

- آه! هذه الديانة الجديدة لا تترك لدينا وقتاً للراحة! لقد حلمت هذا الليل أنني في السجن، أنا من تجمع تيجان أجمل ثلاثة ممالك في العالم.

- وأيضاً، يا سيدتي، في الحلم!.

- مخطوفة؟ هذا شيء لطيف؛ لكن من أجل قضية دينية، ومن قبل هراطقة، أمر مرعب

قفزت الملكة من السرير، وجاءت فجلست على كرسي وثير مجلل بمخمل أحمر أمام المدفأة، بعد أن قدمت اليها دايبل مبذلاً من مخمل أسود، شدته على خصرها بزنار من حرير. وأوقدت دايبل النار في المدفأة، ذلك أن صبيحات شهر أيار كانت رطبة باردة على ضفاف نهر اللوار.

سألت الملكة دايبل التي تتعامل معها بألفة: «هل تلقى خالي هذه الأنباء خلال الليل؟

- منذ هذا الصباح، يذهب سيداي دي غيز ويجيئان على المصطبة، حتى لا يسمعهما أحد، وقد استقبلا رسلاً جاؤوا بسرعة من مختلف أنحاء المملكة حيث يتحرك البروتستانت؛ وكانت السيدة الملكة الأم هناك مع إيطالييها على أمل أن تستشار، لكنها لم تكن في المجلس المصغر.

- لاشك أنها غاضبة!

أجابت دايبل: بالإضافة إلى غضبها البارحة بشكل خاص، إذ أنها على ما يقال لم تكن مسرورة أبداً عندما رأت جلالتك في ثوب مماثل لثوبها المذهب الملتف وغلالة شبيهة بغلالتها الحريرية المدبوغة[1].

ـ دعينا، يا عزيزتي دايبل الطيبة، فالملك يستيقظ، ولا أريد أن يزعجنا أحد حتى ولو لدقيقة واحدة، فالأمر يتعلق بشؤون الدولة، وأخوالي لن يعكروا علينا أمرنا.

قال الملك الشاب وهو يستيقظ: إيه! يا عزيزتي ماري، هل غادرت السرير؟ وهل مر وقت كبير من النهار؟

- يا عزيزي المحبب، إن الأشرار يسهرون ونحن نيام، وسوف يرغموننا على مغادرة هذا المقر الجميل.

---

(١) في مسرحية جرمو؛ فإن كاترين دي مديسي هي التي كانت ترتدي بمناسبة الاحتفال «الثوب المذهب المفتول والغلالة الحريرية المدبوغة». وأن الملك والملكة الشابين أطريا جمالها وأناقتها. لكن الصورة لا تتلاءم مع ما أراد بلزاك اظهاره من علائم الحداد في القصر، ولدى ملكة متزمتة أرملة، فحوّل المشهد للملكة الشابة.

- مالك تتكلمين على الأشرار يا صديقتي! ألم يكن لدينا أجمل احتفال مساء البارحة، على الأقل بالنسبة لهذه الكلمات اللاتينية التي يلقيها هؤلاء السادة بلغتنا الفرنسية؟

قالت ماري: آه! هذه اللغة تعبر عن ذوق مرهف، وقد أبرزه رابله بجلاء.

- إنك عالمة، وأنا آسف لعجزي عن إطرائك شعراً. ولو لم أكن الملك لعدت إلى التتلمذ على آميوت معلم أخي، ليجعلني على قدر كبير من هذا العلم.

- لا تحسد أخاك الذي يعدُّ قصائد ويعرضها عليّ طالباً أن أعرض عليه بدوري قصائدي. هيّا ستكون أحسن الأربعة. وستكون ملكاً قديراً كما أنت عاشق ظريف، ولهذا السبب على الأرجح فإن امّك لا تحبك كثيراً؛ لكن كن مطمئنا، يا قلبي العزيز، فسأحبك عن كل العالم.

قال الملك الشاب: أنا لا استحق هذه الحظوة الكبرى في حب ملكة بهذا الكمال؛ ولا أعلم كيف تمالكت نفسي دون رغبة تقبيلك أمام كل البلاط عندما رقصت هزة المشاعل!

رأيت بوضوح أن جميع النساء لهن مظهر الخادمات بالنسبة لك، ياجميلتي ماري...

- إن اقتصرنا في حديثنا علي النثر، فإنك بكلامك تفتن اللب يا ظريفي، لكن، إنه الحب الذي يتكلم، وأنت، أنت تعلم جيداً، يا حبيبي، أنك لو كنت خادماً صغيراً فقيراً، لأحببتك بقدر حبي الآن، مع ذلك فأي شيء أعذب من قدرتي على القول: «إن حبيبي ملك».

- أوه! يا للذراع الجميلة! لماذا يجب أن نرتدي ثياباً؟ أحب أن أنفذ بأصابعي في شعرك الناعم، أن أعبث بحلقاته الشقراء. آه! يا صديقتي، لا تدعي النساء يقبلن هذا العنق الشديد البياض ابداً، ولا تتعبي هذا الظهر الجميل من بعد. حسبه أن ضباب اسكوتلنده قد مرّ عليه.

- ألا تأتي لترى بلادي العزيزة؟ إن الأسكوتلنديين سيحبونك، ولن تحدث هناك ثورة كما الحال هنا.

قال فرنسوا دي ڤالوا وهو يضم مبذله، ويأخذ ماري ستيوارت على ركبتيه: «من يثور في مملكتنا؟»

قالت وهي تحجب وجنتها عن الملك: أوه! هذا بالتأكيد لطيف جداً، لكن عليك أن تسود، إذا أردت، يا مليكي اللطيف.

- ماذا تعنين بقولك أن أسود؟ أريد هذا الصباح ...

- أتحتاج للقول أريد وأنت تستطيع كل شيء. هذا ليس كلام ملك، ولا عاشق، لكن الأمر لا يتعلق أبداً بهذا. فلندعه جانباً! إن لدينا قضية هامة.

قال الملك: أوه! مضى علينا زمن دون قضية. أهي مسلّية؟

قالت ماري: كلا، انها تتعلق بالانتقال من هنا.

- إنني أراهن يا صديقتي على أنك رأيت أحد خاليك اللذين يتدبران الأمر جيداً حتى أبدو وأنا في السابعة عشرة ملكاً كسولاً. في الواقع أنا لا أعلم لماذا تابعت بعد المجلس الأول حضور المجالس الأخرى؟ يمكن أن تسير الأمور بشكل جيّد بوضع تاج فوق كرسيّ الفارغ، فأنا لا أرى شيئاً إلا بأعينهما وأقرر بلا روية.

هتفت الملكة وهي تنهض عن ركبتي الملك متظاهرة بشيء من الحَرَد: «أوه! أيها السيد، قيل لي إنك لن تضايقني أبداً حول هذا الموضوع، وإن خاليَّ سيستخدمان السلطة الملكية لسعادة شعبكم أهو لطيف شعبك؟ إن أردت أن تحكمه بمفردك فإنه سيزدردك كثمرة فراولة، شعبك يلزمه رجال حرب، وسيد قاس في يديه قفازات من حديد، بينما أنت شاب ناعم أحبه هكذا، ولا أحبه بشكل آخر، أتسمعني يا سيدي؟». قالت ذلك وهي تقبل جبين هذا الفتى الذي بدا عليه أنه يريد أن يثور ضد هذا الخطاب لكن هذه الملاطفة هدأته.

هتف فرنسوا الثاني أوه! لو لم يكونا خاليك! هذا الكردينال يغيظني للغاية، وعندما يبدو بسحنته الزلقة، وأساليبه المتمسكنّة ليقول لي وهو ينحني: «سيدي، الأمر هنا يتعلق بشرف التاج وبإيمان آبائك، وليس على جلالتكم تكبُّد أيّة معاناة» وتارة هذا، وتارة ذاك... يثبت لديّ أنه لا يعمل إلا لمصلحة بيته اللوريني اللعين.

قالت الملكة: كم أحسنت تقليده، ولكن لماذا لا تستغل هذين اللورينيين لتستخبر عما يحدث بحيث تحكم بنفسك بعد وقت قصير، عند بلوغك سن الرشد القانونية؟ أنا زوجتك وشرفك هو شرفي، وسنحكم، فهيا يا حبيبي، لكن لن يكون كل شيء أمامنا مفروشاً بالورود حتى اللحظة التي تسود فيها إرادتنا! ما من شيء أصعب على الملك من أن يملك فعلاً! هل أنا، على سبيل المثال ملكة؟ ألا تعتقد أن والدتك ستردُّ علي بالضير، على ما يفعله أخوالي من خير لبهاء عرشك؟ إيه! أي فرق! إن خاليَّ أميران كبيران، من أحفاد شارلمان، مليئان بالمراعاة، ويعرفان كيف يموتان من أجلك. بينما تلك المرأة ابنة الطبيب أو التاجر، ملكة فرنسة بالمصادفة، السليطة كبورجوازية لم تهيمن في عائلتها، والمغتاظة لأنها لم تستطع أن تشوش كل شيء هنا؛ هذه الإيطالية تظهر لي في كل مناسبة وجهها الشاحب الرصين؛ ثم من فمها المضموم تقول لي: «يا ابنتي، أنت الملكة، وما أنا إلا المرأة الثانية في المملكة (ثم تنطلق مغتاظة، أتسمعني يا حبيبي؟)، لو أنني في مكانك، لما لبست المخمل القرمزي والبلاط في حداد، ولما ظهرت على الجمهور وشعري صقيل ودون أحجار كريمة، لأن ما هو غير لائق لسيدة بسيطة لا يجوز أبداً لملكة، وهكذا لن أرقص أبداً شخصياً، بل اكتفي بمشاهدة الرقص» هذا ما قالته لي.

ـ أجاب الملك: أوه! يا الهي لكأنني أسمعها! يا الهي، إن عرفت ...

– أوه! إنك ماتزال ترتعش أمامها، إنها تزعجك، أليس كذلك؟ سنعيدها إلى بلدها، فقسماً بايماني يمكن تجاوز تغافلها عنك، لكن أن تزعجك وهي المرأة البسيطة ابنة فلورنسة ...

قال فرنسوا وهو قلق ومنشرح في ذات الوقت: «بحق السماء يا ماري اصمتي، فأنا لا أريد أن تخسري صداقتها.

قالت ماري ستيوارت: لا تخشَ فهي لن تختلف معي ابداً، أنا التي تحمل أجمل ثلاثة تيجان في العالم. يا ملكي العزيز الصغير، فحتى لو حقدت علي لألف سبب، فإنها ستتودد لي لإبعادي عن خاليّ.

- تحقد عليك! ...

- نعم، يا ملاكي، ولو لم يكن لدي ألف من هذه البراهين التي تعرف النساء كيف يتبادلن فيما بينهن هذه العاطفة ويدركن وحدهن مكرها؛ لاكتفيت بمعارضتها الدائمة لحبنا الغالي. أيكون خطئي إن لم يتمكن والدك أن يتحمل الآنسة دي مديسي البتة؟ وكان أخيراً من قلة محبتها لي أنك اضطررت لأن تغضب حتى لا يفصل بيننا ويُخصص لكل منا جناح مستقل هنا، وفي سان جِرمن. كانت تدعي أن هذا هو العرف لدى ملوك وملكات فرنسة. العرف! هذا عرف والدك وتعليله سهل. أما جدك فرنسوا، فالمتواطىء أقام هذا العرف لتسهيل غرامياته، لهذا احرص جيدا، إن رحلنا من هنا ألا يفصل بيننا المعلم الأكبر.

- إن رحلنا من هنا يا ماري؟ لكنني لا أريد أبداً أن أترك هذا القصر الجميل حيث نرى اللوار، والريف البلوازي، والمدينة تحت أقدامنا، وأجمل سماء في العالم فوق رؤوسنا، وهذه الحدائق الرائعة. إن أردت الرحيل، فلأذهب إلى إيطالية برفقتك، نرى لوحات رفاييل، ونزور كنيسة القديس بطرس.

- وأشجار البرتقال؟ أوه! يا ملكي الصغير الظريف، لو تعلم أية رغبة تخالج نفس حبيبتك ماري في أن تتنزه تحت أشجار البرتقال الملأى بالأزهار والثمار! للأسف قد لا أرى هذا أبداً. أوه! كم أودُّ أن أسمع غناءً إيطالياً تحت هذه الأشجار المتضوعة عطراً، على شاطىء بحر أزرق، وتحت سماء زرقاء، وأن نبقى هكذا!

قال الملك: لنرحل.

هتف المعلم الأكبر وهو يدخل فجأة: الرحيل! نعم، يا سيدي، يجب مغادرة بلوا. اغفر لي جسارتي، لكن الظروف أقوى من المراسم، وقد جئت أرجوك أن تعقد مجلساً.

ابتعد كل من ماري وفرنسوا سريعاً، أحدهما عن الآخر وقد بدا على وجه كل منهما تعبير الجلال الملكي المغتاظ.

قال الملك الشاب وهو يكظم غيظه : «إنك معلم كبير جداً يا سيد دي غيز!» .

همس الكردينال في أذن كاترين : بُعداً للهو العشاق!

قالت الملكة الأم التي بدت وراء الكردينال : «يا بني، إن الأمر يتعلق بسلامتك الشخصية وأمن المملكة

قال الكردينال : إن الهرطقة ساهرة، بينما أنتما نائمان، يا سيدي .

قال الملك الشاب : «انسحبوا إلى القاعة، وسنعقد عندئذ مجلساً .

– قال المعلم الأكبر للملكة : «سيدتي، إن ابن فرأئك يحمل إليك الفراء الذي أوصيت عليه وهو ملائم في هذا الفصل للسفر، إذ من المحتمل أن نحاذي نهر اللوار» . ثم التفت إلى الملكة الأم وقال : «ولكنه يريد أيضاً أن يكلّمك يا سيدتي، وهكذا، وبينما يرتدي الملك ثيابه، أرى أن تصرفاه سريعاً أنت والسيدة الملكة، كي لا تقطع علينا تفكيرنا هذه التفاهة . قالت كاترين وهي تفكر في دخيلة نفسها : «إن كان يعتمد على أمثال هذه الحيل ليتخلص مني فهو لا يعرفني»– «بكل طيبة خاطر» .

انسحب الكردينال والدوق تاركين الملكتين والملك، وعند مرورهما في قاعة الحرس التي اجتازاها من جديد ليذهبا إلى قاعة المجلس، طلب المعلم الأكبر من الحاجب أن يأتية بفراء الملكة، وعندما رأى كريستوف هذا الحاجب يتوجه إليه من طرف القاعة إلى طرفها الآخر، معتقداً من شكل ثيابه أنه شخصية كبرى، دب الهلع في قلبه، فهذا الإحساس الطبيعي عند اقتراب اللحظة الحرجة، غدا رهيباً بحركة الحاجب التي لفتت أنظار هذا الجمع المتألق على هيئته التافهة وهو يحمل رزمته، وعندما قال له : «إن سيدي الكردينال دي لورين والمعلم الأكبر يطلبانك ليتحدثا إليك في قاعة المجلس .

تساءل سفير البروتستنتيين الواهي : «أيكون أمري قد كشف؟»

تبع كريستوف الحاجب وهو يغض بصره، ولم يرفعه إلا عندما وجد نفسه في قاعة المجلس الواسعة المعادلة في مساحتها لقاعة الحرس تقريباً . كان الأميران

اللورينيان وحدهما واقفين أمام الموقد الرائع المقابل لذاك الذي تتجمع إلى جانبه في قاعة الحرس فتيات الملكتين.

سأل الكردينال كريستوف: «أنت من باريس، فأي طريق سلكت

أجاب البروتستنتي: «جئت عن طريق النهر يا سيدي»

قال المعلم الأكبر: «وكيف دخلت إلى بلوا؟.

- من المرفأ يا سيدي.

- سأل الدوق وهو مايزال يفحص الشاب: «ألم يضايقك أحد عند الدخول؟»

- كلا، يا سيدي، عندما خطر لأول جندي أن يقبض علي، ذكرت أنني آت لخدمة الملكتين حيث أن والدي هو فرّاؤهما.

سأل الكردينال: «ماذا يجري في باريس.

- التفتيش مستمر عن مرتكب جريمة قتل الرئيس مينار.

قال الدوق دي غيز وقد خدعته البراءة الظاهرة على كريستوف بعد أن هدأ اضطرابه:

«ألست ابن الصديق الكبير لجرّاحي؟»

- نعم يا سيدي.

خرج المعلم الكبير ورفع فجأة السجف الذي يخفي الباب المضاعف لقاعة المجلس، وأبدى وجهه لكل هذا الجمهور وراح يجيل نظره فيه مفتشاً عن جراح الملك الأول، وكان آمبرواز في إحدى الزوايا فتقدم من الدوق بعد أن لاحظ أنه يشير إليه بطرف عينه.

كان امبرواز قد مال إلى المذهب البروتستنتي وانتهى إلى الانتساب إليه لكن صداقته للأخوين دي غيز وللملوك فرنسة وقته من النكبات التي حلت بالبروتستنت.

وكان الدوق الذي يعتبر أنه مدين بحياته لامبرواز پاره. قد عينه منذ عدة أيام جراحاً أول في خدمة الملك.

قال امبراواز: «ماذا تريد يا سيدي؟ أيكون الملك مريضاً؟ أخشى عليه من ذلك!

- لماذا؟

عقب الجراح: «إن الملكة جميلة جداً.

رد الدوق ببعض الدهشة: «آه! غير أن الأمر لا يتعلق بهذا». ثم قاد آمبرواز إلى باب غرفة المجلس وأشار إلى كريستوف: «آمبرواز، أريد أن أريك أحد أصدقائك هتف الجراح وهو يمدّ يده إلى كريستوف قائلاً: «هيه! هذا صحيح، كيف حال أبيك يا ولدي؟

أجاب كريستوف: «إنه بحالة جيدة، يا معلم آمبرواز.

قال الجراح: وماذا جئت تفعل في البلاط؟ ليست مهنتك أن توصل الأغراض، فوالدك يعدك للمرافعة. أم جئت تطلب رعاية هذين الأميرين الكبيرين لتكون محامياً؟

قال كريستوف: «أوه! يا الهي نعم، إنما من أجل مصالح أبي» واضاف بلهجة يرثى لها: أمّا إذا أردت أن تتوسط لنا، فضمّ صوتك إلى صوتي. لأحصل من سيدي المعلم الأكبر على أمر بدفع المبالغ المستحقة لأبي، فخشب السهام ينقص كنانته[1]».

تبادل الكردينال والدوق النظرات وبدا عليهما الاطمئنان.

قال المعلم الأكبر بعد إشارة إلى امبرواز: «دعنا الآن» ثم قال كريستوف: «وأنت يا صديقي، انه اعمالك بسرعة وعد إلى باريس، وسيعطيك أمين سري تصريح مرور، إذ إن الأَمور ليست طيبة على الطرقات.

---

(١) تعبير يعني «أن السيولة المالية تنقصه».

لم يخالج ايّاً من الأخوين شك بالمهمة الخطيرة المسندة إلى كريستوف، بعد أن تأكدا أنه فعلاً ابن الكاثوليكي الطيب لكاموس، مورد الفراء للبلاط، وأنه لم يحضر إلا طلباً لدراهم والده المستحقة وتسليم فروة الملكة.

قال الكردينال للجراح وهو يشير إلى كريستوف: «خذه إلى غرفة الملكة التي ستطلبه دون شك».

بينما كان ابن الفراء يتعرض للاستجواب في صالة المجلس، كان الملك قد ترك الملكة برفقة حماتها؛ ومرّ عبر مكتب متصل بغرفة نومه إلى غرفة زينته[1].

وقفت الملكة كاترين أمام النافذة الواسعة تنظر إلى الحدائق وهي فريسة الأفكار القاتمة. تصورت أحد أكبر قادة ذلك العصر يحلُّ في تلك الصبيحة وفي تلك اللحظة محل ولدها، محل ملك فرنسة، تحت اسم ذلك اللقب الرهيب: «القائد العام للمملكة. وأمام هذا الخطر كانت وحيدة، دون فعالية، ودون دفاع، وهكذا يمكن مقارنتها وهي في ثياب حدادها، التي لم تتركها ابداً بعد وفاة هنري الثاني، بشبح، لشدة شحوب وجهها الساكن تحت وطأة التفكير. كانت عيناها السوداوان تسبحان في تلك الحيرة التي غالباً ما يلام عليها السياسيون الكبار، بينما هي في حقيقتها دلالة النظرة الشمولية التي تلمُّ بكل الصعوبات، وتوازن بين الواحدة والأخرى، وتجمع كافة الحظوظ، إن صح القول، قبل أن تتبنى رأياً. كانت أذناها تطنان، ودمها يفور، ومع ذلك بقيت هادئة، وقوراً، وهي تقدر عمق الهوة السياسية فوق الهوة الحقيقية المرتسمة تحت قدميها. بعد تلك الليلة التي أوقف فيها ڤيدام شارتر، كانت هذه هي الليلة الثانية من تلك الليالي الرهيبة التي كثر عددها في باقي حياتها الملكية، لكنها كانت أيضاً آخر غلطة في مدرسة السلطة. ورغم أن صولجان هذه السلطة بدا هاربا من يديها، فقد أرادت أن تمسك به، وتقبض عليه بتأثير تلك القوة من الإرادة التي لم تتعب لا من ازدراء حميّها فرنسوا الأول وبلاطه، حيث كانت قليلة القدر رغم أنها زوجة ولي العهد، ولا من رفض هنري

(١) يلجأ بلزاك هنا إلى تفصيل طبوغرافية الجناح الملكي كما يصفها لاسوسي وكما أشار إليها هو بالذات

الثاني المستمر ولا من المعارضة الرهيبة لديان دي بواتيه منافستها. ما من رجل فهم هذه الملكة في خيبتها، لكن ماري الشقراء بنعومتها، وخفة دمها، وشبابها، وثقافتها الواسعة؛ كانت ترقبها بزاوية عينها، متظاهرة باللامبالاة وهي تدندن لحناً إيطالياً، ودون أن تخمن شدة العواصف الطموح المسببة لقطرات من العرق البارد تنضح من الفلورنسية، فإن الاسكوتلندية الجميلة ذات الوجه النبيه كانت تعرف أن ترقية خالها الدوق دي غيز تسبب حنقاً داخلياً لكاترين. والحال أنه ما من شيء كان يسليها بقدر تجسّسها على حماتها، فهي ترى فيها دساسة، حديثة نعمة منحطة، مستعدة دائماً للانتقام. كان وجه هذه متجهماً، قاتماً، فيه بعض رهبة بسبب هذه الكمدة في الايطاليات التي تجعل لونهن في النهار أشبه بالعاج الأصفر، لكنه يمسي متألقاً على ضوء الشموع، أما تلك فهي نضرة فرحة، فرأس ماري ستيوارت، وهي في السادسة عشر، كان بتلك الشقرة التي أكسبتها شهرة كبيرة، فوجهها البض المثير بتقاطيعه النقية، كان يتألّق بذلك الخبث الطفولي البين التعبير بانتظام حاجبيها، وبحيوية عينيها وبتمرد فمها الجميل، وبسطت عند ذاك تظارفها كقطة فتية، فلا يمكن للأسر ولا لرؤية جلادها المرعب ان ينالا منه. كانت هاتان الملكتان وإحداهما في فجر العمر والأخرى في صيف الحياة تشكلان التباين الأكثر اكتمالاً، فكاترين ملكة مهيبة، وأرملة عصية، دون أي هوى إلا هوى السلطة؛ وماري عروس لعوب خلية البال، تجعل من تيجانها ألعاباً. فالأولى تتوقع مصائب كبيرة وتستشف مقتل الأخوين دي غيز إذ تخمن أنه الوسيلة الوحيدة لإزاحة شخصين قادرين أن يرتفعا فوق العرش وفوق البرلمان، وترى أخيراً تدفقات الدم خلال صراع طويل؛ والثانية لا تشك في أنها ستقتل شرعاً.

فكرة غريبة أعادت بعض الهدوء إلى نفس الايطالية، قالت في نفسها: «إنّ هذا العهد وفقاً للعرافة، وحسب قول روجييري، لن يدوم، ولن تستمر حيرتي أبداً».

وهكذا فعلم السحر والتنجيم، الغريب فعلاً والمنسيّ اليوم، اعتمدته كاترين كنقطة استناد، كما في كل حياتها، إذ أن إيمانها به كان يتزايد، وهي ترى تنبؤات أولئك الذين يمارسونه تتحقق بدقة مذهلة.

قالت ماري ستيوارت وهي تأخذ من يدي دايل هذه القلنسوة الصغيرة المضمومة على مفرق الشعر بحيث يلتف جناحاها من المخرمات الجميلة حول خصلات شعرها الشقراء التي تنزلها حول صدغيها مخاطبة حماتها: «مالي أراك مغتمّة ياسيدتي؟».

تفننت ريشة الرسامين بتمثيل هذه القبعة التي تعود حصراً إلى ملكة اسكوتلندة بالرغم من أن كاترين هي التي ابتكرتها عند ارتدائها الحداد على هنري الثاني، لكنها لم تتقن ارتداءها كما فعلت كنتها، وكانت شديدة الملاءمة لها. ولم يكن هذا هو المأخذ الوحيد للملكة الأم على الملكة الشابة.

ردت كاترين وهي تلتفت إلى كنتها قائلة: «أهو لوم توجهه لي الملكة؟»

عقبت الاسكتلندية بخبث وهي تنظر إلى دايل: «أنا ملزمة بتقديم واجب الاحترام لك ولا أخالف الواجب».

بين الملكتين كانت دايل الوصيفة تقف كأثفيّة المدفأة إذ أن أية ابتسامة استحسان يمكن أن تكلّفها حياتها.

قالت الملكة الأم: «كيف يمكنني أن أكون فرحة مثلك، بعد أن فقدت المرحوم الملك، لاسيما وأنا أشاهد مملكة ابني تكاد تلتهب؟»

عقبت ماري ستيوارت: «إن السياسة لاتهم النساء كثيراً، ناهيك أن أخوالي هنا»

كانت هاتان الكلمتان في الظروف الحالية بمثابة سهمين مسمومين.

أجابت الإيطالية بسخرية: «فلنشاهد فرّاءنا يا سيدتي، ويمكننا بعد ذلك أن نهتم بمشاغلنا الحقيقية بينما يهتم خالاك بشؤون المملكة.

- أوه! لكن سنكون في المجلس يا سيدتي، وسنكون فيه أكثر نفعاً مما تتوقعين.

قالت كاترين وقد أظهرت الدهشة: «نحن! لكنني لا أعرف اللاتينية.

قالت ماري ستيوارت ضاحكة: «أتعتقدين أنني عالمة، الواقع يا سيدتي أنني أدرس لأكون على مستوى آل مديسي، من أجل أن أعرف، يوماً، **معالجة جروح المملكة**، أقسم على ذلك» أصاب هذا التلميح الساخر كاترين في الصميم، إذ أنه يذكر بأصول آل مديسي، المتحدرين على قول البعض من جدّ طبيب[1]، وقول بعض الآخر من عطار غني. واحمرت دايل ومعلمتها تنظر إليها كأنها تنتظر منها إبداء هذه العلائم من الإعجاب التي يتوقعها جميع الناس حتى الملكات من مرؤوسيهن عندما لا يوجد مشاهدون آخرون.

أجابت كاترين بوقار هادىء وبارد: «كلماتك اللطيفة يا سيدتي لا تستطيع للأسف أن تداوي جراح الدولة ولا جراح الكنيسة، إن علوم آبائي قد منحتهم عروشاً، أما أنت فإن تابعت مزاحك والخطر محدق فيمكن إن تخسري عروشك[2]».

في تلك اللحظة فتحت دايل الباب لكريستوف وقد جاء امبرواز الجراح الأول بنفسه ليعرف به بعد أن نقَرَ على الباب النقرات الخفيفة المعهودة.

أراد البروتستنتي أن يتأمل وجه كاترين متظاهراً بذلك الإرتباك الطبيعي في مثل هذا المكان، لكنه فوجيء بحيوية الملكة ماري التي قفزت على الصندوق لترى صدارها.

قال كريستوف متوجهاً إلى الفلورنسية بعد أن أدار ظهره للملكة الشابة ولدايل مغتنما فرصة انشغال المرأتين بمشاهدة فراء الصدار ليقوم بمهمته الجريئة: «سيدتي!»

---

(١) تذكر المصادر التاريخية أن الجدّ الأول الذي اغتنى من آل مديسي كان فحاماً وأن ابنه غدا طبيباً ومن مهنته استمدت العائلة اسمها «مديسي» كما اتخذ شعاراً له «خمسة أقراص من العقاقير».

(٢) الواقع أن ماري ستيوارت (١٥٤٢-١٥٨٧) خسرت عروشها وحياتها أيضاً، فبعد ترمّلها وهي في الثامنة عشرة عادت إلى اسكوتلنده حيث تزوجت للمرة الثانية، ثم قتل زوجها اللورد دارنلي، وتزوجت من قاتله، واضطرت للتنازل عن العرش في ١٥٦٧ واللجوء إلى انكلترة حيث سجنتها غريمتها ثم عملت على اغتيالها في ١٥٨٧.

أجابت كاترين وهي تحدجه بنظرة ثاقبة: «ماذا تريد مني؟»

كان كريستوف قد وضع صيغة التحالف المقترح من قبل أمير كونده، ومخطط البروتستنت، وتفاصيل قواهم قرب قلبه بين قميصه وسترته الجوخ، إنما بعد أن غلفها كلها بكشف الحساب المتوجب على كاترين للفراء.

قال: «سيدتي، إن والدي بحاجة ماسّة إلى الدراهم، وأرجو أن تتكرمي بإلقاء نظرة على حساباتك» ثم كشف الورقة وهو يضع فوقها «صيغة التحالف» وقال: «أنت ترين أن لوالدي ستة آلاف إكو، وأرجو أن تتكرمي بالإشفاق علينا، كما ترين يا سيدتي!».

ومد إليها المعاهدة قائلاً: «إقرئي. إن هذا يعود إلى يوم ارتقاء المرحوم الملك على العرش» دهشت كاترين منه ديباجة «التحالف» لكنها لم ترتبك ولفت الورقة بسرعة مبدية إعجابها بجرأة الشاب وحضور بديهته، وأحست بهذه البادرة الزكية أنها غدت مفهومة، فضربت على رأس الشاب بملف الورق وقالت: «يا لك من أخرق، يا صديقي الصغير، في تقديم الحساب قبل الفراء. تعلم التعامل مع النساء، يجب ألا تقدم أبداً الفواتير إلا بعد أن نبدي رضانا» قالت الملكة الشابة لحماتها التي لم تجبها: «أهذا عُرفٌ؟»

قال كريستوف: «آه! يا سيدتي، اعذرا والدي، لو لم يكن بحاجة إلى المال لما حصلتما على فرائكما. فالمناطق مدججة بالسلاح، والأخطار كبيرة على الطرقات، والعوَزَ دفعني إلى المجيء إلى هنا؛ إذ ما من أحد غيري أراد المجازفة.

قالت ماري ستيوارت باسمة: هذا الفتى حديث العهد بالصنعة

قد يكون من المفيد أن نذكر لإدراك هذا المشهد الصغير ذي الأهمية الكبرى أن الصدار المفرَّى ويطلق عليه اسم «سوركوت» (أي ما فوق الخاصرتين) هو سترة قصيرة ترتديها النساء فتغطي القسم الأعلى من الجسم حتى الوركين، وهي تشد بضيق فتبرز استدارة الصدر، وتقي الظهر والصدر والعنق من البرد، إذ أنها مبطنة من الداخل بفراء يحيط بالقماش بحاشية عريضة تقريباً.

كانت ماري ستيوارت وهي تجرب صدارها تنظر إلى نفسها بمرآة كبيرة من صنع البندقية لترى شكله من الخلف، وهكذا أتاحت لحماتها فرصة فحص الأوراق التي تثير الشبهة بحجمها لولا ذلك الظرف.

قالت وهي تتوجه إلى كريستوف: «هل يسرد المرء على مسامع النساء ماكابده من مخاطر، بعد أن يصل سليماً معافى فيقابلهن؟».

قال وهو ينظر إليها ببلاهة متعمدة: «آه! يا سيدتي، لدي أيضاً كشف حسابك».

نظرت إليه الملكة الشابة بإمعان دون أن تتناول الورقة، ولاحظت إنما دون أن تخلص الى نتيجة، أنه تناول من صدره كشف حساب الملكة كاترين، بينما أخرج كشف حسابها من جيبه؛ كما أنها لم تلحظ أيضاً في عيني الشاب مظهر الإعجاب الذي تثيره رؤيتها لدى جميع الناس. لكنها كانت منشغلة بصدارها حتى« أنها لم تسائل نفسها عن سبب هذه اللامبالاة[١].

قالت الملكة الشابة لوصيفتها: «خذي الكشف يا داييل وقدميه للسيد دي فرساي (لوميني) واطلبي منه باسمي أن يدفع قيمته».

قال كريستوف: «اوه يا سيدتي، إن لم توقعي لي أمراً من جلالة الملك أو من سيدي المعلم الأكبر الموجود هنا، فإن كلمتك الرفيعة تبقى دون نتيجة».

قالت ماري ستيوارت: إنك أكثر يقظة مما يبدو على أحد الرعايا، يا صديقي، ألا تثق بالكلمات الملكية؟

بدا الملك وهو يرتدي جواربه الحريريه، والسراويل المعتادة في ذلك الزمن، إنما بدون صديري، ولا معطف بل بسترة طويلة من مخمل، مطرزة بفرو ناعم دقيق، تشير وحدها وفقاً للتعبير الحديث على بزّة الملك.

---

(١) في المراجع المعتمدة من بلزاك وخاصة «السيرة الشاملة» فإن لكاموس قابل الملكة الأم منفردة، وأن ماري ستيوارت اشتبهت عند خروجه «بسرٍ ما». إنما بجمع الشخصيات الثلاثة في القصة تمكن بلزاك أن يعطي الحدث مزيداً من الواقعية والبروز.

قال فرنسوا الثاني الذي سمع رغم المسافة عبارة زوجته الأخيرة: «من هو هذا الحقير الذي يشكُّ بكلمتك؟».

كان باب هذا المكتب محجوباً بالسرير الملكي، وقد سمّي فيما بعد المكتب القديم لتمييزه عن المكتب الغني بالرسوم الذي أعده هنري الثالث في الطرف الآخر من هذا الجناح قرب قاعة المجالس العامة. وقد خبأ هنري الثالث القتلة في المكتب القديم، وأرسل يطلب الدوق دي غيز لمقابلته بينما بقي محتجباً في المكتب الجديد خلال الإغتيال[1] ولم يخرج إلا ليأتي ويشاهد هذا الشخص الجريء الذي لم يكن له أي سجن، ولا محكمة، ولا قضاة، ولا قوانين في المملكة؛ ولولا هذه الظروف الرهيبة لصعب على المؤرخين اليوم أن يعرفوا مصير هذه القاعات، وهذه المكاتب المليئة بالجنود[2]. من هنا كتب أحد أمثال فوريه[3] لخليلته، من ذات المكان الذي وجدت فيه سابقاً كاترين مفكرة في ما يجب إجراؤه في صراعها مع الأحزاب.

قالت الملكة الأم لكريستوف: «تعال يا صديقي، لأسدد لك حسابك فالتجارة ينبغي أن تحيا، والمال عصبها الرئيس.

قالت الملكة الشابة ضاحكة: «اذهب، يا عزيزي، فوالدتي الجليلة أكثر خبرة مني بقضايا التجارة».

خرجت كاترين دون أن تجيب على هذه السخرية الجديدة، لكنها فكرت أن لامبالاتها يمكن أن تثير الشبهة فأجابت كنتها بسرعة «ولك يا عزيزتي خبرة في الحب» ثم نزلت الدرج.

قالت الملكة الشابة لوصيفتها: «رتبي كل هذا يا داييل» ثم التفتت إلى الملك وهي مسرورة لتقرير موضوع القيادة العامة للمملكة، على خطورته في غياب الملكة الأم وقالت: «هيا إلى المجلس يا سيدي».

---

(١) يلمح بلزاك هنا إلى مقتل هنري دي غيز- بلافره الثاني- ابن فرنسوا دي غيز المعلم الأكبر، الذي استدعاه هنري الثالث إلى بلوا، في العام ١٥٨٨ حيث دبر مكيدة لقتله، بعد أن عرف بتآمره على عرشه.

(٢) تذكير بأن «قصر بلوا كان قد حوّل إلى ثكنة عسكرية في أيام بلزاك.

(٣) شارل فوريه (١٧٧٣- ١٨٣٧) فيلسوف واقتصادي فرنسي دعا إلى انشاء تعاونيات اشتراكية.

تأبطت ماري ستيوارت ذراع الملك، وخرجت دايبل أولاً، وهمست بكلمة للخادمين، فهرع أحدهما وهو تلينيي الشاب الذي قضى بشكل بائس في سان بارتلمي[1] وهتف «الملك» عند سماع هذا النداء، وقف الحارسان وقفة الاستعداد للتحية بالسلاح، وتقدم الخادمان يفسحان الطريق حتى غرفة المجلس وسط سياج المتملقين، والسياج المشكل من الفتيات وصيفات الملكتين، وتجمع كافة أعضاء المجلس على باب تلك القاعة، وهي على مسافة قريبة من باب الدرج، وسار المعلم الأكبر والكردينال ورئيس القضاة لملاقاة الملكين الشابين اللذين كانا يبسمان لبعض الفتيات، أو يردان على طلبات بعض أفراد الحاشية الأكثر ألفة من الآخرين، لكن الملكة الشابة بدت بوضوح متلهفة، وهي تعجل بإدخال فرنسوا الثاني إلى قاعة المجلس.

عندما أعلن وقع خطا الحراس على بلاط القاعة دخول العاهلين إليها. اعتمر الخدم الملكيون في الخارج قبعاتهم، واستأنف النبلاء محادثاتهم الخاصة حول خطورة الأمور التي ستعالج.

قال أحدهم: «لقد أرسل شيفرني لاستدعاء قائد الجيش لكنه لم يأت»؟- يبدو رئيس القضاة والسيد دي كورنون منشغلي البال.

- طلب المعلم الأكبر من حامل الأختام ألا يغيب عن المجلس، ويبدو دون شك أن عدة براءات ملكية ستصدر.

- كيف بقيت الملكة الأم في جناحها في الطابق الأول، في مثل هذه المناسبة

- قال غروسلو للكردينال دي شاتيون: «سيقيمون في وجوهنا العقبات.

أخيراً كان كل واحد يقول كلمته، بعض النبلاء يذهبون ويجيئون في تلك القاعة الواسعة، وبعضهم الآخر يحومون حول فتيات الملكتين، وكأنهم يحاولون

---

(١) كان تلينيي صهر الأميرال دي كولينيي، وقد قال عنه المؤرخ مزراي «إنه بمظهر وجهه الوسيم البشوش خفف من نقمة المتملقين المكلفين بقتله فتراجعوا دون ذلك، وهكذا فعلت مفرزة من الجنود لكنه لم يستطع أن يتفادى غضبة فئة ثالثة قضت عليه (مزراي- تاريخ فرنسة ١٦٤٣- ١٦٥١).

التقاط بعض العبارات عبر هذا الجدار وهو بسماكة ثلاثة أقدام، أو عبر البابين والسجف الثخينة التي تتدلى عليهما.

كان الملك يجلس وسط هذه القاعة خلف منضدة طويلة مكسوة بمخمل أزرق، وقد جلست الملكة الشابة قربه على مقعد وثير، وهو ينتظر قدوم الملكة الأم؛ وأعد روبرته ريش كتابته فيما الكردينالان، والمعلم الأكبر، ورئيس القضاة، وحامل اختام الملك، وكل المجلس ينظرون إلى الملك الشاب، ويتساءلون لماذا لا يعطي الأمر بالجلوس

توجه رئيس القضاة إلى الملك الشاب وسأل: «هل سيتم التداول في غياب الملكة الوالدة؟»

نسب الأميران اللورنييان غياب كاترين إلى حيلة ما من ابنة أختهما، وقال الكردينال الجريء وقد استثير بنظرة معبّرة، للملك: «هل لدى جلالة الملك من رغبة بالبدء في غياب السيدة والدته؟»

أجاب فرنسوا الثاني دون أن يجرؤ على إعلان موقفه: «تفضلوا بالجلوس، أيها السادة»

شرح الكردينال باختصار أخطار الوضع، وكان هذا السياسي الكبير في مهارة فائقة، فأثار موضوع القيادة العامة وسط صمت عميق من الحضور. وشعر الملك دون شك بالضيق وخمن إحساس والدته بحقوق التاج، ومعرفة الخطر الذي تتعرض له سلطته، فأجاب عندئذ على طلب الموافقة من الكردينال: «فلننتظر حضور الملكة أمي».

هذا التأخر غير المدرك للملكة كاترين ومَضَ فجأة في ذهن ماري ستيوارت، فضم في فكرة واحدة ثلاثة ظروف تذكرتها بحدة: أولاً ضخامة الكشوف المقدمة لحماتها والتي أثارت انتباهها، أيا كان شرودها، إذا أن المرأة التي تتظاهر بعدم رؤية شيء هي أوس يقظ؛ ثم المكان الذي وضعها فيه كريستوف لفصلها عن كشوفها، وساءلت نفسها «لماذا» أخيراً تذكرت نظرة هذا الفتى الباردة، ونسبتها فجأة إلى ما

يكنه البروتستنت من كُره لابنة أخت الأخوين دي غيز. وهتف بها صوت: «ألا يمكن أن يكون رسولاً للهوغنوت[1]».

وأذعنت كالطبائع الحية لحركته الأولى فقالت «سأذهب بنفسي لاستدعي أمي!».

ثم خرجت فجأة، وأسرعت في هبوط الدرج أمام الدهشة العظمى لرجال البلاط والسيدات، واتجهت إلى جناح حماتها، فعبرت قاعة الحرس، وفتحت باب الغرفة بحذر السارق، وانزلقت كالشبح على السجاجيد، ولمّا لم تجدها في أي مكان، فكرت بإمكان مفاجأتها في المكتب الرائع الموجود بين هذه الغرفة وخلوتها، وما تزال حتى الآن ترتيبات هذه الخلوة متميزة وقد كانت وفقاً لعادات ذلك لعصر تلعب في الحياة الخاصة دور غرفة جلوس هذه الأيام.

عندما نفكر بحالة الحطّ التي ترك بها التاج هذا القصر، فإن بقاء البطانة الخشبية الرائعة لمكتب كاترين يغدو صدفة لا تفسّر، وفي هذه البطانة المنقوشة بالزخارف الدقيقة يمكن للفضوليين أن يروا حتى هذه الأيام آثار الروعة الإيطالية ويتعرفوا على المخابىء التي أقامتها الملكة الأم فيها. والوصف الدقيق لهذ الترتيبات ضروري لمعرفة ما كان يجري فيها. هذه البطانة الخشبية كانت عندئذ تتألف من نحو مئة وثمانين مأطورة متطاولة، ماتزال مئة منها موجودة حتى الآن تقريباً، وهي تبدي للناظر زخارف ذات رسوم مختلفة، اقترحت بالطبع من أقبل أمهر المزخرفين الإيطاليين. فالخشب من السنديان الأخضر، أما اللون الأحمر تحت طبقة من الكلس وضعت كتدبير وقائي ضد الكوليرا دون فائدة. فيشير إلى أن أساس هذه المأطورات كان مذهباً، والأماكن التي نقصت بها المادة القلوية تدفع إلى الإفتراض بأن بعض أجزاء الرسم كانت تتميز عن التذهيب بلون أزرق أو أحمر أو أخضر، ويكشف تعدد هذه المأطورات عن النية في خداع الأبحاث، لكن إن كان بالإمكان الشك، فإن حاجب القصر، مع انجرافه للعنة الأجيال الحالية لذكرى كاترين،

---

(١) هوغنوت: لقب أطلقه كاثوليك فرنسة على بروتستنتييها وهو محرف عن كلمة ألمانية تعني الاتحاديين أو مُشتق من اسم هوغون وهو باب في مدينة تور كانوا يجتمعون قربه.

يكشف للزائرين في أسفل تلك البطانة الخشبية، وعلى مستوى الأرضية، عن نَعْل خشن المظهر يمكن رفعه، وما يزال تحته نوابض بارعة، وبالضبط على زناد مخفي يمكن للملكة أن تفتح تلك المأطورات المعروفة من قبلها فقط والتي أقيم خلفها في الجدار مخبأ متطاول كالمأطورة، لكنه مختلف في عمقه؛ وحتى في وقتنا الحاضر، فإن العين الأكثر تمرساً تتعرف بصعوبة، من بين جميع هذه المأطورات على تلك التي تقع على مفاصل غير مرئية، ولكن بعد أن ترود الأعين بين ألوان المذهبات المرتبة بمهارة لتخفي الشقوق، من السهل الاقتناع بأن كشف واحد أو اثنين من بين مئتين هو شيء متعذر.

في اللحظة التي وضعت فيها ماري ستيوارت يدها على مزلاج القفل المعقد لهذا المكتب؛ كانت الايطالية قد اقتنعت بأهمية مخططات أمير كوندة، وشغلت النابض المخبوء في النعل مما أنزل فجأة أحدى تلك المأطورة على مفصلها، والتفتت كاترين لتأخذ عن المنضدة الأوراق لتخبئها وتؤمن سلامة الرسول المخلص الذي حملها إليها. وبسماعها انفتاح الباب أدركت أن الملكة ماري وحدها يمكنها فعل ذلك دون أن تعلن عن حضورها.

قالت لكريستوف: «أنت هالك» بعد أن لاحظت أنه لم يعد بوسعها جمع الأوراق ولا إغلاق المأطورة حتى لا ينكشف سر مخبئها.

رد كريستوف بنظرة متسامية، فقالت كاترين بالإيطالية: «يا صديقي المسكين» ثم صرخت «خيانة يا سيدتي، لقد كشفتها، استدعي الكردينال والدوق، وليمنع هذا من الخروج[1]».

في الخطة حكمت تلك المرأة الماهرة على ضرورة تسليم ذلك الشاب المسكين: فهي لا تتمكن من تخبئته، ومن المستحيل أن تهربه؛ ولو أن الأمر حدث

---

(١) ورد في «السيرة الشاملة» أن كاترين وقد فوجئت وارتبكت، ذكرت أنها لا تعرف من أين جاءت تلك الأوراق، وانها سلمتها للملكة الشابة لتحملها بنفسها للكردينال. لكن هذا الموقف لا يتناسب مع ما أراد بلزاك أن يوحي به من حيث عظمة تلك الملكة وذكائها وسرعة بديهتها، فعدله وفق إرادته.

قبل ثمانية أيام لكان في الوقت متسع، ولكن منذ ذلك الصباح والأخوان دي غيز مطلعان على المؤامرة، ويجب أن يكونا قد حصلا على القوائم التي بيدها الآن واستدرجا البروتستنت بالطبع إلى فخ، وهكذا كانت سعيدة لأنها تعرفت لدى خصومها على الروح التي تمتنها، وأرادت كسياسية بعد أن فضحت المؤامرة أن يكون لها فضل الكشف عنها. هذه الحسابات الرهيبة ترتبت في ذهنها في اللحظة السريعة التي فتحت فيها الملكة الشابة الباب. وبقيت ماري ستيوارت صامتة للحظة، وفقدت نظرتها بهجتها، واتخذت تلك الحدة التي يخلقها الشك في عيون جميع الناس، والذي غدا لديها رهيباً لسرعة المفارقة، وراحت عيناها تنتقلان ما بين كريستوف والملكة الأم وهي تعبر عن شكوك ماكرة؛ ثم قرعت جرساً جاءت على أثره إحدى فتيات الملكة الأم.

قالت ماري ستيوارت لوصيفة الشرف مخالفة قواعد المراسم التي تنقض بالضرورة في مثل هذه الظروف: «آنسة دوروه، استدعي ضابط الخدمة».

بينما كانت الملكة الشابة توجه أمرها، تأملت كاترين كريستوف وكأنها تقول له بنظرتها «تشجع» أدراك البروتستنتي كل شيء، وأجابها بنظرة تعني «ضحي بي كما سيضحي الآخرون!»

بدرت من كاترين حركة تفيد: «اعتمد علي» ثم غرقت في الأوراق عندما التفتت كنتها إلى كريستوف قائلة: «أنت من المذهب البروتستنتي».

أجاب: «نعم، يا سيدتي»

«لم أكن مخطئة» أضافت متمتمة عندما وجدت في عيني الشاب تلك النظرة التي يتجلى فيها البرود والكره تحت تعبير من خضوع.

ظهر بارديان فجأة مرسلاً من قبل الأميرين اللورينيين ومن قبل الملك. وكان الضابط الذي طلبته ماري ستيوارت يتبع ذلك الشاب النبيل وهو أحد أشدّ المخلصين لآل غيز.

قالت الملكة الشابة: «اذهب وقل للملك، وللمعلم الأكبر، وللكردينال أن

يأتوا بناء على طلبي، مع التأكيد بأنني لم أسمح لنفسي بهذه المبادرة لولا إن الظرف الخطير يستدعي ذلك. هيا يا بارديان».

ثم التفتت إلى الضابط الاسكوتلندي وخاطبته بلغتها الأصلية مشيرة إلى كريستوف:

«أما أنت يا لويستون فاحرس هذا الخائن البروتستنتي».

لزمت الملكة الشابة والملكة الأم الصمت إلى حين وصول الأميرين والملك؛ وكانت تلك اللحظة رهيبة.

فماري استيوارت قد كشفت لحماتها وبكل صراحة عن الدور الذي جعلها خالاها تلعبه، فاحتراسها المعتاد والثابت قد فضح؛ لكن ضميرها الشاب أحس بما في هذه المهمة من عيب لا يليق بملكة كبيرة وكاترين استسلمت خوفاً، وخشيت أن تكشف خدعتها، وجزعت على مستقبلها. وذهبت كل من المرأتين واحدة بخجل وغضب والأخرى بكره وهدوء إلى حافة النافذة، حيث استندت إحداهما من جهة اليمين والأخرى من جهة اليسار، لكنهما كانتا تعبران عن عواطفهما بنظرات بلغت من صراحتها أن كلا منهما غضت الطرف، ثم رفعتاه بمكر متبادل لتنظرا إلى السماء عبر النافذة. هاتان المرأتان على علو مقامهما لم يكن لهما من الفكر إلا الأكثر ابتذالاً. ربما كان الأمر كذلك كلما سحقت الظروف البشر، إذ تمر لحظات تحس العبقرية في نفسها بالصَغَار أمام النكبات الكبرى.

أما كريستوف فكان كإنسان يغوص في لجة، ولويستون الضابط الاسكوتلندي يصغي في هذا الصمت وينظر إلى ابن الفراء والملكتين بفضول عسكري. لكن دخول الملك الشاب والأخوان دي غيز وضع حداً لهذه الحالة الحرجة. وذهب الكردينال مباشرة إلى الملكة الأم فقالت بصوت منخفض: «لقد أمسكت بجميع خيوط مؤامرة الهراطقة، لقد أرسلوا إليَّ هذا الفتى وهو يحمل صيغة هذا الحلف وهذه الأوراق.

---

(١) ورد في السيرة الشاملة: «إن هذه الاميرة استغلها خالاها وجعلاها تتجسس على حماتها».

بينما كانت كاترين تبرر سلوكها أمام الكردينال، همست الملكة ماري ببضع كلمات في أذن المعلم الأكبر. وسأل الملك الشاب الذي بقي وحيداً وسط هذه المصالح العنيفة المتصادمة: «ما الأمر؟»

قال الكردينال وهو يمسك بالأوراق: «إن البراهين على ما سبق أن قلته لجلالتكم لم تدعنا ننتظر كثيراً».

تنحى الدوق دي غيز بأخيه جانباً دون أن يبالي بمقاطعته وهمس في أذنه:

«نتيجة هذا الأمر، ها أنا قائد عام للملكة دون أية معارضة».

كانت نظرة حاذقة هي كل جواب الكردينال لأخيه، فبها أفهمه أنه يدرك كل ما يجب الحصول عليه من مكاسب نتيجة وضع كاترين الزائف.

قال الدوق لكريستوف: «من أرسلك؟».

أجاب: «الوزير شوديو»

قال رجل الحرب بحدة: «أيُّها الشاب، إنّك تكذب، إنه أمير كونده».

قال كريستوف بمظهر مندهش: لم التق أبداً بأمير كونده يا سيدي، فأنا من قصر العدل وأدرس لدى السيد تو، وأعمل سكرتيرا له، وهو يجهل مذهبي، ولم أذعن إلا لإلحاح الوزير قال الكردينال موجها كلامه للضابط لويستون: كفى، ناد السيد دي روبرته، لأن هذا الشاب الغريب أكثر مكراً من عتاق السياسة، فقد خدعني أنا وأخي إذ حسبناه من البلهاء الورعين. هتف الدوق: تباً لك! إنك لست طفلاً، ونحن نعاملك كرجل.

قال الكردينال موجهاً كلامه للملك، وهو يريد أن ينتحي به جانباً ليصل إلى أغراضه: «كان المراد إغراء والدتك الموقرة».

أجابت الملكة الأم متظاهرة بالعتب وموجهة كلامها لابنها تريد إيقافه في اللحظة التي أراد الكردينال أن يقوده فيها إلى غرفة الخلوة ليمارس عليه فصاحته الخطرة: «يا للأسف! أنت ترى تأثير الوضع الذي أنا فيه: إنهم يعتقدون أنني

ساخطة للتأثير البسيط الذي لي في الشؤون العامة، أنا والدة أمراء آل ڤالوا الأربعة».

بدا على الملك الشاب الاهتمام، لكن ماري ستيوارت عندما رأت الملك يقطب جبينه توجهت إليه وقادته إلى النافذة، وراحت تتودد إليه بكلمات عذبة تهمس بها، وهي دون شك مماثلة لتلك التي كانت توجهها إليه منذ مدة قريبة عند استيقاظه. قرأ الأخوان دي غيز الأوراق التي سلمتها لهما الملكة كاترين، ووجدوا فيها معلومات كان يجهلها جاسوساهما دي براغلون وملازم الشاتله المجرم، مما أغراهما بالاقتناع بحسن نية كاترين دي مديسي. حضر روبرته وتلقى بعض تعليمات سرية بخصوص كريستوف؛ واقتيد الشاب أداة زعماء الاصلاح الديني، بواسطة أربعة حراس من السرية الاسكوتلندية نزلوا به الدرج وسلموه إلى السيد مونترزور، ناظر سجن القصر، فقام هذا الشخص الرهيب بنفسه يرافقه خمسة من أعوانه بإيداع كريستوف في أقبية برج القصر، وهو المدمر حالياً، والذي يشير إليه حاجب قصر بلوا للزائرين قائلاً: «هنا كانت توجد الزنزانات».

بعد حدث من هذا النوع كان طبيعياً ألا يتعدى اجتماع المجلس المظهر الشكلي: فالملك والملكة الشابة، والمعلم الأكبر، والكردينال دي لورين عادوا وبرفقتهم كاترين مقهورة لا تتحدث إلا لتوافق على الترتيبات التي هيأها اللورنيان رغم المعارضة الخفيفة التي أبداها رئيس القضاة أوليفيه، وهو الشخصية الوحيدة الذي أسمع كلمات تجلى فيها الاستقلال الضروري لممارسة وظيفته، وسمي الدوق دي غيز قائداً عاماً للمملكة. وحمل روبرته قيد التسجيل بعجلة تبرهن عن إخلاص يمكن أن يعتبر تواطؤاً. قدم الملك ذراعه لأمه، واجتاز معها قاعة الحرس الجديدة معلناً للبلاط أنه سينتقل منذ الغد إلى قصر آمبواز؛ ذلك المقر الذي كان قد هجر منذ أن توفي فيه الملك شارل الثامن نتيجة اصطدام رأسه لا إرادياً بكناف باب كان يزخرف بالنقوش معتقداً أن بإمكانه المرور دون أن يحني رأسه تحت الصقالة. ادعت كاترين لتموه على مشاريع الأخوين دي غيز أنها عازمة على أن تتمم قصر آمبواز

لحساب التاج، في ذات الوقت الذي ستنتهي فيها قصر شنونصو، لكن ما من أحد خدع بهذه الذريعة، وتوقع البلاط قيام أحداث كبيرة.

بعد أن قضى كريستوف ساعتين في التعرف خلال الظلمة على زنزانته، وجدها مكسوة بنوع من الخشب غير المتقن إنما السميك بحيث يجعل هذا الجحر المربع صحياً وقابلاً للسكن. والباب وهو مماثل لسقف حظيرة خنزير يضطره إلى أن ينحني بكامل ظهره ليدخل منه؛ إلى جانب هذا الباب شبك ثخين من الحديد ينفتح على شبه ممر يعطي شيئاً من النور والهواء. هذا التنظيم للزنزانة مماثل في كل نقطة فيه لآبار البندقية، يشير إلى أن الهندسة المعمارية في قصر بلوا تنتمي إلى هذه المدرسة الفينيسية، التي أعطت في العصر الوسيط العديد من المنشآت لأوروبة. وبسبر هذا البئر، فوق البطانة الخشبية، لاحظ كريستوف أن الجدارين اللذان يفصلانه يميناً وشمالاً عن البئرين المماثلين له هما من الآجر، وبالطرق عليهما ليعرف سماكتهما دهش لسماع طرق من الجهة الأخرى.

سأله جاره متحدثاً إليه من الممر: «من أنت؟»

أجاب: «كريستوف لكاموس».

رد الصوت: «وأنا النقيب شوديو، أخو الوزير، وقد قبض عليّ خلال هذا الليل في بوجنسي، لكن لحسن الحظ ليس لهم علي أي مستمسك.

قال كريستوف: كل شيء قد اكتشف، وهكذا فقد نجوت من القتال. - إننا ثلاثة آلاف رجل الآن في غابات ڤندوموا، وجميع الرجال مهيؤون لاختطاف الملكة الأم والملك خلال الرحلة، ولحسن الحظ فإن لارنودي أكثر مهارة مني، فقد استطاع الهرب إذ أطبق علينا أتباع دي غيز فجأة بعد تركك لنا مباشرة.

- لكنني لا أعرف أبداً لارنودي ...

قاطعه النقيب قائلاً: «باه! إن أخي قد صرح لي بكل شيء».

عند هذه الكلمة جلس كريستوف على مقعده ولم يجب بكلمة على كل ما سأله إياه النقيب المزعوم[1]، ذلك أنه اختبر رجال العدالة بما فيه الكفاية ليعرف مدى الحذر المتوجب الأخذ به في السجون. خلال الليل رأى نور مصباح باهت يلتمع مجدداً في الممر، بعد أن سمع حركة الأقفال الكبيرة لباب الحديد الذي يغلق القبو، وجاء ناظر السجن العام بذاته إلى زنزانة كريستوف؛ هذا الاهتمام الكبير برجل ترك في زنزانته دون طعام بدا غريباً لكريستوف؛ لكن الانتقال الكبير للبلاط حال دون التفكير به. جاء أحد رقباء الناظر فربط يديه بحبل، وقاده بذلك الحبل حتى وصل به إلى إحدى القاعات المنخفضة في قصر لويس الثاني عشر التي تستخدم دون شك كبهو لسكن إحدى الشخصيات. أجلسه الرقيب والناظر العام على مقعد، وربط الرقيب رجليه كرباط يديه، وبإشارة من السيد مونترزور خرج الرقيب.

قال الناظر العام وهو يداعب قلادة الوسام [2] الذي يحمله، إذ أنه كان في بزته الرسمية في مثل هذه الساعة المتقدمة من الليل: «استمع إليّ جيداً يا صديقي».

هذه الملاحظة الصغيرة دفعت ابن الفراء للتفكير جيداً، وكريستوف يعرف جيداً أن الأمر الآن لا يتعلق لا بشنقه، ولا بمحاكمته.

استأنف الناظر العام: «يا صديقي، يمكنك أن تجنب نفسك عذابات قاسية بالتصريح لي عن كل ما تعرفه من اتصالات بين أمير كونده والملكة كاترين، بذلك لن تعرض نفسك لأي مكروه عدا عن أنك ستدخل في خدمة سيدنا القائد العام للمملكة الذي يحب الأشخاص الأذكياء وقد اعطاه تصرفك انطباعاً جيداً عنك. إن الملكة الأم ستعاد إلى فلورنسة والسيد دي كونده سيخضع للمحاكمة دون شك،

---

(١) جاء النقيب لاروش- شانديو متأخراً جداً لدعم المتآمرين، وهاجم آمبواز من باب بوتوم، لكنه تراجع أمام مناورة دي غيز الذي فاجأه من الجانب، لكنه لم يؤسر ولم يسجن، وقد حرص بلزاك على ملاحظة تنبه كريستوف إلى أن مخاطبه سجين مزيف.

(٢) هو وسام سان- ميشيل الذي انشأه لويس الحادي عشر في العام ١٤٦٩.

وهكذا فإن على الصغار أن يرتبطوا بالكبار الحاكمين، قل لي كل شيء وستلقى جزاءً خيراً.

أجاب كريستوف: «للأسف يا سيدي، ليس لدي شيء أقوله، لقد اعترفت بكل ما أعرفه للسيدين دي غيز في جناح الملكة، وجهني شوديو بأن أضع الأوراق تحت أنظار الملكة الأم مقنعاً لي أن في هذا سلام المملكة.

- ألم ترَ أمير كونده البتة؟

فأجاب كريستوف[1]: البتة.

عند ذاك ترك السيد دي مونترزور كريستوف وذهب إلى غرفة مجاورة. ولم يبق كريستوف مدة طويلة وحيداً، فقد فتح الباب الذي أتى منه، ودخل عدة رجال دون أن يغلقوه، مما أتاح له أن أن يسمع في الفناء جلبة لا ترتاح إليها النفس[2]، وهي تعود إلى نقل أخشاب وأجهزة مخصصة بداهة لتعذيب رسول البروتستنت. ووجد فضول كريستوف سريعاً مادة للتفكير في الاستعدادات التي يقوم بها الوافدون الجدد في القاعة وعلى مرأى منه. فقد جاء خادمان فظان وسيئا الهندام يوجههما رجل بدين قصير عليه علائم البأس والقسوة، وألقى منذ دخوله على كريستوف نظرة آكل لحم بشري على ضحيته، فتفحصه، وقيمه، وقدر كخبير في تحمل الأعصاب مدى قوته ومقاومته. كان هذا الرجل جلاد بلوا. وخلال ذهاب ومجيء عديدين، حمل هؤلاء الأشخاص حصيراً، ومطارق خشبية، وأوتاداً،

---

(١) كان هذا هو أول استجواب لكريستوف، وكانت الطريقة المتبعة من قبل العدالة الجنائية تمر بثلاثة مراحل: على كرسي الاتهام، وخلال التعذيب. وعلى الحصير الذي يطرح عليه أخيراً المتهم. لكن كريستوف لم يستجوب على الحصير» إنما سعى الطبيب أيضاً إلى دفعه للاعتراف. بعد انتهاء التعذيب والعناية به وهو على سرير (كماسيلي).

(٢) هنا يبدأ مشهد التعذيب الذي يصفه بلزاك بدقة. لكن «**السيرة الشاملة**» في مقال «كاترين دي مديسي» تذكر فقط: «أن لكاموس أوقف، واستجوب عدة مرات لكن لا الوعود ولا التهديدات جعلته يسمي من أرسله».

كذلك فإن المدون المعاصر للحدث رينيه دي لابلانش، والمؤرخ دي تو لايذكران أنه قد تعرض للتعذيب.

وصفائح، وأشياء لم تبد ذات استعمال واضح أو سوي لهذا الفتى المسكين الذي تتعلق به كل هذه الإستعدادات، والذي جمد الدم في عروقه عقب تخوف مروع لكنه غير محدد، ودخل شخصان في اللحظة التي بدا فيها السيد مونترزور مجدداً، فوجها إليه التحية باحترام وسألهما:

«حسن! هل كل شيء جاهز الآن؟ ثم التفت إلى الرجل البدين الفظ وخادميه وقال:

«هل تعلم أن سيدي الكردينال يثق بكم لهذه المهمة» ثم توجه إلى أحد الرجلين الوافدين مجدداً مخاطباً: «دكتور، هوذا رجلك!» وأشار إلى كريستوف.

ذهب الطبيب مباشرة إلى الأسير فحل يديه من وثاقهما، وقرع على صدره وظهره، واستأنف العلم بجد الامتحان الماكر للجلاد. في هذه الأثناء حمل خادم يرتدي الكسوة المميزة لآل غيز عدة مقاعد ومنضدة، وكل ما يلزم للكتابة.

قال مونترزورموجهاً كلامه للوافد الثاني المرافق للطبيب المرتدي ثياباً سوداء تشير إلى أنه كاتب محكمة[1]: «افتح محضر الجلسة» وأشار إليه ليأخذ مكانه على المنضدة، ثم عاد مجدداً إلى قرب كريستوف وقال بهدوء شديد: «يا صديقي، إن رئيس القضاء قد علم أنك ترفض الإجابة بشكل واف على اسئلتي، فقرر تطبيق الاستجواب العادي وغير العادي عليك».

سأل كاتب المحكمة الطبيب: «أهو بصحة جيدة ويستطيع تحمل الإجراءات؟

أجاب الطبيب وهو واحد من أتباع آل لورين: «نعم».

– حسن، أرجو أن تنتظر في القاعة المجاورة، إذ أننا سنستدعيك كلما رأينا ضرورة لاستشارتك.

---

(١) وجد بلزاك في الكتب القانونية العائدة لذلك العصر ومنها: «**المفصل في القضاء الجنائي** ١٧٧١ لجوس، و**القوانين الجنائية** لميياردي فوغلنس ١٧٨٠ وكذلك في مقال يتحدث عن محضر جلسة تحقيق في القرن الثامن عشر منشور في **المجلة الاستذكارية** بتاريخ ٣١ تشرين أول ١٨٣٥ لكاشرو، تدخل الطبيب وكاتب المحكمة في اجراءات التحقيق.

وخرج الطبيب.

ومرت لحظة الرهبة الأولى، واستعاد كريستوف شجاعته: إن ساعة عذابه قد حلت. ونظر بفضول بارد إلى الترتيبات التي يعدها الجلاد وخادماه، بعد أن أعدا سريراً بسرعة، حضر الخادمان آلتين تسميان سحاقتين، تتألف كل منهما من عدة أخشاب توضع بينها كلٌ من ساقي المتهم اللتين تشدان إلى مراتب صغيرة، وتقرب كل ساق إلى الأخرى بجهاز مشابه للجهاز الذي يستعمله مجلدو الكتب ليشدوا جلدتي الكتاب، وتشدان بحبال مع الأخشاب حولهما. ويمكن لكل واحد أن يتصور التأثير الذي يحدثه دق اسفين بين الجهازين اللذين يضغطان على الساق والمشدودين بالحبال؛ تدخل الأسافين على مستوى الركبتين، وقرب العقبين كما لو أن الأمر يتعلق بشق جذع حطب. وقد اختير هذان المكانان العاريان من اللحم وبالتالي فإن الاسفين يشد بقسوة على العظام مما يجعل هذه العملية مؤلمة إلى حد رهيب. في أحوال القضايا العادية تُدخَل أربعة أسافين، اثنان عند الركب واثنان عند عرقوبي الرجلين لكن في أحوال التعذيب الخارجة عن المألوف يمكن الوصول حتى ثمانية[1]، شرط أن يحكم الأطباءبأن المتهم لم يفقد الوعي. في ذلك العصر كانت السحاقات تطبق أيضاً على اليدين؛ لكن الكردينال والقائد العام للمملكة، ورئيس القضاء أعفوا كريستوف منها لضيق الوقت. وكان محضر الجلسة قد فتح سأل الناظر العام كريستوف، بعد أن أملى على الكاتب بعض عبارات توجيهية وهو يذهب ويجيء «مفكراً؛ عن اسمه وشهرته وعمره ومهنته؛ ثم سأله عن الشخص الذي أعطاه الأوراق ليضعها بين يدي الملكة.

فأجاب كالسابق: «الوزير شوديو»

---

(١) جاء في المجلة الاستذكارية عن «التعذيب بالسماقات» وفقاً لمويار دي فوغلنس: «يُجلس المتهم وتربط يداه، وتوضع من جهتي كل ساق موضوعة عمودياً خشبتين احداهما من الداخل، والثانية من الخارج وتشدان تحت الركبة وفوق العرقوب، ثم تشد الرجلان بحبال تثبت في ذات الأمكنة. ثم تضرب أسافين من الخشب بين لوحي الخشب وسط الركبتين وبين العرقوبين». تضرب أربعة أسافين في الأحوال العادية، وثمانية في الأحوال غير العادية.

- وأين سلمت إياها؟

- في منزلي في باريس.

- لاشك في أنه قال لك عند اعطائك إياها أن الملكة ستستقبلك بترحابٍ.

أجاب كريستوف: «لم يقل لي شيئاً مماثلاً، إنما طلب أن أسلمها للملكة كاترين سراً».

- إذا فقد كنت ترى دائماً شوديو حتى عرف موعد رحلتك.

- لم يكن الوزير يعرفني إلا عند حملي الفراء للملكتين، وقد جئت لقبض المبلغ المترتب لوالدي لدى الملكة الأم، ولم يتوفر لدي الوقت لأسأله عمن أخبره عن سفري.

- لكن هذه الأوراق التي أعطيت إليك دون تغليف أو خَتْم، تحوي مشروع معاهدة بين المتمردين والملكة كاترين، وقد وجب أن تدرك أنها تعرّضك لتلقي العقاب الذي يترتب على الأشخاص الذين يشاركون في عصيان.

- نعم.

- وجب أن يكون الأشخاص الذين أقنعوك بهذا العمل المنطوي على خيانة عظمى قد وعدوك بالمكافآت وبحماية الملكة الأم.

- فعلت ذلك تعلقاً بشوديو، وهو الشخص الوحيد الذي رأيته.

- أتصر إذاً على أنك لم تر أمير كونده؟

- نعم.

- ألم يقل لك أمير كونده إن الملكة الأم مستعدة لأن تأخذ بوجهة نظره ضد السيدين دي غيز.

- لم أره.

- خذ حذرك، فإن أحد المتواطئين معك وهو لارنودي قد أوقف، وهو على قوته، لم يستطع الصمود أمام العذاب الذي ينتظرك، وانتهى إلى الاعتراف بأنه قابلك مع أمير كونده.

إن أردت أن توفر على نفسك الاستجواب بالتعذيب، فأنا أنصحك بأن تقول الحقيقة بكل بساطة، وقد تحصل بذلك على العفو عنك.

أجاب كريستوف: إنه لا يستطيع أن يؤكد مالا علم له به أبداً، ولا أن يعطي لنفسه شركاء ليس لهم وجود أبداً. عند سماع هذه الكلمات أعطى الناظر العام إشارة إلى الجلاد، ودخل إلى القاعة المجاورة.

عند هذه الإشارة تغضن جبين كريستوف، وعقد حاجبيه بتشنج عصبي وهو يتهيأ لتحمل العذاب. فانكمشت قبضتا يديه بتقلص عنيف حتى أن أظافره انغرزت في راحتيه دون أن يشعر.

قبض عليه الرجال الثلاثة فوضعوه على سرير المعسكر وربطوه إليه، ورجلاه متدليتان، ووضع كل مساعد رجله في سحاقة ثم شدت الحبال عليهما بمدورة دون أن يؤلم الضغط البروتستنتي، وعندما أمسكت كل ساق كأنها بملزمة، اخذ الجلاد مطرقته الخشبية وأسافينه ونظر مرة إلى المتهم وأخرى إلى الكاتب.

سأل الكاتب: أأنت مصرٌّ على الإنكار

أجاب كريستوف: لقد قلت الحقيقة.

قال الكاتب وهو يغلق عينيه: «إذا هيا!».

شدت الحبال بقوة شديدة، وربما كانت هذه الفترة هي الأشد إيلاماً، فالعضلات تنضغط بشدة، والدم يتدفق نحو الجذع. وهكذا لم يستطع الشاب المسكين أن يمتنع عن إطلاق صرخات مروعة، فبدا وكأنه على وشك الإغماء؛ ونودي على الطبيب فجس نبضه وطلب من الجلاد أن ينتظر ربع ساعة قبل أن يغرز الأسافين، ليتيح للدم أن يهدأ، وليستعيد المعذب وعيه كلياً وعرض الكاتب على كريستوف بشكل إنساني ان يعترف إن لم يكن قادراً على تحمل بداية الآلام التي لن يستطيع إيقافها. لكن كريستوف لم يجب إلا بهذه الكلمات: «خيّاط الملك! خياط الملك!»

سأله الكاتب: «ماذا تعني بهذه العبارة؟»

قال كريستوف بهدوء ليكسب الوقت ويستريح: «برؤية العذاب الذي يجب أن أتحمله، استدعي كل قوتي، وأسعى لزيادتها وأنا أفكر بالشهيد الذي تجلّد في سبيل قضية الاصلاح المقدسة، خياط المرحوم الملك الذي تم استجوابه تحت التعذيب بوجود السيدة الدوقة دي فالنتنيوا والملك، وأنا أجرب أن أكون جديراً به».

بينما كان الطبيب يحض الشاب التعس على ألا يتيح المجال لاستخدام الوسائل غير العادية لاستجوابه ظهر الكردينال والدوق المتلهفان لمعرفة نتائج هذا الاستجواب وطلبا من كريستوف أن ينطق بالحقيقة سريعاً[1]، وكرر ابن الفراء اعترافاته الوحيدة التي سمح لنفسه بالتصريح بها، والتي لا تدين إلا شوديو. وأعطى الأميران إشارة، أمسك عندها الجلاد ومساعده الأول مطرقتيهما، وأخذ كل منهما إسفيناً فغرزا أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار بين الجهازين.

كان الجلاد عند مستوى الركبتين، ومساعده مقابل القدمين عند العرقوب، وكانت عيون شهود ذلك المشهد الرهيب معلقة بعيني كريستوف، الذي استثاره وجود هاتين الشخصيتين الكبيرتين فرماهما بنظرات بلغت من حدتها أنها ظهرت ببريق اللهب؛ وعند الإسفينين الثانيين أفلتت منه تنهدة رهيبة، وصمت، لكن نظرته تقلّصت بشخوص عنيف وألقى على النبيلين اللذين يتأملانه سيّالة بلغ من نفاذها أن الدوق والكردينال اضطرا أن يخفضا بصريهما، كما فعل «فيليب لي بل» عندما تم استجواب فرسان المعبد تحت تعذيب الرقاص. تلك الطريقة في التعذيب تقوم على تعريض صدر المتهم لضربة أحد فرعي الرقاص المستعمل لصك النقود الذي يجهز به صادم من جلد. كان هناك أحد الفرسان الذي ثبّت نظره بعنف على عيني الملك، حتى سحره، فلم يستطع أن يزيح نظره عن عيني الفارس، وعند

---

(١) يذكر رينيه دي لابلانش في كتابه «تاريخ دولة فرنسة تحت حكم فرنسوا الثاني ١٨٣٦» ودي تو في «التاريخ العام» أن لكاموس قد استجوب من قبل اللورينيين وأن الكردينال سأله عما يعرفه من دور أمير كونده.

ضربة قضيب الرقاص الثالثة خرج الملك بعد أن سمع استدعاءه خلال السنة نفسها أمام محكمة الله التي مثل أمامها[1]. عند الإسفين الخامس وهو الأول في استجواب التعذيب غير العادي»، قال كريستوف للكردينال: «يا صاحب الغبطة، اختصر تعذيبي، فإنه غير مفيد».

دخل الكردينال والدوق إلى القاعة، وسمع كريستوف عند ذاك هذه الكلمات تنطق بها الملكة كاترين: «فليعذب دائماً، فهو بعد كل حساب ليس إلا واحداً من الهراطقة[2]» لقد ارتأت، زيادة في الحرص، أن تبدو أكثر قسوة من الجلادين على شريكها المتواطىء.

غُرزَ الاسفين السادس والسابع دون أن تبدر شكوى من كريستوف: كان وجهه يبرق ببهاء خارج عن المألوف، ناتج دون شك عن فرط قوة منحه إياها تعصبه الديني المستثار.

أين يمكن التفتيش خارج نطاق العاطفة عن نقطة استناد ضرورية للصمود وتحمل مثل هذه العذابات؟ أخيراً بدأ كريستوف يبتسم في اللحظة التي تناول فيها الجلاد إسفينه الثامن.

كان هذا العذاب الرهيب مستمراً منذ ساعة من الزمن.

ذهب الكاتب يستدعي الطبيب ليعرف إن كان بالامكان أن يُغْرَزَ الإسفين

---

(١) فيليب لي بل (١٢٦٨- ١٣١٤) ملك فرنسة، رغب في مصادرة أموال وأملاك فرسان المعبد فقام باضطهادهم في العام ١٣١٣ وكان المعلم الأكبر لرهبان فرسان المعبد، جاك دي مولاي قبل أن يموت على المحرقة قد تنبأ لفيليب لي بل أن «يظهر أمام محكمة الديان الأعظم خلال السنة» وقد أمكن لبلزاك أن يطلع على هذه الحكاية في مراجع عديدة: في تاريخ الرهبانية العسكرية لفرسان المعبد لدبوي المطبوع في بروكسل (١٧٥١)، وفي مأساة رينوار: «فرسان المعبد»، وكذلك في تاريخ فرنسة لمزراي (باريس ١٨٢٣). لكننا لا نعلم من أين استقى معلوماته عن التعذيب بالرقاص، فلا سوفال في فصل «التعذيبات» من (العصور القديمة) ولا مارسوليه في (تاريخ التحقيقات الجنائية- كولوني ١٧٩٥) يذكران عنه شيئاً.

(٢) وجود كاترين ابتكار روائي رئيس عقب التصرف والصورة التي أعطاهما بلزاك عنها. والقارىء يرى في ذلك مكيافليتها، أما كريستوف فيعتبر ذلك سبباً لتوقع المكافأة منها.

الثامن دون تعريض حياة المتهم للخطر؛ وخلال ذلك الوقت عاد الدوق لرؤية كريستوف ومال على أذنه هامساً: «أيها الأحمر كبطن ظبية! إنك صاحب أنوف، وأنا أحب الشجعان[1]، ادخل في خدمتي، وستغدو سعيداً وغنياً، فحظواتي تضمد أعضاءك المتألمة، ولن أفرض عليك مواقف خزي مثل التجسس على حزبك ونقل مشاريعه الينا: فهناك دائماً خونة آخرون يفعلون ذلك، والبرهان في سجون بلوا؛ لكن قل لي فقط ما هو مدى العلاقة بين امير كوندة والملكة الأم»

هتف لكاموس: «لا أعلم شيئاً يا سيدي»

جاء الطبيب وفحص الضحية وقال إن بإمكانه أن يتحمل غرز الإسفين الثامن.

قال الكردينال: «اغرزوه، بعد كل حساب، وكما قالت الملكة، ليس هو إلا هرطوقاً» وتطلع إلى كريستوف وهو يرميه بابتسامة مرعبة.

خرجت كاترين بخطوات بطيئة من الصالة المجاورة، ووقفت أمام كريستوف وتأملته ببرود، وكانت آنذاك محط انتباه الأخوين اللذين راحا يرقبان على التناوب كاترين وشريكها المتواطىء: على هذا الاختبار الرسمي يتعلق كل مستقبل هذه المرأة الطموح؛ كانت تحسُّ بإعجاب شديد لشجاعة كريستوف وتنظر إليه بقسوة، وكانت تكره الأخوين دي غيز وتبسم لهما. قالت: «إيه! أيها الشاب، اعترف بأنك رأيت أمير كونده وستكافأ بسخاء.

هتف كريستوف وهو يرثي لها: «آه! أية دسيسة تقومين بها، يا سيدتي؟»

ارتعشت الملكة وقالت للأخوين اللذين بقيا غارقين في التفكير: «إنه يشتمني، ألا تشنقانه؟»

هتف المعلم الأكبر وهو قرب النافذة يستشير أخاه بالنظرة: «أية امرأة هذه!»

---

(١) في «السيرة الشاملة» وفي فصل «كاترين دي مديسي» ذكر أن الأخوين دي غيز قد ألزمتهما شجاعة هذا الشاب على إظهار اعجابهما به.

فكرت الملكة في نفسها قائلة: «سأبقى في فرنسة وسأنتقم منهما» ثم التفتت إلى مونترزور وقالت له: «هيّا فليعترف أو فليمت!».

حوّل الناظر العام عينيه، وكان الجلادان مشغولين، فاستطاعت كاترين عند ذلك أن تلقي على هذا الشهيد المعذب نظرة لم يشاهدها انسان، نزلت على كريستوف كبرد الندى. بدت له عينا تلك الملكة الكبيرة مخضلتين بالدمع، والواقع أن دمعتين تدحرجتا منهما وجفتا سريعاً. وغرز الإسفين الثامن وتحطمت إحدى الأخشاب المجاورة له، وأطلق كريستوف من صدره صرخة رهيبة، صمت من بعدها وبدا وجهه مشرقاً: اعتقد أنه يموت.

هتف الكردينال مكرراً الكلمة الأخيرة للملكة بشيء من السخرية: «فليمت!» لكنه عاد وقال للناظر العام: «كلا! يجب ألا نقطع هذا الخيط ابداً».

راح الكردينال والدوق يتشاوران عند ذاك بصوت منخفض، وسأل الجلاد: «ماذا نفعل؟»

قال الدوق: «أرسلوه إلى سجون أورليان[1]» ثم التفت إلى السيد مونترزور وقال له: «لكن احرصو على ألاّ تشنقوه دون أمر مني».

بلغت الرقة المتناهية التي وصلت إليها حساسية الحواس الداخلية المثارة بالمقاومة التي تطلبت استعمال جميع القوى البشرية درجة واحدة في جميع أحاسيس كريستوف، فسمع وحده الكلمات التالية التي همس بها الدوق دي غيز في أذن الكردينال: «لن أتراجع أبداً عن معرفة الحقيقة من هذا الشاب الصغير!».

عندما غادر الأميران القاعة حل الجلادون وثاق رجلي ضحيتهم دون أي

---

(١) يحضر بلزاك هنا المرحلة الاورليانية من روايته، فيزخرف أو يعدل في مراجعه، فمقال «السيرة الشاملة لا يعطي اسم المكان على وجه الدقة، ووفقاً لرينيه دي لابلاش، فإن لكاموس الذي رأى الأم في دير بوليو، سجن في المدينة المجاورة «لوش ثم في رمورانتين.

لكن بلزاك الذي أراد أن يربط المغامرة بقلاقل آمبواز وبنتائجها، أراد أن يجمع كل شخصياته في مدينة أورليان، حيث أوقف أمير كونده وحوكم، وحيث توفي الملك في الوقت المناسب لإمكان انقاذه.

حذر، وقال الجلاد لمساعديه: «هل رأيتم مجرماً بهذه القوة؟ لقد تحمل هذا الانسان الغريب الإسفين الثامن، كان يجب أن يموت، لقد خسرتُ قيمة أسلابه[1]».

قال كريستوف المسكين: «أرجو عدم زيادة آلامي وأنتم تنزعون هذه الأثقال، وسأتمكن يوماً من مكافأتكم!».

هتف الطبيب: «هيا، فليكن في قلوبكم رحمة، إن سيدي الدوق قد أعجب بهذا الشاب فأوصاني به»

قال الجلاد بفظاظة: «إنني ذاهب إلى آمبواز مع مساعدي، فاعتنِ به بنفسك، زد علي أن السجان قد حضر» ذهب الجلاد تاركاً كريستوف بين يدي الطبيب المتكلّف اللطف، الذي حمل بمساعدة حارس كريستوف الجديد إلى سرير، وجاء بحساء، فأطعمه إياه، وجلس إلى جانبه، وجس نبضه، وحرص على مواساته. قال له: «لن تموت، وستشعر بعذوبة داخلية لقناعتك بأنك قمت بواجبك». ثم أضاف بصوت منخفض: «إن الملكة قد كلفتني بالسهر عليك».

قال كريستوف الذي نمّت فيه العذابات المتناهية صفاء ذهن رائع، لم يرد بنتيجته بعد تحمل كل هذه الآلام أن يعرض للشبهة نتائج تضحيته: «إن الملكة مثال الطيبة، لكن كان بإمكانها أن تجنّبني مثل هذه الآلام الكبيرة بعدم تسليمي إلى مضطهدي، وبأن تقول لهم بنفسها الأسرار التي أجهلها».

عند سماع هذا الجواب، تناول الطبيب قلنسوته، ومعطفه، وترك كريستوف مقدراً أنه لن يستطيع استخلاص شيء من رجل هذا معدنه. وقام سجان بلوا بحمل الشاب بواسطة أربعة رجال على نقالة أوصلوه عليها إلى سجن المدينة حيث راح كريستوف في نوم عميق، يقال إن جميع الأمهات يستغرقن فيه بعد آلام الولادة الرهيبة.

عند نقل البلاط الملكي إلى قصر آمبواز، لم يكن الاميران اللورنيان يأملان رؤية زعيم حزب الإصلاح الديني فيه، الأمير دي كونده وقد طلبا من الملك توجيه

---

(١) كان يحق للجلاد أن يحصل على أسلاب الشخص الذي يسبب موته.

دعوة إليه لينصبا له شركاً. فبوصفه أميراً من السلالة الملكية، وصاحب إقطاعية ملكية أنعم عليه التاج بها، على أمير كونده إطاعة أمر الملك، فعدم مجيئه إلى آمبواز يشكل جريمة معصية، لكنه بمجيئه إليها، يضع نفسه تحت تصرف السلطة الملكية، والحال أن التاج، والمجلس، والبلاط وجميع السلطات في تلك الفترة كانت مجمعة بين يدي الدوق دي غيز والكردينال دي لورين. وقد برهن أمير كونده في تلك الظروف الحساسة عن عزيمة ومكر، جعلا منه النظير الكفء لجان دالبير، والقائد الباسل للبروتستنت؛ فرأى أن يسافر في مؤخرة متآمري ڤندوم، ليدعمهم في حال النجاح؛ وعندما انتهت هذه المجابهة الأولى بالصدام القصير الذي هلكت فيه زهرة شباب النبالة المضللة من قبل كالفن؛ وصل الأمير، يتبعه خمسون نبيلاً إلى قصر آمبواز، في اليوم التالي لتلك القضية التي أطلقت عليها سياسة آل لورين الماكرة اسم بلبلة آمبواز.

ما ان علم اللورنييان بوصول الأمير حتى، أرسلا لملاقاته المارشال سان-آندره وبرفقته مئة رجل؛ وعندما وصل البيارني[1] وحاشيته إلى باب القصر، منع المارشال مرافقي الأمير من الدخول؛ وقال أوليفيه رئيس القضاء، والكردينال دي تورنون وبيراغ الذين لاقوا الأمير إلى خارج باب الحصن: «عليك الدخول وحيداً، يا صاحب السمو».

- ولماذا؟.

رد رئيس القضاء: «لأنك متهم بالعصيان.

أجاب الأمير عندما رأى أن دوق دي نمور قد أحاط بأتباعه: «إن كان الأمر كذلك، فسأدخل وحيداً لأبرهن لابن عمي على براءتي»

---

(١) بيارني: من هو من مقاطعة بيارن في البيرينه السفلى، وكانت «فيكونتية مستقلة عاصمتها بو حتى العام ١٦٢٠

وترجّل وتحدث بصراحة تامة وحضور ذهن مع بيراغ، والكردينال دي تورنون، ورئيس القضاء أوليفيه، والدوق دي نمور، وسألهم عن تفاصيل البلبلة.

قال الدوق دي نمور[1]: «يا صاحب السمو، إن للمتمردين أعواناً في آمبواز، فالنقيب لانو أدخل رجالاً مسلحين فتحوا لهم هذا الباب الذي سيطروا عليه ودخلوا المدينة.

قال الأمير وهو ينظر إلي بيراغ: «أي أنكم فتحتم لهم كيساً!»

أجاب الدوق دي غور: «لو أنهم أنجدوا بهجمة النقيب شوديو شقيق مرشد باريس البروتستنتي في الوقت المناسب على باب بونزوم لنجحوا، لكن الوضعية التي اتخذتها[2] بناءً على خطة الدوق دي غيز، أجبرت النقيب شوديو على أن يدور ليتجنب مواجهتي، وبدلاً من أن يصل خلال الليل كالبقية، فإن هذا المتمرد لم يصل إلا صباحاً، وبعد أن كانت قوات الملك قد سحقت المتمردين الذين دخلوا المدينة.

- وكان لديكم قوات احتياطية لتحرس الباب الذي سلّم لهم.

- كان المارشال دي سان- آندره واقفاً عليه مع خمسمئة رجل مسلح.

عبر الأمير عن مزيد من الثناء لهذه الترتيبات العسكرية وأنهى الحديث بالقول: «لإمكان التصرف على هذا المنوال، لابد أن يكون القائد العام للمملكة مطلعاً على أسرار البروتستنتيين، ولاشك في أن هناك من نكث بعهد هؤلاء الناس وخانهم».

تعرض الأمير بعد دخوله القصر لتقييد بعد تقييد، إذ بعد فصله عن رجاله على المدخل أراد التوجهُّ إلى المقر الملكي مباشرة لكن عند وصوله إلى سلّمه اعترضه

---

(١) هو الابن البكر للدوق دي غيز، وقد خلفه بلقب بلافره ايضاً

(٢) جميع الروايات ذكرت دور الدوق دي غمور الحاسم في هزيمة المتمردين، وبالمقابل، فإن لاموت، وليس لانو هو الذي فتح لهم باب الدخول.

رئيس القضاء والكردينال دي تورنون وقالا له: «إننا مكلفان، يا صاحب السمو، بمرافقتك إلى جناحك الخاص.

- هل يعني هذا أنني سجين؟

رد رئيس القضاء: «لو أن هذه هي رغبة الملك، لما كان مرافقاك أحد وجهاء الكنيسة ورئيس القضاء».

أوصل هذان المرافقان الأمير إلى جناح استقبلته على بابه ثلة من الحرس، قيل إنها لتحيته وتقديم واجب الاحترام لمقامه؛ وبقي ساعات لم ير فيها انسانا؛ وراح يتطلع من نافذته إلى اللوار وإلى الأرياف التي تشكل من آمبواز حتى تور حوضاً فائق الجمال، وكان يفكر في وضعه وفيما يمكن أن يتجرأ اللورنيبان على اتخاذه ضد شخصه، عندما سمع باب الغرفة يفتح ورأى شيكو مهرج الملك، وقد كان من اتباعه، يدخل عليه.

قال له الأمير: يقال عنك إنك فقدت حظوتك».

- لايمكن أن تقدر كم أصبح البلاط بعد موت الملك هنري الثاني عاقلاً ورضيا.

- مع أن على الملك أن يحب الضحك.

- أيُّهما؟ فرنسوا الثاني أو فرنسوا دي لورين؟

- أنت لا تخشى الدوق اذاً، مادمت تنطق بهذا الكلام؟

أجاب شيكو باسماً: إنه لن يعاقبني أبداً على هذا، يا صاحب السمو.

- وما سبب تشريفك لي بزيارتك

- إيه! أليس من حقك ذلك بعد وصولك؟ إنني أحمل لك صولجاني وقلنسوتي

---

(١) في الفصل الثالث من مسرحية جرمو: حوار الأمير مع شيكو، لكن بلزاك يكتفي باختصاره، -والواقع أن شيكو لم يشتهر كمهرج للملك إلا في عهدي هنري الثالث وهنري الرابع.

- ألا يمكنني الخروج إذاً؟

- جرب.

- وإذا خرجت؟

- سأقول إنك ربحت مع أنك لعبت ضد القاعدة.

- شيكو، إنك تخيفني... هل أنت مرسل من أحد تهمه مصلحتي؟.

هز شيكو برأسه علامة الإيجاب، ثم اقترب من الأمير ليفهمه بأنه مراقب بالسمع والبصر

سأله أمير كونده: «ماذا عليك أن تقول لي؟»

همس المهرج في إذن الأمير: إن الجرأة وحدها يمكنها أن تنقذك من هذه الورطة، هذا ما تريد الملكة الأم أن يصلك».

أجاب الأمير: «قل لمن أرسلوك، إنني لم أكن لآتي إلى هذا القصر إن كان هناك شيء ألام عليه أو أخشاه»

هتف المهرج: سأهرع مكرراً هذا الجواب الجرىء.

بعد ذلك بساعتين، وحوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، وقبل غداء الملك، حضر رئيس القضاء والكردينال دي تورنون لمرافقة الأمير لمقابلة الملك فرنسوا الثاني في القاعة الكبرى التي عقد فيها مجلساً استشارياً. وهناك أمام كل البلاط فوجىء أمير كونده بالبرود الذي قابله به الملك الشاب، فسأله عن السبب.

قالت الملكة الأم بقسوة: «أنت متهم، يا ابن العم، بأنك مشارك في مؤامرة البروتستنت، ويجب أن تبرهن على أنك عنصر مخلص وكاثوليكي مؤمن، إن كنت تريد تجنيب آل بيتك غضب الملك»

عند سماع هذه الكلمات التي قيلت وسط صمت عميق من قبل كاترين التي تتأبط ذراع الملك ابنها وإلى يسارها دوق أورليان؛ تراجع الأمير ثلاث خطوات

وبحركة ملؤها الاعتزاز وضع يده على مقبض سيفه ونظر إلي جميع الشخصيات التي تحيط به وهتف بصوت متهدج:

«إن من يقولون ذلك يكذبون من حلوقهم»

ثم رمى قفازه أمام قدمي الملك قائلاً: «من يؤيد هذه الفرية فليتقدم»

ارتعش البلاط بكامله وهو يشاهد الدوق دي غيز يغادر مكانه، ولكن بدلاً من أن يلتقط القفاز كما كان يظنُّ، توجه نحو الأحدب المقدام قائلاً: «إن كنت تحتاج إلي معاون لك، يا أمير فأرجو أن تشرفني بقبول معاونتي؛ إنني أجيب عنك وستبرهن للبروتستنت كم هم منخدعون إن أرادوا اتخاذك زعيماً لهم[1].

اضطر الأمير أن يمد يده للقائد العام للمملكة مصافحاً، والتقط شيكو القفاز ورده إلى السيد كونده.

قال الملك الشاب: «يا ابن عمي، عليك ألا تمتشق حسامك إلا للدفاع عن التاج، هيا معنا إلى الغداء».

فوجيء الكردينال دي لورين من حركة أخيه، وصحبه إلى جناحه، وخرج أمير كونده من أشد الأخطار المحدقة به، وقدم ذراعه للملكة ماري ستيوارت للانتقال إلى قاعة الطعام وراح يبدي مزيداً من الإطراء لها بينما كان تفكيره منصرفاً إلى تخمين أي فخ تُعدُّ له في هذه الفترة سياسة بُلافره، وقدح ذهنه ملياً دون أن يتوصل إلى تقدير خطته إلى أن كشفتها له الملكة ماري.

قالت له باسمة: كانت خسارة كبرى لو شوهد هذا الرأس الألمعي يتدحرج، واعترفْ أن خالي كان شهماً.

- نعم يا سيدتي، لأن رأسي لا يستقيم جيداً إلا بين كتفي، خاصة وأن أحدهما يبدو بشكل محسوس أكبر من الآخر، لكن أهي شهامة من خالك؟ ألم

---

(١) مشهد تحدي امير كونده والحل غير المتوقع له شهيران، وقد تطرق إليه جرمو في مسرحيته بشكل غير مباشر، لكن بلزاك يستعين هنا بالسيرة الشاملة- فصل فرنسوا الثاني- التي تتحدث عنه بالتفصيل.

يحقق ما يفتخر به دون كلفة؟ أتعتقدين أن من السهل مجابهة أمير نقي السلالة؟

أجابت: لم ينته شيء، سنرى سلوكك عند تنفيذ حكم الموت بالنبلاء أصدقائك، بعد أن قرر المجلس أن يتم ذلك في تظاهرة كبرى.

قال الأمير: سأفعل ما يفعله الملك.

- الملك والملكة الأم، وأنا خصوصاً، سنشهد ذلك مع البلاط بكامله ومع السفراء...

قال الأمير بسخرية: أهو احتفال؟... أجابت الملكة الشابة: بل أفضل من ذلك: إنّه تظاهرة إيمان وتنفيذ سياسة عليا، يجب إخضاع نبلاء فرنسة للعرش، وجعلهم يتخلون عن مؤامراتهم ودسائسهم...

لكنك لن تنزعي منهم أبداً مزاجهم العدواني بمواجهتهم بهذه الأخطار يا سيدتي وأنت تجازفين بهذه اللعبة بالتاج بالذات.

عند نهاية هذا الغداء، وقد كان بشيء من الاحتفالية، بلغت الوقاحة المحزنة بالملكة ماري أن توجه المحادثة علناً حول القضية التي كانت تنظر في ذلك الحين لمحاكمة النبلاء الذين ألقي القبض عليهم والسلاح بيدهم وأن تتكلم عن ضرورة اعدامهم في تظاهرة كبرى[1].

قال الملك فرنسوا الثاني: سيدتي، ألا يكفي أن يعرف ملك فرنسة أن دم هذا العدد من النبلاء الشجعان قد أهرق. هل يجب أن بجعل من ذلك احتفال نصر؟.

أجابت كاترين: كلا يا صاحب الجلالة، وإنما عبرة.

قالت ماري ستيوارت: «إن جدك وأباك تعودا حضور حرق الهراطقة»

أجاب الملك: إن الملوك الذين حكموا قبلي تصرفوا على هواهم، وأنا أفعل ما يروق لي.

---

(١) هذه المحادثة ذكرت في مسرحية جرمو إنما بين الملك والملكة منفردين.

ردت كاترين: «إن فيليب الثاني، وهو بالتأكيد عاهل عظيم، عمد مؤخراً، وكان في هولندا، إلى تأخير مثل تظاهرة الايمان هذه إلى أن عاد إلى فالادوليد.

قال الملك لأمير كونده: «ما رأيك يا ابن عمي؟».

- لايمكنك أن تعفي نفسك من ذلك يا صاحب الجلالة فيجب أن يحضر ممثل البابا، وكذلك السفراء، وسأذهب أنا عن طيبة خاطر مادامت السيدات يعتبرن المناسبة عيداً...

وهكذا فإن أمير كونده بنظرة من كاترين دي مديسي تبنى رأيها.

بينما كان أمير كونده يدخل قصر امبواز كان فرّاء الملكتين يصل إليه أيضاً من باريس مدفوعاً بالقلق الذي أحدثته قلاقل امبواز في وسط عائلته وعائلة لاليه. وعندما قدم نفسه على باب القصر، قال له النقيب عند سماعه كلمة فرّاء الملكة: «ايها الرجل الطيب، إن كنت تريد أن تشنق فما عليك إلا أن تضع قدمك في البلاط» عند سماع هذه الكلمات، جلس الأب قانطاً على حاجز، على بعد عدة خطوات، ينتظر مرور أحد خدم الملكتين أو امرأة ما يمكن أن يحصل منهما علي معلومات عن ولده؛ لكنه بقي طيلة النهار دون أن يشاهد أحداً من معارفه، واضطر لأن ينزل إلى المدينة حيث آوى، بعد مشقة، في فندق يطلّ على الساحة التي ستنفذ فيها أحكام الإعدام، واضطر لأن يدفع ليرة في اليوم ليحصل على غرفة تطل نافذتها على الساحة. وفي اليوم التالي ملك الجرأة على مشاهدة تنفيذ الإعدام بمثيري الفتنة من الأشخاص القليلي الأهمية وشاهدهم من نافذته يعذبون على الدولاب أو يشنقون. وكان رئيس أخوية الفرائين سعيداً جداً لأنه لم ير ولده بين المحكومين، وبعد انتهاء تنفيذ الأحكام ذهب ليعترض طريق كاتب المحكمة أثناء مروره، وبعد أن قدم نفسه، وضع كيساً مليئاً بالإكوات في يد الكاتب؛ ورجاه أن يتأكد فيما إذا كان اسم كريستوف لكاموس قد ورد في تنفيذات أحكام الإعدام الثلاثة الماضية. تأثر الكاتب بطريقة هذا الأب القانط ولهجة صوته، فأخذه

معه إلى بيته، وبعد تدقيق دؤوب أكّد للعجوز أن اسم كريستوف لم يكن موجوداً بين من أعدموا سابقاً، ولا بين من سيعدمون في الأيام القادمة.

قال الكاتب للنقيب: «ياعزيزي المعلم، إن البرلمان مكلّف بقضية النبلاء المتورطين في المؤامرة، وبزعمائها الرئيسين، وهكذا فقد يكون ولدك محتجزاً في سجون القصر وواحداً ممن ستنفذ بهم تظاهرة إعدام احتفالية يعدّها سيّدانا الدوق دي غيز والكردينال دي لورين. من المتوقع قطع رؤوس سبعة وعشرين بارونا، وأحد عشر كونتاً، وسبعة مراكيز، إضافة إلى بعض رؤساء التمرّد مما يشكل في مجموعه خمسين نبيلاً وزعيماً بروتستنتياً؛ وبما أن دائرة عدل تورين لا علاقة لها ببرلمان باريس، وتريد أن تحصل على أخبار ولدك اذهب إلى رئيس القضاء أوليفيه فهو الذي يتولّى هذه القضية بناء على تكليف القائد العام للمملكة.

ذهب العجوز المسكين ثلاث مرات إلى رئيس القضاء ووقف بالدور برفقة عدد كبير من الأشخاص الذين يلتمسون أخباراً عن ذويهم، ولما كان الأشخاص أصحاب الألقاب النبيلة لهم الأسبقية على البورجوازيين فقد اضطر إلى الكفّ عن محاولة مقابلة رئيس القضاء، الذي رآه عدة مرات يخرج من منزله ليلتحق إما بالقصر، وإما باللجنة المسماة من قبل البرلمان، ووسط حشد من الملتمسين الذين يبعدهم الحرّاس ليفسحو له طريقاً. كان منظر قنوط مروّع، إذ كان بين الملتمسين نساء، أو فتيات، أو أمّهات؛ عائلات بكاملها تبكي. بذّر العجوز لكاموس كثيراً من الذهب على خدم القصر وهو يرجوهم أن يوصلوا الرسائل التي يكتبها إما لدايبل وصيفة الملكة ماري، وإما لوصيفة الملكة الأم، لكن الخدم كانوا يأخذون إكوات الرجل الطيب ويسلّمون الرسائل بناءً على أمر الكردينال إلى ناظر السجن العام في البلاط. بإبداء هذه القسوة الخارقة، كان يمكن للأميرين اللورينيين أن يخشيا الإنتقام، غير أنهما لم يتخذا أيّة احتياطات إلا خلال إقامة البلاط في آمبواز. بحيث لم يتمكن عامل الإفساد الأشد قدرة وهو المال، ولا المساعي الأكثر نشاطاً، أن تعطي نقيب الفرائين أي ضوء حول مصير ولده. كان يتجول ضمن تلك

المدينة الصغيرة. بسحنة قاتمة، يتأمل الاستعدادات الكبيرة التي يعدّها الكردينال من أجل المشهد الرهيب المتوجب على أمير كونده حضوره، وقد استثير الفضول العام من باريس حتى نانت بالوسائل المستخدمة في تلك الأيام، فأعلن عن موعد تنفيذ الإعدام على المنابر، من قبل جميع المبشرين والكهنة، في ذات الوقت الذي أعلن فيه انتصار الملك على الهراطقة. وأقيمت ثلاث منصات أنيقة بدت الوسطى فيها أكثر فخامة من الإثنتين الباقيتين على مصطبة قصر آمبواز حيث سيتم تنفيذ الأحكام عند قاعدتها، ونصبت حول تلك الساحة مدرّجات من خشب جذبت جماهير هائلة اندفعت بالشهرة التي أثيرت حول تظاهرة الإيمان إذ تجمع حوالي عشرة آلاف شخص في الميادين المجاورة منذ عشية ذلك اليوم الذي سيتمّ فيه ذلك المشهد الرهيب، وامتلأت السطوح بالناس، وأُجِّرت النوافذ بعشر ليرات للنافذة وهو مبلغ كبير في ذلك الزمن كان والد كريستوف المسكين، وكما هو متوقّع، قد حجز واحداً من أفضل الأمكنة ليتمكن من مشاهدة المسرح الذي سيهلك عليه هذا العدد من النبلاء والذي أقيمت في وسطه منصة إعدام واسعة مغطاة بقماش أسود، وحُمِل إليها صباح ذلك اليوم المشؤوم أرومة عريضة، على المحكوم أن يضع رأسه فوقها وهو جاث على ركبتيه. كما وضع مقعد ذو مسندين لكاتب البرلمان المكلّف بمناداة النبلاء المحكومين مع ذكر نصّ الحكم المدان به. كان هذا المكان قد حرس منذ الصباح من قبل الفرقة الإسكتلندية ودرك بيت الملك لمنع الجماهير من الاحتشاد فيه قبل بدء تنفيذ الأحكام.

بعد قداس احتفالي أقيم في القصر، وفي كنائس المدينة، اقتيد النبلاء وهم آخر من بقي من المتامرين، وكان بعضهم قد تعرّض للتعذيب، وجمعوا عند قاعدة منصة الإعدام، يحيط بهم رهبان يجربون ثنيهم عن مذهب كالفن، لكن مامن أحد منهم كان يصغي لصوت هؤلاء الأشخاص الذين أطلقهم الكردينال دي لورين، والذين خشي النبلاء أن يكون بينهم جواسيس للوريني. ولكي يتخلصوا من مضايقات خصومهم راحوا ينشدون مزموراً وضعه بأبيات شعر فرنسية كلمنت

ماروت[1]. وكان كالفن، كما هو معروف قد أفتى بالصلاة والتضرّع إلى الله باللغة الأصلية في كل بلد سواء عن حكمة أو عن رغبة في مهاجمة شعائر رومة.

كانت صدفة مؤثّرة بالنسبة للذين، من بين الجموع، يرثون لهؤلاء النبلاء، أن يستمعوا إليهم وهم ينشدون هذه الترتيلة في اللحظة التي حضر فيها كل البلاط الملكي:

الله رحيم بنا ونصير

يباركنا برأفته

ومن وجهه المعبود

يشعُّ علينا بنوره

اتجهت جميع أنظار البروتستنت إلى زعيمهم أمير كونده، وقد وضع عن قصد بين الملكة ماري ودوق أورليان، وكانت الملكة كاترين وراء ابنها، والكردينال على يسارها، وممثل البابا واقف خلف الملكتين، والدوق دي غيز القائد العام للمملكة على صهوة جواد عند أسفل المنصة مع اثنين من مارشالات فرنسة وقوّاده.

عند ما ظهر أمير كونده حيّاه جميع النبلاء الذين يعرفونه المحكومين بالإعدام وردّ الأحدب المقدام على تحيتهم، قائلاً لدوق أورليان: «من الصعب ألا يكون الإنسان مهذباً مع أشخاص يسيرون إلى الموت».

كانت المنصتان الآخريان قد امتلأتا بالمدعوين، ورجال الحاشية، ورجال الخدمة في البلاط الملكي أخيراً كان أناس قصر بلوا ينتقلون هكذا من احتفالات إلى

---

(١) وصف مشهد تنفيذ أحكام الإعدام، ونصّ المزمور، وأسماء وحركات المحكومين، والحادث الطارىء لموت كاستلنو مستمدة جميعها من مسرحية جرمو (امبواز ـ المشهد السابع). لكن بلزاك ينسب المزمور لماروت وهي نسبة غير صحيحة؛ إذ أنه تداخل مزمورين (السابع والستين والسادس والستين) لتيودور دي بيز، لكن من المحتمل مشاركة ماروت، إذ أن الكنيسة البروتستنتية قد طبعت عدة مرات خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر «مزامير داوود المئة وخمسين» الموضوعة في شعر فرنسي من قبل كلمنت ماروت وتيودور دي بيز.

تعذيبات، كما انتقلوا فيما بعد من مسرّات البلاط إلى مخاطر الحرب، بسهولة اعتبرت دائماً، بالنسبة للغرباء أحد محرّكات سياستهم في فرنسة.

شعر نقيب فرّائي باريس المسكين بفرح عارم عندما لم يرَ ابنه بين النبلاء السبعة والخمسين المحكومين بالإعدام.

بإشارة من الدوق دي غيز هتف كاتب المحكمة الجالس على المنصة بصوت عال:

جان لويس ألبريك ـ بارون دي روني: مدان بالهرطقة، وقدح بالذات الملكية. وهجوم مسلح على شخص الملك.

صعد رجل وسيم سيراً على قدميه إلى المنصة بخُطا ثابتة فحيا الشعب والبلاط وقال:

«إن القرار كاذب، كنت مسلحاً لتحرير الملك من أعدائه اللورينيين.

ووضع رأسه على الأرومة، فقُطع.

وأنشد المحكومون البروتستنتيون:

ربّنا لقد وضعتنا تحت الاختبار

وأخضعتنا للامتحان

فكنا كالنقد الذي يجرّب

وبالنار يُصفى

صاح الكاتب مجدّداً:

روبر ـ جان ـ رنه بريكمو، كونت دي فيلمونجيس: مدان بقدح بالذات الملكية، والهجوم على شخص الملك.

غمس الكونت يديه في دم البارون دي روني وقال: «فليسقط هذا الدم على المجرمين الحقيقيين» وأنشد البروتستنتيون:

أدخلتنا وجمعتنا

في كمائن أعدائنا

والشباك حيث وضعتنا

تشدُّ على أصلابنا

قال الأمير دي كونده مخاطباً ممثل البابا: «إعترف، ياسيدي، بأن النبلاء الفرنسيين، إن كانوا يعرفون التآمر، فإنّهم يعرفون أيضاً كيف يموتون». قالت الدوقة دي غيز للكردينال دي لورين: «أي أحقاد تجمعونها يا أخي على رؤوس أولادنا!»

وقال الملك الشاب[1] وقد بدا عليه الشحوب لرؤية الدم المسفوح: «هذا المشهد يزعجني».

قالت كاترين دي مديسي: «باه! متمردون؟».

كانت الأناشيد تسمع دائماً، والفأس تعلو وتهبط دائماً.

لقد تجاوز أخيراً هذا المشهد السامي لأشخاص يموتون وهم ينشدون، وبصورة خاصة الانطباع الذي كان يحدثه على الجماهير الخفوتُ المتدرّج لاصوات المنشدين نتيجة الخشية التي يوحي بها اللورنييان.

هتف الشعب بصوت واحد: «العفو!» عندما لم يسمع سوى النبرات الضعيفة لنبيل واحد، هو الأكثر اعتباراً بين الجميع، وقد احتفظوا به للضربة الأخيرة. كان وحيداً عند قاعدة المرقاة التي يصعد بواسطتها على المنصة، وكان ينشد:

الله رحيم بنا ونصير

يباركنا برأفته

ومن وجهه المعبود

يشعُّ علينا بنوره

---

(١) في مسرحية جرمو أن الملكة ماري هي التي هتفت «هذا المشهد مريع، أريد أن أغادر المكان» كذلك أحست بالشفقة فتوسّلت بعد أمير كونده للعفو عن كاستلنو.

قال أمير كونده الذي ضجر من موقفه: «هيّا، يادوق نمور، أنت الذي يعود إليك الانتصار في هذا الصدام، وساعدت على القبض على هؤلاء الأشخاص، ألا تجد أن من واجبك أن تطلب العفو عن هذا؟ إنّه كاستلنو الذي قيل لي إنه تلقى وعداً منك بأن يعامل بلياقة إن استسلم ...

ردّ الدوق دي غور وقد أزعجه هذا اللوم القاسي: «وهل انتظرت أن يصل إلى هنا لأنقذه؟».

نادى الكاتب متباطئاً وعن قصد دون شك:

ميشيل ـ جان ـ لويس، بارون دي كاستلنو ـ شالوس: مدان ومُفَحم بجريمة القدح بالذات الملكية والهجوم على شخص الملك.

قال كاستلنو باعتزاز: «كلا، ليست جريمةً معارضةُ طغيان دي غيز واغتصابهما للسلطة.

كان الجلاّد التعب قد لاحظ حركة على المنصة، فوضع فأسه جانباً وقال:

«سيدي البارون، لا أريد أن أزيد من عذابك، فانتظار لحظة قد ينقذك».

هتف الشعب مجدّداً: «العفو!».

قال الملك: «هيّا، لنعف عن هذا المسكين كاستلنو الذي أنقذ دوق اورليان[1].

لكن الكردينال استغل عن قصد كلمة «هيّا» التي بدأ بها الملك عبارته فأومأ

---

(١) تلميح إلى حادثة وقعت في آمبواز مع شارل اورليان، المتوفي عام ١٥٤٥، وهو الابن الثالث لفرنسوا الأول، وبالتالي عم الملك فرنسوا الثاني، وكان مع حاشيته في يوم عيد قد اختلفوا في اللعب مع مجموعة من الرعاع السكارى فطردوا الدوق والحاشية ولاحقوهم وجرحوهم لكن الأخوين كاستلنو حضرا في الوقت المناسب ودافعا عن الدوق ومات أحدهما في المعركة (وفقاً لما ذكره دى كو، في التاريخ العام). في مسرحية جرمو، فإن أمير كونده، ذكّر دوق أورليان الفتى ـ شقيق الملك ـ وكان إلى جانبه، بحادثة سميّه وطلب منه التدخل للعفو عن كاستلنو الذي أنقذ سميّه وعمّه المتوفي.

إلى الجلاد بإشارة التنفيذ بحيث سقط رأس كاستلنو مع تتمة عبارة الملك بالعفو.

قالت كاترين: «إنّ هذا، ياكردينال، قد صرَّفته على نفقتك الخاصة»[1].

في اليوم التالي لتنفيذ تلك المجزرة الرهيبة سافر أمير كونده إلى نافار.

---

(١) كان بلزاك في طبعة «لي سيكل LE SIÈCLE» قد ذكر أن الأخوين دي غيز عرفا كيف يلقيان مسؤولية اعدامات آمبواز على عاتق كاترين. بحيث وجد بعد شهر من إجرائها القصيدة الهجائية المنسوبة إلى تيودور دي بيز معلقة على أحد أبواب القصر. (إنما حذف بلزاك في طبعة فورن هذا المقطع والقصيدة):

لمن يريد أن يعرف
التوافق بين كاترين وإيزابل
هذه ملكة اسرائيل
وتلك ملكة فرنسة
إيزابل كانت تحمي الأصنام
عكس ما جاء في الكتاب المقدّس.
وتلك أمسكت البابوية.
بالخيانة والقسوة.
الواحدة كانت بمكر متناه
والأخرى كانت المكر كلّه.
بواسطة هذه قُتِل
أولياء الله الصالحون.
وعن طريق تلك هلك ألُفان
ممن يتبعون تعاليم الإنجيل
من أجل أن تختلس إيزابل الثروة
أهلكت صاحبها الرجل الطيّب
أما تلك فلن تروي غليلها
إن لم تغتصب الثروات وتقبض الأرواح
أخيراً، كان جزاؤهما العادل
أن الكلاب نهشت ايزابل.
أمّا جثة كاترين النتنة
فقد كانت مختلفة في هذه النقطة
إذ أن الكلاب نفسها قد عافتها.

أثارت هذه القضية ضجة عارمة في فرنسة وفي بلاطات جميع الدول الأخرى[1].

---

(١) هنا أيضاً يذكر بلزاك قصة طويلة «في طبعة LE SIÈCLE» يحذفها بعد ذلك في طبعة فورن «Furne» أظهر بلاط رومة غبطة كبيرة لسلوك الكردينال دي لورين والدوق دي غيز، حتى أن البابا أعلمهما برسالة بخط يده عن رضاه معلناً عن إرسال إحدى أثمن لوحات الفاتيكان هدية للكردينال ـ وهي لوحة «نوتردام دي غراس» التي رسمها النّحات المشهور ميكيل آنج بنفسه كاملة، وبالرغم من أن الملك والملكة كانا يريدان مغادرة آمبواز، فقد انتظرا وصول لوحة ميكيل آنج. لأن الكردينال يريد إهداءها لابنة أخته. وفي اليوم الموعود لوصول اللوحة دعا الكردينال دي لورين الملك والملكة ماري والملكة الأم كاترين والدوق دي غيز وكبار نبلاء البلاط إلى حفل غداء. وبعد الغداء توجّه الجميع إلى الرواق الذي وضعت فيه اللوحة بعد وصولها؛ ويمكن الحكم على الدهشة والغيظ الذين استوليا على كلّ من الحاضرين عندما كُشِف عن اللوحة المسلّمة فوجد أنها تمثل في عري تام الملكة ماري ستيوارت والملكة كاترين والكردينال دي لورين في وضع بذيء وفاجر. بينما الدوق دي غيز يحمل إليهم على طبق رأس دي كاستنلو. بالرغم من أن هذه الواقعة قد كتمت كلياً فإنها ذكرت بعد ذلك عن لسان دوق دنغوليم الابن غير الشرعي لشارل التاسع الذي رواها لزوجته، والتي روتها بدورها بعد ترملها في العام ١٧١٣ للمارشالين دي بيرون ودي ريشليو. هذه اللوحة التي لم يعرف اسم واضعها، إنما هو دون شك أحد الرسّامين الهوغنوت؛ قد أحرقت في الحال. وهذه الضربة كانت بالنسبة للأخوين دي غيز بمثابة خسارة معركة. ولم يأل الكردينال جهداً في سعيه للإنتقام، وكانت فرق رهبانه تقوم بمهمة شرطة له بطريقة رائعة، وقد توصلوا إلى بعض معلومات تفيد أن من الممكن أن يكون أمير كونده وراء تلك العملية، فقد سافر من آمبواز إلى بيارن عن طريق تور وبواتيه، لكنه حاد عن الطريق وتوجّه إلى ليون فدوفنيه فبروفنس. وفي الدوفنيه كان موفد البابا قد مرض ومات هناك لكن نبأ موته لم يصل إلا بعد تسليم تلك اللوحة المزيّفة لقصر آمبواز. هذا الموفد عندما أحسّ بعدم قدرته على متابعة سفره، سلم اللوحة إلى ايطالي من عائلته سرديني معتقداً انه من اتباع الملكة الأم وآل غيز، لكن هذا كان من الساخطين الذين شعروا بخيبة أمل من قلّة مكافأته على خدمات خطيزة قدّمها؛ لذلك لحق بأمير كونده لكنه لم يكن قد وصل إليه عندما سنحت له فرصة استيلائه على لوحة البابا التي يعرف قيمتها وغلاء ثمنها، ودون أن يضيع وقتاً ولأجل أن ينتقم كلّف أحد الرسّامين الهوغنوت بوضع اللوحة المزيّفة وأرسالها ورسالة البابا مع رسول مزيف إلى آمبواز.

كان أمير كونده عند وصوله إلى نيراك قد كشف علناً مع كل بلاط نافار عن إيمانهم بالبروتستنتينية وهكذا اعتقد الأميران اللورنيان في ذلك الانتقام الايطالي بادرة سخرية لاذعة مردها الأمير حول ما أشيع من علاقة غزل بين الكردينال والملكة الأم. وهذا ما يفسّر ضراوة الملك فرنسوا الثاني والأخوين دي غيز في السعي الجاد للنيل من أمير كونده عند ذاك وإيقافه.

لكن سيول الدم النبيل التي أهرقت سببت ألماً كبيراً لرئيس القضاء أوليفيه، حتى شعر أن ليس له من القوة ما يمكّنه من مجابهة الهدف، الذي يسعى إليه الأخوان دي غيز بذريعة الدفاع عن الدين والعرش ولم يرد أن يضحي بإيمانه بالواجب والملكية، ففضَّل هذا القاضي الوقور، بالرغم من أنه في الأساس صنيعة الأخوين دي غيز أن ينسحب من ممارسة القضايا العامة مشيراً باختيار لوسبيتال خلفاً له[١]. عندما علمت كاترين باختيار أوليفيه، اقترحت بيراغ رئيساً للقضاء وأبدت حماساً شديداً لتأييد ترشيحه، لكن الكردينال، غير المطلّع على تلك الرسالة الموجهة سابقاً من لوسبيتال لكاترين، والمعتقد بأنه من الموالين دائماً لآل لورين جعله منافساً لبيراغ وتظاهرت الملكة الأم بالإذعان. وما أن استلم لوسبيتال مهام القضاء حتى اتخذ ترتيبات ضد محاولة إنشاء محاكم التفتيش التي أراد الكردينال استيرادها إلى فرنسة، كما تصدى للإجراءات السياسية والآنتيغليكانية[٢] للأخوين دي غيز، وظهر كمواطن فرنسي طيب، بحيث اضطرا للحد من نشاطاته المعادية، ثم إلى إلزامه بعد ثلاثة أشهر فقط من تسميته، بالإقامة الجبرية في مزرعته في فيناى قرب إتامب[٣].

انتظر الرجل الطيّب لكاموس بفارغ صبر مغادرة البلاط آمبواز[٤]، إذ لم تتهيّأ له أيّة فرصة للتحدّث مع الملكة ماري، ولا مع الملكة كاترين، وأمَّل في أن يتمكن من ذلك إن سار في الطريق الذي سيسلكه البلاط في العودة إلى قصر بلوا؛ وتزيّا نقيب الفرائين بزيّ رجل فقير مجازفاً باعتباره جاسوساً، إن كشف أمره،

---

(١) في الواقع تم التغيير بعد وفاة أوليفيه، غير أنه لم ينسحب من الحياة العامة، بالرغم من أنه فعلاً قد تألم من الأحداث الطارئة وخاصة أحكام الإعدام بعد بلبلة آمبواز.

(٢) الغاليكانية: حركة في فرنسة تعتبر الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية ذات استقلال ذاتي عن البابوية، والآنتيغليكانية حركة معارضيها.

(٣) لم يتحدث أي مؤرخ عن إقامة جبرية للوسبيتال لكنه بالفعل أقام في مزرعته في ڤيناى اعتباراً من العام ١٥٦٨.

(٤) وجود لكاموس الأب في آمبواز وتنكره هما الحدث الروائي الذي ليس له أي سند تاريخي.

وبفضل هذا التنكرّ تمكن من أن يختلط بالتعساء الموجودين على حواف الطرقات. بعد رحيل أمير كونده، اعتقد الدوق والكردينال أنهما قد أخرسا البروتستنتيين، وتركا للملكة الأم شيئاً من الحرية، وكان لكاموس يعرف أن كاترين لا تحبّ أن تسافر في محفّة، وإنّما تمتطي صهوة جواد بعد أن تستعين «بلويح» وهو الاسم الذي أعطي لرِكاب ابتُكِر لكاترين أو ابتكرته كاترين التي كانت تعاني من جرح سابق في فخذها[1]، فكانت تسند رجليها في نوع من رَحْل مُخَمل، وهي تجلس جانباً على ظهر الحصان وتمرّر ساقاً في تقويرة خاصة في سرج الحصان؛ وبما أن الملكة قد عرفت بجمال ساقيها فإنها قد اتهمت بأنها ابتكرت هذا الطراز من الركوب لإظهارهما. ظهر العجوز لكاموس بتنكره أمام ناظري كاترين دي مديسي، التي ما إن عرفته حتى تظاهرت بالغيظ وخاطبته بشيء من القلق: «ابتعد من هنا ايها الرجل وحاذر ان يراك أحد توَّجه لي كلمة، اعمل على أن تسمى من قبل نقابتك في باريس نائباً عن طبقة الشعب في المجلس وكن معي في اجتماع أورليان فتعرف عند ذاك مصير ابنك...

سأل العجوز: «أهو مايزال في هذا الوجود؟

أجابت الملكة: للأسف آمل ذلك!

اضطر لكاموس أن يعود إلى باريس بهذه العبارة الكئيبة، وبسرّ دعوة مجلس طبقات الشعب الذي باحت له به الملكة الأم.

بعد عدة أيام حصل الكردينال دي لورين على بيانات تكشف عن تورّط بلاط نافار في الشغب. ففي ليون والدوفينة جرّب البروتستنتيون الموجّهون من قبل الأمير الأكثر جرأة في بيت آل بوربون أن يثيروا السكان، وقد أدهشت هذه الجرأة بعد

---

(1) أخطأ بلزاك في الخبر المنقول عن درو دى روه الذي ذكر أن كاترين لم تكن تستعمل «اللويح للصعود على ظهر الجواد، واللويح هو قطعة من خشب تسند عليها الرجلين وترفع لوضع الرِجْل بعدها في الركاب. كما أن درو يذكر أن كاترين المحبة للتجوال الطويل على صهوة الجواد كانت قد جرحت في احدى جولاتها ساقها ورأسها.

تنفيذ الأحكام الدامية في آمبواز الأميرين اللورينين، اللذين اقترحا من أجل أن ينتهيا، دون شك، مع الهرطقة، بوسائل حافظا على شرها، دعوة مجلس طبقات الشعب إلى أورليان، ورأت كاترين دي مديسي في ذلك نقطة استناد لسياستها في التمثيل الوطني، فوافقت بغبطة. وكان الكردينال يريد من هذه الدعوة قنص فريسته ثانية وضرب آل بوربون، فهو لم يقترحها إلا لجذب أمير كونده[1] وملك ناڤآر انطوان دي بوربون، والد هنري الرابع؛ وقد أراد عند ذاك أن يستخدم كريستوف لتوجيه دليل مفحم لإتهام الأمير بالخيانة العظمى إن نجح في أن يخضعه لسلطة الملك.

بعد أن قضى كريستوف شهرين في سجن بلوا، وجد نفسه ذات صباح مطروحاً على سرير، ومحمولاً على محفة، ثم موضوعاً في زورق صاعد إلى أورليان، تدفعه رياح غربية، حيث وصل في المساء، واقتيد إلى برج سان ـ آنيان[2] الشهير. لم يهتد كريستوف إلى سبب هذا النقل، وكان لديه الوقت الكافي للتفكير في سلوكه ومستقبله، وبقي هناك شهرين آخرين على فراشه الحقير، دون أن يتمكن من تحريك ساقيه. كانت عظامه محطّمة، وعندما طلب أن يعوده أحد جرّاحي المدينة أجابه السّجان إن التعليمات بخصوصه صارمة جداً، حتى لا يمكن أن يكلّف أحداً بحمل طعامه إليه، هذا التشديد الهادف إلى احتجازه في سرية تامة، أدهش كريستوف، فوفقاً لتفكيره كان المفروض إما أن يشنق وإمّا أن يطلق سراحه، وكان يجهل كليّاً أحداث آمبواز.

على الرغم من نصائح سرّية وجهتها كاترين إلى زعيمي بيت البوربون بالبقاء

---

(١) ورد في مسرحيته «بليلة آمبواز» تعقيب الكردينال: «سيضطر الأمراء للحضور، ويمكننا القبض آنذاك على أمير كونده.

(٢) برج سان آنيان: هو برج الكنيسة التي تحمل الاسم ذاته، ولم يكن يوماً من الأيام سجناً، بعكس البرج الجديد القريب منه على ضفة اللوار، لكن في مسرحية جرمو، ذكر أنه أعدّ لإسكان أمير كونده وإذا كان بلزاك قد وضع فيه كريستوف، في روايته، فذلك ليواجهه بأمير كونده الذي ذكر أيضاً أنه سجن فيه.

في مراكزهما فإنهما قررا حضور مجلس طبقات الشعب مادامت رسائل الملك الأصلية قد طمأنتهما، وعندما استقر البلاط في أورليان أعلم، مع دهشته، من قبل غروسلو، رئيس قضاء ناڤار، عن وصول الأميرين ...

أقام فرنسوا الثاني في قصر رئيس قضاء ناڤار[١]، وهو في ذات الوقت المشرف الملكي على اورليان فغروسلو هذا في مركزه المضاعف كان أحد غرائب ذلك الزمن الذي كان البروتستنت يمتلكون فيه أديرة، غروسلو المثال الاورلياني لجاك كور كان أحد أغنى بورجوازيي ذلك العصر، لكن اسمه لم يوضع على بيته الذي سمي فيما بعد محكمة الإقطاعيين إذ أن التاج أو المقاطعة تملّكاه دون شكّ من الورثة ليضعا فيه تلك المحكمة.

ذلك البناء البديع الذي يعود الفضل فيه إلى بورجوازية القرن السادس عشر يكمل جيّداً تاريخ تلك الحقبة، حيث كان الملك والنبالة والبورجوازية يتبارون في اكساب الجمال والأناقة ومظاهر الغنى لأبنية مساكنهم، والشاهد في ڤارنجفيل حيث قصر آنجو[٢] الريفي الرائع، كما أن القصر المسمى قصر هركوك[٣]، مايزال موجوداً حتى يومنا هذا في باريس، إنّما في حالة تدفع إلى قنوط الآثاريين وأصدقاء العصر الوسيط، ومن الصعب على زائر أورليان ألا يستلفت نظره في ساحة استاب، دار البلدية، هذه الدار هي محكمة الإقطاعيين القديمة، قصر غروسلو، أشهر بيت في أورليان وفي ذات الوقت الأكثر إهمالاً.

---

(١) قصر غرسلو: بدأ به جاك غروسلو، المشرف الملكي على أورليان الذي توفي العام ١٥٢٢ قبل أن ينهيه، وهنا يبرز بلزاك دور ابنه جيروم، وهو بدوره مشرف ملكي على اورليان، ومرتبط مع جميع الزعماء البروتستنتيين وخاصة ملك ناڤار، الذي وجب أن يلقى القبض عليه مع أمير كونده وقد ذكر جرمو في مسرحيته أن هذه الشخصية قد ألقى خطاباً عند دخول الملك، كما خطرت له فكرة إقامة الملك في قصر غروسلو وهذا تفصيل صحيح تاريخياً.

(٢) كان جان آنجو مجهز سفن فرنسوا الأولّ وقصره، في ڤارنجفيل، يذكر دائماً في أدلّة دييب وجوارها.

(٣) شارع غران ـ اوغوستن، هو ما بقي من قصر هركوك، وقد هدم جزئياً في القرن السابع عشر، ووزع بين عدد كبير من الأفراد وخاصة أصحاب المكتبات.

بقايا هذا القصر تعلن لناظرِي الآثار كم كان رائعاً في عصر كانت فيه البيوت البورجوازية تبنى من الخشب أكثر مما تبنى من الحجارة، وحيث للنبلاء وحدهم الحق في إقامة قصور ريفية، أو مايعبر عنه بقُصَير. أن يُستخدَم قصر غروسلو مقراً للملك في عصر كان البلاط فيه يظهر فيه مزيداً من الترف والفخامة يعني أنه كان آنئذ أكبر وأروع بناء في أورليان. في ساحة استاب تلك كان الملك والأخوان دي غيز يستعرضان الحرس البورجوازي الذي تولّى قيادته خلال إقامة الملك السيد دي سيبيير؛ في تلك الفترة كانت كاتدرائية سانت ـ كروا، التي أنهيت فيما بعد في عهد هنري الرابع، الذي أراد أن يكون برهاناً على جدّية عودته إلى الكاثوليكيه، قيد البناء وما حولها ممتلىء بالحجارة، وتتوزع فيه الورش، وكان آل غيز يشغلون المكان حيث يقيمون في قصر المطران الذي هدم حالياً[1].

كانت المدينة محتلة عسكرياً، والإجراءات التي اتخذها اللورنييان تشير إلى أنهم يريدون تقييد حرّية الحركة لمجلس طبقات الشعب الذي بدأ أعضاؤه يتوافدون على المدينة ويزايدون على أجور غرف السكن الصغيرة. وهكذا توقّع البلاط والمليشيا المحلية والنبالة والبورجوازية انقلاباً سياسياً ما، ولم تخب توقّعاتهم لدى وصول أميري السلالة المالكة، إذ عند دخولهما غرفة الملك، لاحظ رجال البلاط برعب وقاحة الكردينال دي لورين الذي أراد أن يعبر عن استهتاره بهما فأبقى قبعته على رأسه بينما كان ملك نافار أمامه عاري الرأس، وعند ذاك غضَت كاترين دي مديسي ببصرها كي لا تظهر استهجانها، وجرى جَدَل مكشوف بين الملك الشاب وزعيمي الفرع الثاني بهذه العبارات الرهيبة: «أيّها السيدان ابني عمي، كنت أعتقد أن بلبلة آمبواز قد انتهت، ويبدو أن الأمر ليس كذلك بحيث يراد جعلنا نأسف على ما أبديناه من تسامح!».

---

(١) ليست التفاصيل عن أورليان دقيقة جداً، بحيث اكتفى بلزاك برحلة قام بها في نيسان ١٨٤١ ذكر فيها انه تجوّل كباحث مدقّق. لكن يمكن ايجاد المعلومات في «المرشد الأورلياني» لڤيرنيو ـ روما نيزي وقد ذكر فيه أن القصر الأسقفي القديم قد هدم لتوسيع الكاتدرائية وأن مطران أورليان كان يسكن في القرن السادس عشر في دير للرهبان.

عقب أمير كونده: «ليس الملك هو الذي يتحدّث إلينا، إنّما هو ينطق بكلمات السيدين دي غيز بدا الغضب جلياً على الملك الشاب واحمر غيظاً وقال: «وداعاً أيّها السيد».

في القاعة الكبرى اعترض طريق الأمير نقيبا الحرس، وعندما تقدّم منه قائد السريّة الفرنسية أخرج الأمير من جيب صديريته رسالة وقال له «أيمكنك أن تقرأ لي هذه ياسيّد مايّه ـ بريزه» قال قائد السريّة الفرنسية: «بكل طيبة خاطر» وقرأ:

«يا ابن عمي: تعال بكل اطمئنان، وأعاهدك بالشرف الملكي أنك تستطيع ذلك، وإن كنت بحاجة إلى تصريح أمان فهذه الكلمات وثيقة خطّية به».

قال الأحدب الجريء الماكر: «والتوقيع؟».

أجاب مايّه: «التوقيع فرنسوا».

ردّ الأمير: «كلا، كلا، هناك ابن عمّك الطيب وصديقك فرنسوا».

ثم هتف بنقيبي الحرس الاسكوتلنديين: «أيّها السيدان، إنني أتبعكما إلى السجن الذي كلّفكما الملك بوضعي فيه، وفي هذه القاعة من النبالة ما يكفي لفهم ذلك[1]».

وجب أن ينبّه الصمت العميق الذي ساد القاعة الأخوين دي غيز، لكن الصمت هو آخر ما يستمع إليه الأميران.

قال الكردينال دي تورنون الذي كان يتبع الأمير: «ياصاحب السمو، منذ بلبلة آمبواز، قمتم بأمور في ليون وفي موڤان[2] في الدوفينه ضد السلطة الملكية، ولم يكن الملك على اطلاع عليها عندما وجّه اليكم رسالته هذه.

---

(١) نقل عن المشهد الثالث من مسرحية جرمو «بلبلة آمبواز ١٨٢٩» لكن بلزاك يفخم بتعالي أمير كونده وجرأته.

(٢) يبدو أن بلزاك أخطأ في اعتبار موڤان: منطقة أو بلدة في الدوفينه، بينما هو اسم قائد المتمردين ـ وفقاً لمسرحية جرمو في الدوفينيه، أما التلميح إلى الدوفينه فإشارة إلى تزييف اللوحة هناك.

هتف الأمير ضاحكاً: «كذب ونفاق!».

ـ وقد قمت بتصريح علني ضد إقامة القداس ولمصلحة الهرطقة.

أجاب الأمير: نحن أسياد في ناڤار.

أجاب الرئيس دي تو: تريد أن تقول البيارن؟ لكن عليكم احترام التاج.

هتف الأمير بسخرية: آه! أنت هنا أيّها الرئيس؟ هل برلمانك كله معك؟

عند هذه الكلمة ألقى الأمير على الكردينال نظرة احتقار وغادر القاعة: أدرك أنهم يريدون رأسه. وفي اليوم التالي عندما جاء السادة دي تو، ودي ڤيول، وديسبس، والنائب العام بوردن، وكاتب المحكمة العام دوتيه ودخلوا إلى سجن الأمير، تركهم واقفين وعبّر لهم عن أسفه لرؤيتهم مكلّفين بأمر ليس من اختصاصهم. ثم طلب من الكاتب أن يجلس ويكتب، وأملى عليه مايلي:

«أنا لويس دي بوربون، أمير كونده، والعَيَنَ في المملكة، ومركيز كونتي، وكونت سواسون، وأحد أمراء السلالة المالكة في فرنسة، أصرح بأنني أرفض جازماً الاعتراف بأيّة لجنة تُسمى لمحاكمتي، نظراً إلى أنني في مقامي، وبموجب الامتيازات الممنوحة لكل عضو من العائلة المالكة، لا يمكن أن أُتهمَ، أو يحقق معي، أو أحاكم إلا أمام البرلمان بحضور كل أعيانه، واجتماع كل غرفة، وفي جلسة علنية يرأسها الملك[1]».

«يجب أن تعرفوا هذا أيها السادة أكثر من الجميع. هذا كل ما لديّ من قول لكم؛ وعدا ذلك فإنني اتكل على حقّي وعلى الله».

باشر القضاة مهمتهم رغم الصمت المعنّد من الأمير.

بقي ملك نافار متمتعاً بحريته إنما كان تحت المراقبة، وكلّ الفرق بين وضعه ووضع أخيه الأمير أن سجنه كان أكثر اتساعاً. إذ أن المساعي كانت إلى اسقاط رأسيهما معاً.

---

(١) هذا التصريح مسجّل حرفياً في مسرحية جرمو «بلبلة آمبواز».

لم يكن الاحتفاظ بكريستوف بمثل هذه السرّية الشديدة إذاً، بناءً على أوامر الكردينال والقائد العام للمملكة إلا لإقامة دليل أمام القضاة على المسؤولية الجرمية للأمير بعد أن صودرت رسائل يحملها لاساغ سكرتيره[1] اعتبرت جليّة بالنسبة لرجال الدولة لكنها لم تبد كثيرة الوضوح بالنسبة للقضاة، وأضمر الكردينال أن يواجه بشكل مصادفة، الأمير وكريستوف الذي وضع لهذا الهدف في قبو منخفض في برج سان ـ آنيان يطل من نافذته على البهو؛ واستمر كريستوف في كل استجواب يعرّضه له القضاة على طريقة نفي مطلقة، أطالت بالطبع التحقيق في القضية حتى افتتاح مجلس طبقات الشعب.

لم يفت الأب لكاموس أن يسمى نائباً عن الطبقة الثالثة من قبل بورجوازية باريس، ووصل إلى أورليان بعد عدة أيام من توقيف أمير كوندة فيها، ووصله هذا الخبر وهو في إتامب فتضاعفت مخاوفه، إذ أنه أدرك، وهو الذي يعرف وحده اجتماع الأمير بولده تحت جسر أوشانج، أن مصير كريستوف مرتبط بمصير زعيم حزب البروتستنتيين الجريء، وهكذا عزم على دراسة المصالح الغامضة المتشابكة في البلاط منذ افتتاح المجلس علّه يجدُ طريقة لإنقاذ ولده. ولم يعد يفكّر بالملكة كاترين التي رفضت أن ترى فرآءها، ولم يعطه أيّ من الأشخاص الذين استطاع رؤيتهم في البلاط أيّة أخبار مطمئنة عن ولده. ووصل به الأمر إلى حدّ من القنوط فكّر فيه أن يتوجه إلى الكردينال بالذات، عندما علم أن السيد دي تو قد ارتضى أن يكون أحد قضاة أمير كونده، وهذا ما اعتبر لطخة عار في سجّل حياته. وذهب نقيب الفرائين لمراجعة محامي ولده فعرف منه أن كريستوف مايزال حيا لكنه سجين.

---

(١) لاساغ ناقل بريد أمير كونده، ألقي القبض عليه في ٢٦ آب ١٥٦٠ بأمر من الدوق دي غيز في اتامب ومن الصعب أن نحكم إن كان في الرسائل التي يحملها دليل على تورّط الأمير في قلاقل آمبواز، أو إن كان يخطط لفتنة جديدة، لأنّ معظم هذه الرسائل لم يعد لها وجود، لكن وفقاً لما ذكره المؤرخ دي تو فإن من بين الرسائل المصادرة، ما كتبه ڤيدام شارتر بعبارات ملتبسة «إنما يمكن للأمير فهم معناها». لكن اعترافات لاساغ وحدها، وقد أخذت منه تحت التعذيب، تشير إلى تورّط الأمير في الفتنة.

قدّم توريّون، صانع القفّازات، وهو الذي توجّه إليه كريستوف بناءً على توصية لارنودي، للسيد لكاموس، وطوال مدة انعقاد المجلس غرفة في منزله، وكان صانع القفّازات يعتقد أن الفرّاء موال، مثله، للمذهب البروتستنتي، لكنه رأى سريعاً أنّ والداً يخشى على حياة ابنه لا يميّز مطلقاً الفروق المذهبيّة، بل يسلّم أمره كليّة إلى الله دون اهتمام بتحزّبات الناس. كان العجوز وقد فشلت جميع محاولاته يسير كالمخبول في الشوارع، وخلافاً لتوقعاته، فإن ذهبه لم يفده بشيء وقد نبهه السيد دي تو أنه حتى لو تمكّن من رشوة أحد خدم آل غيز فإنه يبذر ماله لأن الدوق والكردينال لا يسمحان بتسرّب أيّ شيء يتعلّق بكريستوف. هذا القاضي الذي خبا مجده قليلاً بالدور الذي كُلّف به آنذاك، جرّب أن ينعش بعض الأمل في نفس هذا الأب اليائس، لكنه كان يرتعش هو نفسه خشية على حياة فليونه حتى أن مواساته زادت من قلق الفرّاء. كان هذا العجوز يدور على غير هدى حول المنزل، وخلال ثلاثة أشهر هزل جسمه، ووضع أمله الوحيد في الصداقة الوطيدة التي تربطه منذ زمن طويل بأبقراط القرن السادس عشر. جرّب امبرواز أن يقول كلمة حول هذا الموضوع للملكة ماري وهو خارج من غرفة الملك؛ ولكن ما إن ذَكَر اسم كريستوف، حتى استُثيرت ابنة آل ستيورات المتخوّفة على مصيرها إن أصيب الملك بسوء، والتي خشيت أن يكون مسمّماً من قبل البروتستنت بسبب فجائية مرضه، وأجابت: «لو استمع إليّ خالاي لكان مثل هذا المتزمت قد شنق منذ زمن!». وفي المساء عندما نقل پاره هذا الجواب المشؤوم للكاموس عند لقائه معه في ساحة استاب، عاد هذا إلى غرفته نصف ميت، ورفض تناول عشائه، وصعد توريون قلقاً فوجد العجوز يبكي، ولما كانت عينا الفراء المسكين الشائختان تظهران الجفنين الداخليين المحمرّين المجعدين، فقد ظن صانع القفازات أنّه يبكي دماً.

قال البروتستنتي: تعزّ، ياأبت، إن بورجوازيي أورليان غاضبون لرؤية مدينتهم تعامل وكأنها احتلت عنوة، وجنود سيبيير يحرسونها، وإن تعرّضت حياة أمير كونده للخطر فسندمّر سريعاً برج سان ـ آنيان؛ لأن كل مدينتنا مع البروتستنتيه وستثور، كن متأكداً.

أجاب الأب اليائس: حتّى وإن شُنق اللورنييان، فهل موتهما سيعيد لي ولدي.

عند ذاك قرع على باب توريون خفية، ونزل صاحب المنزل ليفتح بنفسه، وكان الليل قد هبط، وكلّ ربّ بيت في هذه الأوقات العصيبة يتخذ احتياطات دقيقة. ونظر توريون من الخصاص المحدث في الباب، فرأى غريباً تعبّر نبرة كلامه عن أنَّه إيطالي. وطلب هذا الرجل المرتدي بزّة سوداء أن يتحدث إلى لكاموس في قضايا تجارية، وأدخله توريون إلى المنزل. عند رؤية الغريب، ارتعش الفرّاء بشكل رهيب، لكن الغريب سنحت له فرصة تنبيهه بوضع إصبعه على شفتيه، فقال له لكاموس وقد فهم مغزى حركته: «لاشك أنّك قد جئت لتعرض عليَّ صفقة فراء؟

أجاب الغريب بالايطالية وبطريقة متكتمة: «نعم».

كان هذا الشخص في الواقع روجييري فلكي الملكة الأم الشهير. ونزل توريون إلى منزله مدركاً أن ضيفه يريد أن ينفرد بالغريب.

قال الفلورنسي الحذر: «أين يمكننا التحدّث دون خشية أن يسمعنا أحد.

أجاب لكاموس: يجب أن نكون وسط الحقول، لكن لايسمح لنا بالخروج، فأنت تعرف قسوة الحراسة على الأبواب، فما من أحد يترك المدينة دون إذن مرور من السيد سيبيير، إلا إن كان من أعضاء المجلس مثلي، وهكذا يجب منذ الغد أن نحتجَّ خلال الجلسة جميعاً على هذا التقييد للحرية.

ـ احفر كالخلد ولكن لاتدع أياً كان يرى قوائمك، إنّ يوم غد سيكون حاسماً دون شكّ، ووفقاً لملاحظاتي، فغداً أو بعد غد قد يكون ولدك عندك.

ـ فليستجب الله لرجائك، أنت يامن تعتبر مشاوراً للشيطان.

قال الفلكي باسماً: تعال إلي إذاً، فإنّ عليّ أن أرى طالع السيّد توشيه دي بوڤيه رئيس محكمة الإقطاعيين، والد الفتاة التي حازت على إعجاب دوق اورليان الصغير، وقد رأيت طالع هذه الصغيرة، وهو يشير إلى أنها ستكون سيدة ذات شأن

يحبّها ملك. ورئيس المحكمة رجل ذو عقل واع محب للعلوم، وقد أسكنتني الملكة لدى هذا الرجل المتظاهر بأنه من أشد أنصار آل غيز بانتظار ملكية شارل التاسع[1].

انتقل الفرّاء والفلكي إلى قصر السيّد بوڤيه دون أن يراهما أو يصادفهما أحد، لكن الفلورنسي كان عازماً، في حال اكتشاف زيارة لكاموس له، على أن يقدّم استشارته كفلكي حول مصير كريستوف كذريعة. عندما وصلا إلى أعلى البريج الذي أقام فيه الفلكي مرصده، سأله لكاموس: «أنت متأكد أن ولدي مايزال حيّاً؟».

أجاب روجييري: إنّه على قيد الحياة إنّما ينبغي إنقاذه، لكن تأكّد ياتاجر الجلود أنني لن أضحي بفلسين مقابل جلدك، إن أفلتت كلمة واحدة مما سأقوله لك طيلة حياتك.

ـ توصية لا مبرّر لها، يامعلّم، فأنا مزوّد البلاط منذ المرحوم الملك لويس الثاني عشر، وهذه هي الملكية الرابعة التي اراها.

عقب روجييري قائلاً: وسترى الخامسة عمّا قريب.

ـ ماذا تعرف عن ولدي؟

ـ إيه! الواقع أنه خضع للاستجواب تحت التعذيب.

رفع العجوز عينيه إلى السماء وقال: «ياللولد المسكين!». لكن الفلورنسي عندما لاحظ رعبه استدرك قائلاً: «إن ركبتيه وعرقوبيه تعرضت لبعض الانسحاق؛ لكنه اكتسب حماية ملكية ستشمله طيلة حياته، إن ابنك كريستوف الشاب قد أدّى

---

(١) يحرص بلزاك على ادخال شخصيات تظهر مجدداً بين قصة وأخرى، والقاريء يكتشف هنا كوسم روجييري وكذلك ماري توشيه اللذين سيرد ذكرهما مفصلاً في **اعتراف الروجييريين**. إن المؤرخين لا يذكرون روجييري إلا بمناسبة قضية لامول وكوكوناس أي في فترة أحداث «اعتراف الروجييريين».

أما التطرّق لماري توشيه فتفنّن من الروائي أن يعيد معرفتها بشارل التاسع إلى العام ١٥٦٠، لكن الإشارة إلى والدها والتنبوء بعلاقتها مع الملك فهما تلميح دقيق إلى القصة التي ستكون فيها الشخصية الرئيسة.

خـدمــة لملكتنا الجليلة كـاترين، وإذا تمكّنا من أن ننتـزع ابنك من براثن اللوريني فستجده يوماً مستشاراً في البرلمان. إن الحصول على حظوة هذه الملكة العزيزة يستحق أن يكسر الإنسان عظامه في سبيلها ثلاث مرات. إنّها عبقرية رائعة، وستتغلب على جميع العقبات!

وقد كشفت عن طالع الدوق دي غيز وسيقتل خلال سنة من هذا التاريخ[1]! لنعد إلى موضوعنا إن كريستوف قد رأى أمير كونده...

قال الفرّاء: أنت الذي تكشف عن المستقبل، أليس لديك علم بالماضي؟

ـ أنا لا أسألك أيّها الرجل الطيب، وإنّما أخبرك، والحال أن ابنك، وهو سيوضع غداً في طريق الأمير، فإن عرفه، أو أن الأمير تعرف عليه، فإن رأس أمير كونده سيسقط والله يعلم ماذا سيحل بالمتواطىء معه! لكن اطمئن فلن يموت ابنك ولن يموت الأمير؟

لقد قرأت طالعهما وسيعيشان، لكنني لا أعرف بأيّ الوسائل سيتخلصان من هذه الورطة، ودون الإعتماد على صحة حساباتي، سنتخذ بعض الاحتياطات. غداً سيتلقى الكونت من أيد أمينة كتاب صلاة سنحرّر له فيه تنبيهاً. ولنتضرع إلى الله ليلهم ابنك الكتمان والحذر لأنه لن يُخطَر أو ينبّه! وهكذا فإن نظرة تعرّف واحدة تكلّف الأمير حياته؛ لكن الملكة الأم لديها مايحملها على الاعتماد على أمانة كريستوف...

هتف الفرّاء: لقد برهن على ذلك من خلال المعاناة القاسية التي تعرّض لها.

ـ لا تتحدث بهذه الطريقة! هل تعتقد أن الملكة مرتاحة البال؟ هكذا فهي تأخذ احتياطاتها وكأنّ الأخوين دي غيز قد صمّما على موت الأمير؛ وحَسَناً فعلت، فهي تتصرّف كملكة عاقلة حذرة! والحال إنها تعتمد عليك لتساعدها في كل أمر، إن لك نفوذاً لدى نواب الطبقة الثالثة على اعتبار أنّك تمثّل نقابة حرفيي

---

(١) قتل الدوق دي غيز بعد ستة وعشرين شهراً من وفاة فرنسوا الثاني، وقد قتله بولترو البروتستنتي في شباط ١٥٦٣.

باريس، فإن وعدك آل غيز بأنهم سيطلقون سراح ابنك فتظاهر بأنك ستخدع بهم ووجّه نواب طبقتك ليقفوا ضد اللورينيين، اطلبوا أن تكون الملكة الأم وصيّة على العرش، إن ملك ناڤار سيطالب بذلك غداً وبشكل علني في اجتماع المجلس.

ـ لكن الملك؟

ردّ روجييري: الملك سيموت لقد كشفت طالعه[1]، ماتطلب الملكة أن تقوم به من أجلها بسيط جداً، لكنها تنتظر منك خدمة أكبر، لقد مددت يد العون لامبرواز پاره الشهير في فترة دراسته وأنت صديق له...

ـ امبرواز يحبُّ اليوم الدوق دي غيز أكثر مما يحبني، وهو محقّ إذ أنه مدين له بمنصبه، لكنه أمين للملك، وهكذا فبالرغم من ميله إلى البروتستنتية فإنه لايقوم بأي عمل مخالف لواجبه.

هتف الفلورنسي: فليأخذ الطاعون هؤلاء الأشخاص الشرفاء. إنّ امبرواز قد تفاخر هذا المساء بأنه سيتمكن من إنقاذ الملك الشاب من مرضه الخطير، فإن استعاد الملك صحته، فإن الأميرين سيموتان، وسيُقضى على آل بوربون، وسنعود إلى فلورنسة، وسيشنق ولدك، وسينتصر اللورنييان بسهولة على بقية أبناء فرنسة.

هتف لكاموس: ايّها الربّ القدير!

لاتبدِ مثل هذا الانذهال، إنه تصرّف بورجوازي لايعرف شيئاً عن البلاط الملكي. لكنَ اذهب حالاً إلى امبرواز، واسأله عما ينوي فعله من أجل إنقاذ حياة الملك. إن كان على يقين من أمره فتعال واطلعني على طريقة المعالجة التي يثق بها.

قال لكاموس: ولكن...

ـ أطع ياعزيزي دون تبصّر وإلا فستزداد ذهولاً.

فكر الفرّاء: «إنّه على حقّ» وذهب إلى جرّاح الملك الأوّل في مقر إقامته في فندق على ساحة مارتروا.

---

(١) هذا يؤكد ثقة المنجمين بحساباتهم وأهمية السحر والتنجيم في القرن السادس عشر.

في تلك الفترة كانت كاترين دي مديسي في ظرف سياسي مماثل لذلك الذي رآها كريستوف فيه في قصر بلوا، وإذا كانت قد ألفت الصراع، وإذا كانت قد شحذت ذكاءها الفائق من ذلك الإخفاق الأوّل، فإن وضعها بالرغم من أنه مماثل تماماً للوضع الأوّل، غدا أكثر حرَجاً وأكثر خطراً منه أثناء بلبلة آمبواز؛ فالأحداث قد كبرت بقدر ماكبرت المرأة. وبالرغم من أنّها بدت تسلك سياسة اتفاق مع الأميرين اللورينيين فإن كاترين كانت تمسك خيوط مكيدة معدّة بمهارة ضد شريكيها الرهيبين، وكانت تنتظر اللحظة المناسبة لتكشف عنها القناع. وقد تولّدت القناعة لدى الكردينال بأن كاترين تخدعه؛ فقد رأت تلك الايطالية الماهرة في بيت الابن الثاني حاجزاً تصد فيه أطماع آل غيز، وبالرغم من نصيحة الأخوين غوندي اللذين نصحاها بأن تفسح المجال أمام آل غيز ليمارسوا أعمال عنفهم على آل بوربون، فإنها قد أحبطتها بتنبيه ملكة ناقار بمشروع الأخوين دي غيز المدبّر مع ملك اسبانية للاستيلاء على بيارن[1]. وبما أن هذا السرّ الدولي لم يطلع عليه أحد إلاهما والملكة الأم، فإنّ الاميرين اللورينيين تيقنا من ازدواجية حليفتهما، وأرادا إعادتها إلى فلورنسة، ولكي يتأكدا من خيانتها للدولة (كان بيت لورين هو الدولة) فقد أسرّا لها برغبتهما في التخلص من ملك نافار، والاحتياطات التي اتخذها سريعاً أنطوان دي بوربون، برهنت للأخوين على أن هذا السرّ المنحصر بهما وبالملكة قد أفشته الملكة الأم؛ وقد لام الكردينال دي لورين الملكة الأم في الحال على عدم إخلاصها لعرش فرنسوا الثاني، وهدّدها بإصدار مرسوم بنفيها في حال افشاء أسرار جديدة تعرّض الدولة للخطر، ورأت كاترين نفسها آنذاك في خطر كبير وعليها أن تتصرّف كملكة كبيرة. وبرهنت آنذاك على قدرتها العالية. لكن يجب الاعتراف أيضاً بأنها خدمت باخلاص من قبل أصدقاء أوفياء. فقد عمل لوسبيتال على أن يوصل إليها رسالة ينصح فيها: «بألاّ تسمح بالقضاء على أمير من السلالة الملكية من قبل لجنة ستعمل

(١) مملكة ناقار: مملكة اسبانية نشأت في القرن التاسع في البيرنية، لكنها اتحدت في العام ١٢٨٤ مع فرنسة خشية المملكة الاسبانية الناشئة في اتحاد كاستيل، وأراغون وبقي بها ملك من أسرة بوربون يدين بالولاء للعرش الفرنسي لأن قسمها الأكبر وهو بيارن منطقة فرنسية إنما تضم أيضاً ٤٠ كم٢ مربعاً في اسبانية.

عند ذلك على خلعها أيضاً. وقد أرسلت كاترين عند ذاك بيراغ إلى ڤينياي ليطلب من رئيس القضاء أن يأتي لحضور جلسات المجلس رغم النقمة عليه، ووصل بيراغ في تلك الليلة نفسها على بعد ثلاثة فراسخ من أورليان مع لوسبيتال الذي صرّح بأنه مؤيّد للملكة الأم. وتمكن شيفرني، وكان قد اشتبه، عن حق، بولائه للسيدين دي غيز، من الهرب من أورليان، في مسيرة كادت تكلّفة حياته، فوصل إكوان في عشر ساعات، وأنبأ قائد الجيش بالخطر الذي يهدّد حياة ابن اخته أمير كونده، وتطاول اللورينيين عليه، وغضب آن دي مونمورونسي عندما علم أن حياة الأمير مدينة للتطورّ الخطير المفاجىء في المرض المهدّد بالموت لفرنسوا الثاني فوصل في ألف وخمسمئة خيال ومئة نبيل وليفاجىء حقاً السيّدين دي غيز فإنه تجنّب باريس فجاء من إكوان إلى كوربي، ومن كوربي إلى بتيڤيان عبر وادي الإسّون[1]. لقد قيل بمناسبة تلك المسيرة الجريئة السريعة: «عندما يجابه قائد كبير قائداً آخر فلا وقت للراحة».

كان آن دي مونمورونسي قد أنقذ فرنسة عند غزو بروڤنس من قبل شارل كنت، وكان الدوق دي غيز قد أوقف الغزوة الثانية للامبراطور على متز، فكانا أكبر رجلي حرب في فرنسة خلال تلك الحقبة، وقد انتظرت كاترين اللحظة المناسبة لإيقاظ حقد قائد الجيش المغضوب عليه من قبل اللورينيين؛ غير أن المركيز دي سيموز قائد حامية جيين، عندما علم بهذه المسيرة الحاشدة للقائد العام هبّ بسرعة إلى حصانه منطلقاً به ومؤمّلا أن ينذر الدوق دي غيز في الوقت المناسب. كانت الملكة الأم واثقة من مجيء قائد الجيش لنصرة ابن أخته وملؤها الثقة بإخلاص رئيس القضاء لوسبيتال للشرعية الملكية فجمعت أنصارها وأحيت آمال وجرأة الحزب

---

(١) يذكر جرمو أنه جاء من شانتيي في الف وخمسمئة نبيل، ولكن وفقاً لمذكرات لابلاس، فإنه انطلق من قصره في إكوان. وقد كان آن دي مونمورونسي (١٤٩٣ ـ ١٥٦٧) قائداً للجيش وأحد المقرّبين من هنري الثاني، وأحد كبار المدافعين عن الكاثوليكية، لكن الدوق دي غيز حدّ كثيراً من صلاحياته التي استعادها بعيد مقتل الدوق في العام ١٥٦٣ وقد توفي بعده بأربع سنوات (١٥٦٧) بعد أن جرح في معركة سان دنيس ضد البروتستنت.

البروتستنتي وبذلك انضم إليها آل كولينيي مع آل بوربون وتشكّل تحالف ضمّ جميع هذه الفئات المتضاربة المصالح فوحّد الجميع ضد آل غيز العدو المشترك وقامت جبهة في مجلس طبقات الشعب لتسمية كاترين وصية على العرش في حال وفاة فرنسوا الثاني. كان إيمان كاترين بعلوم السحر والتنجيم يفوق إيمانها بالكنيسة، فتصدّت بجرأة لمضطهديها وهي ترى ابنها سائراً إلى الموت في نهاية المدة التي حدّدتها لحياته العرّافة الشهيرة التي أتى بها نوسترا داموس إلى قصر سُومون.

قبل عدة أيام من نهاية مُلْك فرنسوا الثاني؛ أراد هذا العاهل أن يتنزه عبر اللواركي لايوجد في المدينة عند إعدام أمير كونده، بعد أن تخلّى عن رأس هذا الأمير للكردينال دى لورين. كان يخشى تمرّداً عدا عن خشيته من التماسات أميرة كونده. وفي لحظة صعوده إلى إحدى السفن التي تمخر اللوار سببت له إحدى هذه الرياح الرطبة التي تهب على النهر مع اقتراب فصل الشتاء ألماً شديداً في أذنه، بحيث اضطر إلى العودة[1] واللجوء إلى السرير الذي لم يغادره إلا ميتاً. حكم پاره خلافاً لرأي الأطباء الذين كانوا، باستثناء شاَپلن، أعداءه ومنافسيه، أن دُمّلا داخلياً قد تشكّل في رأس الملك، ويجب إيجاد مخرج للقيح المتراكم وإلا فإنّه سيزداد ويتجمع في الرأس مهدّداً حياة العاهل الشاب. كان نور مصباح پاره يشعّ من نافذته وهو جالس يراجع كتبه الطبية، ورغم الساعة المتأخرة من الليل وقانون منع التجوّل المطبق على أورليان المعتبرة في حالة حصار، فإن لكاموس نادى صديقه من أمام فندقه فعرفه وأمر بفتح الباب له.

قال الفرّاء عند دخوله: «أنت لا ترتاح أبداً يا امبرواز وبينما تعنى بحياة

---

(١) لا يكتفي بلزاك بالاعتماد على مرجع واحد، وهو هنا يبتعد عن جرمو الذي يذكر أن فرنسوا الثاني قد أغمي عليه وهو في الكنيسة. وبلزاك يتبع ما جاء تقريباً في مقال من **السيرة الشاملة** الذي يذكر أن الملك أراد ألا يكون شاهداً على تنفيذ حكم الإعدام بأمير كونده، فعزم على مغادرة المدينة، عندما أحسن بألم عنيف ناتج عن دمّل خلف أذنه. وقد ابتكر بلزاك قصة التنزّه في سفينة عبر اللوار، والهواء الرطب المعلن بدء الشتاء. إنّما مقال السيرة الشاملة يشير إلى التعارض والخلاف القائمين بين پاره والأطباء حول طريقة العلاج.

الآخرين فإنك تهمل حياتك. رأى لكاموس في الواقع صديقه القديم، وقد فتح كتبه، وتناثرت أدواته، وأمامه رأس ميت يبدو أنه منتزع من جثة حديثة الدفن وهو يجري تجارب ثقبه.

رد الطبيب: إن الأمر يتعلّق بإنقاذ حياة الملك.

هتف العجوز مرتعشاً: هل أنت واثق من قدرتك على ذلك يا آمبرواز.

ـ كثقتي بوجودي. إن الملك، معيني العزيز مصاب بأخلاط قيحية تثقل على مخّه، وتملأ رأسه، والأزمة الخطيرة محتّمة، لكنني آمل بثقب الجمجمة من إخراج هذه الأخلاط وتخليص الرأس منها: مارستُ ثلاث مرات هذه العملية المبتكرة من قبل طبيب بيمونتي، وساعدني الحظ على تطويرها. كانت الأولى أثناء حصار متز، على السيد بيين، الذي أنقذته من خطر الموت، وغدا مثال العقل بعد أن خلصته من توضع أخلاط نتجت عن طلقة قربينة عن قرب. وأنقذت في الثانية حياة رجل فقير رغبت أن أبرهن في علاجه على نجاعة هذه العملية التي أجريتها للسيد پيين؛ وتمت الثالثة في باريس على نبيل يتمتع الآن بكامل عافيته. إن المرضى يخشون هذه العملية بسبب عدم دقة الأداة المستعملة، لكنني تمكنت من تحسينها، وأنا أجرّب الآن على هذا الرأس بحيث أتجنّب الخطأ على رأس الملك في الغد.

ـ يجب أن تكون واثقاً جداً من عملك. إذ أن رأسك سيكون في خطر إن ...

أجاب آمبرواز بثقة الرجل العبقري: إنني أراهن بحياتي على أنه سيشفى. آه! ياصديقي العزيز، أي خطر في ثقب رأس بحذر؟ ألا يفعل الجنود ذلك كل أيام الحرب دون أيّة حيطة؟

قال البورجوازي الجريء: يابنيّ، أتعلم أن إنقاذك للملك ضياع لفرنسة؟ أتعلم أن هذه الأداة ستضع تاج آل ڤالوا على رأس اللوريني الذي يعتبر نفسه وريث شارلمان؟

أتعلم أن الجراحة والسياسة مختلفتان في هذه اللحظة؟ نعم إن انتصار عبقريتك هو خسارة للدين. إن انتزع آل غيز الملك فإن دم الإصلاحيين الدينيين سيسفح هدراً وبغزارة؟

كن مواطناً عظيماً أكثر منك جراحاً عظيماً، فنم حتى ساعة متأخرة من صباح غد مفسحاً المجال للأطباء الآخرين الذين إن لم يشفوا الملك، فسيشفون فرنسة.

هتف پاره: «أتنتظر مني أنا أن أترك رجلاً يهلك بينما يمكنني إنقاذه. كلا! كلا! حتى لو كنت مهدداً بالشنق باعتباري من مثيري فتنة كالفن. ساذهب غداً في ساعة مبكرة إلى البلاط الملكي، ألا تعلم أن المنّة الوحيدة التي سأطلبها هي العفو عن ابنك كريستوف.

ستكون لحظة لن ترفض لي بها الملكة ماري بالتأكيد طلباً.

قال لكاموس: للأسف ياصديقي، ألم يرفض الملك الشاب العفو عن أمير كونده بعد التماس الأميرة؟

لاتقتل مذهبك بإحيائك لذلك السائر إلى الموت.

هتف پاره: ألا تتدخل في كيفية تنظيم الخالق لشؤون المستقبل؟! إن للرجال الشرفاء شعاراً واحداً هو: «قم بواجبك، مهما حدث!» هذا مافعلته عند حصار كاليه بوضع رجلي على وجه المعلم الأكبر[1]، جازفت بأن يقطّعني أصدقاؤه وخدمه إرباً، وأنا الآن جرّاح الملك، أخيراً أنا الآن مع البروتستنتية، ورغم ذلك، يكنّ لي الأخوان دي غيز الصداقة.

ثم هتف الجرّاح بحماس اليقين المقدس الذي تمنحه العبقرية: «سأنقذ الملك والله ينقذ فرنسة».

سمع طرق على الباب، وبعد فترة جاء خادم آمبرواز يحمل ورقة للكاموس قرأ فيها بصوت عال الكلمات المشؤومة التالية: «تقام منصّة أمام دير ركوله[2] لقطع رأس أمير كونده غداً».

---

(١) إشارة إلى انتزاعه السهم الذي أصيب به الدوق دي غيز وانقاذه من خطر الموت.

(٢) كان هذا الدير في القرن السادس عشر يسمى دير كوردليه (أي الحبّالين) وهم فئة من الرهبان الفرنسيسكان ولمْ يسمُ دير ركوله (أي المتأمّلين) وهم فئة أخرى من الرهبان إلا بعد العام ١٦١٠.

تبادل امبرواز ولكاموس النظر وهما فريستا رهبة عميقة.

قال الفرّاء: سأذهب لأتأكد.

في الساحة تأبط روجييري ذراع لكاموس طالباً منه البوح بسرّ آمبرواز لانقاذ حياة الملك، لكن العجوز خشي الخديعة وأراد أن يذهب ليرى المنصّة؛ وهكذا ذهب الفلكي والفرّاء مترافقين ووجدا في الواقع النّجارين يشتغلون على ضوء المشاعل.

سأل لكاموس نجاراً: «قل! ياصديقي، أي عمل تقومون به هنا؟

قال راهب شاب يراقب العمال: «إننا نعدُّ لشنق الهراطقة إذ يبدو أن فصاد آمبواز لم يشفهم».

قال روجييري الحذر: «إن صاحب الغبطة الكردينال على حقّ، لكن في بلادنا نفعل ماهو أفضل».

قال الراهب: وماذا تفعلون؟

ـ يا أخي، إننا نحرقهم.

اضطر لكاموس أن يستند على الفلكي، إذ لم تعد ساقاه قادرتين على حمله، فقد فكّر في أن ابنه يمكن أن يعلق على إحدى هذه المشانق. كان العجوز المسكين بين علمين علم السحر والتنجيم وعلم الجراحة، وكلاهما يعده بإنقاذ ابنه بينما المشنقة تنصب من أجله بداهة، فكان في تشوّش أفكاره كعجينة يكيفها الفلورنسي كيفما أراد.

قال روجييري: إيه! يا تاجر الفراء المحترم، ماذا تقول بهذه الفكاهات اللورينية؟

ـ للأسف! أنت تعرف أنني أهب حياتي لرؤية ولدي سليماً معافى.

قال الايطالي: هذا كلام حسن من تاجر فرو القاقم؛ لكن اشرح لي العملية التي عزم امبرواز على إجرائها للملك، وأنا أضمن لك حياة ابنك.

هتف الفرّاء العجوز: حقّاً!

قال روجييري: بماذا تريد أن أقسم لك؟ ...

عند هذه الحركة كرّر العجوز الحديث الذي تمّ بينه وبين آمبرواز للفلورنسي الذي تركه بعد ذاك في قمة اليأس يجوب الشارع بعد أن حصل منه على سرّ الجرّاح الكبير.

«إلى أي شيطان ينتمي هذا الكافر؟!» هتف العجوز وهو يرى روجييري يتوجه بخطا سريعة نحو ساحة استاب.

كان لكاموس يجهل المشهد الرهيب الذي يدور حول السرير الملكي، والذي يبّرر الأمر بإقامة منصة إعدام الأمير، وقد تمّ الحكم عليه غيابياً - إن صحّ التعبير - وأجِّل التنفيذ نظراً لمرض الملك.

لم يكن في الصالة وعلى أدراج قصر المشرف الملكي وفي بهوه، إلا الأشخاص المكلّفون بالخدمة؛ بينما يتزاحم جمهور المتملقين في قصر ملك نافار، الذي تعود إليه الوصاية على العرش وفقاً لقوانين المملكة، فشعرت النبالة الفرنسية وقد ارعبتها جرأة آل غيز، بالحاجة لرصّ صفوفها حول زعيم بيت الفرع الثاني من السلالة الملكية، امام رؤية الملكة الأم عبدة لآل غيز، وتعذر فهم سياسة الإيطالية؛ وكان أنطوان دي بوربون أميناً على اتفاقه السرّي مع كاترين القاضي بعدم التنازل لها عن وصاية العرش إلا عندما يصدر المجلس قراراً بهذا الخصوص. هذه الوحشة العميقة أثّرت على المعلم الأكبر، عندما لم يجد بعد جولة احتراس أجراها في المدينة لدى الملك إلا الأصدقاء المتعلّقين بثروته. كانت الغرفة التي أقيم فيها سرير فرنسوا الثاني ملاصقة للقاعة الكبرى في قصر المشرف؛ وهي مبطنة بخشب السنديان، والسقف على أساس ذهبي. وقد اقتلعت منذ خمسين سنة من الوقت

الحاضر وجمعت من قبل هاو للأشياء القديمة[1]. كانت هذه الغرفة الملأى بالسجف المعلّقة، والمغطاة أرضيتها بسجادة تبدو معتمة إذ أن الشمعدانات الكبيرة لا تعطي فيها إلا نوراً شاحباً، والسرير الكبير ذو الأعمدة الأربعة والستائر الحريرية يشبه القبر، وفي جهة منه قرب رأسه تجلس الملكة ماري والكردينال دي لورين، بينما جلست الملكة كاترين على كرسي وثير جانباً، والطبيب الشهير جان شابلن، طبيب الخدمة، والذي غدا بعد ذلك الطبيب الأول لدى شارل التاسع يقف قرب المدفأة. والصمت الكبير سائد؛ والملك الشاب، هزيل، شاحب يبدو غائصاً في أغطيته، يبدو منه بصعوبة على الوسادة وجه صغير متغضن. والدوقة دي غيز على كرسي صغير في خدمة الملكة ماري، بينما السيّدة دي فيسك إلى جانب الملكة كاترين قرب النافذة، ترقب حركات الملكة الأم ونظراتها وهي عارفة بأخطار وضعها.

في القاعة، خارجاً، رغم الساعة المتأخرة من الليل، كان السيد سيبيير مربي دوق أورليان، والذي سمّي حاكماً للمدينة يشغل زاوية قرب الموقد وإلى جانبه الأخوان غوندي؛ والكردينال دي تورنون الذي تبنّى في هذه الأزمة مصالح الملكة الأم، بعد أن رأى نفسه يعامل من قبل الكردينال دي لورين وكأنه ذو رتبة أدنى مع أنه معادله كهنوتياً؛ وكان يتحدث بصوت منخفض مع الأخوين غوندي؛ بينما راح المارشالان ڤييفيل وسان آندره[2]، حامل أختام الملك، الذي كان يرأس المجلس يتحدثان بصوت منخفض عن الأخطار التي يتعرّض لها الأخوان دي غيز.

اجتاز القائد العام للمملكة القاعة وهو يلقي عليها نظرة سريعة وحيّا الدوق أورليان عندما لاحظ وجوده فيها قائلاً:

---

(١) لعل ذلك من ذكريات زيارة بلزاك لأورليان، إذ لا يشير أي دليل لأورليان أو أية دراسة عن قصر غروسلو إلى هذا السقف ذي التجاويف، ويمكن التأكيد فقط أن في العام ١٧٩٣ حدثت بعض القلاقل في أورليان وصدر أمر بحذف كل ما يشير إلى عهد الاقطاع والملكية على أرض المقاطعة.

(٢) في مسرحية جرمو يبدو ڤييفيل أحد متملقي الدوق دي غيز وقد نوّه الدوق بدوره إلى جانب بورجوازيي اورليان كما يبدو من النص أن المارشال سان آندره كان يشغل منصب حامل أختام الملك ويرأس المجلس بدلاً من رئيس القضاة لوسبيتال المعتبر بحكم منصبه رئيساً له.

«ياصاحب السمو، اليك مايمكن أن يعطيك فكرة لاختبار الرجال: إن النبالة الكاثوليكية في المملكة مجتمعة عند أمير من الهراطقة، اعتقاداً منها بأن مجلس الطبقات سيمنح الوصاية على العرش إلى ورثة الخائن الذي احتجز لمدة طويلة في السجن جدك الشهير[1].

بعد هذه الكلمات الموجّهة لإحداث شرخ عميق في قلب الأمير الصغير، دخل الدوق غرفة الملك الشاب الذي لم يكن نائماً، وإنما غارقاً في سبات عميق. في العادة كان الدوق دي غيز يعرف كيف يتغلّب بمسحة من البشاشة على المظهر العبوس في وجهه النديب؛ لكنه لم يكن يقوى في هذه الفترة على الابتسام وهو يرى أداة سلطته تتحطّم؛ وتقدّم الكردينال وهو في شجاعته المدنية بقدر أخيه في الشجاعة العسكرية من القائد العام للملكة.

وهمس في أذنه وهو يسير به إلى القاعة: «إن روبرته يعتقد أن بينار[2] قد باع نفسه للملكة الأم وهي تستخدمه لجذب أعضاء المجلس لتأييد سياستها.

قال القائد العام للملكة: وما أهمية أن يخوننا سكرتير، ونحن نرى الجميع مستعدين لخيانتنا. إن المدينة مع البروتستنت، ونحن في عشية ثورة، نعم إن أهل أورليان غير راضين، وإذا لم يتمكن پاره من إنقاذ الملك، فسنشهد معارضة عامة

(١) هذا التلميح يشير إلى معركة پافي في العام ١٥٢٥، حيث تحالف قائد الجيش دي بوربون مع شارل كنت وقاتل ضد فرنسوا الأول، وتمكّن أحد النبلاء من أتباعه أن يأسر الملك. ويعتبر انطوان دي بوربون أحد أقارب هذا القائد، إنما من الدرجة السادسة فقط، وهو يمثل الفرع الثاني من آل بوربون وبذلك لايعتبر وريث هذا القائد، الذي توفي بعد ذلك في هجومه على رومه في العام ١٥٢٧، والذي صودرت أملاكه من قبل فرنسوا الأول. لكن لنشر أن انطوان دي بوربون هو ابن لنبيل اسمه أيضاً شارل دي بوربون، دوق دي ڤندوم، المتوفى في العام ١٥٣٦ وأنّه توصل إلى ملكية ناڤار في العام ١٥٥٥، بمقدرة ودهاء زوجته جان دالبر (١٥٢٨ ـ ١٥٧٢) كما تمكّن ابنهما هنري (١٥٥٣ ـ ١٦١٠) الذي خلف أباه على عرش نافار في العام ١٥٦٢ تحت وصاية أمه، وتزوّج في العام ١٥٧٢ مرغريت دي ڤالوا ابنة هنري الثاني وكاترين دي مديسي، من أن يغدو ملكاً على فرنسة في العام ١٥٨٩.

(٢) كان بينار سكرتيراً للملك في العام ١٥٥٨، وحاز على ثقة الملكة كاترين، وأصبح في العام ١٥٧٠ سكرتير دولة وبهذه الصفة يظهره بلزاك في «**اعترافات الروجييريين**».

عنيفة، وعلينا قبل فوات الوقت محاصرة أورليان، مأوى الضفادع الهوغنوتيين.

قال الكردينال: منذ فترة وأنا أرقب هذه الايطالية القابعة في برود عاطفة عميق تترصّد موت ابنها، فليسامحه الله، أتساءل إن لم يكن من الأفضل أن نلقي عليها القبض هي وملك نافار.

أجاب الدوق: «يكفي مانعاني من وجود أمير كونده في السجن».

سمعت جلبة فارس يصل خبباً إلى باب القصر، وذهب الاميران اللورينيان إلى النافذة وعلى ضوء مشعلي البواب والحارس الموقدين دائماً تحت رواق المدخل؛ ميّز الدوق على القبعة صليب اللورين الشهير الذي طلب الكردينال من أتباعه أن يضعوه شارة مميزة لهم. وأرسل أحد أفراد الحرس الموجودين في مدخل القاعة للسماح للوافد بالدخول، وذهب مع أخيه لملاقاته على عتبة القاعة.

سأل الدوق بلطف أسلوبه الذي تعوّد أن يتعامل به مع رجال الحرب عندما رأى حاكم جيين: «ما الأمر ياعزيزي سيموز؟

ـ إن القائد العام للجيش في بيتيغيه، وقد ترك إكوان مع ألف وخمسمئة فارس ومئة نبيل.

سأل الدوق: وهل لديهم مرافقة.

أجاب سيموز: «نعم ياسيدي انهم في مجموعهم ألفان وستمئة، ووفقاً للأخبار، فإن توره[1] في الخلف مع سريّة مدفعية، فإذا تباطأ القائد بانتظار وصول ابنه تسنى لك الوقت لدحره.

ـ ألاتعرف شيئاً آخر؟ هل سرت الأخبار عن دوافع هذا النهوض المسلح؟

قال الكردينال وهو يعطي أمراً لرسول يستدعي له روبرته: «إن آن قليل الكلام والكتابة، فاذهب لملاقاته بينما سأتبعك لتحيته ومعي رأس ابن أخته.

---

(١) غيّوم دي توره: هو الابن الأصغر لآن دي مونمورونسي. ووفقاً للابلاس ودي تو، فإن الابن البكر، للمارشال دي مونمورونسي هو الذي رافق أباه.

هتف الدوق بالمارشال ڤيڤيل الذي أسرع للوقوف أمامه: «فييفيل، إن القائد العام قد تجرأ على المجيء إلينا على رأس حشد مسلح، فإن انطلقت لقتاله فهل بإمكانك أن تحافظ على الأمن في المدينة».

أجاب المارشال: ما أن تخرج حتى يهب البورجوازيون بالسلاح ومن يعلم ماذا ستكون النتيجة بين البورجوازيين والخيّالة وسط هذه الشوارع الضيّقة.

قال روبرته وهو يصعد بسرعة الدرج: «سيدي إن رئيس القضاء على أبواب المدينة، ويريد الدخول، فهل علينا أن نفتح له؟».

أجاب الكردينال دي لورين: «افتحوا فمن الخطر وجود قائد الجيش ورئيس القضاء معاً، ويجب فصلهما، لقد تمكنت الملكة الأم من أن تخدعنا في اختيار لوسبيتال لهذا المنصب».

أعطى روبرته إشارة ايجاب برأسه للنقيب الذي ينتظر جوابه في أسفل الدرج وعاد بسرعة ليتلقى أوامر الكردينال.

قال روبرته وقد بدا عليه أنه يبذل جهداً للتصريح بما في نفسه: «سيدي، سأتجرأ على البيان بأن حكم الإعدام يجب أن يصدّق من قبل الملك في مجلسه الرسمي، وإذا خالفتم القانون من أجل أمير من السلالة المالكة، فإنه لن يُحتَرم لا من أجل كردينال، ولا من أجل الدوق دي غيز».

قال الكردينال بصرامة: «لقد أفسدك بينار ياروبرته! ألا تعلم أنّ الملك قد وقع القرار في اليوم الذي خرج فيه ليترك لنا حرية شنقه».

ـ بالرغم من أنك تطلب مني رأسي تقريباً وأنت تعهد إليّ بهذه المهمة، التي ستنفذ مع ذلك من قبل قائد شرطة المدينة. فإنني سأمتثل ياسيدي.

سمع المعلم الأكبر هذا النقاش دون أن يبدو عليه القلق، لكنه تأبّط ذراع أخيه وقاده إلى زاوية في القاعة وقال له: من المؤكّد أن لورثة شارلمان الحق في أن يستعيدوا تاجاً اغتصبه هوغ كابت من آل بيتهم، لكن هل يستطيعون ذلك؟ إنّ الإجاصة لم تنضج بعد. وزوج ابنة أختنا يموت، والبلاط بكامله لدى ملك ناڤار.

قال الكردينال: إنَّ قلب الملك قد وهن وإلاّ لكان البيارني قد انتهى، ولسهل علينا الإنتصار على الأولاد[1].

قال الدوق: إننا في وضع سيّء هنا، وعصيان المدينة سيدعمه مجلس الطبقات، ولوسبيتال الذي حميناه، والذي قاومت الملكة كاترين تسميته لهذا المنصب هوضدنا الآن؛ ونحن بحاجة إلى القضاء، والملكة الأم مدعومة بكثير من الناس اليوم، بحيث لا نستطيع طردها. اضافة إلى أنه مايزال لديها ثلاثة أمراء.

قال الكردينال: لم يعد لديها شعور الأم، انّها ملكة كلياً؛ وهكذا فالفترة مناسبة بالنسبة لي للانتهاء منها. فلنظهر العزم ومزيد من العزم ايضاً؛ هذا هو قراري.

بعد هذه العبارة، دخل الكردينال إلى غرفة الملك يتبعه المعلم الأكبر، وذهب مباشرة إلى الملكة الأم وقال لها: لقد اطلعت على أوراق لاساغ سكرتير أمير كونده، ألا تعلمين أن آل بوربون يريدون انتزاع العرش من أولادك؟

أجابت الايطالية: أنا أعلم كل ذلك.

ـ حسن، أتريدين توقيف ملك ناڤار؟

قالت: هناك قائد عام للمملكة.

في تلك اللحظة شكا فرنسوا الثاني من آلام عنيفة في الأذن وراح يتأوّه بلهجة تدعو للرثاء.

ترك الطبيب الموقد حيث كان يتدفأ، وجاء يفحص حالة الرأس.

قال المعلم الأكبر موجّهاً كلامه للطبيب الأوّل: إيه! ماذا ترتئي أيّها السيد؟

ـ لا يمكنني تحمّل المسؤولية لوضع كمّادة تجذب الأخلاط وقد وعد المعلم آمبرواز بإجراء عملية ينقذ فيها الملك، وأنا غير موافق عليها.

---

(١) يغير بلزاك هنا في موقع حوار صريح يبيّن فيه جرمو (بلبلة آمبواز ـ أورليان ـ المشهد التاسع) عزم الكردينال على اغتصاب العرش وتنصيب أخيه دي غيز ملكاً، وتردّد دي غيز، لكنه يتعرض هنا بشكل تلميح إلى محاولة اغتيال ملك نافار نتيجة جدال يستفزه فيه الملك. لكن فرنسوا الثاني تراجع عن المحاولة ورفضها رغم تشجيع الكردينال.

قالت كاترين ببرود: «فلنؤجّل الموضوع إلى الغد، وليكن جميع الأطباء هنا، فأنتم تعلمون مدى الإفتراءات التي يثيرها موت الأمراء». وتقدّمت فقبلت يد ابنها وانصرفت.

هتفت الملكة ماري ستيوارت: «بأيّ هدوء تتحدث ابنة التاجر الجريئة هذه عن موت ولي العهد السابق الذي سمّمه أحد أتباعها الفلورنسي مونتكوكولي».

هتف الملك الشاب: ماري! إن جدّي لم يضع براءتها موضع شبهة البتّة! ...

قالت الملكة لخاليها بصوت منخفض: هل يمكن منع هذه المرأة من الحضور غداً؟

قال الكردينال: ماذا سيحلُّ بنا إن مات الملك؟ إن كاترين ستدحرجنا جميعاً إلى قبره. وهكذا برز الخلاف صريحاً بين كاترين دي مديسي وآل لورين، وكان وصول رئيس القضاء وقائد الجيش دلالة على الاستعداد للثورة، فصبيحة اليوم التالي ستكون حاسمة إذاً.

في اليوم التالي كانت الملكة الأم أوّل الواصلين، ولم تجد في غرفة ابنها إلا الملكة ماري ستيوارت شاحبة، متعبة، بعد أن قضت الليل وهي تصلي قرب سرير زوجها، ورافقت الدوقة دي غيز الملكة الشابة في سهرها، وصرفت بقية وصيفات الشرف، وكان الملك الشاب نائماً، بينما تأخّر حضور الدوق والكردينال؛ وكان الكاهن خلال ذلك الليل أكثر شجاعة، مما قيل عن الجندي، فقد بذل كل طاقته في إقناع أخيه بأن يعلن نفسه ملكاً، لكن النديب أمام ممثلي طبقات الشعب المجتمعين، وخطر معركة يجب خوضها مع قائد الجيش دي مونمورنسي، لم يجد الظروف مواتية، ورفض توقيف ملك نافار، والملكة الأم، والكردينال دي تورنون، والأخوين غوندي، وروجييري، وبيزاغ؛ متعللاً بالعصيان الذي سيتبع مثل هذه الإجراءات العنيفة معلّقاً مشاريع أخيه على حياة فرنسوا الثاني.

كان الصمت العميق يسود غرفة الملك، واقتربت كاترين، ترافقها السيدة دي فيسك من السرير وتأمّلت ابنها بمظهر منتحب مثّلته بمهارة، فقد وضعت منديلها

على عينيها ثم ذهبت لتكتم نحيبها قرب النافذة حيث حملت إليها السيده دي فيسك كرسياً، ومن هناك راحت عيناها تدقّقان النظر في الفناء.

كانت كاترين قد اتفقت مع الكردينال دي تورنون على أن يأتي إلى القصر برفقة الأخوين غوندي. إن دخل قائد الجيش دي مونمورونسي بنجاح ودون معارضة إلى المدينة، وأن يأتي منفرداً إن منع من ذلك.

في الساعة التاسعة صباحاً حضر الأميران اللورنييان تتبعهما حاشيتهما من النبلاء الذين بقوا في القاعة الخارجية بينما دخل الأخوان غرفة الملك، وكان ضابط الخدمة قد أعلمهما أن امبرواز پاره قد وصل مع شابلن وثلاثة أطباء آخرين استدعتهم كاترين ممن يكرهون امبرواز. خلال لحظات أظهرت القاعة الكبرى في قصر المشرف الملكي ذات المظهر الذي بدا في قاعة الحرس في بلوا يوم سمِّي الدوق دي غيز قائداً عاماً للمملكة، وأخضع كريستوف للتعذيب مع الفرق الأساسي بأن الحبّ والغبطة كانا يملأان آنذاك الغرفة الملكية التي انتصر فيها الأخوان دي غيز، بينما تبدو ملامح الحداد والموت تخيّم على هذه الغرفة الآن، واللورينيان يشعران أن السلطة تنزلق من أيديهما. كانت فتيات الملكتين قد توزعن في معسكرين بين زاوية وأخرى قرب الموقد الكبير، حيث تتوقدنار هائلة، والقاعة ممتلئة برجال البلاط، والخبر قد انتشر، دون معرفة المصدر، عن تصوّر جريء لعملية يقوم بها امبرواز لإنقاذ حياة الملك، مما دفع جميع النبلاء الذين لهم حق دخول البلاط إلى المجيء. كان الدرج الخارجي وفناء القصر ممتلئين بجموع قلقة، والمنصة القائمة مقابل دير الريكوله لأمير كونده قد أدهشت جميع النبلاء.

كان الحديث يدور همساً، والمناقشات تقدّم كما في بلوا خليطاً من مواضيع جدية وعابثة، رصينة وسطحية، فقد بدأ الناس يتعوّدون على القلاقل، والثورات المفاجئة، واللجوء إلى السلاح، والعصيان، والأحداث الكبرى المباغتة التي ميّزت الفترة الطويلة التي راح فيها بيت آل ڤالوا ينطفىء رغم جهود الملكة كاترين. كان يسود صمت عميق إلى مسافة ما خارج باب غرفة الملك الذي يحرسه رمّاحان،

وخادمان وقائد الحرس الاسكوتلندي. أما انطوان دي بوربون، المحتجز في قصره، فقد علم وهو يرى نفسه وحيداً ما يخالج القصر من آمال، وكان مرهقاً بخبر الاستعدادات الجارية خلال الليل لتنفيذ حكم الإعدام بأخيه.

أمام موقد قصر المشرف الملكي وقف أحد أكبر وجوه ذلك الزمن وأكثرها وسامة، رئيس القضاء دي لوسبيتال بثوبه الفضفاض الأحمر، ذي الثنيات المفرّاة، وقد اعتمر قبعة رئيس المحكمة العليا وفقاً لمهمة منصبه[1] حين رأى ذلك الرجل الجريء المتفضلين عليه عصاة، تبنّى مصالح ملوكه، الممثلة بالملكة الأم، وتحت خطر أن يفقد حياته ذهب إلى إكوان ليتداول في الوضع العام مع قائد الجيش. وهو الآن في هذه القاعة غارق في تأملاته، دون أن يجرؤ أحد على انتزاعه منها، وأمامه روبرته مفوّض الدولة، ومارشالا فرنسة ڤيڤيل وسان اندره حامل الاختام، والمتملقون يشكّلون زمرة لا يجسر أحد على أن تبدر منه ابتسامة، لكن الهمسات كانت ماكرة وخاصة من أولئك الذين لايوالون آل غيز.

كان الكردينال قد تمكّن أخيراً من القبض على الاسكوتلندي ستيوارت، قاتل الرئيس مينار، وبدأ النظر في قضيته في تور؛ كما أنه كان يحتجز في قصر بلوا وقصر تور عدداً لا بأس به من النبلاء المشتبه بهم ليبث نوعاً من الرعب في اوساط النبلاء، الذين لم يرتعبوا ووجدوا في الاصلاح الديني دعماً لتلك الروح الثوريّة المستوحاة من عاطفة مساواتهم البدائية مع الملك. والحال أن سجناء بلوا وجدوا وسيلة للهرب، وبقَدَر فريد قلّد سجناء تور زملاءهم في بلوا.

قال الكردينال دي شاتيون للسيدة دي فيسك: «سيدتي، إن كان أحد يهتم بسجناء تور فإنهم ذو خطر كبير».

عند سماع هذه العبارة حوّل رئيس القضاء رأسه نحو زمرة فتيات الملكة الأم.

---

(١) كان رئيس القضاء، كما رئيس البرلمان يرتدي قبعة خاصة تسمى مورتيه MORTIER وثوباً فضفاضاً مزيناً بالفرو، مماثلاً للأثواب الرومانية القديمة يسمى سيمار SIMARRE بينما يرتدي القضاة والأساقفة الجبّة.

استأنف الكردينال دي شاتيون: «نعم، فإنّ الشاب ديغو مروّض جياد الأمير دي كونده المحتجز سابقاً في تور أضاف إلى هربه هذه الفكاهة المرّة، فقد كتب على مايقال إلى السيدين دي غيز بطاقة يقول فيها «علمنا بهرب سجنائكم في بلوا، فتكدّرنا من ذلك حتى أننا أسرعنا الجري وراءهم، وسنجيئكم بهم حالما نقبض عليهم».

بالرغم من أن هذه الفكاهة توافق رئيس القضاة، فقد رمق الكردينال بنظرة قاسية. وسمعت في تلك اللحظة أصوات ترتفع من غرفة الملك. واقترب المارشالان وروبرته ورئيس القضاء، إذ أن الأمر لايتعلق فقط بحياة الملك أو موته؛ وإنما كان كلّ البلاط مطلعاً على سرّ الخطر الذي يتعرض له رئيس القضاء، وكاترين وأنصارها. وهكذا كان الصمت السائد آنئذ عميقاً. كان آمبرواز قد فحص الملك، وبدا له أن الفترة مناسبة لإجراء عمليته؛ وإن لم تجر، فإن فرنسوا الثاني معرّض للموت بين لحظة وأخرى. وما أن دخل السيدان دي غيز حتَّى شرح أسباب مرض الملك، وبرهن أن الأمر يحتاج في هذه الحالة القصوى إلى إجراء ثقب في الجمجمة، وهو ينتظر أمر الأطباء.

هتفت كاترين دي مديسي: أن يثقب رأس ابني كأنه خشبة وبواسطة هذه الأداة الرهيبة! أنا لا أتحمل ذلك يا معلم امبرواز.

كان الأطباء يتشاورون؛ لكن كلمات كاترين نطقت بصوت عال، بحيث أنها وصلت وفقاً لبغيتها إلى ماوراء الباب.

قالت ماري ستيوارت: «لكن ياسيدتي. إن لم تكن هناك وسيلة إلا هذه الطريقة لخلاصه؟

هتفت كاترين: آمبرواز فكّر بأن رأسك مقابل رأس الملك.

قال الأطباء الثلاثة: «إننا نعارض الطريقة التي يقترحها المعلم امبرواز، ويمكن انقاذ الملك بحقن الأذن بدواء يجذب الأخلاط نحو هذه القناة.

كان المعلم الأكبر يدرس وجه كاترين، وذهب إليها فجأة وقادها نحو فتحة النافذة وقال لها:

«سيدتي، إنّك تريدين موت ابنك، إنّك على اتفاق مع أعدائنا، وذلك اعتباراً من بلوا. هذا الصباح، قال المستشار ڤيول لابن فرآئك إن رأس أمير كونده سيقطع. وهذا الشاب الذي أنكر، خلال استجوابه تحت التعذيب، أيّة علاقة له مع أمير كونده، قام بإشارة وداع له عندما مرّ من أمام نافذة زنزانته؛ كما أنّك نظرت إلى شريكك المتواطىء التعس خلال استجوابه ببرودة ملكية؛ وأنت الآن تريدين معارضة إنقاذ ابنك؛ إنك تدفعيننا إلى الظنّ بأن موت ولي العهد، الذي نتج عنه وضع التاج على رأس المرحوم الملك، لم يكن طبيعياً، وأنّ مونتكوكولي هو...

هتفت كاترين وفق إشارة فتحت على إثرها السيدة دي فيسك الباب على مصراعيه «أيّها السيّد رئيس القضاء».

ولاحظ الجمهور في القاعة عندئذ غرفة النوم الملكية، والملك الشاب بلون شاحبٍ، ووجه منطفىء، وعينيين دون بريق، يتلعثم بكلمة «ماري» وهو يمسك بيد الملكة الشابة التي تبكي؛ والدوقة دي غيز واقفة، وقد راعتها جرأة كاترين، والأميران اللورينيان قلقان بدورهما، لكنهما إلى جانب الملكة الأم، وقد عزما على إيقافها من قبل مايّه ـ بريزة؛ وأخيراً امبرواز پاره الكبير وإلى جانبه طبيب الملك، وهو يمسك بأدواته، لكنه لا يجسر على المباشرة بعمليته التي تحتاج إلى هدوء كبير وإلى موافقة الأطباء كذلك.

قالت كاترين: «سيدي رئيس القضاء، إن السيّدين دي غيز يريدان السماح بإجراء عملية غريبة على شخص الملك، وامبرواز يعرض ثقب رأسه، وأنا كأم، وكعضو في مجلس الوصاية على العرش احتجُّ على مايبدو لي أنه قدح في الذات الملكية، والأطباء الثلاثة يؤيدون حقن دواء يبدو لي فعَّالاً وأقلّ خطراً من طريقة آمبرواز الوحشية.

عند سماع هذه الكلمات، بددت ضجة مفجعة، وأفسح الكردينال المجال لرئيس القضاء بالدخول وأغلق الباب.

قال الدوق دي غيز: «ولكن أنا القائد العام للمملكة، وأنت تعلم، ياسيدي رئيس القضاء، أن امبرواز جرّاح الملك يجازف من أجل ذلك بحياته.

هتف آمبرواز الكبير: «آه! هكذا يجب أن تسير الأمور! حسنّ، إليكم ما سأقوم بفعله» ثم مدّ يده على السرير وتابع: «هذا السرير والملك لي، وأنا اعتبر نفسي المعلم الوحيد والمسؤول الوحيد، إنني أعرف واجبات مهمتي، سأجري العملية للملك، ودون أمر الأطباء».

قال الكردينال: «أنقذه، وستصبح أغنى رجل في فرنسة».

قالت ماري ستيوارت وهي تضغط على يد امبرواز «هيا إذاً».

قال رئيس القضاء: «لايمكنني منع شيء، ولكنني أريد أن أسجل احتجاج السيدة الملكة الأم».

هتف الدوق دي غيز: «روبرته!».

وعند دخول روبرته، أشار القائد العام للمملكة إلى رئيس القضاء وقال:

«إنك، ياروبرته، رئيس قضاء فرنسة مكان هذا العاصي».

ثم نادى رئيس الحرس: «سيّد دي مايّه، قُد السيد دي لوسبيتال إلى سجن أمير كونده. ثم توجه إلى الملكة الأم وقال: «أما بالنسبة لك، ياسيدتي، فإنّ احتجاجك لن يسمع، ويجب أن تفكري بأن مثل هذه التصرّفات يجب أن تدعمها القوة الكافية؛ وأنا اتصرف كشخص أمين وخادم مخلص للملك فرنسوا الثاني، معلمي».

ثم أضاف «وهو ينظر إلى الجرّاح»: هيّا يا آمبرواز

قال لوسبيتال: «سيد دي غيز، إن استخدمت العنف سواء على الملك، أو

على رئيس قضاء فرنسة ففكّر أنّ في هذه القاعة قدراً من النبل الفرنسي كافياً لإيقاف الخونة.

هتف الجرّاح الكبير: أوه! ياسادتي، إن تابعتم هذا الجدل، فيمكنكم حقاً أن تهتفوا «يحيا الملك شارل التاسع ...» لأن الملك فرنسوا في طريقه إلى الموت.

أمّا كاترين فقد كانت بكل برود أعصاب تنظر من النافذة.

قال الكردينال وهو متوجه لإغلاق الباب: «لابأس، سنستخدم القوة لنكون السادة في غرفة الملك» لكن راعه أن يرى القصر فارغاً كلياً، فالبلاط وقد أيقن من موت الملك فرنسوا الثاني، هرع إلى قصر انطوان دي نافار.

هتفت ماري ستيوارت بامبرواز: «إيه! قم بعملك، وأنا وأنتِ أيتها الدوقة، ـ والتفتت نحو الدوقة دي غيز ـ سنقوم بالحماية.

قال آمبرواز: «سيدتي، إنّ حماسي قد تغلّب عليّ. الأطباء باستثناء صديقي شابلن يؤيدون حقن الدواء، وأنا مدين بالطاعة لهم. كان بالإمكان انقاذه لو أنني كنت الجراح الأوّل والطبيب الأوّل!».

ثم التفت إلى الأطباء، وتناول من يد الطبيب الأول محقناً صغيراً وملأه وقال: «اعطوا علاجكم أيها السادة».

قالت ماري ستيوارت: «ياالهي! إنني آمرك...

قال امبرواز: «للأسف ياسيدتي، فأنا تحت إمرة هؤلاء السادة.

وقفت الملكة الشابة مع الدوقة دي غيز بين الجراح والأطباء والشخصيات الأخرى، وأمسك الطبيب الأوّل برأس الملك، وأجرى امبرواز الحقن في الأذن. وكان الأميران اللورينيان حذرين، وبقي روبرته والسيد دي مايّه ساكنين؛ وخرجت السيّدة دي فيسك خفية، بإشارة من كاترين. وفي تلك اللحظة فتح لوسبيتال بجرأة باب غرفة الملك.

قال رجل رنّت خطواته السريعة في القاعة، وكان خلال لحظة على باب الغرفة الملكية: «إنّني أصل في الوقت المناسب. آه! أيّها السادة أردتم إسقاط رأس ابن اختي الجميل أمير كونده؟ ... لكنكم أخرجتم الأسد من عرينه وها هو ذا!».

كان هذا هو قائد الجيش دي مونمورونسي الذي أضاف: «امبرواز، لن تخرق بأدواتك رأس ملكي، فملوك فرنسة لا تتعرض رؤوسهم للضرب إلا عند هجماتهم على حديد أعدائهم وفي ساحة القتال! إن أمير السلالة الملكية الأول انطوان دي بوربون، وأمير كونده، والملكة الأم، وقائد الجيش، ورئيس القضاء يعارضون هذه العملية.

ومع علائم الرضى التام على وجه كاترين، ظهر ملك نافار وأمير كونده سريعاً.

قال الدوق دي غيز وهو يضع يده على مقبض سيفه: «ماذا يعني هذا؟».

ـ بصفتي قائد الجيش العام، صرفت جميع الحراس من جميع المخافر. يالله! لستم هنا في بلاد عدوّة، على ما أعتقد. إن الملك معلمنا وسط رعاياه، ونواب المملكة يجب أن يتبادلوا الرأي بكامل حريتهم. جئت اليكم، أيّها السادة ممثلي الطبقات أحمل اعتراض ابن أختي امير كونده وقد حرّره ثلاثمئة نبيل.

أردتما أن تسفحا الدم الملكي، وتستأصلا النبالة الفرنسية. آه! من الآن فصاعداً، سأحترس من كل ما تريدانه أيّها السيدان دي لورين. وإن أمرتما بفتح رأس الملك؛ فبهذا السيف الذي أنقذ فرنسة من شارل كنت، في عهد جدّه، سأحول دون ذلك...

قال آمبرواز پاره: «خاصة وأن لافائدة ترجى الآن، فالاحتضار قد بدأ».

قالت كاترين للورينيين وهي ترى من هيئة آمبرواز أن الأمل قد فقد: «لقد انتهى ملككما».

قفزت ماري ستيوارت كلبوة من قرب السرير إلى النافذة وأمسكت

الفلورنسية من ذراعها وهي تهزها بعنف وتقول لها: «آه! ياسيدتي، لقد قتلت ولدك».

أجابت كاترين ماري وهي ترميها بنظرة ماكرة وباردة عبّرت فيها عن فيض حقدها المخزون منذ ستة أشهر: «ياصديقتي، هذا الموت فرضه علينا غرامك العنيف، وستذهبين الآن لتحكمي في بلدك اسكوتلندة، سترحلين غداً، إنّني وصية بحكم الواقع».

بدرت من الأطباء الثلاثة إشارة للملكة الأم، فقالت موجّهة كلامها للسيدين دي غيز:

«ايها السيّدان، تمّ التفاهم بين السيّد دي بوربون، المسمَّى من قبل مجلس الطبقات قائداً عاماً للمملكة، وبيني، على أن يعود إلينا تسيير أمور المملكة. تعال ياسيدي رئيس القضاء.

قال السيد المعلم الأكبر مضطراً لإملاء واجبات منصبه: «مات الملك».

هتف النبلاء المرافقون لملك نافار وأمير كونده وقائد الجيش: «عاش الملك شارل التاسع.

تمّت المراسم التي جرت العادة على إقامتها عند وفاة أحد ملوك فرنسة في عزلة، وعندما صاح ممثّل الحرس المسلح ثلاث مرّات في القاعة: «مات الملك» بعد الاعلان الرسمي من قبل الدوق دي غيز، لم يكن هناك إلا بضعة أشخاص رددوا «عاش الملك».

كانت الكونتيسّة دي فيسك قد أحضرت منذ لحظات إلى قرب الملكة الأم دوق أورليان الذي غدا شارل التاسع، فخرجت ممسكة بيده، وتبعها كل من في البلاط، ولم يبق إلا اللورينيان، والدوقة دي غيز، وماري ستيوارت، ودايبل في الغرفة التي لفظ بها فرنسوا الثاني أنفاسه الأخيرة بينما وقف على بابها حارسان وخدم المعلم الأكبر وخدم الكردينال وأمناء السرّ الخاصون.

هتف بعض البروتستنت يُسمعون أول صرخة معارضة : «تحيا فرنسة» .

كانت روبرته، وهو المدين بكل شيء للدوق والكردينال، إنّما المرتعب من مشاريعهم وإجراءاتهم الفاشلة قد انضمّ سراً إلى الملكة الأم التي هرع لملاقاتها على درج القصر سفراء اسبانية، وانكلترة، والامبراطورية، وبولونية بعد إعلامهم من قبل الكردينال دي تورنون الذي التحق بحاشية كاترين دي مديسي في لحظة اعتراضها على عملية امبرواز پاره .

قال الكردينال للدوق: إيه! إن ولديْ لويس دوتر ـ مير، ووريثيْ شارل دي لورين، قد خانتهما الشجاعة .

أجاب المعلم الأكبر : لكانا أُعيدا إلى اللورين، أصرّح لك ياشارل لو أن التاج كان أمامي لما مددت يدي لتناوله، ستكون هذه المهمة على عاتق ولدي .

ـ هل سيكون معه الجيش والكنيسة كما كانا معك؟

ـ سيكون معه من هو أفضل؟

ـ من

ـ الشعب ![1]

قالت ماري ستيوارت وهي تمسك بيد زوجها الأول المتوفي الباردة :

«مامن أحد غيري يبكي هذا الشاب المسكين الذي أحبني كثيراً .

قال الكردينال : «كيف ارتبط مجدّداً بأمه الملكة؟» .

قالت الدوقة : انتظر وقت خلافها مع الهوغنوت .

أحدثت مصالح آل بوربون، وكاترين، والأخوين دي غيز، والحزب

---

(١) كان يروق لبلزاك هذه التلميحات التنبؤية، والأمر هنا يتعلّق بهنري دي غيز، رئيس الجامعة والإعجاب الذي أكنّه له شعب باريس في العام ١٥٨٨ عندما دخل منتصراً إلى المدينة رغم أوامر هنري الثالث وهبّ الشعب لمناصرته في ١٢ أيار : في ماعرف بيوم الحواجز .

البروتستنتي فوضى عارمة في أورليان حتى أن جثمان الملك ظل منسياً ثلاثة أيام في قصر غروسلو، ثم وضع من قبل خدم مغمورين في نعش انطلق به إلى سان دنيس في عربة مغلقة يرافقه مطران سنليس ونبيلان فقط، وعندما وصلت هذه الجنازة الحزينة إلى مدينة اتامب الصغيرة علّق أحد خدم رئيس القضاة لوسبيتال على عربة النعش لوحة تحمل هذه العبارة: «**تانّغي دو شاستل أين أنت؟**». **كنت فرنسياً حقّاً!**[1] إنّه لوم جارح موجّه لكاترين، ولماري ستيوارت، وللورينيين، فأي فرنسي يجهل أن تانغي دي شاستل أنفق في زمنه ثلاثين ألف إكو (أي مايعادل مليوناً هذا اليوم) على جنازة شارل السابع المنعم على بيته؟

ما إن أعلن قرع الأجراس في أورليان أن فرنسوا الثاني قد مات، وما أن فتح قائد الجيش دي مونمورونسي أبواب المدينة، حتى صعد توريون إلى سقيفته وتوجّه إلى مخبأ فيها وهتف جزعاً «إيه! أيكون قد مات؟» عند سماع هذه العبارة نهض رجل وأجاب: «**جاهز للخدمة**» وهي كلمة السرّ للبروتستنت المرتبطين بكالفن.

كان هذا الرجل هو شوديو. الذي قصّ عليه توريون أحداث الأيام الثمانية الأخيرة التي تُرك فيها الوزير وحده في مخبئه مع كتلة خبز بوزن اثنتي عشرة ليبرة كغذاء وحيد يتقوّت به.

هتف شوديو: «اذهب سريعاً، يا أخي، إلى أمير كونده واطلب منه جواز مرور لي، وجد لي حصاناً، إذ يجب أن أسافر في الحال.

ـ اكتب له كلمة بحيث أستطيع مقابلته.

قال الوزير: «خذ، بعد أن كتب في بطاقة صغيرة بضع كلمات، واطلب من

---

(١) جميع المراجع المتعلقة بجنازة فرانسوا الثاني تذكر هذه الكتابة الهجائية لكن مامن أحد من المؤرخين القدماء ـ لابلاس، أو دي تو، أو مزراي ـ ولا المؤرخين المحدثين يشير بهذا الخصوص إلى ميشل دي لوسبيتال.

ملك نافار تصريح اجتياز للحدود، إذ يجب في الظروف الحالية أن أذهب إلى جنيف[1].

خلال ساعتين، كان كل شيء جاهزاً، والوزير المتحمس في طريقه إلى سويسرة برفقة نبيل من بلاط ملك نافار، بدا شوديو وكأنه أمين سرّله، وهو يحمل تعليمات إلى بروتستنت الدوفينه. هذا الرحيل المفاجىء لشوديو أملته أيضاً مصلحة كاترين، التي قدمت من أجل أن تكسب الوقت اقتراحاً جريئاً حوفظ على سريته العميقة، هذا الاقتراح يفسّر الاتفاق الذي تمّ فجأة بينها وبين زعماء حزب البروتستنت؛ فهذه الداهية الماكرة قد عاهدت وأبدت رغبة في أن تسوّي الخلافات القائمة بين الكنيستين في جمعية، ليست سينودساً، ولا مجلساً، ولا مجمّعاً دينياً، إنّما يجب اخيتار اسم جديد لهما، وبصورة خاصة يجب موافقة كالفن عليها، وعندما انكشف هذا السرّ، ولنقل ذلك بشكل عابر، فإنّه سبّب تحالفاً بين دي غيز والقائد العام دي مونمورونسي ضد كاترين وملك نافار، وهو تحالف غريب عرف في التاريخ تحت اسم الحلف الثلاثي لأن المارشال دي سان اندره كان الشخصية الثالثة في هذا الائتلاف الكاثوليكي الصرف الذي نتج عن هذا الاقتراح الغريب لمثل هذا المؤتمر[2] أو الجمعية. فهم آل غيز جيّداً سياسة كاترين العميقة، وأدركوا أن الملكة لاتعلّق أهمية على هذا المؤتمر، وإنما تريد أن تسوّف مع حلفائها لتصل إلى زمن بلوغ شارل التاسع سن الرشد، وهكذا فقد خدعوا القائد العام للجيش بإيهامه بتعارض المصالح بين البوربونيين وكاترين، بينما كاترين تستغلهم جميعاً. هذه الملكة غدت كما رأينا، خلال وقت قصير، ذات قوّة مفرطة؛ وروح النقاش والجدل

---

(١) ما من إشارة تاريخية إلى أن الوزير لاروش ـ شوديو ذهب إلى جنيف بعد موت فرنسوا الثاني لكن من المؤكد أنه كان على اتصال دائم بكالفن وخاصة بعد أحداث امبواز، وأنه كان غائباً عن المملكة في فترة أرادت فيها الملكة الوالدة مقابلته ـ على مايذكر المؤرخ دي لابلانش، وبذلك يبدو من المحتمل صحة الدور الذي نسبه إليه الروائي خاصة وأن سجلات مجلس جنيف تشير إلى أن رسولاً حمل نبأ وفاة فرنسوا الثاني بسرعة بعد حدوثها.

(٢) تجمع زعماء الحزب الكاثوليكي للتداول قبل انعقاد هذا المؤتمر، وذلك في مطلع نيسان ١٥٦١ وهم قلقون من النجاحات التي حققها البروتستنت ومن مشاريع الملكة الأم.

التي سادت آنفاً شجعت بشكل فريد على هذا الاقتراح ؛ فالكاثوليك والبروتستنت لمع بعضهم بعد االبعض الآخر في هذه المباراة من الكلام؛ وهذا بالضبط ما حصل. أليس غريباً أن يعتبر المؤرخون الحيل الأكثر مهارة للملكة وكأنها تردّدات؟ بينما لم تكن كاترين أسرع سيراً إلى أهدافها بشكل مباشر مثلها في هذه الابتكارات التي تظهر فيها وكأنها أبعد ماتكون عنها؛ وهكذا فملك نافار غير القادر على فهم دوافع كاترين عجل بارسال شوديو إلى كالفن؛ شوديو الذي انصرف سراً وبمزيد من التضحية لمراقبة أحداث أورليان، حيث كان من الممكن بين ساعة وأخرى أن يكتشف أمره ويشنق دون محاكمة ككل رجل صدر بحقه قرار بالنفي. وبموجب الوسائل التي كان يتم بها السفر في تلك الأيام؛ لم يكن متوقعاً لشوديو أن يصل إلى جنيف قبل شهر شباط، ولا للمحادثات أن تنتهي قبل شهر آذار، وبذلك لا يمكن للاجتماع أن يتم قبل بداية أيار ١٥٦١[1]، وكانت كاترين قد دبرت تسليات للبلاط والأحزاب بتنصيب الملك، وأوّل جلسة قضاء للبرلمان سجل فيها لوسبيتال ودي تو الرسالة التي عهد فيها شارل التاسع بإدارة شؤون المملكة إلى والدته بالاتفاق مع القائد العام للمملكة أنطوان دي نافار الأمير الأكثر ضعفاً في ذلك الزمن.

أليس مشهداً من أكثر المشاهد غرابة أن يكون مصير مملكة معلقاً على نعم أو لا من بورجوازي فرنسي، طال بقاؤه مغموراً وهو مستقر في جنيف؟ إنّ بابا جنيف قد أفشل خطط البابا عبر الألبي! وهذان الاميران اللورينيان على قدرتهما فيما سبق، تشلّ حركتهما بهذا الاتفاق الموقّت بين الأمير الأوّل في السلالة الملكية، والملكة الأم، وكالفن! أليس في هذا الدرس الأكثر عبرة، الذي يعطيه التاريخ للملوك، في أن يحسنوا الحكم على الرجال، وأن يمنحوا العبقرية بسرعة حقها، ويبحثوا عنها، كما فعل لويس الرابع عشر في كل مكان يمكن أن يضعها الله فيه[2].

---

(١) الواقع أن هذا المؤتمر لم يجتمع قبل أيلول ١٥٦١.

(٢) كان بلزاك يعتبر حقوق الانسان العبقري أساسية في التدرج الاجتماعي وهو يؤكد على ذلك في العديد من رواياته وقصصه.

كالفن، الذي لم يكن يسمى كالفن، إنّما كوڤن، كان ابن براميلي من نويون في بيكاردية[١]. وموطن كالفن يفسرّ إلى حدّ ما هذا العناد الممتزج بالحيوية الغريبة الذي يميز هذا الحكم في أقدار فرنسة في القرن السادس عشر. ما من شيء أقل وضوحاً من هذا الرجل الذي سبب شهرة جنيف ومنح الروح لتلك المدينة. لقد جهل جان جاك روسو جهلاً تاماً وهو الذي لم يكن يمتلك إلا قليلاً من المعلومات التاريخية، تأثير هذا الرجل على جمهوريته. لم يكن لكالفن في البدء، وهو يسكن في أحد البيوت الاكثر تواضعاً في القسم الأعلى من جنيف قرب كنيسة سان بيير، فوق محترف نجار ـ وهذا هو أوّل شبه بينه وبين روبسبيير[٢] ـ لم يكن له سلطة كبيرة في جنيف؛ بل إن قدرته بقيت لمدة طويلة، وعن كره، محدودة في المدينة. في القرن السادس عشر، عرفت جنيف أحد أشهر هؤلاء المواطنين الذين بقوا مجهولين في العام كله، وغالباً في جنيف بالذات وهو فارل[٣]. فارل هذا أوقف، نحو العام ١٥٣٧، كالفن في تلك المدينة مظهراً له أنَّها أحد أقوى الأماكن ضماناً لاحتواء إصلاح ديني أكثر فعالية من إصلاح لوثر. واعتبر فارل وكوفن اللوثرية عملاً غير كامل، وغير كاف، ولا تأثير له في فرنسة. اما جنيف الواقعة بين إيطالية وفرنسة والناطقة باللغة الفرنسية فهي من أفضل الأماكن للاتصال بالمانية وإيطالية وفرنسة. وتبنّى كالفن جنيف مقراً لثروته المعنوية وجعل منها حصناً لأفكاره.

سمح مجلس جنيف لكالفن، بالتماسٍ من فارل، بإعطاء دروس في اللاهوت في شهر أيلول ١٥٣٨، وترك كالفن التبشير لفارل تلميذه الأوّل، وانصرف بأناة لتدريس مذهبه. هذه السلطة التي غدت مهيمنة في السنوات الأخيرة من حياته، تأسّست بصعوبة؛ فهذا المحرّض الكبير صادف عقبات جدّية، حتى أنه في وقت ما نفي من جنيف بسبب عنف إصلاحه؛ إذ وجد فيها حزباً من الأشخاص

---

(١) السيرة الذاتية لكالفن مأخوذة بشكل حرفي تقريباً عن **السيرة الشاملة**.

(٢) هذا التوازي المتكرر مع روبسبيير يشير إلى إرادة بلزاك بربط هذه الرواية مع القصة الأخيرة ـ **الحلمان** ـ وكان قد كتبها قبل الرواية الأخيرة بعشر سنوات.

(٣) فارل (غليوم) «١٤٨٩ ـ ١٥٦٥» مصلح ديني فرنسي ولد في فارو قرب الغاپ، صديق كالفن، وهو الذي استدعاه إلى جنيف في العام ١٥٣٦ لكنه اختلف معه بعد ذلك.

الشرفاء يتمسكون بالترف القديم والتقاليد العتيقة، ولكن، وكما الأمر دائماً، يخشى هؤلاء الشرفاء السخرية، ولا يريدون الاعتراف بهدف جهودهم، ويبدأ الجدل حول نقاط غريبة عن الموضوع الحقيقي. كان كالفن يريد استخدام الخبز الخمير في المناولة، وألا يكون هناك أعياد غير يوم الأحد. هذه التجديدات لم تلق القبول في برن ولافي لوزان، وطُلب من أهل جنيف أن يمتثلوا لشعائر سويسرة، وقام كالفن وفارل، واعتمد خصومهما السياسيون على هذا الخلاف لطردهم من جنيف، حيث تم نفيهم عنها لبضع سنوات؛ لكن كالفن عاد إليها منتصراً، بعد أن طلبه أنصاره مجدداً. هذه الاضطهادات تغدو دائماً إقراراً بالقدرة المعنوية عندما يعرف الكاتب أن ينتظر. وهكذا كانت هذه العودة بمثابة العصر الملائم لهذا النبي، وبدأت تنفيذات الإعدام ونظم كالفن إرهابه الديني، وفي الفترة التي ظهر فيها هذا المهيمن مجدّداً، قُبِلَ في أوساط البورجوازية في جنيف، لكن بعد إقامة أربعة عشر عاماً، ولم يكن قد انتخب عضواً في مجلسها، وفي الوقت الذي أرسلت فيه كاترين وزيراً لمفاوضته، لم يكن للملك الأفكار هذا من صفة إلا أنه قسيس كنيسة جنيف. ولم يكن لكالفن من دخل سنوي إلا مئة وخمسين فرنكاً وخمسة عشر كنتالاً من الحنطة وبرميلان من النبيذ. وكان أخوه خياطاً[1] بسيطاً يقع دكانه على بعد خطوات من ساحة سان بيير، في الشارع الذي تقع فيه حالياً إحدى مطابع جنيف. هذا الترفع الذي كان ينقص فولتير، ونيوتن، وباكون، لكنه يتألّق في حياة رابله، وكامبانلا، ولوثر، وفيكو، وديكارت، ومالبرانش، وسبينوزا، ولويولا، وكنت، وجان جاك روسو ألا يشكّل إطاراً رائعاً لهذه الوجوه السامية المتحمسة[2]؟

---

(١) تذكر السيرة الشاملة أن هذا الأخ مجلّد كتب، وهذا ماكتبه بلزاك في الطبعة الأولى، ثم صححه «دون مستند».

(٢) في رسالة بتاريخ ٢ شباط ١٨٤٢ يعدّد بلزاك تقريباً أمثلة «الترفع» ذاتها، ويبدو أنها من السلاسل التي ترد إلى ذاكرته باستمرار؛ فالدومينيكي الاسباني كامبانلا (١٥٦٨ ـ ١٦٣٩) كان معارضاً لفلسفة أرسطو ومتعلقاً بالفيزياء والسحر، وحكم عليه بالسجن من قبل محاكم التفتيش، حيث بقي سبعة وعشرين عاماً ثم أطلق سراحه فلجأ إلى باريس، أما فيكو فهو حقوقي وفيلسوف (١٦٦٨ ـ ١٧٤٤) كان استاذاً للبلاغة في نابولي ومارس حياة غامضة تناقض أهمية عبقريته.

حياة روبسبيير المماثلة يمكن وحدها أن تجعل المعاصرين يفهمون حياة كالفن الذي أقام سلطانه على الأسس ذاتها، وكان بمثل قسوة محامي مدينة آراس واستبداده ويالغرابة: فمقاطعة بيكارديه، بمدينتيها آراس ونويون، هي التي أخرجت هاتين الأداتين للاصلاح. وكل من يريد أن يدرس أسباب التعذيب المنظم الموجّه من قبل كالفن سيجد في جنيف، مع حفظ الفارق، كافة أحداث ١٧٩٣؛ فكالفن عمل على قطع رأس جاك غروه «لأنه كتب رسائل ملحدة، وأشعاراً فاسقة، ولأنّه عمل على قلب الترتيبات الكهنوتية». فكّروا في تلك العِبَر، واسألوا انفسكم إن كانت أرهب الطغيانات تظهر في دعاراتها حيثيات أكثر قسوة في سخريتها. حُكم على فالنتين جنتيليس بالموت **لهرطقة لا إرادية**، ولم ينج من العذاب إلا باعتذارجهاري أكثر خزياً من تلك العقوبات التي تفرضها الكنيسة الكاثوليكية. وقبل سبع سنوات من المؤتمر الذي سيتمُّ انعقاده لدى كالفن بناء على اقتراحات الملكة الأم، أُوقف الفرنسي ميشيل سرفه أثناء مروره في جنيف، وحوكم، وحكم عليه بالإعدام بناءً على اتهام كالفن، وأحرق حيّاً[1]، لأنه **هاجم سرَّ التثليث** في كتاب لم يؤلّف ولم ينشر في جنيف؛ ثم اذكروا المرافعات الفصيحة لجان جاك روسو في الكتاب الذي يقوّض المذهب الكاثوليكي، والذي كتب في فرنسة، ونشر في هولندة، إنما انتشر في باريس، وحُرق فقط بيد الجلاّد، أما المؤلّف، **وهو غريب**، فقد نفي فقط من المملكة حيث حاول أن يقوّض الحقائق الأساسية للدين والسلطة، ثم قارنوا بين تصرّف البرلمان الفرنسي وتصرّف الطاغية الجنيفي. أخيراً فإن بولسك أخضع أيضاً للمحاكمة لأن **أفكاره المتعلقة بالقضاء والقدر كانت مخالفة لآراء كالفن**. قدّروا هذه الاعتبارات ولنتساءل هل قام فوكيه ـ تينفيل[2] بما هو أسوأ. كان تعصّب كالفن العنيف، معنوياً، أكثر حزماً وشراسة من تعصب روبسبيير السياسي. ولو كان المجال امام كالفن في جنيف أوسع مدى

(١) حكم على سرفه في العام ١٥٥٣.

(٢) فوكية ـ تينفيل: (١٧٤٦ ـ ١٧٩٥) مدعي عام المحكمة الثورية في فرنسة، كان شديد القسوة في عهد الإرهاب، أعدم بدوره عقب ردّة ترميدور.

لأسال من الدم أكثر مما أساله رسول المساواة السياسية الرهيب، المتمثلة بالمساواة الكاثوليكية. قبل ذلك بثلاثة قرون جرّ راهب بيكاردي الغرب كلّه على الشرق: انه بيير لرميت[٢]. وكالفن وروبسبيير وبين الواحد والآخر ثلاثة قرون من الزمن، ثلاثة بيكارديين كانوا بالمنظور السياسي روافع أرخميدس، كان كل منهم في عصر تعبيرٍ عن فكرة صادفت نقطة استناد في المصالح وفي نفوس الناس.

كان كالفن اذاً وبكل تأكيد الناشر شبه المجهول لتلك المدينة الكئيبة المسماة جنيف؛ التي قال فيها رجل قبل عشر سنوات، رجل وهو يشير إلى بوابة عربات عريضة في المدينة، هي الأولى التي أحدثت في جنيف (لم يكن فيها أولاً إلا أبواب عبور مشاة). «**من هذه البوّابة دخل الترف إلى جنيف!** وقد أدخل إليها كالفن بصرامة اعداماته، وتزمّت مذهبه، هذه العاطفة المنافقة المسماة **المداجاة**، ونتيجة لتأصّل عادات المداجاة رُفِضَت الفنون، ومتع الحياة؛ فالمداجي يأكل أطايب الطعام إنّما دون اظهار الترف، ويجمع المال بصمت دون أن يستمتع به إلا بقدر استمتاع كالفن بسلطته، أي بالفكر. بسط كالفن على جميع المواطنين الخَلْعة القاتمة التي غلّف بها حياته، وخلَقَ في مجمعه الديني محكمة تفتيش حقيقية كالفنية، مشابهة تماماً لمحكمة روبسبيير الثورية، كان المجمع يسلّم إلى المجلس الأشخاص ليحكم عليهم، وكالفن يسود في المجلس عن طريق المجمع كما ساد روبسبيير على الجمعية التأسيسية بواسطة نادي اليعاقبة، وهكذا حكم على قاض مشهور في جنيف بالسجن لمدة شهرين وطرده من وظيفته وحرمانه من أيّة وظيفة أخرى: **لأنه كان يمارس حياة ماجنة، ولأنه ارتبط مع أعداء كالفن**. من هذا المنظور عمل كالفن كمشرّع: وخلق تقاليد صارمة، زاهدة، بورجوازية، كئيبة بشكل مرعب، إنّما لا مأخذ عليها؛ وهي ماتزال سائدة في جنيف حتى الآن، وقد سبقت التقاليد الانكليزية المشار إليها عالمياً تحت كلمة «الطهرية» العائدة إلى هؤلاء الكمرونيين،

(٢) بيير لرميت. أو بطرس الراهب (١٠٥٠ ـ ١١١٥) ولد في أميان في فرنسة يعتبر أولّ محرّض لأول حملة صليبية، إذ أعلن في العام ١٠٩٤ الحرب المقدسة لتحرير القدس، وسار على رأس جيش من المتطوّعين غير المنضبطين الذي أُهلك القسم الأكبر منهم على يد الهنغاريين، وقتل الباقي في البلاد العربية.

أتباع كمرون، أحد المُنظّرين الفرنسيين المتحدّرين من كالفن، والذين قدّم عنهم والتر سكوت صورة حيّة[١]! إنّ مَسكنة رجل ذي سلطان بحقّ، يتعامل مع الملوك كالندّ للندّ، فيطلب منهم الأموال، والأسلحة، ويغرف من خزائنهم ملء يديه للتعساء؛ تبرهن على أن الفكر، وقد اتخذ كوسيلة وحيدة للسيطرة، يولّد أصحاب جشع سياسي، يستمتعون بتشغيل الذهن؛ يشبهون الجزويتيين يريدون الهيمنة للهيمنة[٢]؛ فيت، ولوثر، وكالڤن، وروبسبيير جميع هؤلاء الجشعين للسلطان ماتوا في فقر مدقع؛ فَجَرْدُ بيت كالفن بعد موته، قدّر محتوياته بما فيها كتبه بخمسين إكو[٣]؛ وهذا ما سجّله له التاريخ؛ وجرد بيت لوثر قد أعطى مبلغاً مماثلاً، مما اضطرّ أرملته كاترين دي بورا الشهيرة، لأن تلتمس نفقة سنوية بمئة إكو وافق عليها أمير ألماني مُنتَخَب[٤]؛ بينما بوتمكين، ومازارين، وريشليو، رجال الفكر والفعالية، هؤلاء الثلاثة الذين أسّسوا أو هيؤوا لتأسيس امبراطوريات، قد ترك كلّ منهم ثروة تقدّر بثلاثمئة مليون؛ وقد كان لهؤلاء قلب، وكانوا يحبّون النساء والفنون، وعمّروا، وغزوا، أما اولئك، باستثناء زوجة لوثر وهي هيلانة تلك الإلياذة، فما من أحد يمكن أن يلوم نفسه على التسبّب في خفقان قلب امرأة.

كان ذلك الشرح الموجز جداً، ضرورياً لايضاح موقف كالفن في جنيف.

في الأيام الأولى من شهر شباط ١٥٦١، وفي إحدى تلك الأمسيات الهادئة التي تصادف في ذلك الفصل قرب بحيرة ليمان، وصل فارسان إلى يره ـ لڤيك[٥]

(١) في كتابه «طهريي اسكوتلندة» ذي العنوان (OLD MORTALITY) بالانكليزية «الإبادة القديمة؟».

(٢) في جلد الحبب، مثال هن هؤلاء في صاحب متجر العاديات، وكذلك في غوبسك حيث الرجلان يستمتعان بقدرتهما الفكرية دون الاهتمام بمكانه وأهمية منشأتهما.

(٣) تذكر السيرة الشاملة أن هذا الجرد كان بقيمة مئة وخمسة وعشرين إكو وليس بخمسين لكن بلزاك يميل دائماً إلى تعظيم شخصياته.

(٤) القصة مستمدة من مختارات مفيدة للابلاس.

(٥) يره ـ لڤيك: «مرج المطران»: لبلزاك فيه ذكريات، حيث عاش قرب السيدة هانسكا بين ٢٤ كانون أول ١٨٣٣ و ٨ شباط ١٨٣٤ (هو في أوبرج لارك وهي في بيت ميرابو) الأسابيع السعيدة التي يذكرها في رسائله، والتي كتب عنها في العام ١٨٤٢ انه مايزال على ذكراها. وقد بقي هذا المرجع حتى القرن التاسع عشر مكان نزهة قرب باب ريف.

المسمى كذلك بسبب المنزل الريفي القديم لمطران جنيف المطرود منذ ثلاثين عاماً. هذان الرجلان اللذان يعرفان دون شك قوانين جنيف حول إغلاق الأبواب الضروري في ذلك الحين، والذي لا مبرّر له في الوقتَ الحاضر، توجّها إلى باب ريف؛ لكنهما أوقفا حصانيهما لدى رؤيتهما رجلاً في نحو الخمسين من عمره يتنزّه مستنداً إلى ذراع خادمة، وهو متوجه بداهة لدخول المدينة، كان هذا الرجل، البدين قليلاً يسير ببطء وصعوبة، لاينقل قدماً إلا بعد أخرى، ويبدو عليه الألم نتيجة ذلك. إذ أنه ينتعل حذاء مستديراً من مخمل أسود مشبوك بشريط.

قال الفارس لشوديو وهو ينزل عن حصانه «انه هو»، وسلم عنانه لرفيقه، ثم تقدم وهو يمدُّ ذراعيه للمتنزّه.

كان هذا المتنزه في الواقع جان كالفن، وقد تراجع ليتجنب العناق، وألقى نظرة شديدة القساوة على تلميذه. كان كالفن، وهو لم يتعد الخمسين من العمر[١]، يبدو وكأنه في السبعين، ورغم سمنه وبدانته يبدو قصيراً إذ أن آلام الرمل البولي كانت تجبره على السير محنيّ الظهر، وقد تعقدت آلامه بإصابة نقرس من النوع الذي يصعب شفاؤه[٢]. كان جميع الناس يرتعشون أمام هذا الوجه الذي يعادل عرضه طوله تقريباً، لكنه رغم استدارته لا يفصح عن شيء من الطيبة، فهو في ذلك كهنري الثامن الرهيب المشابه له كثيراً. فالآلام التي لاتفارقه أبداً تعبر عن نفسها بتجعيدتين عميقتين تنطلقان من قرب الأنف عن كل من جهتيه متَبعتين حركتي الشاربين لتغيبا مثلهما في رحابة لحية رمادية، هذا الوجه رغم حمرته، والتهابه كوجه سكّير، تظهر في أماكن منه علامات بقع صفراء، ويمكن مع وجود قلنسوة من المخمل الأسود تغطي هذا الرأس المربع الكبير، أن يلاحظ المرء بإعجاب جبيناً واسعاً جميل التكوين، تبرق من تحته عينان قاتمتان تبدوان في فورات الغضب وكأنهما تطلقان الشرر، وسواء بسبب بدانته، أو بسبب عنقه القصير الغليظ، أو بسبب سهراته وأشغاله المستمرة، فإن رأس كالفن يغوص بين كتفيه العريضين، مما

(١) ولد كالفن في العام ١٥٠٩.

(٢) تذكر السيرة الشاملة أيضاً أن كالفن كان مصاباً بالرمل البولي والنقرس.

يجبره على لبس صدار ذي تثنية أنبوبية يبدو وجهه من خلاله كوجه رأس يوحنا المعمدان وهو على صينية. ومابين شاربيه ولحيته يبدو فمه الفصيح الجميل كوردة صغيرة نضرة رسمت بكمال رائع. وقد قسم هذا الوجه بأنف مربّع متميز بتعرّج يسود على طول قناته ويحدث في نهايته مستوى مستعرضاً يعبّر عن قوة متناسقة مع القوة المذهلة التي يعبر عنها ذلك الرأس الامبراطوري[1]. ورغم الصعوبة في ان يتعرف المرء داخل هذه القسمات على الصراع الاسبوعي الذي ينتاب كالفن مابين أوقات حمى بطيئة كانت تصيبه، كان الألم الذي يكافحه دون انقطاع بالدراسة والإرادة، يكسب هذا القناع النضر في ظاهره، شيئاً من الرهبة يمكن تفسيرها بلون هذه الطبقة الشحمية الناتجة عن عادات الاستقرار للمفكر الذي يحمل آثار الصراع المستمر لهذا الطبع السقيم مع إحدى أقوى العزائم المعروفة في تاريخ الفكر البشري. ورغم جاذبية الفم فإن فيه تعبير قسوة، والعفّة التي تلزمها أهداف واسعة وتتطلبها أحوال مرضية ترتسم على هذا الوجه، بينما تتجلّى الحسّرة في رصانة هذا الجبين الواسع والألم في نظرة هاتين العينين اللتين ترعبان بهدوئهما.

كانت ثياب كالفن تجعل رأسه بارزاً لأنه كان يرتدي الجبّة الشهيرة من الجوخ الأسود، المشدودة بزنّار ذات القماش أيضاً، إنّما بزردة نحاسية، وقد غدا ذلك الزي الرسمي لكهنة الكالفنيين، وهو زي لا يستلفت النظر فيوجّه الإنتباه نحو الاهتمام بالوجه فقط.

قال كالفن للفارس الأنيق: «إنني أتألم كثيراً ياتيودور حتى لا يمكنني تقبيلك[2].

---

(١) هذه اللوحة تختلف عن الصورة التقليدية لكالفن ذي النحافة التقشفية، وهي ليست من ابتكار الرؤائي، وإنما هي صورة مطابقة للوحة لكالفن عرضت في أروقة فرساي التاريخية التي افتتحها لويس فيليب في العام ١٨٣٧، لكن يمكن ألا تكون هذه اللوحة أصلية إلا إن كانت تشير إلى جوهانس كالفينوس أو كَهْل الحقوقي الألماني من القرن السادس عشر.

(٢) يتذكر بلزاك حواراً في مسرحية جرمو «جنيف» يدور في مشهد بين كالفن وتيودور دي بيز إنّما قبل «بلبلة امبواز».

كان تيودور دي بيز آنذاك في الثانية والاربعين، واعتبر مواطناً بورجوازياً جنيڤياً منذ سنتين بناءً على طلب كالفن، وهو يشكّل التباين الأكثر ظهوراً مع القسّ الرهيب الذي جعله سيّده. كان كالفن كجميع البورجوازيين الذي يرتفعون إلى السيادة المعنوية، أو كجميع المبتكرين للأنظمة الاجتماعية يقضّه الحسد، ويحتقر زملاءه، فلا يرضى أن يرى مثيلاً له، ولا يتحمل أيّة معارضة. غير أن الفروق كانت كبيرة بينه وبين تيودور دي بيز؛ فهذا الفارس الأنيق قد وهب وجهاً وسيماً، مليئاً بالتهذيب، وقد ألف التردّد على البلاطات الملكية[1]. كان كالفن يراه شديد الاختلاف عن جميع انكشاريته الشرسين فلم يكن يشاطره شيئاً من العواطف المألوفة، ولم يكن يحبّه البتّة، لأن هذا المشرّع العنيف يجهل الصداقة كليّاً؛ ولكنه لم يكن يخشى فيه خليفة له، فكان يحبّ العبث معه كعبث ريشليو فيما بعد مع هرّه: يجده مرناً، خفيفاً، أمّا وهو يرى بيز بشكل باهر في جميع مهامه، فقد أحبّ هذه الأداة المهذبة التي اعتقد أنّه روحها وموجهها؛ مبرهناً على صحة القول إن الرجال الأكثر شراسة لا يمكنهم الاستغناء عن التظاهر بالمودة. فكان تيودور الولد المدلّل لكالفن، فهذا المصلح الصارم لم يكن يوبخه أبداً ويتغاض له عن بحوثه وغرامياته وثيابه الجميلة وأناقة لغته، وربما كان كالفن مسروراً في أن يظهر أن الاصلاح الديني يمكنه أن ينافس في الظرف رجال البلاط، وقد أراد تيودور دي بيز أن يدخل إلى جنيف تذوّق الفنون، والأدب، والشعر، وكان كالفن يصغي إلى مخططاته دون أن يقطّب حاجبيه الرماديين الكثين، وهكذا كان التباين في الطبع والشخصية تاماً مثل التباين بين عقليتي هذين الرجلين الشهيرين.

تلقى كالفن تحية شوديو المهذّبة جداً، ورد بانحناءة خفيفة من رأسه، فنقل شوديو إلى يده اليمنى عناني الحصانين، وتبع رجلي الإصلاح الديني الكبيرين،

---

(١) يسجّل جرمو وصيفاً لتيودور دي بيز يذكر فيه قامته الطويلة ووجهه الوسيم، والبساطة المحببة في شخصيته، معتمداً على المؤلفين الذين تحدّثوا عن تيودور كما ذكروا تهذيبه، وتعقله، وتصرفاته اللائقة. أما كتب التاريخ فتذكر أنه قد عمّر طويلاً (١٥١٩ ـ ١٦٠٥) وأنّه خلف كالفن في جنيف وألّف كتاباً عن «تاريخ الكنائس الاصلاحية في فرنسة» ومسرحية مستمدّة من التوراة بعنوان «ابراهيم المضحّي».

وسار إلى جانب تيودور دي بيز الموجود على يمين كالفن، وأسرعت الخادمة لتحول دون إغلاق باب ريُف مشيرة إلى نقيب الحرس بأن القسّ قد تعرّض لآلام حادّة أخرته.

كان تيودور بيز ابن منطقة ڤزلي، وهي الأولى التي آمنت بالاتحاد، وقد سجل تاريخها الطريف أحد التييريين[1]، وهكذا فإن روح البورجوازية والمقاومة المستوطنة في ڤرلي قد قدمت دون شكّ نصيبها إلى التمرّد البروتستنتي الكبير في شخص هذا الرجل الذي يعتبر بالتأكيد أحد الوجوه الأكثر فرادة في الهرطقة.

سأل تيودور كالڤن «إذاً أنت تتألّم دائماً؟».

أجاب المصلح بتلك الحرارة التي يضعها في أقل كلماته، «أتألم كروح حُكِمَتْ بالهلاك كما يقول الكاثوليك.

آه! إنني راحل يابنيّ، فماذا سيحل بكم من دوني؟

قال شوديو: «سنصارع على هدي كتاباتك».

ابتسم كالفن وأخذ وجهه المحمّر تعبيراً لطيفاً ونظر إلى شوديو برضى ثم قال:

«حسنّ، أتحملون إليّ أخباراً؟ هل قتلوا كثيراً من جماعتنا؟» وتطلّع مبتسماً مظهراً نظرة تهكّم أبرقت لها عيناه القاتمتان.

أجاب شوديو: «كلا، كل شيء يسير نحو السلام».

هتف كالفن: هذا أسوأ، هذا أسوأ! فكلّ تهدئة هي شرٌّ، إن لم تكن في كل مرّة فخاً. في الاضطهاد قوّتنا. أين سنغدو إن استولت الكنيسة على الإصلاح.

قال تيودور: يبدو أن هذا ماتريده الملكة الأم.

قال كالفن: إنّها قادرة، وأنا أدرس تلك المرأة...

---

(١) هو اوغوستن تييري في رسائل عن تاريخ فرنسة ١٨٢٧، وقد جرّب بورجوازيو ڤزلي أن ينتظموا في القرن الثاني عشر في منطقة خاصة.

هتف شوديو: من هنا؟

عقب كالفن بقسوة، إذ وجد في قطع كلامه قلة احترام: وهل من مسافات تعيق العقل، إن كاترين تريد السلطة، والنساء تجاه هذا الهدف لادين لهن ولاشرف، ماالأمر؟

قال تيودور دي بيز: إنّها تقترح علينا نوعاً من المجمع الديني.

سأل كالفن فجأة: قرب باريس.

ـ نعم

قال كالفن: آه! هذا أفضل!

ـ على أن نجرّب التفاهم فيه وننظم حركة عامة لصهر الكنيستين.

قال كالفن: «آه! هذا إذا ملكت الجرأة على أن تفصل الكنيسة الفرنسية عن بلاط رومة، وأن تؤسّس في فرنسة بطريركية كما في الكنيسة اليونانية؛ وأبرقت عينا المصلح لهذه الفكرة التي تتيح له أن يصل إلى العرش. لكنه استأنف: «لكن ياولدي، هل يمكن لابنة شقيق البابا أن تكون صريحة؟ إنّها تريد أن تكسب الوقت.

ـ ألا يلزمنا نحن أيضاً ذلك لنرمّم إخفاقنا في آمبواز، وننظم مقاومة باهرة في جميع أنحاء المملكة؟

قال شوديو: لقد أعادت ملكة اسكوتلندة إلى بلادها.

قال كالفن وهو يمرّ من باب ريف: «واحدة بالناقص! وستوقّفها اليزابيت انكلترة[1] عند حدّها.

ملكتان متجاورتان ستدخلان في حرب قريباً، احداهما جميلة، والأخرى دميمة، وهذا أولّ سبب للسخط، ثم إن هناك قضية اللاشرعية ...».

---

(١) هي اليزابيت الأولى (١٥٣٣ ـ ١٦٠٣) ابنة هنري الثامن وآن بولن، وقد أعدمت بالفعل ماري ستيورات في العام ١٥٨٧ بعد تنازلها عن عرش اسكوتلندة ولجوئها إلى انكلترة.

وفرك يديه، واكتسى فرحه طابعاً ضارياً، حتى أن بيز ارتعش، إذ لاحظ عند ذلك بركة الدم التي يتأمّلها معلمه منذ فترة.

قال دي بيز بعد توقف قصير: «إن آل غيز قد أسخطوا آل بوربون، وقد نقضوا في أورليان الاتفاق بينهم.

تابع كالفن: إيه! الواقع يابنيّ، انك لم تكن مقتنعاً بما قلته لك عند سفرك الأخير إلى نيراك بأننا سننتهي إلى إثارة حرب حتى الموت بين فرعي السلالة المالكة في فرنسة! أخيراً، إن لدي في حزبي ملكاً وبلاطاً وعائلة مالكة. إن مذهبي قد بدأ تأثيره الآن في الجماهير. والبورجوازيون قد فهموني، وسيطلقون صفة الوثنيين على أولئك الذين يذهبون إلى القداس، والذين يرسمون الصور على جدران معابدهم، ويضعون فيها اللوحات والتماثيل. آه! إن من الأسهل على الشعب أن يهدم الكاتدرائيات والقصور، من أن يجادل في **الإيمان المبرّر او حول الوجود الواقعي**(*). لقد كان لوثر مماحكاً، أما أنا فإنني جيش! كان معلّلاً، أما أنا فنظام. أخيراً ياولديّ كان منكداً أما أنا فتاركن[1] نعم إنّ اتباعي المخلصين سيحطمون الكنائس، ويهشمون صور القديسين، ويصنعون من التماثيل رحى ليطحنوا بها حبوب الشعوب. في الدول هيئات، وأنا لا أريد إلا أفراداً! فالهيئات تقاوم كثيراً وترى بوضوح حيث التعددَية تكون عمياء! ينبغي الآن أن نمزج مع هذا المذهب الفعّال مصالح سياسية تمتنّه وتصون معدات جيوشي. لقد أرضيت منطق العقول الاقتصادية، ورأس المفكرين، بهذه الشعائر العارية، المجرّدة، التي تنقل الدين إلى عالم الأفكار، ورأس المفكرين، لقد أفهمت الشعوب مزايا إلغاء الإحتفالات الدينية. عليك ياتيودور أن توظّف المصالح، ولا تخرج عما أعد أبداً، فكلّ شيء قد جهّز، وكل شيء قد قيل الآن من ناحية المذهب[2]، فلا يضاف إليه حرف! فما

(*) المقصود: عقيدة تجسد السيد المسيح في القربان.

(١) تاركن: أحد ملوك روما من القرن السادس ق.م.

(٢) جاء في مسرحية جرمو: «لاتجذب الجماهير بالمذاهب، وإنما بالمذاهب الممتزجة بمهارة بالمصالح». وكذلك، «تجب القسوة الأكثر شدة للمحافظة على انتظام المذهب.

لكمرون، هذا القس الصغير في غسقونية يتدخل في الكتابة[1]؟ كان كالفن، وتيودور دي بيز، وشوديو، يرتقون شوارع أعلى المدينة وسط الجمهور دون أن يعير الجمهور أدنى انتباه لأولئك الذين يهيّجون الجماهير في المدن، ويدمّرون فرنسة! وكانوا يسيرون بصمت، بعد هذا الخطاب المسهب الرهيب، إلى أن وصلوا إلى ساحة سان بيير الصغيرة، فتوجّهوا نحو بيت كالفن. في الطابق الثاني من هذا البيت[2] الذي لايعرف إلا قليلاً من الشهرة، فما من أحد يكلّمك عنه الآن في جنيف، وليس لكالفن أي تمثال فيه. كان سكن القسُّ يتألف من ثلاث غرف فرشت أرضيتها بخشب التّنوب، وبطّنت جدرانها بالخشب ذاته، وإلى جانبها المطبخ وغرفة الخادمة؛ ويدخل المرء إليه كما في معظم البيوت البورجوازية في جنيف من المطبخ المؤدي إلى قاعة صغيرة ذات نافذتين، تستخدم كغرفة جلوس، وصالة وغرفة طعام، يلي هذه القاعة مكتب كالفن حيث كان فكره يصارع الآلام منذ أربعة عشر عاماً وتتصل به غرفة النوم. كانت الصالة مجهّزة بأربعة كراسي من خشب السنديان المنجد وطاولة مربعة هي كل أثاثها، وفي إحدى الزوايا مدفأة من الخزف الأبيض المزخرف تبثّ حرارة لطيفة. والجدران مغطاة بخشب التنوب الطبيعي دون أيّة زخرفة. وهكذا كان عري الأمكنة يتناسب مع حياة التقشّف والبساطة لهذا المصلح.

قال دي بيز عند دخوله مستغلاً الفترة التي تركهما فيها شوديو منفردين لإيداع الحصانين في اسطبل النزل المجاور: «حَسَنٌ، ماذا يجب علي فعله؟ هل توافق على إقامة المؤتمر؟».

---

(١) ولد كمرون في اسكوتلنده وعاش في فرنسة، وكان قساً في بوردو، لكن في العام ١٦٠٨ فقط، وإن كان قد ابتعد عن مذهب كالفن، فإن هذا لم يستطع أن يقلق، لأن كالفن قد توفي في العام ١٥٦٦، بينما جان كمرون قد ولد في العام ١٥٨٠، كذلك يجب عدم الالتباس بينه وبين ارشيبالد كمرون وهو اسكوتلندي آخر، إنما لم يغادر اسكوتلندة، وكان في العام ١٦٦٦ مؤسسة شيعة الكمرونيين المتشدّدة وهي التي تحدَث عنها والتر سكوت في كتاب «طهريي اسكوتلندة» والذي اشار إليه بلزاك بالتباس سابقاً، فجعل منه منظّراً فرنسياً.

(٢) الطبوغرافية صحيحة، فبيت كالفن كان في أعلى المدنية قرب كاتدرائية سان بيير، وقد هدم في العام ١٧٠٦.

قال كالفن: «بكل تأكيد[1]، وعليك أنت يابني أن تصارع فيه، فكن صارماً ومثالياً، فما من أحد لا الملكة، ولا آل غيز، ولا أنا، يريد المسالمة التي لا توافقنا أبداً، ولي ثقة بدوبلسيس موزني[2] فيجب إعطاؤه الدور الأول». ثم ألقى نظرة احتراس على باب المطبخ نصف المفتوح، حيث بدا على حبل ممدود قميصان وعدة أطواق مغسولة منشورة لتجف، وبعد أن طلب من تيودور أن يغلق الأبواب تابع كلامه قائلاً:

«حسن نحن هنا وحدنا فينبغي دفع ملك نافار للالتحاق بآل غيز وقائد الجيش، ونصحه بالتخلّي عن كاترين دي مديسي، ولنستفد جميعاً من ضعف هذا العاهل الحزين؛ فإذا تحوّل عن الإيطالية، وإذا رأت نفسها مجرّدة من هذا السند، فسوف تنضم بالضرورة إلى أمير كونده، وإلى كوليني، وربّما أحرجتها هذه المناورة، بحيث تبقى معنا ...».

قال تيودور وهو يتناول طرف ثوب كالفن ويقبله: «أوه! يامعلمي، أنت عظيم حقاً».

قال كالفن بصوت منخفض، وهو يهمس في أذن وزير خارجيته: «سأموت للأسف، ياعزيزي تيودور، وإذا قضيت نحبي دون أن أراك، ففكّر في أن تقوم بضربة كبرى بواسطة أحد فدائيينا!».

ـ هل ينبغي قتل مينار آخر؟

ـ أعلى من قاض.

ـ ملك؟

---

(١) المشهد محتمل الوقوع فمراسلات كالفن مع مندوبي البروتستنت في المؤتمر، تشير إلى أن التعليمات كانت تصدر عنه.

(٢) اهمال من بلزاك. فدوبلسيس موزني لم يكن يتعدى الثانية عشر من العمر في ذلك الوقت، ولم يلعب دوراً هاماً في الحزب البروتستنتي إلا بعد العام ١٥٧٢ فهو من مواليد ١٥٤٩ وقد عمل مستشاراً لكوليني ثم لهنري الرابع، وأسّس في سومور أوّل اكاديمية بروتستنتية. توفى في العام ١٦٢٣.

ـ بل أكثر من ذلك، رجل يريد أن يكون ملكاً.

ـ هتف تيودور وقد بدرت منه حركة: «الدوق دي غيز[1]!».

لاحظ كالفن في حركة تيودور شبه استنكار أو بادرة مقاومة، ولم يكن قد انتبه لدخول الوزير شوديو فقال: إيه! ألا يحق لنا أن نَضرب كما نُضرَب؟ نعم في الخفية والصمت؟ ألا يمكننا أن نردّ على الجرح بالجرح، وعلى الموت بالموت؟ ألم يخطىء الكاثوليك بنصب الأشراك لنا وبذبحنا؟ إنني أدرك جيّداً مخططاتي! احرقوا كنائسهم! هيّا ياأبنائي، إن كان لديكم شباب مضحّون.

قال شوديو: «لديّ».

ـ استخدموهم كآلات حرب، فانتصارنا يتطلّب كل الوسائل. إن النديب، هذا الجندي الرهيب، وهو مثلي أكثر من رجل، إنّه سلالة حاكمة، كما أنني نظام، وهو قادر على إفنائنا! فلنعمل على موت اللوريني إذاً!

قال دي بيز: «أفضل انتصاراً سلمياً يتمّ التوصل إليه بالحكمة ومع الزمن».

صرخ كالفن وهو يضرب كرسيه بالأرض: مع الزمن؟ وبالحكمة؟ هل الحكمة تحقّق انتصاراً؟ أنت لاتعرف إذاً شيئاً عن الرجال، أنت يامن تختبرهم، أيّها الأحمق! إن ما يسيء إلى مذهبي، أيّها الأبله ثلاثاً، هو أنّه عقلاني! مايلزمنا هو صاعقة القديس بولس، وسيف القوي[2]! أيها الرأس الفارغ، أنت ياتيودور! ألم ترَ العنفوان الذي دبّ في حركتي بعد كارثة آمبواز؟ إن الأفكار لاتنمو إلا إذا سقتها الدماء! إن مقتل الدوق دي غيز سيكون ذريعة لاضطهاد رهيب، وهذا أعزّ أمنياتي!

---

(١) مامن أحد، على مايبدو، وجّه أي اتهام مباشر لكالفن عندما قتل بولترو الدوق دي غيز؛ وإنما أثيرت الشبهات حول الدور الذي لعبه كولينيي، وتيودور دي بيز، لكن بلزاك ينسب إليه الجرأة الفكرية، والمكيافلية اللتين يمكنهما وحدهما أن تضعاه في صف كبار السياسيين بحيث يكون نداً للملكة الأم.

(٢) هذا الهتاف التعجبي يتلاءم مع حماس كالفن، فالإصلاحيون الدينيون كانوا دائماً من المعجبين بالنور الباهر الذي صعق القديس بولس على طريق دمشق وهم ينادون بالمذهب البولسي عن الخلاص بالايمان. وسيف القوي مستمد من العهد القديم الذي تغنى به الأنبياء القدماء لمعاقبة الأشرار (أشعيا، وحزقيال).

إن الضربات المعاكسة هي أفضل لنا من النجاحات[١]! إن الاصلاح الديني لديه الوسائل لتحمل القتال، أتسمع؟ أيها التافه! بينما الكاثوليكية ستنهزم، إن ربحنا معركة واحدة، لكن من هم هيئة أركاني؟ ... خُرَق مبللة بدلاً من رجال! كروش ذات قائمتين! سعادين لها أسماء[٢]. أوه! ياإلهي! ليتك تعطيني عشر سنوات من العمر أيضاً إن متّ باكراً، فإن رسالة الدين الحقيقي ستضيع مع هؤلاء الحقيرين! إنّك بمثل بلاهة انطوان دي ناڤار! اخرج، اتركني، أريد مفاوضاً جيّداً! أنت لست إلا حماراً، متحذلقاً، شاعراً، اذهب إلى نظم الكاتولات والتيبولات، والتطريزات الشعرية[٣]، وهيه[٤]!

سكنّت آلام الرمل البولي كلّياً بتوقّد هذه الغضبة، وصمتت وخزات النقرس أمام هذه الإستثارة الرهيبة، وكان وجه كالفن عابقاً بالحمرة كسماء تنذر بالعاصفة، وجبهته الواسعة تلتمع، وعيناه تبرقان، وبدا مختلفاً تماماً، فقد استسلم إلى هذا النوع من الحركة الصرَعية المليئة بالغضب، المألوفة لديه، لكنه تماسك أمام صمت مستمعيه، ولاحظ شوديو يقول لدي بيز: عليقة حوريب[٥]. فجلس القسّ، وصمت، وغطّى وجهه بيديه اللتين تختلجان بمفاصلهما المعقّدة رغم ثخانتهما.

---

(١) حوار مستمد من مسرحية جرمو «بلبلة آمبواز» إنما بشكل أعنف. ففي المسرحية: (أليس الأفضل نصر ممكن بالعقل ومع الزمن؟ ـ انهما وسيلتان بطيئتان. فجنود الإنجيل منتصرون أو مقهورون قد رفعوا على الأقل الراية ويعرفون كيف يهتدون إليها، وقد تفضل أحياناً الضربات المعاكسة على النجاحات، إنما سيتعرض لها العديد من الرجال الشجعان والأصدقاء المفيدين وقد نخسرهم ... ـ إن دم الشهداء ياتيودور هو الذي حقّق نصر المسيحية، وقد يكون تجديدها دموياً أيضاً.

(٢) تعطي الشتائم النغم والحماس في هذا الخطاب المسهب، إنما يبدو بعضها مستغرباً على فم كهل يوجهها لرجل لايقلّ عنه عمراً إلا بعشر سنوات، وقد عرف بظرفه وتأنقه ورغبته في إرضاء معلمه، ويبدو أن بلزاك استرسل على طريقة رابله. انما تشير **السيرة الشاملة** إلى أن كالفن كان قاسياً وشتاماً عندما يغضب وتذكر مثالاً على ذلك عنوان إحدى مقالاته الهجائية: «إصلاح لفرض الصمت على انسان تافه».

(٣) عرف عن تيودور دي بيز أنّه ألف أشعاراً خفيفة باللاتينية كما لدى كاتول، وتيبول. وهي مراثي، وهجاءات، وشواهد قبور، إنّما تطرّق كالفن إليها يحمل معنى التحقير والسخرية.

(٤) صيحة توجّه إلى دابة.

(٥) على جبل حوريب رأى موسى العليقة التي تتأجج دون أن تحترق وتخمد وصوت الاله يطلب منه تحرير اليهود من عبودية الفراعنة، وكان البروتستنت القدماء يرون في ذلك صورة اضطهادهم وما سيعقب ذلك من تحرّر، وكلمة شوديو تعبير عن إيمانه بتوجيهات كالفن.

وبعد لحظات، وكان مايزال فريسة آخر ارتعاشات هذا الحسّ المتولّد عن عفة حياته قال لهما بصوت متهدّج: «نقائصي عديدة، لكن كبحها يكلّفني جهداً أقل من تهدئة تلهفي. أوه! أيّها الوحش الكاسر!» وضرب على صدره يقول: «ألن أتمكن من قهرك أبداً[1]».

قال دي بيز بصوت ملاطف، وهو يتناول يدي معلمه ويقبلها: «يامعلمي العزيز، إن جوبيتر يرعد لكنه يعرف كيف يبتسم أيضاً».

نظر كالفن إلى تلميذه بعين رنّقت هدوءاً وهو يقول له: «ارجو أن تفهماني ياصديقيَّ».

أجاب تيودور: أعرف أن رعاة الشعوب يحملون أثقالاً رهيبة، وما أكبر ثقلك وأنت تحمل العالم على كتفيك!

قال شوديو وقد دفعه هجوم المعلم المباغت إلى التفكير: إن لديّ ثلاثة فدائيين يمكن الاعتماد عليهم: ستيوارت الذي قتل الرئيس، وهو الآن مطلق السراح ...

قاطعه كالفن برفق وهو يبتسم كجميع الرجال العظماء الذين يرنّق الهدوء على وجوههم بعد الغضب كالطقس الجميل بعد العاصفة وكأنهم خجلوا من نزقهم: «خطأ، إنّني أعرف الرجال، يمكن لأحدهم أن يقتل رئيساً، لكنه غير قادر على قتل اثنين.

قال دي بيز: هل هذا ضروري فعلاً.

قال كالفن وهو ينفخ بمنخريه: مرّة أخرى؟ عجباً! اتركاني، إذ سيتجدّد غضبي، اذهبا واعملا بقراري، أنت ياشوديو، سر في طريقك، وحافظ على جماعتك في باريس، وليوجّه الله خطواتك. دينا ... انيري الطريق لأصدقائي.

---

(١) في رسالة بعث بها كالفن إلى بوسر، وهي منشورة في السيرة الشاملة يقول: «إن أكبر معاركي مع عيوبي الكبيرة والعديدة هي ضد تلهفي وقلّة صبري، وأنا حتى الآن لم استطع أن أتغلب على هذا الوحش الكاسر.

قال تيودور بحنو: ألا تسمح لي بمعانقتك؟ من منا يعرف ماسيجري غداً؟ فقد يقبض علينا رغم جوازات المرور.

قال كالفن وهو يعانق دي بيز: «وتريد أن تداريهم؟» ثم امسك بيد شوديو وهو يقول له «بصورة خاصة، لا تكونوا هوغنوت، ولا بروتستنت، كونوا كالفنيين! ولا تدعوا إلاّ إلى الكالفنية... للأسف! ليس هذا طموحاً، لأنني سأموت... إنّما يجب تدمير كل مايعود إلى لوثر حتى اسم اللوثري واللوثرية».

هتف شوديو: ولكن أيّها الرجل الالهي أنت تستحق هذا التقدير حقاً!

ـ حافظوا جيّداً على وحدة المذهب، لاتسمحوا بمناقشة أي رأي حوله أو إعادة النظر فيه، سنضيع إن تفرّعت عنا شيع جديدة.

بالتعجيل في أحداث هذه الدراسة، وللانتهاء من تيودور دي بيز الذي ذهب إلى باريس مع شوديو، يجب الإشارة إلى أن بولترو الذي أطلق بعد ثمانية عشر شهراً رصاص غدارته على الدوق دي غيز اعترف تحت الاستجواب التعذيبي إلى أنه دفع إلى هذه الجريمة من قبل تيودور دي بيز، غير أنه تراجع عن هذا الاعتراف في تعذيبات لاحقة، وهكذا فإن بوسويه بعد أن وازن بين الاعتبارات التاريخية كلها، لم يجد مبرّراً لأن تنسب فكرة هذه الجريمة إلى تيودور دي بيز[1] لكن منذ بوسويه، جرت دراسة، تبدو في ظاهرها تافهة، بمناسبة أغنية شهيرة، وقد قادت مجمّع منتجات في القرن الثامن عشر[2] للبرهان على أن الأغنية التي ردّدها الهوغنوت في كلّ فرنسة عن موت الدوق دي غيز هي من تأليف تيودور دي بيز،

(١) يعتمد بلزاك على مقال «بيز» في السيرة الشاملة، حيث أشير إلى اعترافات بولترو، وتراجعه عنها؛ ورأي بوسويه في عدم إدانة بيز بأي تواطوء مباشر. أما بوسويه في كتابه «تاريخ التغيّرات في الكنائس البروتستنتية» وبعد أن يحلّل مطولاً، وفقاً لسرد بيز نفسه، حقد زعماء البروتستنتية على دي غيز وعلاقاتهم مع بولترو يستنتج مايلي: «بالنسبة لبيز يبدو أن ليس له علاقة بهذه الجريمة إلا بالمواعظ التحريضية، والموافقة التي أبداها على تحرّر آمبواز وهو أكثر إجراماً منها، لكن المؤكّد هو عدم اتخاذه أي إجراء لمحاولة منعها بالرغم من أنه قد يكون على معرفة بها، ثم حرصه بعد وقوعها على إعطائها صبغة الحدث المخطّط له (بوسويه: الأعمال الكاملة ـ ١٨٦٢).

(٢) في الواقع أن ملك نافار تقرّب في نهاية العام ١٥٦١ من الأخوين دي غيز والحلف الثلاثي.

وبرهن عندئذ على أن الأغنية المأساوية عن مارلبورو هي انتحال لأغنية تيودور دي بيز (انظر الملاحظة في آخر الرواية).

في اليوم الذي وصل فيه تيودور دي بيز وشوديو إلى باريس، كان البلاط قد عاد من ريمس حيث توّج شارل التاسع، وقد جعلت كاترين هذا الاحتفال مناسبة لحفلات رائعة أتاحت لها أن تجمع حولها كافة رؤساء الأحزاب، وبعد أن درست جميع المصالح والأحزاب، رأت أن عليها أن تختار بين أمرين: إما أن تجعلهم يوالون العرش جميعاً أو أن يناقض البعض منهم البعض الآخر. استنكر قائد الجيش دي مونورونسي، وهو الكاثوليكي المخلص، تحالف الملكة الأم مع البروتستنت بالرغم من أن ابن اخته الأمير دي كونده هو زعيم الاصلاح الديني، وأن أولاده هو يميلون إلى هذا المذهب. كما أن الأخوين دي غيز من جهتهما عملا على أن يكسبا أنطوان دي بوربون، الأمير دون شخصية، إلى حزبهما[1]؛ وقد سمحت له زوجته ملكة ناڤار بناءً على نصيحة دي بيز بفعل ذلك. وأثرت هذه الصعوبات على كاترين التي تحتاج سلطتها الوليدة إلى بعض أوقات الهدوء؛ وهكذا كانت تنتظر بتلهف جواب كالفن، الذي أرسل إليه أمير كونده، وملك ناڤار، وكولينيي، وداندلو، والكردينال دي شاتيون، دي بيز وشوديو؛ ولكن بانتظار ذلك، كانت الملكة الأم أمينة لوعودها لأمير كونده. فقد أنهى رئيس القضاء الإجراءات المتعلقة بكريستوف بإحالة القضية إلى برلمان باريس الذي نقض قرار اللجنة مصرّحاً بعدم صلاحيتها لمحاكمة أمير من السلالة المالكة، وبدأ البرلمان النظر مجدّداً في الدعوى بناءً على التماس الأخوين دي غيز والملكة الأم، ووضعت أوراق لاساغ بين يدي كاترين فأحرقتها[2]، وكان هذا أول تقرّب يجريه الأخوان نحو الملكة الأم، لكن من غير فائدة. ولم يجد البرلمان هذه الأدلة مقنعة، فأعاد للأمير جميع حقوقه وأملاكه، واعتباره. أما كريستوف فقد أفرج عنه أثناء بلبلة أورليان، وأعلنت براءته باعتلاء

---

(١) يذكر المؤرخ دي تو أن أمير كونده هو الذي طلب إحالة الدعوى إلى برلمان باريس، ليعمل على اظهار براءته علناً، ولكن مامن دليل على أن كاترين تمكنت من إحراق الأوراق المعرّضة للشبهة و**مذكرات كونده** تشير فقط إلى لاساغ والشهود الآخرين قد تراجعوا عن إفاداتهم.

الملك العرش، وعوّض عما عاناه من تعذيب بتسميته محامياً في البرلمان بناء على توصية من السيد دي تو.

كان الحلف الثلاثي، هذا الاتحاد المستقبلي للمصالح المهددة بإجراءات كاترين الأولى يتحضّر إذاً تحت ناظريها؛ وكما تنتهي العناصر المتضادة في الكيمياء إلى الانفصال سريعاً تحت الصدمة الأولى التي تؤثّر على اتحادها القسري، كذلك الامر في السياسة فتحالف المصالح المتعاكسة ذات عمرقصير. وقد أدركت كاترين. أنها ستعود عاجلاً أم آجلاً إلى آل غيز وإلى قائد الجيش، لتصارع الهوغنوت؛ فهذا المؤتمر الذي دغدغ أنانيات الخطباء في كلّ حزب، والذي وجب أن يتم باحتفال مهيب يعقب احتفال التتويج ويلهي بالتالي عن البساط الدموي لتلك الحرب الدينية التي بدأت، بدا دون فائدة في عيني دي غيز وكذلك في عيني كاترين، وكان الكاثوليك خاسرين فيه. إذ راح الهوغنوت تحت ذريعة التفاوض ينشرون مذهبهم في عموم فرنسة وتحت حماية الملك وأمه؛ وكان الكردينال دي لورين الذي أطرت كاترين بلاغته وقدرته على مقارعة الهراطقة بفصاحة أمراء الكنيسة[1] قد أقنع أخاه بانعقاده، واقتصرت فائدته على الملكة الأم أن أمْن لها نحو ستة أشهر من السلام.

حادث بسيط كاد يعرّض للخطر تلك السلطة التي أشادتها كاترين بعناء؛ وهذا هو المشهد الذي حفظه التاريخ، والذي تفجّر في ذات اليوم الذي وصل فيه موفدو جنيف إلى شارع بوسي وحلّوا في قصر كوليني قرب اللوفر. بعد التتويج، قام شارل التاسع، وكان يحب كثيراً مدرّسه آميوت، فعيّنه مرشداً عاماً للملك، وكان شقيق الملك دوق آنجو، هنري الثالث المستقبلي، وهو تلميذ آميوت أيضاً، يكنّ له المودّة ذاتها. علمت كاترين بنبأ هذا التعيين، من الأخوين غوندي، خلال السفر من ريمس إلى باريس، وكانت تعتمد على هذا المنصب المقرّب من التاج، وتريد تعيين شخصية هامة فيه قادرة على مجابهة الكردينال دي لورين، وإكسابها

---

(١) وفقاً لما ذكره المؤرخ دي تو: «سواء اكان الكردينال دي لورين يريد أن يظهر ألمعيته في هذا المؤتمر، أو أنه انجذب إليه بتملّق أصدقائه، فإنه كان واثقاً من انتصاره فيه وأظهر حماساً كبيراً للمجابهة الفكرية مع البروتستنت (عن كتاب التاريخ العام).

دعم الكنيسة لها، وترغب في أن تقلّده للكردينال دي تورنون لتجد فيه، كما وجدت في لوسبيتال، عكازاً ثانياً، وفقاً للتعبير الذي ذكرته.

استدعت المربي وكان غضبها شديداً لرؤية هذه الورطة التي سببّها لسياستها طموح هذا الرجل المحدث النعمة، ابن الحذّاء، الذي وجّهت إليه هذه الكلمات المسجّلة من قبل مؤلفي المذكّرات التاريخية، بعد أن استدعته إليها عقب وصولها إلى اللوڤر: «ماذا؟! أنا التي طوّعت آل غيز، وآل كوليني، وقادة الجيش، وبيت ناڤار، وأمير كونده، يجابهني وصوليٌّ مثلك يجب أن يكتفي بإنعامنا عليه بمطرانية أوكسير!». اعتذر آميوت، والواقع أنه لم يطلب شيئاً، بل إن الملك بمبادرة منه سمّاه لهذا المنصب، بينما وجد نفسه وهو الأستاذ المسكين غير جدير به[1] واستأنفت كاترين: «تأكّد، أيّها المعلم ـ وهو اللقب الذي كان يطلقه شارل التاسع وهنري الثالث على هذا الكاتب الكبير ـ أنّك لن تثبت على رجلك أربعاً وعشرين ساعة إن لم تقنع تلميذك بأن يغيّر فكره». مابين الموت الذي هُدِّد به صراحة، والتنازل عن أكبر منصب كنسي لدى التاج، فإن ابن الحذاء، وقد غدا طماعاً، وربّما طمح إلى قبعة الكردينال، رأى أن يسوّف في قراره، فابتعد ولجأ إلى دير سان جرمن. وفي أوّل حفل غداء للملك شارل التاسع، لم ير آميوت، فسأل عنه، ويبدو أن أحد أتباع دي غيز أسرّ للملك دون شك بما دار بين آميوت والملكة الأم، فقال: «ماذا! ألأني جعلت منه مرشداً عاماً، يُعمَل على إخفائه؟». وذهب إلى أمه وقد انتابته تلك الحالة من الغضب العنيف التي تنتاب الأولاد عندما يرون إحدى نزواتهم تعاكس، فقال لها: «سيّدتي، ألم أراعِك وأوقع الرسالة التي طلبت مني توجيهها إلى البرلمان، والتي تحكمين بموجبها مملكتي؟ ألم تعدينني عندما عرضتها علي بأن إرادتي ستكون إرادتك، وها أنا أرى أن الحظوة الوحيدة التي أردت منحها قد أثارت غيرتك. إن رئيس القضاء يتحدث عن إعلان بلوغي الرشد في سن الرابعة

(١) يعتمد بلزاك هنا على مقال «آميوت» في **السيرة الشاملة**، والحادثة شهيرة، وهي مذكورة في «**منتخبات**» لابلاس.

عشر، أي خلال ثلاث سنوات، وأنت تريدين معاملتي كطفل ... وسأكون، قسماً بالله! ملكاً، ملكاً بحق، كما كان أبي وجدّي».

تكشفت لكاترين، من اللهجة التي قيلت فيها هذه الكلمات وطريقتها، الطبيعةُ الحقيقية لابنها، فتلقّت ضربة عنيفة في الصميم. وفكّرت في نفسها قائلة: «يكلّمني هكذا، أنا التي جعلت منه ملكاً!».

أجابت: «سيدي، إن مهنة المُلك، في الزمن الحاضر، صعبة جداً، وأنت لاتعرف جيداً المعلّمين الذين تتعامل معهم معرفة جيدة، لن يكون لك أبداً صديق مخلص وأمين مثل أمّك، أو خدم مثل أولئك الذين ارتبطوا بها منذ مدة طويلة والذين لولا خدماتهم لما كنت، على الأرجح على قيد الوجود الآن. إن آل غيز يريدون النيل من عرشك ومن شخصك؛ فاعرف ذلك، ولو استطاعوا أن يضعوني في كيس ويخيطونه بإحكام ويلقونني في النهر لفعلوا ذلك هذا المساء» قالت ذلك وأشارت بيدها إلى نهر السين[1]. هذان اللورينيان يعرفان إنني اللبوة التي تدافع عن أشبالها، فتوقف أيديهما الممدودة إلى التاج. من، وماذا يدعم أستاذك؟ من هم حلفاؤه؟ ماهي سلطته؟ أيّة خدمات يمكن أن يقدّمها لك؟ ما وقع كلمته؟ وبدلا من دعامة تقوّي سلطتك فإنك تضعفها. إنّ الكردينال دي لورين يهدّدك، إنه يعتبر نفسه ملكاً، ويحتفظ بقبعته على رأسه أمام الأمير الأوّل من السلالة الملكية؛ أليس إذاً من الأمور الملحّة مجابهته بكردينال آخر يتمّتع بسلطة أعلى من سلطته؟ أهو آميوت هذا الحذّاء غير القادر إلاّ على أن يربط له شريط حذائه، من يمكنه مواجهته جهاراً؟ أخيراً أنت تحبُّ آميوت، وقد سميته، فلتكن إرادتك الأولى، ياسيدي! ولكن قبل أن تصمم على أمر، استشرني باسم الصداقة الخالصة! وتهيّأ لأمور الدولة، وإحساسك السليم كفتى قد يتوافق مع تجربتي الطويلة لتقرّر الأصلح عندما تعترضك الصعوبات.

---

(١) يحلو لبلزاك أن يردّد هذه العبارة، عن لسان الملكة، وهي في «اعتراف الروجيريين» تنسبها إلى أمير كونده، لكن وفقاً لما ذكره برانتوم فإن المارشال دي سان آندره هو الذي نصح بوضع الملكة في كيس وإلقائها في النهر».

قال الملك دون أن يصغي كثيراً إلى أمه التي لم ير في جوابها إلا الملامات :

«ستعيدين إليّ أستاذي ! » .

أجابت : «نعم ، سيكون إلى جانبك ، ولكن ليس هو ، ولا هذا الانسان الفظ سيبسس ، من يعلمك كيف ستملك» .

قال وقد رقّ بهذا الانتصار ، وتخلّى عن هذا المظهر المتوعّد والمتكتّم الذي يبدو على سحنته :

«كلاّ ، إنما ستكونين أنت ، ياوالدتي العَزيزة» .

أرسلت كاترين غوندي ليبحث عن مرشد الملك الجديد ، وعندما اكتشف الفلورنسي خلوة آميوت ، وقيل للمطران إن رجل البلاط هذا مرسل من الملكة ، تملكّه الرعب ، ولم يرد أن يخرج من الدير ، فاضطرت الملكة تجاه هذه الخشية أن تكتب له بنفسها عبارات مطمئنة جعلته يعود ويتلقّى تأكيداً منها بحمايته شريطة أن يطيعها طاعة عمياء في توجيه شارل التاسع . مع هدوء هذه العاصفة المنزلية البسيطة ، عادت كاترين إلى اللوفر بعد غياب استمر أكثر من سنة ، وعقدت مجلساً مع الخلّص من مستشاريها[1] حول المعاملة التي يجب اتباعها مع الملك الفتى الذي أثنى سبيير على حزمه .

قالت للأخوين غوندي ، ولروجييري ، ولبيراغ ، ولشيفرني الذي غدا موجّهاً ومستشاراً لدوق آنجو «ماذا يجب أن أفعل ؟ » .

قال بيراغ : «قبل كل شيء ، غيّري سيبيير ، فليس رجل بلاط ، ولايتلاءم أبداً مع وجهة نظرك بل يعتقد أنه يقوم بواجبه وهو يعارضك» .

هتفت الملكة : «على من اتكل ؟

قال بيراغ : «على أحدنا» .

(١) هذا المجلس يتوافق مع اللوحة التي رسمها بلزاك في «اعتراف الروجيريين» عن الشخصيات المجتمعه حول الملكة الأم وأوضاعهم . ومع الصورة المعطاة عن الملك .

قال غوندي: يقيناً! لأجعل لك منه ملكاً طيّعاً على شاكلة ملك نافار.

وقال ألبر دي غوندي: «تركت المرحوم الملك يهلك لتنقذي أولادك الباقين؛ فافعلي كما يفعل كبار نبلاء القسطنطينية، اعملي على إلغاء نزواته وفورات غضبه. إنّه يحبُّ الفنون، والشعر، والصيد، وفتاة صغيرة أعجبته عندما كان في أورليان؛ وفي كل ذلك مايكفي لانشغاله.

قالت كاترين لأَقَدر الأخوين غوندي: «ستكون أنت إذاً مربّيَ الملك».

ـ أرجو أن تمنحيني السلطة الضرورية للمربي، وقد تلزم تسميتي مارشالاً ودوقاً، إن سيبيير أصغر من أن يقوم بهذه المهمة، ويجب في المستقبل أن يكون مربي ملك فرنسة ذا قدر كمارشال ودوق...

قال بيراغ: إنّه على حق.

قالت كاترين بلهجة حالمة: «شاعر وصيّاد!».

هتف غوندي: «سنصيد وسنعشق!».

قال شيفرني: «إنّك واثقة الآن من آميوت الذي يخشى دائماً السمَّ في حال عصيانه، وسيكون الملك مع غوندي سهل القياد.

قال روجيري: إنّك اضطررت إلى تضييع ولد لانقاذ أولادك الثلاثة الباقين وإنقاذ العرش، فيجب أن تمتلكي الشجاعة لتشغلي هذا العرش لإنقاذ المملكة، وربّما لإنقاذ نفسك أيضاً.

قالت كاترين دي مديسي: لقد أساء إليّ إساءة شديدة.

أجاب بيراغ برصانة وهو يشدّد على كلماته: «إنه لايعرف فضلك عليه[١]، وإن عرف فستكونين في خطر».

---

(١) تلميح إلى دور الملكة تجاه فرنسوا الثاني المتوفي، وربّما إلى ما أثير حول تواطئها في تسميم ولي العهد السابق الذي جعل من زوجها وهو الابن الثاني ملكاً ومنها ملكة لفرنسة.

قالت كاترين وقد سبّب لها هذا الجواب تأثّراً شديد: «اتفقنا، ستكون أنت ياغوندي مربي الملك، وبذلك يكون الملك قد لبّى لي مطلباً مقابل إذعاني لتسميته لهذا المطران ذي الرجل المسطّحة، هذا التافه الذي فقد قبعته الكردينالية[1]. نعم طالما حييت سأعارض في أن يمنحه البابا هذه الرتبة. كان بإمكاننا أن نزداد قوة بتسمية الكردينال دي تورنون لهذا المنصب؛ فأي ثلاثي في مرشد الملك، ولوسبيتال ودي تو! أما بورجوازية باريس فإنني سأتقرّب إليها بواسطة ابني، وسنعتمد عليها».

وهكذا غدا غوندي مارشالاً وتسمى باسم دي ريتز ومربياً للملك بعد عدة أيام[2].

في اللحظة التي انتهى فيها المجلس المصغّر، جاء الكردينال دي تورنون يعلن للملكة عن قدوم موفدي كالفن، وكان الأميرال دي كوليني يرافقهم لتأمين استقبال لائق بهم في اللوفر[3] وعند ذاك صحبت الملكة وصيفاتها الرهيبات وانتقلت إلى قاعة الاستقبال التي بناها زوجها والتي لم يعد لها وجود اليوم في اللوفر.

في ذلك الزمن[4]، كان درج اللوفر في برج الساعة، وجناح الملكة كاترين في

---

(١) تلميح إلى أصل آميوت الوضيع، والواقع أنه لم يسم أبداً كردينالاً وإنما سمي مطراناً لأوكسير وفي العام ١٥٧٠.

(٢) لايهتم بلزاك بصحة التأريخ فالبردي غوندي لم يسم مارشالاً إلا في العام ١٥٧٣ ودوقاً في العام ١٥٨١ وبعد أن تزوّج البارونه دي رينز في العام ١٥٦٥ أرملة جان آنبو، كما أنه لم يعين مربياً للملك إلا بعد وفاة سيبيير في العام ١٥٦٦ غير أنه كما يقول برانتوم وهو يقارنه بسيبيير: «إنّه أفسد الملك، وجعله ينسى كل الأشياء الجميلة التي غذّاه بها مربيه السابق».

(٣) من المؤكّد أن بيز رأى الملكة الوالدة غداة وصوله إلى باريس إنما في سان جرمن وليس في اللوفر، وفي ٢٣ آب، بينما بلزاك يحدّد المشهد قبل عيد الفصح، أما كولينيي وكان ينتظر من المؤتمر انتصار البروتستنية فإنه مع وصول القس إلى باريس اهتم بأمنهم وخصّص لهم حراسة ونبلاء يرافقونهم.

(٤) اعتمد بلزاك في دراسة اللوفر خلال القرن السادس عشر ومقارنته مع اللوفر الذي يعرفه على دراسة تاريخية ووضعية للكونت دي كلاراك بعنوان «متحف النحت القديم والحديث ـ ١٨٢٦» ومعظم الاستطراد الآثاري اللاحق مستمد منه.

الأبنية القديمة التي ما يزال قسم منها ماثلاً في فناء المتحف، وقد بني الدرج الحالي للمتحف في موقع قاعة مشاهد الباليه. كان الباليه انذاك نوعاً من التسلية المسرحية يشارك بها البلاط بكامله. وقد اعتمدت الأهواء الثورية أحد الأخطاء الأكثر إثارة للسخرية حول شارل التاسع بخصوص اللوفر. فخلال الثورة نشأ اعتقاد معاد لهذا الملك شوّه فيه طبعه وجعله مسخاً رهيباً؛ فمأساة شنِيه[1] قد كُتبت تحت تأثير لوحة وضعت على نافذة كتلة البناء المتقدمة المطلّة على ضفة النهر وقد كتب عليها: «من هذه النافذة أطلق شارل التاسع، السيّء الذكر، النار على المواطنين الفرنسيين». من الملائم أن نذكر لمؤرخي المستقبل، وللأشخاص الرصينين، أن كل ّهذا القسم من اللوڤر، المسمّى اليوم اللوڤر القديم، الموجّه كبلطة على الضفة، الذي يضم الصالة إلى اللوفر بواسطة الرواق المسمى رواق أبولون، واللوفر مع التويلري بصالات المتحف، لم يكن له وجود في أيام شارل التاسع، والقسم الأعظم من الموقع الذي ترتفع فيه واجهة الضفة، حيث تمتد الحديقة المسماة حديقة «إنفانت» استخدم لقصر بوربون الذي يعود بالضبط إلى آل ناڤار. لذلك من المستحيل على شارل التاسع عملياً أن يطلق النار من لوڤر هنري الثاني على قارب مليء بالهوغنوت يعبر النهر. فهو لايكاد يرى السين من النوافذ التي سدّت حالياً في هذا اللوفر. وحتى عندما لم يكن لدى العلماء والمكتبات مخططات تحدّد اللوفر تماماً كما كان في عهد شارل التاسع، فإن هذا الصرح يحمل دحض هذا الخطأ؛ فجميع الملوك الذين ساهموا في إشادة هذا البناء الواسع لم يفُتهم أبداً أن ينقشوا أحرفهم الأولى أو جناساً ما على ماشيّد في عهدهم؛ والحال أن هذا القسم الجليل والأسود كلياً اليوم من اللوفر المطل على حديقة إنفانت والمتقدم على الضفّة يحمل أحرف هنري الثالث وهنري الرابع المختلفة عن أحرف هنري الثاني الذي قرن حرف «H» مع حرفي «C» من كاترين ليجعل منهما «D» التي تخدع الأفراد السطحيين. وأمكن لهنري الرابع أن يضمّ إلى نطاق اللوڤر قصره البوربوني مع حدائقه وملحقاته، وكان هو أولّ من خطرت له

---

(١) ماري جوزيف شنيه (١٧٦٤ ـ ١٨١١) مُثّلت مسرحيته شارل التاسع في المسرح الفرنسي بتاريخ ٤ تشرين الثاني ١٧٨٩.

فكرة ضم قصر كاترين دي مديسي إلى اللوفر بأروقته غير المكتملة ذات النقوش الثمينة المهملة جداً. وحتى لو لم يوجد مخطط باريس في أيام شارل التاسع، وأحرف هنري الثالث وهنري الرابع فإن فروق الهندسة المعمارية تقدّم تكذيباً جازماً لهذه الفرية؛ فالحديبات الدودية الشكل لقصر «القوة» وهذا القسم من اللوفر تبيّن بدقة هذا الانتقال من الهندسة المعمارية المسماة «النهضة» إلى الهندسة المعمارية أيام هنري الثالث وهنري الرابع ولويس الثالث عشر. هذا الإنحراف المعماري المنسجم مع الرسوم التي يبدأ بها ذلك التاريخ يسمح بملاحظة المظهر الحقيقي لهذا القسم الآخر من باريس الذي لايوجد منه إلا هذا الجزء من اللوفر الذي تتخرّب نقوشه الدقيقة الرائعة كل يوم.

عندما علم رجال البلاط أن الملكة ستستقبل تيودور دي بيز وشوديو القادمين إلى القصر مع الأميرال كولينيي، أسرع جميع الجلساء الذين يحق لهم دخول قاعة الاستقبال ليكونوا شهوداً على هذا اللقاء[1]. كانت الساعة حوالي السادسة مساءً، والأميرال قد أنهى عشاءه، وهو يسوك أسنانه عند صعوده أدراج اللوفر بين البروتستنتيين. كانت عادة تسويك الأسنان قد غدت لا إرادية لدى الأميرال حتى أنه قد يقوم بها وهو وسط المعركة، مفكّراً بالتراجع، وقد شاع في البلاط الملكي هذا المثل: «احترسوا من مسواك الأميرال، ومن «لا» قائد الجيش و «نعم» كاترين»[2] وأثناء مذبحة سان بارتلمي، وضع الرعاع في جثة كولينيي التي بقيت معلّقة ثلاثة

---

(١) باستثناء حضور لاروش ـ شونديو الذي رفضت الملكة مقابلته، فإن هذا المشهد يبدو محتملاً إن لم يكن صحيحاً تاريخياً. وقد سجّل دي تو قبل التحدّث عن المؤتمر: «كان الكردنيال دي لورين قد تناقش خاصة بوجود الملكة مع تيودور دى بيز، ويشير أحد المؤرخين المحدثين مستعيناً بمذكرات **لابلاس** ورسائل السفراء الإيطاليين إلى اجتماع عقد في ٢٤ آب في سان جرمن لدى ملك نافار ضم الملكة الأم والملك وكونده وبيز والكردينالين دي لورين ودى بوربون (ل. روميه: كاثوليك وهوغنوت في بلاط شارل التاسع).

(٢) يبدو أن بلزاك كيّف على طريقته مثالاً شهيراً رواه درو دو راديه بالرجوع إلى برانتوم: «فليحرسنا الله من صلاة القائد العام الربانية، إذ وهو يتلوها على مسبحته لايفوته شنق جندي أو هوغنوت ثوري، ومن قدّاس رئيس القضاء للشبهة بعدم إيمانه به، ومن مسواك الأميرال، لأن هذه هي عادته المألوفة بتسويك أسنانه وهو يفكر بأمر جَلَل.

أيام في مونفوكون مسواكاً ضخماً بين أسنانه، وقد سجل المخّبرون هذه الدعابة البغيضة في وقائعهم.

هذا الحدث البسيط وسط الكارثة الكبيرة يصورّ الشعب الباريسي الذي يستحق تماماً هذا التزوير الطريف لبيت شعر لبوالو:

ولُد الفرنسي ماكراً فاخترع المقصلة[1].

والباريسي في كل زمن يخلق المزاح الماجن قبل الثورات الرهيبة واثناءها وبعدها.

كان تيودور دي بيز مكتسياً كأحد نبلاء البلاط، جوارب من حرير أسود، وحذاءاً مخرّماً وسروالاً ذا طيّات، وصديرياً من حرير أسود بفتحات كمّين مرتّدين، مع معطف صغير من مخمل أسود يرتد عليه كشكش قميص أبيض مثنى بشكل أنبوبي، وكان قد ترك عنقفته وشاربيه، واحتفظ بسيفه على جانبه، وحمل عصا[2]. ومن يتجولّ في أروقة فرساي أو مجمّعات أوديڤر، يعرف وجهه المستدير، شبه المرح، بعينيه المتوقدتين، يعلوهما هذا الجبين الملفت للنظر بسعته التي تميّز كتاب ذلك الزمن وشعراءه. كان لدى بيز وجه مستحب[3] وهذا ماأفاده كثيراً، فهو يتباين مع كولينيي ذي الوجه العبوس المعروف شعبياً، ومع شوديو الفظ الصفراوي الذي كان يحتفظ ببزّة الوزراء والياقة الكالفنية. إن مايجري في أيامنا في مجلس النواب، وماجرى دون شك في الجمعية التأسيسية، يمكن أن يفهمنا كيف أمكن لرجال خاضوا بعد ستة أشهر حرباً ضارية، وتصارعوا حتى الإبادة أن يلتقوا ليتحدثوا بلطف ويتمازحوا عند الوصول إلى القاعة، كان كل من بيراغ الذي نصح

(١) في الأساس: «ولد الفرنسي ماكراً فألّف المسرحية الهزلية» عن كتاب «الفن الشعري» لبوالو (١٦٣٦ ـ ١٧١١).

(٢) هذه هي فعلاً ألبسة رجال البلاط بين ١٥٦٠ و ١٥٧٠ لكن العصا لم تنتشر إلا في أيام لويس الثالث عشر، أما العنقفة وهي خصلة الشعر تحت الشفة السفلى فقد سادت في أيام هنري الثالث.

(٣) مامن شيء يشير في الصور التي بقيت عن تيودور دي بيز بأنه ذو وجه مستحب بل إن صوره الباقية تظهره بوجه مثلث ينتهي بعثنون مستدقة.

فيما بعد بكل برود بسان بارتلمي، والكردينال دي لورين الذي طلب من بِسْم خادمه، ألا يخطىء الأميرال، في لقاء كولينيي. فقال له البيمونتي باسماً: «إيه ياعزيزي الأميرال، لقد كلفت نفسك إذاً بتمثيل سادة جنيف هؤلاء.

أجاب الأميرال ضاحكاً: قد تعتبرونها ارتكاب إثم بالنسبة لي، بينما لو قمتم أنتم بذلك لكان استحقاقاً كبيراً.

سأل الكردينال دي لورين تيودور دي بيز: «يقال إن السيد كالفن مريض جداً، آمل ألا يشتبه بأننا عملنا على دسّ السمّ له».

أجاب دي بيز بنعومة: إيه! ياصاحب الغبطة، كنتم تخسرون كثيراً بذلك.

هتف الكردينال: وحق الاله! إن الهراطقة ليسوا كذلك في السياسة الحاذقة.

أمّا الملكة التي أعلن عن قدومها في تلك اللحظة فعمدت تجنباً لأية مشقة إلى البقاء واقفة؛ وبدأت بالتحدث مع قائد الجيش الذي كان يعبّر بحماس عن استنكاره لاستقبال موفدي كالفن. قالت: «أترى ياعزيزي القائد، إننا نستقبلهم دون احتفال».

قال الأميرال وهو يتوجّه إلى الملكة: سيّدتي، اليك فقيهان من المذهب الجديد، وقد تفاهما مع كالفن، وتلقيا تعليماته المتعلقة بمؤتمر تتمكن فيه كنيستا فرنسة من أن تزيلا مابينهما من خلاف.

قال ملك نافار: «هوذا السيّد تيودور دي بيز الذي تقدّره زوجتي كثيراً» وتقدم من الملكة ممسكاً بيد السيد تيودور.

وهتف أمير كونده: «وهوذا شوديو، إن صديقي الدوق دي غيز يعرف جيّداً النقيب[1] وربّما كان مسروراً لتعرفه على الوزير» وتطلّع إلى النديب، باسماً.

هذه المزحة الغاستونية أضحكت كل البلاط بمن فيه الملكة.

---

(١) اشارة إلى محاولة النقيب لاروش ـ شوديو اختراق أحد أبواب آمبواز خلال البلبلة وتصدي الدوق وولده له.

أجاب الدوق دي غيز: «يقيناً إنني مبتهج لرؤية رجل يعرف جيّداً كيف يختار أعوانه ويستخدمهم في مهماته». ثم التفت إلى الوزير قائلاً: «إن أحد هؤلاء قد تحمّل، دون أن يموت، ودون أن يعترف، الاستجواب تحت التعذيب الإستثنائي؛ إنني أظن في نفسي الشجاعة، ولكنني لا أعلم إن كنت قادراً على تحمل ما عاناه.

قال امبرواز پاره: «هيه! إنّك لم تنبس بكلمة تأوّه وأنا انتزع السهم من وجهك في كاليه!» كانت كاترين في مركز نصف دائرة رسمها حولها جلساؤها ووصيفاتها، وقد حافظت على الصمت العميق، وهي تتأمّل البروتستنتيين الشهيرين، كانت نظرات عينيها السوداوين الجميلتين والذكيتين تحاول النفاذ إلى مافي نفسيهما؛ كانت تدرسهما.

همست في أذن ألبر دي غوندي: «يبدو أن أحدهما السيف والآخر الغمد».

قالت كاترين التي لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام: حَسَن، أيها السادة، هل منحكم معلمكم الأذن بإقامة مؤتمر عام يمكنكم فيه أن تهتدوا بكلام الآباء الجدد في الكنيسة الذين يعتبرون فخر دولتنا؟

قال شوديو: مامن معلم لنا إلا السيد المسيح.

ابتسمت كاترين وهي تقاطع الوزير: اه! لا شكّ في أنكم تعترفون بشيء من السلطة لملك فرنسة؟!

قال دي بيز وهو ينحني احتراماً: «وبالكثير للملكة الأم».

عقبت على ذلك مخاطبة الحضور: أترون؟ إن رعاياي الأكثر طاعة هم الهراطقة.

هتف كولينيي: «آه! ياسيدتي، أية مملكة جميلة سنصنع لك! إن أوروبة تستغلّ انقساماتنا بشكل غريب، وقد تمكنت دائماً خلال الخمسين سنة الماضية من إثارة نصف الفرنسيين ضد نصفهم الآخر.

قال قائد الجيش بفظاظة: «هل نحن هنا لسماع أغنيات التسبيح لمجد الهراطقة؟».

همس الكردينال دي لورين في أذنه: كلا، إنما لجذبهم إلى الاقرار بالذنب مع التوبة، يجب أن نجرب استمالتهم بشيء من الرقّة.

قال آن دي مونمورونسي: هل تعلم ماذا كنت أفعل لو أنني في عهد الملك الوالد، كنت استدعيت قائد الشرطة لينصب مشنقة في أعلى اللوفر، أعلّق عليها هذين الحافيين.

قالت الملكة وقد فرضت بنظرة منها الصمت على قائد الجيش: «حَسَنٌ، أيّها السادة، من هم علماؤكم الذين ستقابلوننا بهم؟

قال شوديو: دوبلسي مورني[1]، وتيودور دي بيز هما رئيسا وفدنا.

قالت كاترين: إن البلاط الملكي سينتقل إلى سان جرمن، وليس من المناسب أن ينعقد هذا المؤتمر في المقر الملكي، لذلك سنقيمه في بلدة بواسي الصغيرة.

قال شوديو: هل سنكون في أمان هناك ياسيدتي.

أجابت الملكة وقد تصنّعت البراءة: آه! إنكم تعرفون جيّداً اتخاذ احتياطاتكم، والسيد الأميرال سيتفاهم حول هذا الموضوع مع ابني عمي دي غيز ومع دي مونمورونسي.

قال قائد الجيش: «أفّ لذلك! لاأريد أن أشارك فيه ابداً.

قالت الملكة الأم وهي تنتحي بشوديو جانباً: ماذا تفعلون لمتشيّعيكم لمنحهم مثل هذه الصلابة، إنّ ابن فرّائي كان مجلياً فيها.

قال شوديو: «لدينا الايمان!».

بعد ذلك أخذت القاعة مظهر زُمَر نشطة تتداول في موضوع ذلك الاجتماع الذي أخذ اسم مؤتمر بواسي بعد كلمة الملكة. ونظرت كاترين إلى شوديو واستطاعت أن تقول له: «نعم، إنه إيمان جديد».

---

(١) سبق أن ذكرنا أن دوبلسي مورني لم يكن في عمر يؤهله للمشاركة في المؤتمر ولم يأخذ دوره كزعيم بروتستنتي إلا بعد العام ١٥٧٢.

قال شوديو: آه! ياسيدتي، لولا ما يغشي على بصرك من تحالفك مع بلاط روما، لرأيت أننا نعود إلى المبادىء الحقيقية للسيد المسيح الذي نذر نفسه لمساواة الأرواح فمنح الجميع حقوقاً متساوية على الأرض.

قالت الملكة بمكرٍ: «أتعتقد نفسك مساوياً لكالفن؟ هيا، إنّنا لسنا متساوين إلا في الكنيسة» ثم هتفت: «لكن، فكّ الروابط بين الشعب والتاج يجعلكم بحقّ هراطقة! وأنتم بعدم اعترافكم بسلطة البابا، تعصون الملك وتثورون ضده[1]، ثم تركته فجأة وتحولّت إلى تيودور دي بيز وقالت له: «إنني اعتمد عليك، أيُّها السيد، ليتم هذا المؤتمر بصراحة واعية؛ خذوا وقتكم الكافي».

قال شوديو لأمير كونده، وملك نافار والأميرال دي كولينيي: «كنت أظنّ أن أمور الدولة تعالج بشكل أكثر جدّية.

قال أمير كونده الذي تبادل نظرة خفيّة مع تيودور دي بيز: «أوه! إننا نعلم جميعاً مانريد».

ترك الأحدب مشايعيه ليذهب إلى موعد غرامي، فهذا الأمير الكبير، زعيم الحزب، كان أحد أسعد عشّاق البلاط، فأجمل امرأتين في ذلك الزمن كانتا تتنازعان عليه بضراوة حتى أن زوجة المارشال دي سان آندره أحد أعضاء الحلف الثلاثي[2] منحته مزرعتها الخصبة في سان فاليري لتتغلّب على الدوقة دي غيز إمرأة ذلك الذي أراد منذ مدة قريبة أن يطيح برأسه على منصة إعدام، تلك التي تتمكن أن تبعد الدوق دي نمور عن حبه العابر مع الآنسة دي روهَن[3]، فأحبّت بانتظار ذلك زعيم البروتستنتيين[4].

---

(١) هذه هي نظرية بلزاك حول النتائج السياسية للاصلاح الديني، وقد سبق أن شرحها في المقدمة.

(٢) يعود الحلف الثلاثي بين المارشال سان اندره وقائد الجيش دي مونمورونسي والدوق دي غيز إلى ٦ نيسان ١٥٦١ ـ يوم عيد الفصح، بينما لم يحضر دي بيز إلى باريس إلا في ٢٢ آب، لكن بلزاك يوقت مجيئه قبل عيد الفصح.

(٣) من المعروف أن منافسة زوجة المارشال على حبّ الأمير كانت الأنسةدي ليموي؛ لكن الأريحية في منح المزرعة كانت شهيرة.

(٤) اشارة إلى حكم الإعدام في مطلع كانون الأول ١٥٦٠ الذي كاد أن ينفذ بالأمير لولا موت فرنسوا الثاني.

قال شوديو لتيودور دى بيز وهما يعبران جسر اللوفر الصغير : «ماالفارق بين جنيف وهنا؟

أجاب دي بيز : إن هؤلاء أكثر مرحاً، وهكذا فإنني لا أفهم لماذا هم على هذا القدر من الخيانة!

همس شوديو في أذن دي بيز : «للخائن خائن ونصف؛ إن لدي في باريس **قديسين** اعتمد عليهم، سأجعل من كالفن نبياً. يمكن لكريستوف أن يخلّصنا من أخطر أعدائنا.

ـ إن الملكة الأم التي تحمّل من أجلها هذا الشيطان المسكين عذاب الاستجواب التعذيبي، قد عملت على منحه، عن طيبة خاطر، وظيفة محام في البرلمان، والمحامون أكثر دسّاً من القتلة، تذكَّر آفانل الذي باع أسرار أول عصيان مسلّح لنا[1].

قال شوديو وهو يفترق عن رسول جنيف وبهيئة الواثق : «إنني أعرف كريستوف».

بعد عدة أيام من استقبال الملكة كاترين لسفراء كالفن السريين، ونحو نهاية السنة، ذلك أن بداية السنة في تلك الحقبة كانت اعتباراً من عيد الفصح، ولم يعتمد التقويم الحالي[2] إلا بعد قيام تلك الملكة الجديدة؛ كان كريستوف مايزال ممدّداً على أريكة، قرب المدفأة في الجهة التي تتيح له رؤية النهر، في تلك الصالة الكبيرة الرمادية المخصصة لحياة العائلة، والتي بدأت منها هذه القصة. كانت رجلاه مستندتين إلى مقدم، وقد جدّدت الآنسة لكاموس[3] وبابيت لاليه لتّوهما،

(١) آفانل هو المحامي الباريسي الذي أفشى مؤامرة البروتستنت لخطف الملك والملكة الأم ومانتج عن ذلك من «بلبلة آمبواز» واندحار المهاجمين نتيجة انكشاف أمرهم وترتيبات دي غيز للقضاء عليهم.

(٢) لم يقم التقويم الغريغوري إلا في العام ١٥٨٢، في عهد بابوية غريغوار الثالث عشر، لكن قبل هذا التقويم وفي العام ١٥٦٤ أصدر رئيس القضاء لوسبيتال أمراً باعتبار رأس السنة بداية شهر كانون الثاني إذ أن التقويم المتّبع سابقاً الذي يعتبر عيد الفصح بداية السنة، كان يدفع للالتباس والغموض لأن الفصح عيد متبدّل في تاريخه.

(٣) سبق أن ذكر أن سيدات باريس البورجوازيات كان يطلق عليهن لقب آنسة: فالآنسة لكاموس هي والدة كريستوف.

الكمادات المُشربَة بمستحضر دوائي أعدّه له آمبرواز، الذي أوصته كاترين بالعناية بكريستوف، فما أن استعادت العائلة فتاها حتى تركّزت عليه العنايات الأكثر اهتماماً، وكانت بابيت، بعد أن أذن لها والدها، تأتي كل صباح ولا تغادر منزل لكاموس إلا في المساء؛ وغدا كريستوف وهو محطّ إعجاب صنّاع المتجر، موضوع قصص، تروى في كلّ الحي وتحيطه بشاعرية خفيّة، فقد تعرّض للتعذيب وامبرواز پاره الطبيب المشهور وضع كلّ علمه وفنّه في سبيل إنقاذه. ولكن ماذا فعل ليعامل هذه المعاملة؟ لا كريستوف، ولا والده يفوهان بكلمة حول هذا الموضوع. وكاترين المسيطرة آنذاك يهمّها هذا الصمت، وكذلك أمير كونده؛ أمّا زيارات آمبرواز، جرّاح الملك وآل غيز، الذي سمحت له الملكة الأم واللورينيان بالعناية بالفتى المتهم بالهرطقة، فزادت بشكل فريد من غموض هذا الحَدَث الذي مامن أحد يدرك كنهه. أخيراً فإن كاهن سان بيير أوبوف أتى عدة مرّات لرؤية ابن وكيل إدارة أملاك كنيسته، وقد جعلت هذه الزيارات أسباب الحالة التي وجد فيها كريستوف أكثر غموضاً.

كان نقيب الفرائين العجوز مستعداً للإجابة بكلّ خطط المراواغة على أسئلة زملائه، والتجار والأصدقاء الذين يتحدثون عن ابنه: «إنني سعيد جداً، ياشريكي، لأنني أنقذته!

ـ ماذا تريد؟ لاينبغي وضع الإصبع بين الشجرة ولحائها.

ـ إنّ ابني قد وضع يده على محرقة. كان فيها من الوقد مايلهب بيتي بكامله.

ـ لقد استُغِلَّ شبابه، ونحن البورجوازيين لانجني إلا العار والأذى من مخالطة الأكابر!

ـ هذا ماجعلني أقرّر أن أجعل من ولدي رجل عدالة، فقصر العدل يعلّمه أن يزن أفعاله وكلماته!

ـ على الملكة الشابة، الموجودة حالياً في اسكوتلندة، تقع ملامة كبرى. ولكن ولدي أيضاً كان متهوّراً!

ـ لقد عانيت من أحزان قاسية.

ـ هذا مايجعلني افكّر بترك التجارة، على الأرجح، فانا لا أريد الذهاب إلي البلاط الملكي ابداً!

ـ حسب ولدي ماعاناه من الإصلاح الديني فقد حطَّم له ذراعيه وساقيه، ماذا كان سيحلّ بنا، لولا امبرواز؟

بفضل هذه العبارات، وهذا السلوك العاقل، راج في الحي أن كريستوف قد تخلّى عن ميوله البروتستنتية. ووجد كلّ فرد أن من الطبيعي أن يعمل النقيب الشيخ على إدخال ولده إلى البرلمان، وبدت زيارات الكاهن طبيعية. وبالتفكير بالنكبة التي حلت بالنقيب نسي طموحه الذي كان يبدو رهيباً؛ وقد بقي المحامي الشاب تسعين يوماً على سرير نصب له في تلك الصالة القديمة، ولم ينهض إلا منذ أسبوع تقريباً وهو يحتاج إلى عكازين للسير. وكان حب بابيت وحنان أم كريستوف قد أثّرا تأثيراً عميقاً فيه، والحال أن هاتين المرأتين بملازمتهما الدائمة لسريره قد وجّهتا إليه تأنيباً قاسياً في موضوع الدين. كما أن الرئيس دي تو قام بزيارة لفليونه، وقد أبدى له عطفاً أبوياً خالصاً. فكريستوف المحامي في البرلمان يجب أن يكون كاثوليكياً، وسيكون ملتزماً بقسمه، لكن الرئيس الذي لم يكن يشك بثبات فليونه على معتقده، أضاف برزانة هذه الكلمات: «يابنيَّ، لقد عانيت بقسوة. وأنا بالذات أجهل السبب الذي دفع السيدين دي غيز لمعاملتك هكذا؛ وأنا أدعوك لتحيا من الآن فصاعداً بهدوء، دون أن تتدخّل في المشاكل؛ لأن حظوة الملكة والملك لا تمنح لمثيري العواصف؛ وأنت لم تصل إلى درجة من الكِبَر تمكنك من أن تفرض شروطك على ملكك كما يفعل السيّدان دي غيز. إن أردت أن تصبح يوماً مستشاراً في البرلمان، فإنك لن تحصل على هذا المنصب النبيل إلا بإخلاص جدي للمصالح الملكية.

مع ذلك فلا زيارة الرئيس دي تو، ولا إغواءات بابيت ولا إلحاحات الآنسة لكاموس والدة كريستوف، تمكَنت من زعزعة إيمان فدائي الإصلاح الديني، فقد زاد تمسك كريستوف بمذهبه بمقدار ما تعذّب من أجله.

كانت بابيت تهمس في أذنه: «إن والدي لا يمانع أبداً في أن أتزوَّج هرطوقياً».

ولم يكن كريستوف يجيب إلا بدموع تخرس الفتاة الجميلة وتدفعها إلى الانصراف إلى مزيد من الأحلام.

أما لكاموس العجوز فقد حافظ على وقاره الأبوي والنقابي، فكان يلاحظ ابنه ويتكلّم قليلاً؛ وهو بعد أن استعاد ابنه العزيز كريستوف، غدا غير راض عن نفسه تقريباً، فقد ندم لأنه أظهر كلّ هذا الحنان لابنه الوحيد، لكنه كان معجباً به خفية، ؛ فما من فترة في حياته شغل النقابي فيها كل هذه الوسائل للوصول إلى أهدافه، إذ أنه كان يلاحظ حبوب الحصاد التي زرعت بمزيد من العناء قد نضجت ويريد قطافها مهما كان الثمن. فقبل عدة أيام من ذلك الصباح، كان له لوحده مع كريستوف محادثة طويلة محاولاً الكشف عن مقاومة ابنه. كان كريستوف الذي لا ينقصه الطموح مؤمناً بأمير كونده، فكلمة الأمير الشهمة، الذي قام بكل بساطة بمهمته كأمير، كانت محفورة في قلبه، لكنه لم يكن يعرف أن كوندة كان قد أبعده عن نفسه في اللحظة التي عبّر له فيها عن وداعه المؤثّر عبر قضبان سجنه في أورليان وهو يقول في نفسه: «هل فهمني الغاسقوني!».

رغم هذه العاطفة من الإعجاب للأمير، كان كريستوف يكنّ احتراماً عميقاً لهذه الملكة الكبيرة كاترين، التي أفهمته بنظرة، الضرورة التي تحتم عليها التخلّي عنه، والتي ألقتِ إليه خلال تعذيبه بنظرة أخرى وعداً لا حدود له من خلال دمعة ضعيفة. خلال الصمت العميق لتسعين يوماً، نهاراً وليلة، اقتضاها شفاؤه؛ استعرض المحامي الجديد أحداث بلوا وأحداث أورليان. كان يزن إن صحّ القول، رغماً عنه هاتين الحمايتين: كان يتأرجح بين الملكة والأمير، لقد خدم بكل تأكيد كاترين أكثر من البروتستنتيه، والقلب والفكر لدى شاب، يميلان إلى تلك الملكة ليس بسبب هذا الفرق فقط وإنما لصفتها أيضاً كامرأة. وفي مثل هذه الحالة فإن الشاب يأمل دائماً من المرأة أكثر مما يؤمّل من الرجل.

«لقد ضحيت بنفسي من أجلها، فماذا ستفعل من أجلي؟

طرح على نفسه هذا السؤال، بشكل لا إرادي تقريباً وهو يتذكّر اللهجة التي قالت له فيها بالايطالية: «ياصديقي المسكين». لايمكن أن نقدّر إلى أي حد يغدو رجل وحيد ومريض في سريره أنانياً، فكل شيء، حتى العنايات الخاصة المقتصرة عليه، تدفعه إلى التفكير بنفسه. وبمغالاته بتعهدات أمير كونده نحوه، توقّع كريستوف أن يُقلّد منصباً ما في بلاط ناڤار. وقد نسي هذا الفتى، الذي مايزال حَدَثاً في السياسة، الهموم وسرعة السير عبر الناس والأحداث التي تسيطر على قادة الحزب كنسيانه أنه مغمور في تلك القاعة الرمادية القديمة.

إن كل حزب عاق بالضرورة اثناء جهاده. أما بعد انتصاره فهو كذلك وأكثر، فهناك أناس كثيرون ينتظرون مكافأة لا يتمكّن من تحقيقها لهم. إن الجنود يستسلمون لهذا العقوق لكن الرؤساء ينقلبون على السيّد الجديد الذين جاهدوا من أجله طويلاً؛ وكريستوف يتذكّر وحده ما عانى من عذاب وهو يضع نفسه، بناءً على ذلك، بين قادة البروتستنتية معتبراً نفسه أحد كبار مجاهديها. انتهى لكاموس الأب، هذا الذئب العتيق في التجارة، الماكر والنافذ البصر، إلى تخمين أفكار ابنه الخفية؛ وهكذا فإن كل مناوراته اعتمدت على التردّد الطبيعي الذي يخامر ذهن كريستوف.

قال في سهرة عائلية لبابيت: «أليس شيّقاً أن تكوني زوجة مستشار في البرلمان وأن تنادي بلقب سيّدة![1]».

ردّ الأب لاليه: هل أنت مجنون، ياشريكي؟ من أين لك أملاك بقيمة عشرة آلاف إكو يجب أن يحوز عليها المستشار[2]؟ وممن ستشتري هذه الوظيفة؟ لاينبغي

---

(١) كان مستشارو البرلمان يعتبرون من الأشراف، إنما لا تحظى نساؤهم بلقب «سيدة» وإنما «آنسة» ويبقى اللقب الأول مقتصراً على النبيلات بالمحتد، أو على أصحاب الرتب الأعلى مقاماً.

(٢) مامن نصّ يشير إلى أن وظيفة مستشار البرلمان في ذلك العهد تتطلب ملكية عقارية، لكن هذه الوظيفة كان تباع وتشرى بالمال. ووفقاً لماذكره لوايزو في «مفصل الوظائف ١٦٦٦» فإن الملك يمنح وظيفة المستشار لكن في الوقت المناسب وللأشخاص القادرين، وبالتالي فإن تجارة المنصب غدت رائجة. لذلك كان واجباً على لكاموس أن يجد المستشار المستعد لبيع وظيفته، وان يحصل بعد ذلك على الموافقة الملكية.

أن يكون للملكة الأم والوصية على العرش من همّ إلا ادخال ابنك إلى البرلمان؛ ناهيك بأنه متهم بالهرطقة حتى لا يحلم بذلك.

ـ ماذا تدفع لترى ابنتك زوجة مستشار؟

قال لاليه: «تريد أن تروز وزن كيسي أيّها المكّار العتيق!». مستشار في البرلمان! راحت هذه الكلمة تفتك في ذهن كريستوف. ذات صباح، وبعد المؤتمر بزمن، كان كريستوف يتأمل النهر الذي ذكّره بالمشهد الذي بدأت به هذه الرواية، وبالأمير كونده، ولا رنودي، وشوديو، ورحلة بلوا؛ أخيراً بكل آماله. وجاء النقيب فجلس ابنه وهو لا يكاد يخفي فرحة غامرة تحت رصانته المتصنعة.

قال: يابنيّ، بعد كل ما حدث بينك وبين زعماء بلبلة آمبواز، ينبغي أن يكونوا مدينين لك بما يجعل آل ناڤار يهتمون بمستقبلك.

قال كريستوف: نعم

قال الأب: هذا ماطلبته واقعياً من اجلك، إنه الإذن بشراء وظيفة عدلية في بيارن؛ وقد كلّفت پاره بتسليم الرسائل التي كتبتها باسمك إلى أمير كونده، وللملكة جان. هاك اقرأ جواب السيد پيبراك نائب رئيس قضاء ناڤار[1].

إلى السيد لكاموس، نقيب الفرّائين

إن سمو أمير كونده كلَّفني بأن أعلن لك عن عدم إمكانه فعل شيء لرفيقه في برج سان آنيان الذي يتذكره، والذي يعرض عليه في الوقت الحاضر وظيفة دركي[2] يرافقه كخيَّال، حيث يمكن أن يشقَ طريقه كرجل جسور كماهو معروف عنه.

---

(١) غي دو فور دي بيبراك ولد في العام ١٥٢٩، حمل اسم والدته السيدة دى بيبراك، وكان رئيس قضاء ملكة نافار في العام ١٥٧٨، وكان أخوه البكر لويس رئيس قضاء ناڤار إنّما في عهد هنري ابن انطوان دي نافار الذي أصبح ملك فرنسة باسم هنري الرابع.

(٢) دركي في القرن السادس عشر تعني رجل حرب خيال.

إن ملكة نافار تنتظر فرصة سانحة لمكافأة السيد كريستوف، ولن تتأخر عند ذلك، نسأل الله، ياسيدي النقيب، أن يحفظك بعنايته

صدر عن نيراك. **بيبراك**

رئيس قضاء نافار

قالت بابيت: «نيراك، بيبراك، كراك[1]، لايمكن توقع أيّة فائدة من هؤلاء الغاسقونيين إنهم لايفكرون إلا بأنفسهم.

نظر لكاموس إلى ابنه بمظهر ساخر.

قالت الآنسة لكاموس: «إنه يقترح مهنة خيّال على شاب سحقت ركبتاه وعرقوباه في سبيله، يالها من فكاهة سمجة!

قال نقيب الفرّائين: لن أراك أبداً مستشاراً في نافار.

قال كريستوف مذهولاً: «أريد أن أعرف ماذا ستفعل الملكة كاترين من أجلي إن التمست منها شيئاً».

قال التاجر العجوز: «إنَّها لم تعدك بشيء، لكنني متأكّد من أنها لن تسخر منك وستتذكّر عذاباتك، لكن هل ستتمكن أن تسمي بورجوازياً بروتستنتياً مستشاراً في البرلمان؟

هتفت بابيت: لكن كريستوف لم يرتد عن الكاثوليكية، ويمكن أن يحتفظ بسر آرائه الدينية لنفسه.

قال لكاموس: إنّ امير كونده سيكون أقل استخفافاً مع مستشار في برلمان باريس.

ـ مستشار، هل هذا ممكن يا أبي؟

---

(١) تذكّر فيليه دى ليسل آدم هذا السجع الطريف عندما سمى بيبراك ونيراك المدينتين الصغيرتين في مشهد «قطّاع طرق» من «**قصص قاسية**».

ـ نعم إذا لم تفسد الترتيبات التي أعدّها بشأنك. هوذا شريكي لاليه الذي سيقدّم مئتي ألف ليرة. إن قَدَّمتُ مبلغاً مماثلاً للحصول على أرض إقطاعية بشرط الإنابة من ذَكرٍ إلى وريث ذَكرَ، وهي مانمهركما بها.

قال لاليه: وأضيف شيئاً آخر أزيده عليها من أجل بيت في باريس.

قالت بابيت: ماذا تقول ياكريستوف؟

أجاب المحامي الشاب: تتحدثون دون الحصول على موافقة الملكة.

بعد عدة أيام من خيبة الأمل المرّة هذه، نقل صانع إلى كريستوف هذه البطاقة الصغيرة المقتضبة: «شوديو يريد رؤية ولده!».

هتف كريستوف: «فليدخل!».

قال الوزير وهو يعانق المحامي: «أوه! ياشهيدي المعذّب القديس، هل أبللت من معاناتك؟».

ـ نعم بفضل الطبيب پاره.

ـ بفضل الله الذي منحك القدرة على تحمّل العذاب! ولكن ماذا علمت؟ لقد قُبلت محامياً وأقسمت يمين الولاء، واعترفت بالزانية[1]، وبالكنيسة الكاثوليكية، الرسولية، الرومية!...

ـ لقد أراد أبي ذلك.

ـ لكن أليس علينا أن نترك آباءنا، وأولادنا، ونساءنا، وكل شيء من أجل القضية الكالفنية المقدسة، أن نضحّي بكلّ شيء!... آه! ياكريستوف، كالفن، كالفن العظيم، كل الحزب، والعالم، والمستقبل يعتمدون على جرأتك وسمو روحك! تلزمنا حياتك!».

---

(١) في رويا يوحنا (١٧): «بابل العظيمة، أم الزنى ودنس الأرض ـ لكنها تقوم على تلال سبعة» لذلك اعتبرها مسيحيو أوروبه: روما الوثنيه وسموها الزانية العظيمة، وجاء البروتستنتيون القدماء في صراعهم مع الكاثوليكية فسموا رومة الكاثولكية البابوية: «الزانية».

تضحيته، يشيد دائماً رواية عريضة من الآمال في الأزمات الأكثر خطورة؛ وهكذا فعندما طلب الأمير والجندي والوزير من كريستوف، وهم على سطح الماء وتحت جسر أوشانج، أن يذهب ويحمل لكاترين ذلك الاتفاق ـ المعاهدة الذي، إن فوجىء وهو يحمله، كلّفه حياته، اعتمد الشاب على عقله، وعلى المصادفة، وعلى ذكائه، وتقدّم بجرأة بين هذين الجبّارين الرهيبين: الأخوين دي غيز وكاترين حيث كاد أن يسحق. وخلال الاستجواب التعذيبي، قال في نفسه أيضاً: «سأنجو! إنّها آلام سأتحملها!» لكن أمام هذا الطلب القاسي: «مُت»يوجّه لشاب مايزال مقعداً، لم يتخلص بَعدُ من آثار التعذيب، وهو يتمسك الآن بشكل أشدّ بالحياة بعد أن واجه الموت عن قرب، يستحيل الانسياق وراء الأوهام.

أجاب كريستوف بهدوء: «ما الأمر الذي يجب القيام به؟».

ـ أن تطلق النار بشجاعة من غدارة، كما فعل ستيورات على مينار.

ـ وعلى من؟

ـ على الدوق دي غيز

ـ انتقام! أنسيت المئة نبيل الذين قطعت رؤوسهم على منصة إعدام واحدة في آمبواز؟ إن الصغير دوبينيه، الطفل، قال وقد رأى هذه المجزرة، إنهم فَرَموا فرنسة[1].

أجاب كريستوف: «يجب أن تتحملوا جميع الضرَبات لا أن توجهوها، هذه هي مبادىء الإنجيل؛ وما فائدة الإصلاح الديني في الكنيسة إن كان سيقلّد الكاثوليك فيما فعلوه؟».

قال شوديو: «أوه! ياكريستوف، لقد جعلوا منك محامياً، وأنت تحتجُّ وتعلّل!».

---

(١) يذكر أغريبا دوبينية وكان في الثامنة من عمره أنه مرّ مع أبيه «يوم معرض» فرأى رؤوس المتآمرين المقطوعة وملامحها واضحة وهي على الأعمدة، وأن الوالد حضّ على الانتقام بالقول: «هؤلاء الجلادون إنهم يقطعون رأس فرنسة».

أجاب المحامي: «كلا، ياصديقي، لكن الأمراء كثيرو العقوق وستكون أنت وجميع الباقين ألاعيب لدى آل بوربون...

ـ أوه! ياكريستوف لو سمعت كالفن فستعرف بإننا نحرّكهم كأصبع القفّاز، إن آل بوربون هم القفّاز ونحن اليد.

قال كريستوف وهو يناول الوزير رسالة بيبراك الجوابية: «إقرأ».

قال شوديو: «اوه! ياولدي، إنّك طموح، ولايمكنك أن تضّحي أبداً!... إنني أرثي لك!».

وخرج شوديو مع هذه العبارة[١] المنمقة.

بعد عدة أيام من هذا المشهد اجتمعت عائلتا لاليه ولكاموس لإعلان خطبة بابيت وكريستوف في القاعة الرمادية القديمة التي لم يعد ينام فيها كريستوف بعد أن أصبح بإمكانه السير وصعود السلالم دون الاعتماد على عكازين. كانت الساعة التاسعة مساءً، والكل بانتظار آمبرواز پاره. كان مسجل عقود العائلة يجلس أمام طاولة شغلت بعدة عقود، فالفرَّاء قد باع بيته ومتجره لكاتبه الأول، الذي سدّد ثمن المنزل مباشرة بمبلغ أربعين ألف ليرة، ورهن البيت ضماناً لتسديد ثمن البضائع التي سدّد من ثمنها عشرين ألف ليرة نقداً.

أمّن لكاموس لابنه بيتاً من حجر بناه فيليبر دي لورم[٢] في شارع سان ـ بيير أوبوف وقدّمه له هدية عرس؛ كما اقتطع النقيب مئتين وخمسين ألف ليرة ودفع لاليه مبلغاً مماثلاً لشراء أرض إقطاعية واقعة في بيكاردية بمبلغ نصف مليون ليرة

(١) هذا الحوار مع شوديو يسجل، بحصر المعنى، نهاية مغامرة كريستوف، ويبين بمدلول الإجابات وحده كل تطوّر الشخصية، فقد أصبح كريستوف بعد الخبرة، البورجوازي الحذر الذي يمكن أن نخمّن ملامحه لدى الشاب المتحمس أولاً والمُخلص لشوديو ولقضيته.

(٢) فيليبر دي لورم هو الذي بنى فيما بعد قصر التويلري، ويعتبر من المعماريين المشهورين في ذلك العصر.

وهي من تبعية التاج لذلك يلزمها رسائل براءة ملكية تسمى **اعادة تسجيل**[1] تصدر عن الملك بعد دفع الأتاوة الملكية وضريبة مبيعات[2] ذات قيمة معتبرة، وهكذا فإنّ إتمام الزواج مؤجّل حتى الحصول على هذه الحظوة الملكية. وإذا كان بورجوازيو باريس قد منحوا حقّ شراء إقطاعات، فإن المجلس الخاص[3] رأى من الحكمة وضع بعض القيود المتعلقة بالأراضي العائدة للتاج، والأرض التي رغب بها لكاموس منذ نحو عشر سنوات كانت ضمن الإستثناء، لذلك سعى امبرواز جاهداً ليتمكن من إحضار الأمر الملكي في ذلك المساء بالذات.

كان العجوز لكاموس يروح ويغدو من القاعة إلى الباب بتلّهف يبيّن مدى كبر طموحه، أخيراً وصل آمبرواز مسرعاً وتطلّع وهو شبه مرتعب إلى العشاء المعدّ وقال:

«ياصديقي العزيز، لنر خوان مائدتك؟ جيّد. أوه! عجل بإحضار شمعدانات مع شمع العسل[4]؛ أسرعوا، أسرعوا! أحضروا كل مالديكم من أشياء جميلة.

---

(١) يبدو أن تعبير «**إعادة التسجيل**» في الحقوق الفرنسية يختلف عما عناه بلزاك، فهو أشبه بوكالة يفوّض بها شخص شخصاً آخر أن يدفع لجهة ثالثة مبلغاً محدّداً. أما **رسائل البراءة الملكية** فهي رسائل يوافق فيها الملك على منح عفو أو حظوة لمدينة ما أو لأشخاص، ووفقاً «للمفصّل في الاقطاعات» للويزو، فإنّ تكليف الملك ضروري ليتمكن شخص من العوام امتلاك إقطاعة نبيل وخاصة من تلك الاقطاعات المرتبطة بالتاج. أما ما يتعلّق ببورجوازيي باريس فقد منحوا منذ أيام شارل الخامس امتيازات النبلاء تقريباً، إنما بشكل شرفي وغير كامل واستثنائي، وبالرغم من أنهم منحوا، خلافاً لبقية العوام في أنحاء المملكة الإعفاء من بعض الرسوم والأتاوات المتعلقة بالخدمات الاقطاعية المخصصة للنبلاء، غير أنهم يحتاجون لموافقة الملك وتكليفه لاكتساب «اقطاعات الشرف» وهكذا فإن بلزاك يهتم هنا بأن يبين حظوة لكاموس وفقاً لواقع القرن السادس عشر في الحصول على مرتبة متقدمة في السلم الاجتماعي تميّزه عن باقي البورجوازيين.

(٢) هي حقوق «نقل الحيازة» ويؤكد أمر ملكي لشارل الخامس» أن من يكتسب ميراثاً يتعلق مباشرة بالملك لا يمكنه تثبيت ملكيته إلا بعد دفع «الأتاوة الملكية ورسوم البيع». وهذه الحقوق هي التي تنازل عنها الملك كهدية عرس لكريستوف لكاموس.

(٣) كان المجلس الخاص للملك يجمع من يمارسون مهام فعلية في تسيير أمور المملكة، وهو يختلف عن المجلس العام المؤلف من مستشاري الملك.

(٤) كان شمع الإضاءة العادي يتركب من الشحم الحيواني الذي ينشر رائحة كريهة ويستعمل في الأحوال العادية لرخص ثمنه بينما يستعمل في المناسبات ولدى الطبقات الميسورة شمع العسل الألطف دخاناًورائحة.

سأل كاهن سان بيير أوبوف: «ماالأمر؟».

أجاب الجرّاح الأوّل: ستأتي الملكة الأم والملك الشاب لتناول العشاء معكم، وهما ينتظران مستشاراً عجوزاً في البرلمان سيبيع منصبه لكريستوف، وقد أتمّ السيّد دي تو الصفقة. تظاهروا بأن لا علم لكم بهذه الترتيبات، فقد تسلّلت خفية من اللوفر لإنبائكم.

خلال لحظات بدأت العائلتان بترتيباتهما العاجلة تجريها والدة كريستوف وعمة بابيت بخفة ربّات البيوت وقد بوغتن. ورغم الارتباك الذي أحدثه هذا الإخطار في مجتمع العائلة فقد أنجزت الإستعدادات بفاعلية تشبه الأعجوبة. كان كريستوف منذهلا مُباغَتاً، مرتبكاً، ينظر دون كلام وبشكل آلي إلى هذه الحركة التي دبت في البيت، وهتفت والدته العجوز وكأنها غير مصدقة: «الملك والملكة في منزلنا!» ورددت بابيت: «الملكة! ماذا سأقول؟! ماذا سأفعل؟!.

خلال ساعة، كان كلّ شيء قد تبدّل: وتزيّنت القاعة القديمة؛ وتلألأت المائدة بالأنوار. وسمعت عند ذاك جلبة الخيل في الشارع. وأضواء المشاعل يحملها فرسان المواكبة؛ مما دفع بورجوازيو الحيّ جميعاً لمدّ رؤوسهم من النوافذ. كانت هذه البلبلة سريعة، وارتدّ الفرسان ولم يبق تحت أعمدة المنزل إلا الملكة الأم، والملك شارل التاسع، وشارل دي غوندي المشرف على الملابس الملكية ومربي الملك[١]، والسيد دي تو، ومستشار البرلمان العجوز، وسكرتير الدولة بينار[٢] وخادمان.

قالت الملكة: ايّها الناس الطيّبون، جئت وابني الملك لنوقّع عقد زواج ابن فرآئنا، إنّما بشرط أن يبقى كاثوليكياً، إذ يجب أن يكون كاثوليكياً ليدخل البرلمان، ويجب أن يكون كاثوليكياً ليمتلك أرضاً تعود إلى التاج، ويجب أن يكون كاثوليكياً ليجلس إلى مائدة الملك، أليس كذلك يابينار؟».

---

(١) هفوة من بلزاك فشارل دي غوندي هو فعلاً المشرف على الملابس الملكية، لكنّ أخاه البر، الذي غدا دوق دي ريتز هو الذي عين مربياً للملك.

(٢) كان بينار سكرتيراً للملك منذ العام ١٥٥٨، وقد حاز على ثقة الملكة كاترين، وفي العام ١٥٧٠ سمي سكرتير دولة.

وبدا بينار وهو يحمل بيده رسائل البراءة الملكية.

قال الملك الفتى: «إذا لم نكن كلنا هنا كاثوليكيين، فإنّ بينار يلقي كل ما بيده في النار».

ثم تابع وهو يلقي نظرة أبيّة على الحضور: «لكن ألسنا جميعاً كاثوليكيين هنا؟».

تقدّم كريستوف لكاموس وأحنى بصعوبة إحدى ركبتيه ـ اللتين لم تبرأ تماماً ـ أمام الملك وقال: «بلى ياصاحب الجلالة» وتناول يده وقبّلها.

مدت الملكة كاترين يدها أيضاً لكريستوف فقبّلها، ثم أنهضته وانتحت به جانباً وقالت: «آه! هكذا يابنيَّ، بدون مكْر، فنحن في موقف صريح».

قال متأثراً من هذه المكافأة الباهرة، ومن الحظوة التي خصّته بها تلك الملكة العارفة للجميل «نعم ياسيدتي».

حسنٌ، ياسيّد لكاموس، إنّني وابني الملك قد وافقنا على أن تستلم منصب السيّد غروسلي، المستشار في البرلمان، والموجود هنا، وآمل أيّها الشاب، أن تكون خير خَلَف لخير سَلَف.

تقدّم رئيس البرلمان دي تو وقال: «إنّني كفيل له ياسيّدتي».

قال پينار لمسجّل العقود: سجّل هذا العقد واحتفظ بنسختك.

قال لاليه: بما أن سيدنا الملك قد منحنا شرف توقيع عقد زواج ابنتي فإنني سأدفع كامل ثمن أرض الإقطاعة.

قال الملك الفتى بلهجة عذبة: يمكن للسيدات الجلوس، وكهديّة عرس للخطيبة، فإنني، وبعد موافقة أمّي أتنازل عن الأتاوة المترتبة على هذه الملكية.

جثا العجوزان لكاموس ولاليه على ركبتيهما وقبلا يد الملك شاكرين.

همس غوندي في أذن الملك: «ياللشيطان![1] كم هم أغنياء هؤلاء البورجوازيون، ياسيدتي!».

---

(١) من المطاعن المأخوذه على غوندي مربي الملك أنه كان شتّاماً، وأنه نقل إلى الملك شارل التاسع هذه العادة الذميمة.

فأغرق الملك الفتى في الضحك.

قال لكاموس: اتسمحون لي ياسيدتي أن أقدّم لكم وللسادة النبلاء خليفتي في المتجر آملا أن تنعموا عليه ببراءة ملكية تؤهله لتقديم خدماته للبلاط الملكي».

قال الملك: «هيّا».

فقدّم لكاموس خليفته الذي بدا شاحب اللون رهبةً.

قال الملك الفتى: إن سمحت أمي العزيزة يمكننا أن نجلس إلى المائدة.

لم يفُت لكاموس الشيخ أن يتقدم بهديّة للملك هي طاس من فضة كان قد حصل عليه من بنفنيتو سلليني لدى إقامته في قصر نِسْل[1] في فرنسة، وهو طاس لا يقلُّ ثمنه عن ألفي إكو.

هتف الملك وهو يرفع الكأس من قاعدته: «أوه! انظري ياأمي، هذه التحفة الجميلة».

أجابت كاترين: «إنّها من فلورنسة».

قال لكاموس: «المعذرة ياسيدتي، إنها مصنوعة في فرنسا من قبل فلورنسي. فماهو مصنوع في فلورنسة يقدّم للملكة، وماهو مصنوع في فرنسة للملك».

هتف شارل التاسع: «انني أقبلها أيّها الرجل الطيب، وستكون كأسي من الآن فصاعداً.

قالت الملكة وهي تفحص تلك التحفة: «إنّها مقبولة لتوضع بين تحف التاج».

ثم همست في أذن جرّاحها وهي تشير إلى كريستوف: «هل اعتنيت به جيّداً؟ هل سيمشي؟».

---

(١) عندما أقام سليني في فرنسة بين ١٥٤٠ ـ ١٥٤٥ أقام في قصر نسل الذي جعله الملك سيّداً له.

قال الجراح وهو يبتسم: «سيطير، آه! لقد أفسدتموه لنا بمهارة».

أجابت الملكة بتلك الخفّة التي تلام عليها والتي لم تكن إلا سطحية: «لن يتعطل الدير بسبب نقص راهب».

كان العشاء فرحاً، ووجدت الملكة بابيت جميلة، وكملكة تميّزت دائماً بالكبر قدّمت لها إحدى خواتمها الألماسية لتعوّض عن خسارة الكأس لآل لكاموس. وكان الملك شارل التاسع الذي يبدو أنه تذوّق منذ حينها هذا النوع من الغزوات لدى بورجوازييه قد تناول عشاءه بشهيّة طيبة، ثم وبناءً على كلمة من مربيه الجديد الذي كلّف على مايبدو بجعله ينسى تعاليم سيبيير الفاضلة فإنه دفع بالرئيس الأول، والمستشار العجوز المستقيل، وسكرتير الدولة، والكاهن، ومسجّل العقود، إلى الإفراط في الشراب بحيث خرجت الملكة في اللحظة التي رأت فيها أن النشوة تكاد تغدو صاخبة. وفي اللحظة التي نهضت فيها الملكة، قام كريستوف ووالده والمرأتان بحمل الشمعدانات ومرافقتها حتى عتبة المتجر، وهناك تجرّأ كريستوف وجذب طرف كمّ الملكة بحمل إشارة رغبة في الإسرار لها بكلمة، وتوقّفت كاترين وصرفت بكلمة وداع لكاموس العجوز والمرأتين وقالت لكريستوف «مالديك؟».

قال هامساً في أذن الملكة: «إن امكنك ان تستفيدي من هذا السرّ ياسيدتي، فاعلمي أن الدوق دي غيز مستهدف من قبل قتلة...

قالت كاترين مبتسمة: «أنت انسان مخلص، ولن أنساك أبداً».

ومدت إليه يدها، المشهورة بجمالها، إنما بعد أن خلعت القفّاز منها مما يعتبر دلالة إكرام له، وهكذا غدا كريستوف ملكياً تماماً وهو يقبل تلك اليد المعبودة، فكّرت وهي تعيد وضع قفّازها في يدها: سيخلصونني إذاً من هذا الفظّ، دون أن يكون لي أية علاقة بذلك. وركبت مطيتها والتحقت باللوفر يصحبها خادماها.

بقي كريستوف مكفهراً وهو يشرب، وكان وجه آمبرواز العبوس يلومه على ارتداده، لكن الأحداث اللاحقة بينت أن والده النقيب القديم كان على حق، فكريستوف لم يكن لينجو من مذابح سان بارتلمي، فغناه وأرضه كانت ستسترعي

انتباه القتلة. وقد سجّل التاريخ المصير القاسي لزوجة خليفة لاليه في منزله[١]، وهي مخلوقة جميلة، بقي جسمها العاري معلقاً بشعرها في إحدى دعامات جسر أوشانج مدة ثلاثة أيام. وقد ارتعشت بابيت عندما فكّرت كيف كان من المحتمل أن تلقى المصير ذاته لو أن كريستوف بقي كالڤنياً؛ لأن هذا هو الاسم الذي أعطي للبروتستنت، فطموح كالفن قد أشبع إنما بعد موته.

هذا هو أساس البيت البرلماني الشهير لآل لكاموس[٢] وقد ارتكب تالمن دي ريو خطأً بجعل العائلة تفد من بيكاردية[٣]، إذ كان من مصلحة العائلة أن تبدأ تاريخها من امتلاك إقطاعتها في تلك المنطقة. كان ابن كريستوف الذي خلف أباه في أيام لويس الثالث عشرِ هو والد ذلك الرئيس الغني لكاموس الذي كان قصره الرائع في أيام لويس الرابع عشر أجمل أوابد باريس؛ وقصر لكاموس مايزال موجوداً في شارع تورينيي، بالرغم من أنه قد نهب في بداية الثورة كمنزل يعود إلى جوينيه[٤]

(١) ذكر من بين ضحايا مذبحة سان بارتلمي زوجة ريّاش الملك الذي كان يسكن على جسر نوتردام وقد ذكر أن القتلة رموا جثتها من النافذة إلى النهر، حيث بقيت لمدة ثلاثة أيام معلقة من شعرها بأحد عضادات الجسر.

(٢) في القرن السابع عشر، كانت توجد عائلة «لي كاموس» من التجار البورجوازيين، وبدأت شهرتها مع نيكولا لي كاموس الملقب بالغني، المستشار في مجلس الدولة العام ١٦٢٠ وكان أولاده قضاة، وتزوّجت بناته من نبلاء القضاء، وكان من أحفاده كردينال ـ مطران غرنوبل، لكن الاسم كان سائداً ولا يمكن ايجاد علاقة بين هذه العائلة وقرّاء القرن السادس عشر إلا ما أراد بلزاك ايجاده من أسباب كروائي: إنما يجب تسجيل حقيقة تاريخية هي انتصار الطموح العائلي للبطل البورجوازي واستمرار الارتقاء الاجتماعي المحضّر بصبر وأناة.

(٣) من القصص العديدة حول «لي كاموس» تالمن دي ريو عن نيكولا الغني: «هو رجل من منبت وضيع، وصل في وقت مناسب إلى عالم التجارة، وهو من ريمس وقد وفد إلى باريس ومعه عشرون ليرة فقط» وريمس هي في شامبانية إنّما في القسم الشمالي الغربي منها وبطريريكيتها تسود على مدن بيكاردية، وسواسون، وبوڤيه، وأميان. وقد دعم بلزاك مقولته بمهارة، حول أصل العائلة بالرجوع إلى شهادة تخالفها.

(٤) بني القصر أولاً من قبل أوبر دي فونتنوا وهو طبيب معالج اغتنى من ضريبة الملح لذلك سمي القصر أولاً: **القصر المالح** وانتقل بعده إلى أحد أفراد عائلة لكاموس حفيد نيكولا الغني، وامتلك في العام ١٧٦٨ من قبل عائلة جوينيه.

بطريرك باريس، وقد محيت جميع رسومه الزخرفية، كما أن استخدامه كنزل لطلاب داخليين[1] قد أضر به كثيراً. هذا القصر الذي كُسِبت أمواله بدءاً من السكن القديم في شارع لابلتري يبيّن حتى الآن النتائج الطيّبة التي حصلت عليها سابقاً الروح العائلية، ويمكن الشك حالياً في أن الفردية الحديثة المتولدة عن التقسيم المتساوي للمواريث يمكن أن تنتج أوابد مماثلة[2].

* * *

(١) هي ذكرى شخصية فدار تربية غنَسر التي كان بلزاك طالباً داخلياً فيها كان مقرّها في ذلك القصر.

(٢) هذه قضية رئيسة طرحها بلزاك في المقدمة، كما سبق له التطرق إليها مراراً حول حق البكورة، وتوزيع المواريث.

ملحق

هذه هي الأغنية المنشورة في «مجموعة منتخبات» للأب دي لابلاس التي سبق الحديث عنها (وذكر أنها من وضع تيودور دي بيز).

جنازة الدوق دي غيز

من يريد أن يسمع أغنية؟ (إعادة)

إنّها عن الدوق الكبير دي غيز

طيّب، طيّب، طيّب، طيّب

دي، دان، دي، دان طيّب

إنّها عن الدوق الكبير دي غيز

ثم يأتي هذا البيت الأخير الذي يتحدث به ويقال بشكل ساخر:

الذي مات ودفن

الذي مات ودفن (إعادة)

في الزوايا الأربع من الموقد

طيّب، طيّب، إلخ ...

وأربعة نبلاء معه فيه

وأربعة نبلاء معه فيه (إعادة)

واحد يحمل خوذته الكبيرة

طيّب، طيّب. إلخ ...

والآخر غداراته

والآخر غداراته (إعادة)

والآخر سيفه

طيّب، طيّب. إلخ ...

الذي قتل عديداً من الهوغنوت

الذي قتل عديداً من الهوغنوت (إعادة)

يأتي الرابع

طيّب، طيّب. إلخ ...

وهو الأكثر انتحاباً

وهو الأكثر انتحاباً (إعادة)

ثم يأتي الغلمان

طيّب، طيّب. إلخ ...

وحجّاب المقاصير

وحجّاب المقاصير (إعادة)

بألبسة حداد قاتمة

طيّب، طيّب. إلخ ...

وأحذية ملمّعة

وأحذية ملمّعة (إعادة)

وجوارب جميلة من صوف

طيّب، طيّب. إلخ ...

وسراويل من جلد

وسراويل من جلد (إعادة)

وبانتهاء الاحتفال

طيّب، طيّب

راح كل واحد لينام

راح كلّ واحد لينام (إعادة)

بعضهم مع نسائهم

طيّب، طيّب. إلخ ...

وبعضهم الآخر وحدهم

هذا الاكتشاف الغريب يبرهن إلى حدّ ما على تواطؤ تيودور دي بيز الذي أراد أن يخفّف بالسخرية الرعب الذي سبّبته الجريمة؛ لكن يبدو أن النغم هو المزيّة الوحيدة في هذه الدوّارة.

* * *

القسم الثاني

اعتراف الروجيريين

بين الساعة الحادية عشر ومنتصف الليل، نحو نهاية شهر تشرين أول ١٥٧٣، كان ايطاليان من فلورنسة، أخوان، هما ألبير دي غوندي، مارشال فرنسة وشارل دي غوندي لاتور، المشرف الاكبر على خزانة ثياب الملك شارل التاسع يجلسان في أعلى بيت واقع في شارع سان أونوره، على حافة قنيّة. والقُنيّة هي تلك القناة من حجر، الموجودة في ذلك الزمن أسفل السطوح لتلقّي المياه، والمثقوبة بين مسافة وأخرى بتلك الميازيب الطويلة بشكل حيوانات خرافية ذات أشداق مفتوحة؛ ورغم الحماس الذي يهدم فيه الجيل الحالي البيوت القديمة. كان مايزال في باريس ميازيب بارزة إلى أن أزالها قرار الشرطة[1] القاضي بتمديد الأنابيب حتى الأرض، غير أنّ بعض القنيّات المزخرفة ماتزال قائمة وتشاهد في قلب حيّ سان أنطوان، حيث بخس أسعار الأجور لايسمح ببناء طوابق في السقائف.

قد يبدو غريباً أن يقوم شخصان من أصحاب المناصب الهامة بتسلّق السطوح كالهررة، لكن من ينقب في الكنوز التاريخية لذلك الزمن، حيث تتشابك المصالح بتنوّع حول العرش، بشكل يمكن فيه مقارنة السياسة الداخلية لفرنسة بكبّة خيوط مختلطة؛ يجد أن هذين الفلورنسيين هما هرّان حقيقيان في موقعهما تماماً على تلك القنيّة، فإخلاصهما لشخص الملكة كاترين دي مديسي التي غرستهما في بلاط فرنسة يلزمهما بعدم التراجع أمام أيّة نتائج تترتب عن تدخلهما. ولكي نشرح سبب تعلّق هذين المسؤولين على السطح وطريقته، يلزمنا الرجوع إلى مشهد يتمّ على مسافة خطوتين من هذا الميزاب، في اللوفر، في تلك القاعة الرمادية الجميلة، الوحيدة التي بقيت لنا من أجنحة هنري الثاني، حيث كان رجال البلاط يتودّدون

---

(١) صدر أمر بتاريخ ٢٤ كانون أول ١٨٢٣ يوجب إزالة الميازيب البارزة كلياً خلال سنة اعتباراً من ذلك التاريخ

بعد العشاء للملكتين والملك. في ذلك الزمن، كان بعض البورجوازيين وكبار النبلاء يتعشون، في الساعة السادسة، وبعضهم الآخر في السابعة؛ والأكثر رفعة بين الثامنة والتاسعة. كانت تلك الوجبة تقابل غداء اليوم. فبعض الاشخاص يعتقدون خطأ أن مراسم السلوك ابتكرت من قبل لويس الرابع عشر؛ لقد باشرتها في فرنسة كاترين دي مديسي، وفرضتها بشروط قاسية، حتى أن قائد الجيش العام آن دي مونمورونسي بذل جهداً في الحصول على أذن بدخول فناء اللوفر ممتطياً حصانه، يعادل جهوده المبذولة من أجل الحصول على سيف القيادة العامة، ولم يمنح له هذا التمييز الخارج عن المألوف إلا لتقدمه في السنّ؛ لكن هذه المراسم خفّت قليلاً مع الملكين الأولّين من آل بوربون، ثم عادت فاتخذت طابعاً شرقياً في عهد الملك العظيم، لأنها وفدت من الإمبراطورية البيزنطية التي أخذتها بدورها عن الفُرْس.

ففي العام ١٥٧٣ لم يقتصر الأمر على تحديد عدد الأشخاص الذين يحق لهم الوصول بحاشيتهم ومشاعلهم إلى فناء اللوفر، كما في عهد لويس الرابع عشر، حيث لم يكن يحقُّ إلا للأدواق ولأعضاء مجلس الأعيان فقط الدخول بعرباتهم إلى الباحة المعمدة؛ إنما كان الإذن أيضاً بالدخول بعد العشاء إلى الأجنحة محدوداً جداً. فالمارشال دي ريتز المترقّب الآن على ميزابه، دفع يوماً ألف إكو من عملة ذلك الزمن، إلى حاجب الملك هنري الثالث ليستطيع أن يكلّمه في وقت لايحق له فيه ذلك[1]؛ فأيّة سخرية إذا تثيرها لدى المؤرخ الحقيقي صورة لفناء قصر بلوا، مثلاً، وقد راق للرسّامين أن يبتكروا خيالاً يمتطي حصانه في وسطه. هكذا إذا، لم يكن في تلك الساعة في اللوفر إلا الأشخاص المقربون جداً في المملكة. وكانت الملكة اليزابيت دوتريش[2] وحماتها كاترين دي مديسي جالستين قرب الزاوية

(١) هذا ماذكرته جريدة «الإتوال» في العام ١٥٨١، لكن الأمر لم يكن يتعلق بالمراسم فقط فهنري الثالث كان قد قرب السيد دي جوايوز إليه وأغلق بابه في وجه الدوق أثيره السابق.

(٢) **اليزابيت دوتريش**: (١٥٥٤ ـ ١٥٩٢) ملكة فرنسة، ابنة امبراطور النمسة مكسميليان الثاني، تزوّجت في العام ١٥٧٠ ملك فرنسة شارل التاسع.

اليسرى من الموقد، والملك غارق في كرسي وثير في الزاوية الأخرى مسترخياً بلامبالاة تتطلبها عملية الهضم، بعد أن تناول وجبة أميرية تبعت العودة من رحلة صيد، وربّما أراد أن يوجز في كلامه بحضور عدد من الأشخاص يتجسسون على فكره، وبقي أفراد الحاشية وقوفاً حاسري الرؤوس في طرف القاعة، بعضهم يتحدّث بصوت منخفض، وبعضهم الآخر يرقب من الملك نظرة أو كلمة، وراح أحدهم يتداول للحظات مع الملكة الوالدة، بعد أن بادرته بالكلام، وتجرّأ آخر على توجيه الكلام لشارل التاسع الذي كان يجيبه بإشارة من رأسه أو بكلمة مقتضبة. وبقي نبيل ألماني هو الكونت دي سولرن واقفاً إلى جانب المدفأة، قرب حفيدة شارل كنت التي رافقها إلى فرنسة، وإلى جانب تلك الملكة الشابة، كانت وصيفة الشرف الكونتيسة دي فيسك، وسيدة من آل ستروزي قريبة لكاترين، والسيدة الفاتنة دي سوڤ سليلة جاك كور، وكانت خليلة على التوالي لملك نافار، ثم لملك بولونية، ثم للدوق دالنسون، وقد دعيت للعشاء، وكانت واقفة، ولم يكن زوجها إلا سكرتيراً للدولة. وخلف هاتين السيدتين كان السيدان دي غوندي يحدثانهما، وهم وحدهم يضحكون في تلك المجموعة المكفهرة. فغوندي قد غدا دوق دي ريتز، ونبيلاً في المجلس، منذ أن حصل على عصا المارشالية، دون أن يقود جيشاً قط، كُلِّف بتزويج الملكة في بلدة سبير، هذه الحظوة التي تدلّ انه ينتمي مع أخيه إلى ذلك العدد القليل الذي يسمح له الملك والملكتان ببعض الممازحة ورفع الكلفة. أمَّا من جهة الملك، فكان يلاحظ في الصف الأوّل، المارشال دي تاڤان، وقد حضر في مهمة إلى البلاط، ونُفڤيل دي فيلروا أحد أمهر وسطاء ذلك الزمن والذي أسس ثروة ذلك البيت، والسيّدان دي بيراغ، ودي شيفرني، أحدهما تابع الملكة الأم، والآخر مستشار آنجو وبولونية، الذي كان يعرف إيثار كاترين، فارتبط بهنري الثالث، هذا الأخ الذي ينظر إليه شارل التاسع كعدو له، ثم ستروزي[1] نسيب الملكة الأم، ثم

---

(١) هذه الشخصيات التاريخية وضعت في مكانها الحقيقي ففليب ستروزي (١٥٤١ ـ ١٥٨٢) كان عميداً في المدفعية وقد اشتهر ببسالته هو حفيد فيليب ستروزي زوج كلاريس دي مديسي أخت لوران الثاني. والكونت سولرن هو النبيل الالماني الوافد مع الملكة لكن بلزاك نسب إليه دوراً كموضع ثقة للملك.

بعض النبلاء الذين يتميّز بينهم الكردينال القديم دي لورين وابن أخيه الشاب الدوق دي غيز، وكلا الاثنين مبعد عن كاترين وعن الملك، وهما زعيما الاتحاد المقدس، الذي غدا فيما بعد الجامعة[1] المؤسسة منذ عدة سنوات بالاتفاق مع اسبانية، وقد أبديا خضوع أولئك الاتباع الذين ينتظرون الفرصة المناسبة ليغدو أسياداً: اما كانت كاترين وشارل التاسع يتبادلان المراقبة بالقدر ذاته من التحرز.

في هذا البلاط القائم مثل القاعة المنعقد فيها. كان لكل واحد أسبابه في الكآبة أو التفكير، فالملكة الشابة كانت فريسة عذابات الغيرة، رغم محاولتها إخفاء ذلك، وهي تتكلّف الإبتسام لزوجها، لأنها كزوجة ورعة، وفي منتهى الطيبة كانت تحبه بشغف؛ إذ أن ماري توشه، خليلة الملك شارل التاسع الوحيدة[2]، والتي أظهر لها بفروسية الوفاء، قد عادت منذ أكثر من شهر من قصر فايه في الدوفينية، حيث ذهبت لتلد هناك، وأنجبت لشارل التاسع ولده الوحيد، شارل دي ڤالوا، كونت أوفرني أولاً، ثم دوق دنغولم، فعدا عن حزنها لرؤية منافستها قد انجبت ابناً للملك، بينما لم يكن لها منه إلا ابنة، فإن الملكة المسكينة كانت تعاني الإذلال من هجر مفاجىء؛ وخلال غياب خليلته، فإن الملك قد تقارب مع زوجته بنزق يسجّله التاريخ كأحد أسباب موته[3]. وقد بيّنت عودة ماري توشه للنمساوية الورعة أن نصيب القلب كان قليلاً في مظهر حب زوجها، ولم تكن خيبة الأمل هذه هي الوحيدة التي عانت منها الملكة الشابة في هذه القضية، فكاترين دي مديسي كانت تبدو لها صديقة، والحال أن حماتها، ولاعتبارات سياسية، شجعت تلك الخيانة مفضلة خدمة الخليلة على الملكة، وهاكم السبب:

---

(١) اعتبر درو دي راديه الجامعة التي أسست في العام ١٥٧٦ متصوّرة منذ ١٥٦٥ وحتى منذ ١٥٦٢ اثناء مجمع ترنت الديني.

(٢) قصة ماري توشه في قسمها الأعظم مستمدة من كتاب «طرف عن الملكات» وقد أضاف إليها بلزاك تفاصيل من مجموعة بتتيو عن شارل دي فالوا كما أشاد بحب ماري للملك وترفعها.

(٣) هذا ماذكره درو دو راديه نقلاً عن برانتوم.

عندما صرّح شارل التاسع بهواه لماري توشه، أظهرت كاترين موافقتها على تلك الشابة لدوافع مستمدة من مصلحة سيطرتها. وماري توشه وقد ألقيت شابة في ريّق العمر في البلاط، ووصلت إليه في تلك المرحلة من العمر التي تزهر فيها العواطف الجميلة: كانت تعبد الملك لذاته، وقد ذعرت من الهوة التي ألقى الطموح فيها الدوقة دي فالنتينوا الأكثر شهرة باسم ديان دي بواتيه، وخشيت دون شك من الملكة كاترين وفضلت السعادة على العظمة، وربّما رأت أن عاشقين فتيّين، مثلهما هي والملك، لايمكنهما مجابهة الملكة الأم، إضافة إلى أن ماري وهي الفتاة الوحيدة لجان توشه، سيد بوڤيه وكيّار، مستشار الملك، والملازم في محكمة إقطاعيي أورليان، كانت في موقع بين البورجوازية والنبالة الصغيرة، فلاهي من النبيلات كلياً، ولا من البورجوازيات كلياً، وهي تجهل خُدَعَ الطموح الفطري لبيسلو، وسان فاليه، اولئك الفتيات اللواتي صارعن لمصالح عائلاتهن بأسلحة الحب السرّية، وقد تجنّبت ماري توشه، الوحيدة ودون عائلة، أن تجعل كاترين دي مديسي ترى في عشيقة ابنها، فتاة من بيت كبير تفرض نفسها منافسة لها؛ وكان جان توشه أحد المغرمين بالأدب في زمنه، وقد أهداه بعض الشعراء دوانينهم، ولم يشأ قط أن يكون في القصر، فكانت ماري شابة بدون حاشية، مرهفة العقل ومثقفة بقدر ماهي بسيطة وبريئة، حتى أن رغباتها لا تتضمن أي ضرر للسلطة الملكية، وهذا مايلائم الملكة الأم التي أبدت لها مودّة كبيرة، والواقع أن كاترين عملت على اعتراف البرلمان بالابن الذي أنجبته ماري توشه في شهر نيسان، وسمحت بأن يأخذ اسم كونت دوفرني، مصرّحة لشارل التاسع أنها ستترك له بموجب وصية عقاراتها[1] في كونتيه اوفرني ولوراغي، لكن مرغريت، ملكة نافار أولاً، اعترضت على الهبة عندما غدت ملكة فرنسة، فألغاها البرلمان، لكن فيما بعد نظر لويس الثالث عشر باحترام إلى نسب آل فالوا فعوّض كونت دوفرني بدوقيه آنغولم؛ وكانت كاترين أيضاً قد أهدت ماري توشه، التي لم تكن تطلب شيئاً، إقطاعة بلڤيل، وهي أرض دون مالك، قريبة من ڤنسين حيث كانت خليلة الملك تلاقيه حين يأوي إلى هذا

---

(١) هي عقارات ورثتها كاترين عن خالتها أخت أمها مادلين دلاتور دوفرني التي توفيت ولا أولاد لها.

القصر بعد حفلات الصيد. وقد قضى شارل التاسع في تلك القلعة القاتمة القسم الأعظم من أيامه الأخيرة، وأنهى حياته فيها، وفقاً لما ذكره بعض المؤلّفين، بذات الطريقة التي أنهى فيها لويس الثاني عشر حياته[1]؛ ورغم أنه من الطبيعي جداً على عاشق، وقد تدلّه بجدّ، أن يسرف في تقديم براهين حبّ جديدة لامرأة متدلهة. تكفيراً عن خياناته الزوجية السابقة، فإنّ كاترين بعد أن دفعت بولدها إلى سرير الملكة، ناصرت ماري توشه وحمتها، كما تعرف النساء المناصرة، ورمت بالملك مجدّداً بين أحضان عشيقته، فكل ما كان يلهي شارل التاسع ويبعده عن السياسة يناسب كاترين؛ إضافة إلى أن النوايا الطيّبة التي أظهرتها نحو ذلك الطفل خدعت لفترة شارل التاسع، الذي كان قد بدأ يرى فيها عدوّة؛ ولم تتجل الأسباب الدافعة لتصرف كاترين دي مديسي في هذه القضية لعيني دونا ايزابل التي كانت، وفقاً لماذكره برانتوم[2]، إحدى أرق الملكات التي لم تسبّب الأذى أو الإنزعاج لأحد، حتى انها تتلو صلواتها سراً. لكن هذه الملكة الساذجة بدأت تلحظ الهوّات الفاغرة الأفواه حول العرش، وهو اكتشاف رهيب كان يمكن أن يسبب لها بعض الدوار، إنّما برهنت على أنها كانت تعاني مما هو أشدّ منه، بدليل إجابتها لإحدى السيّدات التي أسفت لها عند وفاة الملك دون أن ترزق بولد ذكر، تغدو بإنجابه ملكة أمّاً ووصية على العرش، فقالت:

«آه! لنشكر الله لأنه لم يرزقني بابن، فماذا كان سيحدث؟ إنّ الولد المسكين كان سيُجرَّد من ملكه، كما أرادوا تجريد زوجي الملك، لأكون أنا السبب، إن الله قد أشفق على الدولة، فاختار لها الأفضل».

هذه الملكة التي ظن برانتوم[2] أنه رسم صورتها، عندما قال إن لون بشرة وجهها بمثل جمال ورقة سيّدة بلاط، يمتع النظر، وإن لها قواماً رشيقاً في اعتدال

---

(١) توفي الملك لويس الثاني عشر في الثالثة والخمسين من العمر بعد ثلاثة أشهر من زواجه بماري داتغلتر «مجهداً نفسه تجاه هذا الجمال بأكثر مما يتحمّل عمره المتقدّم» وفقاً لما ذكره برانتوم. عدا عن أن ماري (١٤٩٦ ـ ١٥٣٧) كانت في التاسعة عشر من عمرها.

(٢) الصورة مستمدة من «**طرَف الملكات**» إنما يبرز بلزاك مخاوف الملكة الشابة من حماتها.

قامة؛ وإنها لا تتدخل في شؤون البلاط، إنّما حالة الملك تدفعها إلى ألم مضاعف؛ وزاد مظهرها من قتامة اللوحة، التي كان بامكان ملكة شابة أقل إحساساً بقسوة مصابها أن تجعلها أكثر بهجة وإشراقاً.

كانت اليزابيت الورعة تحسَّ في تلك الفترة بأنّ المزايا التي تشكل رونق النساء في الوسط العادي يمكن أن تكون قاتلة بالنسبة لملكة؛ كما بدا لشارل التاسع أن الأميرة لو اهتمت بشيء آخر غير صلواتها ليلاً لكانت ذات عون كبير له، فهو لايجد لنفسه سنداً لا في امرأته ولا في خليلته.

أما الملكة الوالدة فقد أقلقها الملك الذي أبدى خلال حفل العشاء ميلاً كبيراً للدعابة فسرَّته بأنه يدبّر ويخفي موقفاً معيّناً منها؛ فهذه البهجة المفاجئة تتباين بشكل ظاهر مع تركيز الفكر الذي حجبه بانصرافه إلى الصيد، وفي عمل مهووس في كُور حدادة حيث كان يحب زخرفة الحديد، دون أن يَخْفى َذلك على كاترين؛ إنّما لم تتمكن أن تخمن من رجل الدولة الذي يتصدى لتلك المداولات والاستعدادات، لأن شارل التاسع كشف جميع جواسيس أمه، وكاترين لا تشكّ في أنه يُعِدّ تدبيراً ما ضدها؛ فالحضور المفاجىء لتاڤان الذي وصل في ذات الوقت الذي استدعت فيه ستروزي، دفعها إلى تفكير جدي؛ كانت كاترين بقوة ترتيباتها فوق كل الظروف والاحتمالات، لكنها لا تستطيع القيام بشيء ضد عنف مفاجىء. ، وبما أن كثيراً من الأشخاص يجهلون الحالة التي توجد فيها القضايا التي تعقْدت بالأحزاب المختلفة التي تحرّك فرنسة، وما لزعمائها من مصالح مختلفة؛ فمن الضروري أن نصف الأزمة الخطيرة التي كانت الملكة الأم متورطة فيها؛ وأن نسلّط ضوءاً جديداً على كاترين دي مديسي ممَّا يعني الدخول في صميم تاريخ تلك الفترة؛ فكلمتان اثنتان تلخّصان وضع تلك المرأة التي تثير دراستها كثيراً من الفضول، والتي ترك نفوذها انطباعات شديدة في فرنسة؛ وهاتان الكلمتان هما: «التسلُّط والتنجيم». كانت كاترين دي مديسي امرأة ملؤها الطموح، لاهوى لها إلا السلطة؛ متطيرةٌ، وقدريّةٌ ككثير من الأشخاص العظماء؛ ليس لها إيمان راسخ إلا

بعلوم السحر والتنجيم ودون هذا الموضوع المضاعف، ستبقى دائماً غامضة، وبشرح إيمانها بالتنجيم الفلكي[١] يسلّط الضوء على الشخصيتين الفلسفيتين في هذه الدراسة.

كان هناك رجل تهتم به كاترين أكثر من اهتمامها بأولادها، هذا الرجل هو كُوسْم روجيري. أسكنته في قصرها في سواسون، وجعلت منه مستشارها الأسمى، فهو مكلّف بأن يقول لها إن كانت النجوم توافق على آراء مستشاريها العاديين واحكامهم. وقد برّرت سوابق غريبة[٢] هيمنة روجيري على سيدته حتى آخر لحظة.

كان من أشهر علماء القرن السادس عشر، بالتأكيد، طبيبُ لوران دي مديسي، دوق أوربن، والد كاترين. كان اسم هذا الطبيب روجيرو الشيخ أو (روجه القديم لدى المؤلفين الفرنسيين المهتمين بالكيمياء القديمة) وذلك لتمييزه عن ولديه لوران روجيرو المسمى «الكبير» بالنسبة للمؤلفين القبلانيين المهتمين بالسحر، وكوسم روجيرو فلكي كاترين، المسمى أيضاً روجه بالنسبة للمؤرخين الفرنسيين. كان لروجيري الشيخ اعتبار كبير في منزل آل مديسي حتى أن الدوقين كوسم ولوران كانا عرّابي ولديه، وقد كشف بالاتفاق مع الرياضي الشهير بازيل[٣] طالع كاترين عند ولادتها، بصفته رياضياً، وفلكياً وطبيباً لبيت آل مديسي، وهي مزايا ثلاث تتوحّد غالباً.

في ذلك العصر كانت تمارس علوم السحر والتنجيم بحماس يمكن أن يدهش

---

(١) التنجيم الفلكي: هو كشف الطالع والتنبوء عن المستقبل بدراسة حركة النجوم.

(٢) يبدو أن بلزاك يريد أن يضخّم من أهمية أبحاث الكيمياء القديمة التي فتنت الملك، فما من دلالة على وجود لوران الكبير ولا على الدور المعطى لوالده روجيرو الشيخ ولا ذكر لهما لدى المؤرخين الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

(٣) تشير المصادر إلى أن بازيل الرياضي الفلورنسي هذا قد تنبّأ عن كاترين «بأنها ستكون سبباً في خراب المكان الذي ستتزوج فيه» وذلك عندما استشير مع غيره من مشاهير الفلكيين للكشف عن طالع كاترين عند ولادتها، كما جرت العادة لدى نبلاء العصر.

أصحاب العقول المشكّكة في عصرنا الحاضر المعتمد على التحليل بشكل رئيس، وربّما سيرون في هذه اللمحة التاريخية بزوغ بذرة العلوم الوضعية التي ازدهرت في القرن التاسع عشر؛ لكن دون الكبر الشاعري الذي كان يحمله بحّاثة القرن السادس عشر الجسورين، الذين بدلاً من أن يمارسوا الصناعة كبّروا الفن وأخصبوا الفكر. والحماية الشاملة التي منحها أسياد ذلك الزمن لتلك العلوم تتبرّر بالابتكارات الرائعة للمكتشفين الذين انطلقوا للبحث عن حجر الفلاسفة[١]، ليصلوا إلى نتائج مدهشة؛ وهكذا لم يكن الحكام يوماً أكثر منهم تلهفاً على مثل تلك الأسرار، فآل فوغر[٢] الذين يعتبرهم آل لوكولوس الحديثون أمراءهم، وينظر اليهم أصحاب البنوك كمعلميهم، كانوا بالتأكيد حسّابين مخطّطين يصعب خداعهم، هؤلاء الرجال العمليون الذين أقرضوا رؤوس أموال أوروبة إلى ملوك القرن السادس عشر المدنيين كأمثالهم في العصر الحاضر، هؤلاء المضيفون المشهورون لشارل كنت، كانوا من الأوصياء على أفران باراسلس[٣]. في بداية القرن السادس عشر كان روجيري الشيخ عميد تلك الجامعة السرّية التي تخرج منها أمثال كاردان ونوسترا داموس وأغريبا الذين كانوا الواحد بعد الآخر أطباء آل ڤالوا؛ أخيراً جميع الفلكيين والمنجمين والكيميائيين القدماء الذين يحيطون في ذلك العصر

---

(١) حجر الفلاسفة، هو ما كانت تبحث عنه الكيمياء القديمة لتحويل المعادن وبصورة خاصة إلى ذهب وللسيطرة على المادة.

(٢) **آل فوغر**: من أغنياء نهاية القرن الخامس عشر، وكانوا من هواة العلوم والآداب، وقد لعبوا في القرن السادس عشر الدور الذي لعبه آل روتشيلد في القرن التاسع عشر، منهم ريمون (١٤٨٩ ـ ١٥٣٥) وأخوه أنطوان (١٥٩٣ ـ ١٥٩٧) وكانا مصرفيا شارل كنت. ويقال إن أنطوان لم يتردّد أثناء زيارة الامبراطور له في أوغسبورغ على أن يحرق له جميع كمبيالات ديونه، وقد أغرم ابنه ماركوس (١٥٢٩ ـ ١٥٩٧) بالكيمياء، وتبنّى الإنفاق على التجارب التي يجريها أحد الأطباء بحثاً عن حجر الفلاسفة، أخيراً أقامت العائلة قصوراً وبيوتات، وأنشأ ريمون وأنطوان في أوغسبورغ متحفاً للعاديات القديمة واللوحات، ومن هنا الإشارة إلى لوكولوس الذين لم يشتهروا فقط بمآدبهم الكبرى وإنما بأبهة مساكنهم وقصورهم ومجموعات تماثيلهم ولوحاتهم ومخطوطاتهم التي كانوا يعرضونها على الهواة.

(٣) **باراسلس** (تيوفرات ڤون هوهنهيم): (١٤٩٣ ـ ١٥٤١). كيميائي قديم وطبيب سويسري يعتبر عميد الطب السحري.

بأمراء المسيحية، والذين استقبلتهم ورعتهم في فرنسة بصورة خاصة، كاترين دي مديسي. لقد وضع بازيل وروجيري الشيخ، في كشف طالع كاترين دي مديسي، الذي أجرياه عند ولادتها، قائمة تنبوء بأهم أحداث حياتها بدقة تثير دهشة من ينكرون علوم التنجيم واستغرابهم. إذ سجّل فيها المصائب التي مرّت عليها في بداية حياتها اثناء حصار فلورنسة، وزواجها من شاب من العائلة المالكة الفرنسية، وتسنّم هذا الشاب العرش دون أمل سابق له فيه، وولادة أبنائها وعددهم، وملكية ثلاثة منهم كل بدوره، وملكية اثنتين من بناتها، وموتهم جميعاً دون سلالة وارثة؛ هذه النبوءة تحقّقت كلّها حتى ظن كثير من المؤرخين أنها قد زيّفت فيما بعد.

من المعروف أن نوسترا داموس[1] كان يعرض في قصر شومون، حيث ذهبت كاترين خلال مؤامرة لارنودي لرؤية امرأة تمتلك هبة رؤية المستقبل، والحال أن نوسترا داموس ورفيقته، وخلال ملكية فرنسوا الثاني، وعندما كانت الملكة ترعى ابناءها الأربعة في سن الطفولة وهم بتمام الصحة والعافية، أي قبل أن تتزوج اليزابيت دي فالوا من فيليب الثاني ملك اسبانية، ومرغريت من هنري دي بوربون قد أكدا أحداث النبوءة السابقة الشهيرة؛ وذكّرت العرّافة التي تمتلك دون شك نظرة ثانية، وتنتمي إلى تلك المدرسة الكبيرة من أولئك الباحثين الجلودين عن حجر الفلاسفة، أن آخر من يتولى الملك من أولاد كاترين سيموت مقتولاً. وبعد أن وضعت الملكة أمام مرآة سحرية ينعكس عليها دولاب على أحد رؤوسه يرتسم وجه كل ولد، شغلت الساحرة الدولاب، وراحت الملكة تعد الدورات، وكل دورة بالنسبة لكل ولد هي سنة مُلك، وعندما وضعت صورة هنري الرابع على الدولاب أتمّ اثنتين وعشرين دورة[2]، وقد ذكرت تلك المرأة (وبعض المؤرخين يذكرون أنها كانت رجلاً) للملكة المرتعبة أن هنري دي بوربون سيكون في الواقع ملكاً على

---

(١) نوسترا داموس: «ميشيل دي نوستردام» (١٥٠٣ ـ ١٥٦٦) فلكي وطبيب فرنسي ولد في سان رمي دي بروفنس له نبؤات شهيرة جمعت في كتاب «مئويات فلكية» في العام ١٥٥٥.

(٢) - مشهد المرآة السحرية مشهور جداً، وهو مذكور في طرف الملكات لكن بلزاك يذكر أنه تمّ باشراف نوستر اداموس، الذي ينسب إليه دور دو رادية نبوءة سان جرمن الملغّزة.

فرنسة، وسيملك طيلة ذلك الوقت، ومنذ ذلك الحين غدت الملكة كاترين تكن كرهاً هائلاً للبيارني عندما علمت أنه سيعقب آخر آل فالوا أي ابنها القتيل. ودفعها الفضول لأن تعرف نوع الميتة التي ستموتها، فقيل لها أن تحترس من سان جرمن، ففكرّت في أنها ستحبس أو تعذب في ذلك القصر، فتجنبته، ولم تعد تضع فيه قدماً، بالرغم من ملائمته لأهدافها نظراً لقربه من باريس، وابتعدت عنه لاسيما في أوقات الفتن التي تبعدها مع الملك عن باريس، وعندما حلّ بها المرض بعد مقتل الدوق دي غيز في مجلس بلوا[١]، سألت عن اسم الأسقف الذي جاء يعودها ويصلي لها في مرضها، ولما قيل لها إن اسمه «سان جرمن» صرخت: «إنني ميتة» والواقع أنها ماتت في اليوم التالي متممة عدد السنوات التي أشارت اليها طوالعها الفلكية.

هذا المشهد الذي يعرفه الكردينال دي لورين، وقد اتهمها بالسحر، كان يتحقق في ذلك الوقت ففرنسوا الثاني لم يملك إلا دورتي الدولاب، وشارل التاسع كان يتمّم في حينه دورته الأخيرة، وإذا كانت كاترين قد قالت هذه الكلمات الغريبة لابنها هنري المسافر ليملك في بولونية: «ستعود قريباً!»[٢] فيجب أن ينسب قولها إلى إيمانها بعلوم التنجيم، وليس إلى رغبتها بتسميم شارل التاسع، وكانت ابنتها مرغريت دي فرانس ملكة على ناڤار، واليزابيت ملكة على اسبانية، ودوق دانجو ملكاً على بولونية.

ظروف عديدة أخرى ثبتت إيمان كاترين بعلوم التنجيم، فعشية المباراة التي جرح بها هنري الثاني جرحه المميت، رأت كاترين الضربة المشؤومة في الحلم، وكان

---

(١) - كاترين دي مديسي (١٥١٩ - ١٥٨٩) توفيت بعد مقتل هنري دي غيز «بالافره الثاني» (١٥٥٠ - ١٥٨٨) في بلوا بعدة أشهر، ومقتل أخيه لويس الثاني كردينال دي لورين (١٥٥٥ - ١٥٨٨) في بلوا أيضاً في العام ذاته وكان والدهما فرنسوا دي غيز (١٥١٩ - ١٥٦٣) الملّقب ببلافره الأول قد قتل من قبل أحد البروتستنتيين في العام ١٥٦٣ أما عمهما الكردينال شارل دي لورين (١٥٢٤ - ١٥٧٤) الملقب بابا عبر الألب فقد توفي في العام ١٥٧٤ وبذلك قضي على رؤوس آل غيز قبل وفاة كاترين دي مديسي.

(٢) - العبارة شهيرة تاريخياً، حتى أنها فسرت كدلالة على محاولتها تسميم شارل التاسع.

مجلس منجميها المؤلف من نوستراداموس والروجيريين قد تنبأ لها بموت الملك[1]، وقد سجّل التاريخ إلحاح كاترين في محاولة إقناع الملك هنري الثاني بعدم النزول إلى الحلبة، وتحققت النبوءة والحلم المتولّد عنها، كما أن مذكرات ذلك الزمن تسجّل واقعة أخرى ليست أقل غرابة، فالرسول الذي نقل نبأ النصر في مونكونتور وصل خلال الليل بعد أن بلغ من سرعته أن تسبب في قتل ثلاثة جياد ارهاقاً، وأوقظت الملكة الأم التي قالت: «كنت أعرف ذلك»، والواقع أنها خلال السهرة، وكما يقول برانتوم، تحدثت عن نصر ابنها وعن بعض ظروف المعركة[2]. أما منجم آل بوربون فقد صرّح أنّ الابن الثاني لهؤلاء الأمراء المتحدرين من القديس لويس، ابن أنطوان دي بوربون، سيكون ملك فرنسة. هذه النبوءة التي يذكرها سولي تمت في الموعد الذي سجله كشف الطالع، مما دفع بهنري الرابع إلى القول إن هؤلاء الأشخاص لكثرة ماكذبوا، صادفوا الحقيقة. أيا كان الأمر، إن كانت معظم الرؤوس القوية في ذلك الزمن قد آمنت بالعلم الواسع المسمى **عرافة** من قبل علماء التنجيم الفلكي، وسحراً من قبل الجمهور، فقد أجازت نجاحات كشف الطالع ذلك الإيمان.

فمن أجل كوسم روجيري، رياضيها، وفلكيها، ومنجمها، وساحرها وفق ماهو شائع، أقامت كاترين العمود المستند إلى هال - أوبله الأثر الوحيد الباقي من

---

(١) - أشارت إلى هذا الحلم التنبؤي ابنتها مرغريت دي فالوا في مذكراتها. كما ذكر أن نوستراداموس تنبأ عن موت الملك هنري الثاني في الرباعية الشعرية التالية:

العجوز يمتطي صهوة أسد فتي

في ميدان محَرب خلال مبارزة فريدة

وفي قفص من ذهب يفقأ عينيه

بجرحين يكفي أحدهما ليموت ميتة قاسية.

(٢) - في الواقع أن برانتوم لم يذكر شيئاً عن هذه المعركة، وإنما هذه الواقعة ذكرت في «مذكرات مرغريت دي فالوا» وهي تتعلق بمعركة جارناك.

قصر سواسون[1]، كان كوسم روجيري يمتلك، كالمعرفين، تأثيراً غامضاً، وكالمعرّفين يغتبط به، غير أنه كان يتمتع بفكر فائق الطموح يفوق كل طموح عادي، هذا الرجل الذي يصوره الروائيون والكتاب المسرحيون كمشعوذ[2] كان يمتلك دير سان - ماهه في باس - بريتانية، وقد رفض المناصب الكهنوتية العليا، فالذهب الذي كانت تقدمه له الأهواء المتطيّرة بغزارة في ذلك العصر كان يكفي مشاريعه الخفيّة ويد الملكة التي تظلّل رأسه تحميه من كل سوء.

أما تعطّش كاترين للسلطة ورغبتها في السيطرة فقد بلغتا من الشدة مادفعها إلى التحالف مع آل غيز أعداء العرش، وقد استخدمت كل الوسائل للهيمنة على شؤون الدولة مضحية بأصدقائها، وحتى بأولادها. هذه المرأة لم تكن تتمكن من العيش إلا ضمن مؤامرات الحكومة، كمقامر لايستطيع العيش دون انفعالات المقامرة. وبالرغم من أنها إيطالية، ومن سلالة مديسي الشهوانية، فإن الكالفنيين الذين غالوا في افتراءاتهم عليها لم يكشفوا لها عشيقاً واحداً. إنما كانت من المعجبات بشعار: «فرِّق تسد»[3] وقد تعلمت خلال اثنتي عشر سنة كيف تجابه باستمرار قوة بقوة أخرى. فما أن أمسكت بزمام الأمور حتى اضطرت لأن تغذي الشقاق لتحييد قوتي البيتين المنافسين وتنقذ التاج. هذه السياسة الاضطرارية تبرّر ما قاله عنها زوجها هنري الثاني[4]، فكاترين هي التي ابتكرت هذه الطريقة من التوازن السياسي، التي قلدها بعد ذلك جميع الأمراء الذين وجدوا في وضع مماثل، بمجابهة الكالفنيين مرة بآل

---

(١) - هال - أوبله: (هال القمح) بني العام ١٧٦٨، وحلت محله بعد ذلك بورصة التجارة، مكان قصر سواسون إنما بقي العمود حيث كان يقوم مرصد الفلكي.

(٢) - برز روجيري في مسرحية روما: هنري الثالث وبلاطه (١٨٢٩) كمنجم مشعوذ، وفي قصة لجاكوب هاوي الكتب في العام ١٨٣٠ «صيد شارل التاسع» ذكر كشخصية مثيرة للسخرية، يبيع الرقيات والسموم والمواد التجميلية، كما صور بذات المظهر في المأساة التاريخية للوكروا وآرتولد: أيام المرافع في عهد شارل التاسع.

(٣) - يذكر مزراي في «تاريخ فرنسة» أن هذا هو شعار آل مديسي Divide ut Regnes.

(٤) - هذا القول ورد في القسم الأول وقد قاله هنري الثاني لقائد الجيش دي مونمورونسي: «إن امرأتي هي الأكثر إثارة للتشويش على وجه الأرض، إنها تجعل القديسين يتصارعون في الجنة...».

غيز، ثم مجابهة آل غيز في المرة التالية بالكالفنيين، معارضة مذهبين دينيين أحدهما بالآخر في قلب الأمة، ومن بعد ذلك عارضت ابنها شارل التاسع بأخيه دوق آنجو، وهكذا فبعد مناقضة الأشياء والمذاهب ناقضت الرجال محتفظة بعقد جميع مصالحهم بين يديها. لكن بهذه اللعبة الرهيبة التي تلزمها رؤوس كرأسي لويس الحادي عشر أو لويس الثامن عشر[1]، كانت تجمّع حتماً كره جميع الأحزاب، وتلزم نفسها بضرورة الانتصار دائماً، إذ أن معركة خاسرة كافية لتؤلّب الجميع ضدها وتحولهم إلى أعداء، هذا عدا عن أنها باستمرار الإنتصار ستضعف الجميع، وتنتهي إلى عدم القدرة على إيجاد أطراف اللعبة. كانت معظم فترة ملكية شارل التاسع انتصاراً للسياسة البيتية لتلك المرأة المدهشة، فكم بذلت كاترين من المهارة لتكليف الدوق دي آنجو بقيادة الجيوش تحت حكم ملك شاب، شجاع، متعطش إلى المجد وقادر عليه، عدا عن شهامته ووجود القائد العام آن دي مونغورونسي! حصد الدوق دي آنجو في أعين سياسيي أوروبة شرف الانتصار في سان بارتلمي بينما حلّت عاقبة قبح العمل على شارل التاسع، وبعد أن أوحت للملك بغيرة مختلقة وخفيّة ضد أخيه[2]، استخدمت ذلك الجموح، لتستهلك في مؤامرات تنافس أخوي مزايا شارل التاسع العالية، كان سيبيير المربي الأول، وآميوت موجّه دروس شارل التاسع، قد جعلا من تلميذهما رجلاً عظيماً، وهيأاه لملكية ناجحة حتى أن الأم كرهت منذ اليوم الأول تلك المزايا في ابنها، إذ خشيت أن تفقد سلطة سعت إليها وكسبتها بعد عناء. بناءً على هذه المعطيات ظن معظم المؤرخين بإيثار الملكة الأم لابنها هنري الثالث، لكن تصرفها في هذه الفترة يشير إلى جمود عاطفي تام وتحجر في القلب تجاه أبنائها. وبذهاب الدوق دي آنجو ليملك في بولونية حرمها من أداة تحتاج

---

(١) - يضم بلزاك صورة الملكة الطموح المخادعة فيجعل من سياستها نظاماً مقارناً إياها بالملكين النموذجين الأثيرين لديه.

(٢) - أشار المؤرخان دي تو ومزراي إلى تأثير الملكة الأم خلال ملكية شارل التاسع وإلى غيرة الملك من أخيه هنري، مما يعتبر أسباباً لذمها من قبل هجائيها. غير أن الدوق دي بويون في «مذكراته» اعتبر تصرفها تحفيزاً للابنين الباقيين وإثارة لطموحهما.

إليها لتستثير شارل التاسع، بمومراتها البيتية التي حيّدت طاقته وهيّأت مجالاً لإشباع عواطف تسلطها الجامحة. لكن كاترين اختلقت عند ذلك مؤامرة لامول وكوكوناس[١] التي اشتبه فيها بمشاركة ابنها الرابع دوق آلنسون، الذي غدا دوق دي آنجو بعد تنصيب أخيه ملكاً على بولونية، وتأقلم بكل رضى مع آراء أمه، معبراً عن طموح تحثه عليه أخته مرغريت ملكة ناڤار. هذه المؤامرة التي وصلت إلى الحد الذي أرادته لها كاترين، كانت تهدف إلى وضع الدوق الشاب وصهره ملك ناڤار على رأس الكالفنيين، وخطف الملك شارل التاسع الذي لا وريث له وسجنه، وتخليه عن العرش لأخيه الأصغر، بهدف توطيد الكالفينة في فرنسة. وكان كالفن قد حصل على المكافأة التي يطمح إليها، عندما رأى قبل موته بأيام معدودة تسمية الحركة الاصلاحية الدينية في فرنسة باسم الكالفنيية، وإذا كان لابورور والمؤلفون الأكثر حصافة لم يتمكنوا آنفاً من إقامة الدليل على أن لامول وكوكوناس اللذين أوقفا بعد خمسين يوماً من الليلة التي تبدأ فيها هذه القصّة وأعدما في شهر نيسان التالي. كانا ضحية سياسة الملكة الأم. فيكفي للتفكير بأنها وراء هذه المؤامرة سراً أن كوسم روجيري شارك فيها، فهذا الرجل الذي يشتبه الملك فيه ويكُّن له كرها سوف تتوضّح دوافعه هنا وضوحاً كافياً، قد وجه إليه الإتهام خلال تحقيقات القضية. إذ كُشفَ عن أنه قدَّم للامول[٢] صورة تمثل الملك وقد غُرزت في صدره، في موضع القَلب، أبرتان، مثل هذا التمثيل، في ذلك العصر يشكل جريمة يعاقب عليها بالموت. هذا الفعل يتضمن إحدى أجمل الصور الجهنمية التي يمكن أن تصورّ الكراهية، وهي تفسر إضافة إلى ذلك، وبشكل مدهش، العملية المغناطيسية والرهيبة المعبّرة في عالم

---

(١) - يسمي دور دو رادية هذه المؤمراة «الدسيسة الوهمية» معتمداً على اضافات لابورور «ومذكرات» كاستلنو، لكن من المؤكد أن دوق آلنسون، وصهره هنري دي نافار كانا على رأس المستائين الذين يضاعفون مشاريع المعارضة ضد الملك، وفي شباط ١٥٧٤ أراد مغادرة البلاط للذهاب إلى سيدان وإثارة فتنة مسلحة، لكن الدوق اعترف بذلك لأخيه الملك محبطاً مؤامرة «ثلاثاء المرفع» في آذار وقد حرّض لامول وكوكوناس الدوق على تجديد هذه المؤامرة لكن كاترين دي مديسي انذرت وألقي القبض على المتآمرين خلال شهر نيسان وأعدما في الثلاثين منه.

(٢) - لم يثبت ذلك ولزم كوسم روجيري الصمت تجاهه.

السحر عن رغبة ثابتة بإيقاع الموت بهذا الشخص الذي تذكر صورة الشمع دون انقطاع بتهيئة الأسباب لذلك، فعدالة تلك الأيام تعتبر عن حق أن فكرة متجسّدة بهذه الصورة تشكل قدحاً بالذات الملكية، وقد طلب شارل التاسع الموت للفلورنسي، لكن كاترين، الأكثر قدرة، حصلت من البرلمان، بواسطة المستشار لكاموس على حكم يقتصر على سجن الأشغال الشاقة على فلكيها، وبعد موت الملك صدر عفو عنه بأمر من هنري الثالث، وأُعيدت إليه رواتبه واستقبل في البلاط الملكي.

كانت كاترين قد وجهت ضربات عديدة إلى قلب ابنها بحيث غدا في تلك الفترة متلهفاً ليزيح عن كاهله نير أمه[1]، فمنذ غياب ماري توشه، توفر الوقت لشارل التاسع لملاحظة كل شيء حوله، ونصب بمهارة فائقة شباكاً لمن كانوا موضع ثقة ليختبر مدى ولائهم له، وراقب تصرفات والدته وحال بينها وبين معرفة تصرفاته ونواياه، مستخدماً لخداعها جميع النقائص التي أورثته أياها، ودفعته رغبة جامحة في إزالة الرعب المخيم على فرنسة عقب سان بارتلمي فاهتم بنشاط، بتسيير إدارة الدولة، فرأس المجلس، وجرّب أن يوجه الحكم بأفعال معدّة بمهارة، مع أنّ الملكة جربت أن تقاوم إجراءات ولدها مستخدمة كل وسائل التأثير التي تتيحها لها سلطتها العائلية وعادتها في السيطرة، فكان تدهور الثقة سريعاً بحيث أن الابن انطلق من القفزة الأولى بعيداً مصمماً على عدم العودة، وفي اليوم الذي نقلت اليه كلمات أمه إلى ملك بولونية أحس شارل التاسع بحالة صحية سيئة جداً، وخالجته أفكار رهيبة، عندما تغزو مثلها قلب ابن وملك فما من شيء يمكن أن يزيل شكوكه وشبهاته، والواقع أن أمه اضطرت وهو على سرير الموت أن تقاطعة صارخة: «كفّ عن مثل هذا الكلام، ياسيدي» وذلك في اللحظة التي عهد بها إلى هنري الرابع بالوصاية على ابنته وزوجته، فكأنه يريد أن يحذره من كاترين. وبالرغم من أن شارل التاسع لم يفته هذا الاحترام الخارجي الذي كانت تحرص فيه دائماً على أن تبدأ الكلام مع

---

(١) - يسجّل المورخون جهود الملك في العام ١٥٧٣ من أجل القبض على زمام السلطة بنفسه ويقول دي تو بأنه تبدّل فجأة كانسان استيقظ من نوم عميق إنما جاءت جهوده متأخرة.

الملوك أولادها، بسيدي، فقد لاحظت الملكة الأم في تصرفات ولدها سخرية انتقام مقرر غير مقنعة تماماً، لكن من يتمكن من مفاجأة كاترين يحتاج لمهارة كبيرة، فقد كانت مؤامرة دوق آلنسون ولاموول جاهزة لتحرف بمنافسة أخوية جديدة، الجهود التي يبذلها شارل التاسع ليصل إلى انعتاقه، إنما أرادت قبل اللجوء اليها أن تزيل الشكوك التي يمكن أن تجعل من المتعذر التوفيق بينها وبين ابنها. فهل سيسمح هذا الابن الملك بسلطة لأم يخشى أن تسمّمه؟ وهكذا شعرت في نفسها جدياً بأنها مهدّدة في تلك الفترة فطلبت ستروزي نسيبها ليكون إلى جانبها وهو ضابط جريء ومتميز بسرعة التنفيذ كما عقدت مع بيراغ والأخوين غوندي عدة اجتماعات سرية مشبوهة، واستشارت لمرات عديدة وسيط وحيها في قصر سواسون.

بالرغم من أن عادة الكتمان، والتقدم في السن أيضاً قد وضعا على وجه كاترين ذلك القناع الديري المتعالي، والمتقشف، والشاحب، إنما المتفحص والكتوم والمليء بالعمق، والرائع في أعين أولئك الذين يتأملون صورتها. فإن مشايعيها لاحظوا بعض غيوم على هذه المرأة الفلورنسية، وما من ملكة بدت بمثل تلك المهابة منذ اليوم الذي توصلت فيه إلى احتواء آل غيز بعد موت فرنسوا الثاني، كانت قلنسوتها المخمل الأسود المنتهية في منتصفها برأس فوق جبينها[١]، تشكل مايشبه الخمار النسوي الأسود إذ أنها لم تتخل عن ثياب الحداد بعد وفاة هنري الثاني، إنما عرفت كيف تعطي لهذا الزي الإغراء الايطالي على وجهها المتصلف البارد. كانت حسنة القوام حتى أنها روجت بين النساء امتطاء الخيل لتظهر الساقان عند الركوب، إذ قيل إن لها أجمل ساقين في العالم، وهكذا راحت نساء أوربة يستعملن اللويح على صهوة الجواد بعد أن فرضت عليهنَّ فرنسة أزياءها. أما من يريد أن يتخيل تلك الشخصية البارزة، فإن اللوحة المعروضة في تلك القاعة أخذت فجأة مظهراً جليلاً، فهاتان الملكتان المختلفتان في النبوغ، والجمال، واللباس، كانتا شبه

---

(١) - الوصف يعطي صورة كاترين دي مديسي أرملة، ترتدي السواد وتعتمر القلنسوة ذات الطرف المؤنف كما تظهر في اللوحة التي تعود منذ العام ١٨١٧ إلى المتحف الملكي والتي عرضت في اللوفر العام ١٨٣٥.

مشوشتين، فإحداهما ساذجة متأملة، والأخرى متأملة رزينة كأنها فكر مجرّد، وكلتاهما كثيرتا الانشغال فما من واحدة أبدت خلال تلك الأمسية للحاضرين بادرة تسمح لهم بالحركة وللسهرة بالانتعاش.

كانت المأساة الكامنة منذ ستة أشهر التي تتم أدوارها بين الابن والأم، قد ضمن وجودها بعض رجال البلاط، وتتبعها الايطاليون بصورة خاصة، وبعين يقظة، إذ أنهم سيضيعون جميعاً إن خسرت كاترين الجولة. ففي ظروف كهذه وفي فترة يتبارى فيها الابن والأم بمظاهر الخداع، كان الملك يلفت إليه الأنظار بشكل خاص، فقد بدأ شارل التاسع، خلال تلك السهرة، بسبب التعب بعد رحلة صيد طويلة، وبالاهتمامات الجديّة التي يخفيها وكأنه في الأربعين من العمر، وكان قد وصل إلى الدرجة الأخيرة من المرض الذي مات فيه، وهذا مادفع ببعض رزيني التفكير للاعتقاد بأنه مسموم. فوفقاً لدى تو، تاسيت[1] آل ڤالوا، وجد الجرّاحون في جسد شارل التاسع بقعاً مشبوهة. وكانت جنازة ذلك الملك أكثر إهمالاً أيضاً من جنازة فرنسوا الثاني. فمن سان لازار حتى سان دنيس، لم يرافق جثمان شارل التاسع إلا برانتوم[2] وبعض نبالي الحرس الذين يقودهم الكونت دي سولون. هذا الوضع المقترن بكراهية الأم المفترضة نحو ابنها يمكن أن يؤكد الاتهام الموجّه من دي تو، لكنه يثبت الرأي المعبر عنه هنا، حول قلّة عاطفة كاترين نحو جميع أولادها، وهي برودة تجد تفسيرها بإيمان كاترين بأحكام التنجيم الفلكي، فهذه المرأة لايمكنها أبداً أن تهتم بأدوات ثبت بأنها ستفوتها. فهنري الثالث هو آخر ملك ستحكم في ظله. هذا كل شيء. من المسوغ حالياً الاعتقاد أن ميتة شارل التاسع كانت طبيعية، فإفراطاته، وطريقة حياته، والتطور الطارىء على قدراته، وجهوده في الممارسة الفعالة للسلطة، وآلامه الأخيرة، ومسراته الأخيرة، كل شيء يبرهن للعقول المتجردة. أنه مات من مرض صدري، داء غير ملاحظ كثيراً وبالتالي فهو مبهم بحيث

---

(١) - تاسيت: مؤرخ لاتيني، ولد في روما (٥٥ - ١٢٠م) اشتهر بدقة أسلوبه.

(٢) - برانتوم (بيير) «١٥٤٠ - ١٦١٤» مؤلف مذكرات فرنسي جمعت بعنوان «حياة مشاهير الرجال وكبار القادة، وشهيرات النساء وأكثرهن ظرافة» ويعتمد بلزاك على مدوناته في هذه السيرة.

يمكن لأعراضه أن تحمل شارل التاسع نفسه على الإعتقاد بأنه مسموم، لكن السمّ الحقيقي الذي أعطته إياه أمه كان موجوداً في النصائح المشؤومة، للممالقين الموضوعين حوله، لتبديد قواه الذهنية منها أو الجسدية على حدّ سواء، والتي سبّبت مرضه الطارىء صدفة، وليس التكويني في بنيته أساساً. تميز شارل التاسع آنئذ أكثر من أي وقت مضى من حياته بجلال قاتم يليق بالملوك، فتفوق أفكاره الخفيّة ينعكس على وجهه المتميّز بمسحة إيطالية اكتسبها من أمه، وهذا الشحوب العاجي، الوضاء تحت الأنوار، الملائم لتعابير الكآبة يظهر بجلاء بريق عينيه القاتمتي الزرقة، المنضغطتين بين أجفان سمينة تكسبه النباهة الحادّة التي يتصوّرها الخيال في نظرة الملوك والتي يلائم اللون فيهما الكتمان. كانت عينا شارل التاسع رهيبتين خاصة بحاجبيه المرتفعين، المتناسقين مع جبين ظاهر يمكن أن يرفعه أو يخفضه وفق إرادته. وأنفه عريض وطويل، ضخم في نهايته، أنف أسد حقيقي، وأذنان كبيرتان، وشعر أشقر ناري، وفم شبه دام كفم المصدورين، بشفة عليا رقيقة ساخرة، وشفة سفلى ثخينة تدفع إلى الافتراض بمزايا قلب طيبة. والتجاعيد المنطبعة على هذا الجبين الذي هدّمت الهموم المرعبة نضارته توحي باهتمام عنيف[1]. فتبكيت الضمير الناتج عن عدم جدوى سان بارتلمي التي انتزعت منه الموافقة عليها بمكر[2] سبب له تجعيدة

---

(١) - الشهادات دقيقة تقريباً حول ملامح شارل التاسع وتتوافق فيما بينها: شيء من المهابة، ونظرة قاطعة بعينين قال بعض الواضعين أنهما جميلتان، وقال آخرون انهما متوعدتّان، ووجه شاحب مجعد سواء من الهموم أم من الممارسات المفرطة - وفق سوربن: حياة شارل التاسع ١٨٣٦ - بينما يصفه مزراي قبل موته بقليل «بأن الانهاك واضح عليه، فعيناه غائرتان، وفمه جاف» وقد اعتمد بلزاك على كل ذلك وأعاد التركيب مستنداً أيضاً إلى صورة موجودة في «آثار الملكية الفرنسية لمونفوكون ١٧٣١» حيث يبدو شارل التاسع بجبين عريض وتجاعيد تنطلق من الوجنتين حتى زاويتي الأنف: وبلزاك يضيف ويعدّل بحيث يبدو كل تفصيل ذا دلالة ويكشف عن «الرجل الكبير المجهول» الذي يجعلنا نرثي له.

(٢) - يموّه بلزاك بعناية على دور الملك في المذبحة، ويوقع قصته بعد سنة منها بعد أن كان أولاً قد حدد تاريخ بدء أحداثها في تشرين أول ١٥٧٢، وينسب إلى الملك تبكيت الضمير، ويدّعي أنّ أمه هي التي أوحت اليه بقراره. لكنه بتحدثه هنا «تبكيت الضمير الناتج عن عدم جدوى سان بارتلمي» ينضم إلى رأي الهجائين، ويعود دون أن يريد على الأرجح إلى سياسته الخاصة حيث المعيار الوحيد هو الفعالية. نذكر أن مذبحة سان بارتلمي قد حدثت في ٢٣ آب ١٥٧٢.

عميقة، إنما هناك اثنتان أخريان في وجهه معبرتان بشكل يسمح للعالم الذي يمتلك موهبة خاصة أن يخمن مبادىء الفيزيولوجية الحديثة. هاتان التجعيدتان تحدثان ثلماً ظاهراً يذهب من كل وجنة حتى زاوية الفم، وتبرزان الجهود الداخلية لعضوية تعبة من الإنصراف إلى أعمال الفكر، وملذات الجسم العنيفة، مما أنهك شارل التاسع. هل أحست الملكة الأم وهي ترى نتيجة تصرفها بتبكيت الضمير، ما لم تكن السياسة قد خنقته لدى الأشخاص الجالسين تحت الأرجوان؟ ولو عرفت كاترين بنتيجة مؤامرتها على ولدها، فهل كانت ستتراجع؟ أي مشهد مروّع!. هذا الملك الذي ولد قوياً غدا ضعيفاً واهياً، وهذا الفكر الثاقب غدا ممتلئاً بالشكوك. هذا الرجل الذي تكمن فيه السلطة، يشعر في نفسه دون سند، وهذا الطبع الراسخ لم يعد واثقاً من نفسه، والميزة القتالية تغيرت بالتدريج إلى شراسة، والرصانة إلى مواربة، والحب المرهف الرقيق المميّز لآل ڤالوا تحوّل إلى شهوة متعة لاترتوي. هذا الرجل غير المقدّر، المنحل، المستهلك من جميع وجوه روحه الجميلة، الملك دون سلطة، ذو القلب النبيل دون صديق، المرهق بألف تصميم متناقض، يبدو في صورة حزينة لرجل في الرابعة والعشرين من عمره، تكشف له كل شيء، واحترس من كل شيء، وعزم على أن يغامر بكل شيء حتى بحياته، وقد أدرك قبل وقت قليل رسالته، وسلطته، وموارده والعقبات التي تضعها أمه في طريق إعادة السلام إلى مملكته، لكن هذا النور توهّج في فانوس مكسور.

رجلان كان يحبهما هذا الملك إلى حدّ أنه استثنى أحدهما من مذبحة سان بارتلمي، وذهب يتعشى عند الآخر في وقت اتهمه فيه أعداءه بأنه سمّم الملك، إنهما جراحه الأول امبرواز باره، وطبيبه الأول جان شابلن، وقد استدعتهما كاترين، ووفدا من الأقاليم بمنتهى السرعة، ووصلا قبل موعد النوم. كان كلاهما يتأمل سيدّه باهتمام، وتوجّه إليهما بعض رجال البلاط بالسؤال بصوت منخفض، لكن العالمين احترسا في إجابتهما متكتمين على الحكم الذي كوّناه. كان الملك بين وقت وآخر يفتح أجفانه المثقلة، ويجرّب أن يخفي عن متملقيه النظرة التي يلقيها على أمه. وفجأة نهض بسرعة ووقف أمام المدفأة وقال:

«ياسيد دي شيفرني، لماذا تحتفظ بلقب مستشار آنجو وبولونية؟ هل أنت في خدمتنا أم في خدمة أخينا؟».

قال شيفرني وهو ينحني: «أنا كلّي لك، ياصاحب الجلالة».

- تعال إذاً في الغد، فإنني مزمع أن أرسلك إلى اسبانية، إذ تحدث أمور غريبة في بلاط مدريد أيها السادة.

تطلّع الملك إلى زوجته وعاد فاستلقى في كنبَته، وقال بصوت منخفض للمارشال دي تافان أحد الاثيرين لديه من أيام صباه[1]: «إن أشياء غريبة تحدث في كل مكان».

ونهض ليقود صديق تسليات شبابه إلى النافذة الواقعة في زاوية القاعة ويقول له: «إنني بحاجة إليك، ابق هنا إلى أن يذهب الجميع. أريد أن أعرف إن كنت معي أو ضدي، لاتتظاهر بالإندهاش، إنني أراجع حساباتي، ووالدتي هي سبب كلّ شرّ هنا، خلال ثلاثة أشهر سأكون إما ميتاً، أو ملكاً بحق. أحلّفك بحياتك أن تلزم الصمت، فقد إئتمنتك على سرّي، أنت، وسولرن، وفيلروا، فإذا حدث إفشاء سرّ، فإنه سينتج عن واحد منكم، لاتظهر لي مودة كبيرة، اذهب وتودّد إلى والدتي، قل لها إنني سائر إلى الموت، وإنك غير آسف علي لأنني عاهل مسكين».

وضع شارل التاسع يده على كتف صديقه الأثير القديم وبدا وكأنه يتحدث إليه عما يعاني من آلام ليخدع المتطفلين، ثم خشي من أن يبدو بروده كثير التكلّف، فتقدم يحدّث الملكتين بعد أن استدعى بيراغ إلى قربهما. في تلك اللحظة انسل پينار أحد سكرتيري الدولة من الباب وتقدّم من كاترين وهو يحاذي الحائط كانقليس وهمس في أذنها كلمتين، أجابت عليهما الملكة الأم بهزة من رأسها إيجاباً، ولم يسأل الملك أمه عن الموضوع وعاد ليستلقي على كنبته، بعد أن ألقى على الحاضرين نظرة

(١) - بالرغم من أنه في الرابعة والستين من العمر، وقريب من حافة القبر، فإن المقصود هو غاسبار دي تاڤان إذ أن ابنه المبكر غيوم الأقل شهرة، والذي يعمل وصيفاً للملك، لم يكن يوماً مارشالاً، ولم يكن في العام ١٥٧٣ قد بلغ العشرين من العمر.

غضب رهيب وغيرة، وبدا هذا الحدث الصغير في أعين المتحلقين ذا إحراج كبير، إذ أن هذه البادرة الصغيرة في ممارسة السلطة دون مساهمة الملك كانت كقطرة الماء التي يطفح بها الكأس، وانسحبت الملكة اليزابيت والكونتة دي فيسك دون إثارة انتباه الملك، لكن الملكة الأم رافقت كنتها إلى الباب. وبالرغم من أن سوء التفاهم بين الأم والابن كان يعطي أهمية كبيرة لحركات كاترين وشارل التاسع ونظراتهما وأوضاعهما، فإن برود تصرفها أفهم الجلساء أن بقاءهم في الصالة لامبرّر له، فراحوا يغادرونها بعد خروج الملكة الشابة، وعند الساعة العاشرة مساءً لم يبق إلا بعض المقربين مثل الأخوين غوندي، وتاقان، والكونت دي سولرن، وبيراغ، والملكة الأم.

بقي الملك غارقاً في كآبة سوداء، وكان هذا الصمت متعباً، وبدت كاترين مشوشة، فهي تريد مغادرة القاعة، لكنها ترغب في أن يرافقها الملك مودّعاً، لكن الملك كان مستغرقاً بعناد في أحلام يقظته، ونهضت لتقول له وداعاً، فاضطر شارل التاسع لمحاكاتها، وتناولت ذراعه، وسارت بضع خطوات معه لتتمكن أن تهمس في أذنه هذه الكلمات: «سيدي، إن لديّ أشياء هامة أسرّها إليك».

قبل أن تغادر الملكة أشارت عبر مرآة بطرف عينها إلى السيدين دي غوندي إشارة تفلّتت عن أنظار ابنها الذي كان بدوره مهتماً بإشارة مماثلة للكونت دي سولرن وفيلروا، بينما كان ناقان مستغرقاً في التفكير.

قال المارشال دي ريتز بعد أن تنبّه من تأملاته: «أراك ضجراً ياصاحب الجلالة. ألا ترفّه عن نفسك قليلاً؟ يالله! أين ذلك الزمن الذي كنا نتسلى فيه في القفز عبر الشوارع مساءً.

أجاب الملك متنهداً: «آه! كان ذلك زمناً طيباً».

قال السيد دي بيراغ وهو يتهيأ للانصراف وقد غمز بعينه للأخوين غوندي: «أيُّ شيء لايليق بك؟».

هتف المارشال دي ريتز: «أتذكر دائماً بسرور ذلك الزمن».

قال تاڤان: «كم أودُّ أن أراك على السطوح ياسيدي المارشال» ثم مال على اذن الملك هامساً: «كم أودّ لو أرى هذا الهر الإيطالي الخبيث يدقُّ عنقه».

أجاب الدوق دي ريتز: «لا أعلم أيُّنا كان أكثر مهارة في قفز فناءٍ أو شارع، لكن ما أعلمه هو أن ما من أحد منا كان يخشى الموت».

قال قيمّ الثياب الملكية: «حَسَنٌ ياسيدي هل تريد أن تتسلّق السطوح كما في أيام فتوتك؟».

هكذا كان هذا الملك التعس، وهو في سن الرابعة والعشرين، لايبدو شاباً لأحد، وحتى لمتملقيه، وراح تافان والملك يتذكران، كتلامذة المدارس، بعض أدوار مغامرات قاما بها في باريس، وغدت الجلسة أكثر تسلية، وتمّ تحدي الإيطاليين في القفز من سطح إلى سطح، ومن طرف شارع إلى طرف، وراهنا على إجراء ما كان يجريه الملك في فتوته وذهبا ليرتديا ثياب فتيان أزقّة[1]، وبقي الكونت دي سولرن وحيداً مع الملك، ينظر إليه بدهشة، فهذا الالماني الطيب الذي أخذته الرأفة وهو يخمن وضع ملك فرنسة، كان مثال الأمانة والشرف، وإن لم يكن سريع الفهم والتصور. لكن ملك فرنسة المحاط بأشخاص مناوئين له. فلا يتمكن أن يركن إلى أحد، حتى ولا إلى زوجته التي أفشت بعض أسراره دون أن تعلم أن أمه وخدمه أعداء له، كان سعيداً عندما لاحظ في السيد دي سولرن إخلاصاً يتيح له أن يخصّه بثقته الكاملة، فتافان وڤيلروا لايعرفان إلا بعض أسرار الملك، بينما الكونت دي سولرن وحده يعرف نواياه كاملة، وقد كان كثير الفائدة لمعلمه، لأن لديه بعض الخدم الكتومين المخلصين الذين ينفذون أوامره بحذافيرها، عدا عن أنّه كان أحد قادة نبالة

---

(١) – لجأ بلزاك من أجل أن يشرح هذه الواقعة الرئيسية. في ليل شارل التاسع إلى مزج ذكريات مختلفة: كان الملك يلجأ إلى تسليات خفيفة خطرة وعنيفة أحياناً، كان يفاجىء بعض النبلاء وخليلاتهم في السرير ليجلدهم بالسياط، أو أن ينهب القصر الذي يكون مدعواً إلى حفلة فيه، إنما كان مشاركوه في هذه الألهيات شباباً. في مثل عمره، منهم أخوه هنري ونسيبه الشاب ملك نافار. لكن الأخوين غوندي والمارشال دي تافان لم يشتركوا معه قط في مثل ذلك، كما أنه بدوره لم يقفز على السطوح غير أن غاسبار دي تافان في أيام فتوته كان يقفز من شارع إلى شارع فوق قرميد السطوح – وفقاً لما ذكره برانتوم، وبرفقة أمير اسمه شارل هو أول أولاد فرنسوا الأول وقد توفي في العام ١٥٤٥ أخيراً فإن غاستون دورليان شقيق لويس الثالث عشر كان يقوم مع رفاقه بهذه النزهات الليلية.

الحرس، فاختار من بينهم منذ بضعة أيام، رجالاً متعلقين حصراً بالملك وشكل منهم سرية من النخبة. كان الملك يفكر بكل شيء.

قال شارل التاسع: «حَسَن ياسولرن، ألا تلزمنا ذريعة لقضاء الليل خارجاً؟ إن لديّ السيدة دي بلفيل، لكن هذا أفضل، إذ يمكن لوالدتي أن تعرف مايدور لدى ماري.

كان على السيد سولرن أن يتبع الملك فطلب أن يتحرى الشوارع مع بعض أتباعه الألمان أولاً، وفي الساعة الحادية عشر عاد الحبور إلى الملك فانطلق يستكشف حيّ سان - اونوره.

قال الملك شارل التاسع لتافان وهو يعبر شارع النعامة: «سأذهب لمفاجأة صديقتي». لجعل هذا المشهد الليلي مفهوماً لأولئك الذين لايتخيّلون في أذهانهم طبوغرافية باريس القديمة[1] من الضروري أن نشرح لهم أين يقع شارع النعامة إن لوڤر هنري الثاني كان يستمر وسط الردوم والمنازل، وفي مكان الجناح الذي يواجه الآن «جسر الفنون» كانت حديقة، وبدلاً من الأعمدة تقوم حفر وجسر متحرك قتل فوقه فيما بعد فلورنسي هو المارشال دانكر[2]، وفي طرف تلك الحديقة كانت ترتفع أبراج قصر بوربون، مقر أمراء ذلك البيت حتى يوم خيانة قائد الجيش العام، وقد افتقر بوضع الحراسة على أملاكه التي أمر بها فرانسوا الأول حتى لايصدر حكماً بينه وبين أمه، وانتهت هذه القضية المشؤومة بالنسبة لفرنسة بمصادرة أملاك القائد العام. ذلك القصر ذو الاطلالة الجميلة على النهر، لم يهدّم إلا في عهد لويس الرابع

---

(١) - طبوغرافية الحيّ وجولة الملك من خروجه من اللوفر عبر شارع اوتريش حتى وصوله إلى بره - أوكلرك صحيحة وفق مخططات عن الأرشيف، لكن أقدمها وهو يعود إلى المهندس فونتين لم ينشر إلا في العام ١٨٥٣، وقد أضافه آ. موري إلى كتاب «وصف من اللوفر إلى التويلري للكونت كلاراك» وبالتالي لانعرف من أين استقى بلزاك الوصف الجغرافي في روايته الصادرة قبل هذا التاريخ. أما الوصف التاريخي فمستوحى من طبعة هذا الوصف - بدون مخطط. في العام ١٨٢٦ وكذلك من «أبحاث نقدية وتاريخية وطبوغرافية لجايو (١٧٧٢)

(٢) - المارشال دانكر: هو كونسنيو كونسيني وقد مارس مع زوجته ليونورا كاليغاي تأثيراً كبيراً على ماري دي مديسي، لكن لويس الثالث عشر أمر بإيقافه في العام ١٦١٧، ولما قاوم قتل.

عشر. كان شارع النعامة يبدأ من شارع سان أونوره، وينتهي بقصر بوربون على رصيف النهر، هذا الشارع المسمى شارع النعامة على بعض المخططات، وكذلك شارع أوستروك قد اختفى عن المخطط كشوارع كثيرة غيره، وقد شق شارع بولي[١] في موقع القصور التي كانت من جهة شارع سان أونوره. واختلف المؤلفون حول أصل هذا الاسم، وافترض بعضهم أنه وارد من اسم قصر «أوستريش» الذي كانت تسكنه فتاة من تلك العائلة تزوجت نبيلاً فرنسياً في القرن الرابع عشر، ورأى آخرون أن المداجن الملكية كانت في تلك الأيام في ذلك الموقع وأن سكان باريس هرعوا يوماً إلى هناك ليروا نعامة حيّة[٢]، أيا كان الأمر، فإن هذا الشارع المتعرّج كان متميزاً بقصور بعض أمراء العائلة الملكية الذين يسكنون حول اللوفر بعد أن هجرت العائلة المالكة ربض سان أنطوان حيث كان مقرّها قرب الباستيل خلال قرنين، لتأتي وتستقر في اللوفر، وهكذا سكن كثير من كبار النبلاء في جواره. والحال أن لقصر بوربون نظيراً من جهة شارع سان أونوره هو قصر آلنسون القديم، هذا القصر للكونتات الذين يحملون هذا الاسم، كان مشمولاً دائماً بإقطاعة غير البكر من أبناء الملك، وكان يعود آنذاك للابن الرابع لهنري الثاني الذي اتخذ فيما بعد لقب دوق آنجو ومات في عهد هنري الثالث، الذي سبب لأخيه كثيراً من الإرباك، وقد عادت الإقطاعة عند ذاك إلى التاج ومعها القصر القديم الذي هُدم، في ذلك الزمن كان قصر أمير يشمل مجموعة كبيرة من الأبنية، ولأخذ فكرة يكفي أن تُلاحظ حالياً، في باريس الحديثة، المساحة التي يشغلها قصر سوبيز في الماريّه. فالقصر يشمل المنشآت التي تتطلبها هذه المقامات الكبيرة التي يمكن أن تبدو شبه مشكوك فيها لدى كثير من الأشخاص الذين يرون الحالة المتواضعة لأمير حالياً، فهو يضم الإسطبلات الواسعة، وسكن الأطباء، وقيمّي المكتبات، والمستشارين، والإكليروس، وأمناء الخزانة، والضباط، والتابعين، والخدم الأجراء والخدم العاملين في بيت الأمير، نحو شارع سان أونوره كان يقوم بيت جميل صغير بنته في حديقة القصر في العام ١٥٢٠ دوقة آلنسون

---

(١) - الشارعان موجودان على مخطط فونتين المنشور في العام ١٨٥٣.

(٢) - النعامة AUTRUCHE لكن يبدو أن التسميتين بعيدتان عن الواقع عدا عن أن المداجن الملكية كانت في لوفر شارل الخامس. من جهة شارع بوفية.

الشهيرة[1]، وأحاطت به بعد ذلك بيوت خاصة بناها التجار، وقد أسكن الملك فيه ماري توشه، وبالرغم من أن دوق آلنسون كان يتآمر ضد أخيه، فإنه لم يكن قادراً على معاكسته حول هذا الأمر.

في ذلك الزمن لم يكن شارع سان أونوره يتيح فرصة للصوص إلا اعتباراً من حاجز السرجان، وبنزول الملك عبره نحو قصر خليلته، كان يصعب عليه ألا يتوقف بحثاً عن صدفة مرتجلة، كمحاولة سلب بورجوازي متأخر بالقوة، أو عراك مع عَسَس، فكان الملك يرفع عينيه نحو مختلف الطوابق، وينظر في الأماكن المضاءة، ليرى مايحدث فيها أو ليستمع إلى الأحاديث الدائرة، لكنه وجد مدينته في حالة من الهدوء المؤسف. وفجأة عند وصوله إلى بيت عطار شهير يسمّى رينه، وهو من مجهزي القصر، بدا على الملك الإحساس بإحدى هذه الإيحاءات المفاجئة التي تثيرها ملاحظات سابقة، عندما رأى نوراً قوياً يسطع من النافذة الأخيرة من السقف.

كان الاشتباه عنيفاً بأن هذا العطار «يشفي» الأنسباء الأثرياء عندما يتمارضون وقد عزا إليه البلاط ابتكار إكسير المواريث الشهير، وأتهم بأنه سمّم جان دالبر والدة هنري الرابع، التي دفنت دون أن يُفتح رأسها «رغم الأمر الصريح من شارل التاسع» وفقاً لما ذكره أحد المعاصرين[2]، ومنذ شهرين والملك يفتش عن حيلة لكشف أسرار مخبر رينه الذي يتردّد عليه كوسم روجيري، وكان الملك يريد، إن وجد مايشتبه به، التحقيق بنفسه في الموضوع دون أي وسيط من الشرطة، أو من القضاء ممن يمكن أن تؤثر عليهم والدته بالرهبة أو بالرشوة.

من المؤكد خلال القرن السادس عشر، والسنوات التي سبقته والتي تلته، أن التسميم وصل إلى درجة من الاتقان لم تعرفها الكيمياء الحديثة وسجلها التاريخ، وكانت إيطالية، مهد العلوم الحديثة في ذلك العصر، سيّدة تلك الأسرار، التي ضاع

---

(١) - هي مرغريت دي ڤالوا، أخت فرنسوا الأول وتسمت باسم دوقة آلنسون في العام ١٥٢٠، باسم زوجها الدوق آلنسون المتوفي في العام ١٥٢٥.

(٢) - هذا المعاصر هو دور دو راديه، وقد ذكر ذلك في «طرف الملكات».

أكثرها، ومبتكرتها، ومن هنا جاءت تلك السمعة التي راجت عن الإيطاليين خلال القرنين الماضيين، وقد غالى الروائيون فيها حتى حشروا الإيطاليين في كل مكيدة، فجعلوا لهم أدوار القتلة والمسممين[1] وإذا كانت إيطالية مصدر السموم النافذة التي تحدث عنها بعض المؤرخين فينبغي الاعتراف فقط بتفوقها في علوم السموم، كما في جميع المعارف الانسانية، وفي الفنون، حيث سبقت أوروبة. لكن جرائم العصر ليست جرائمها فقد خدمت أهواء العصر، كما بنت تلك الأوابد الرآئعة، وقادت الجيوش، وزخرفت الصور الجدارية الجميلة. وترنمت بالأغاني العاطفية، وعشقت الملكات، واستهوت الملوك، وهيأت الاحتفالات والباليهات، ووجّهت السياسة.

وصلت فلورنسة بفن التسميم الرهيب إلى درجة عالية من الاتقان، حتى أن سيدة تقاسمت ثمرة دراق مع دوق مستخدمة موس من ذهب، في أحد وجهي نصلها السم الناقع الذي دسته في نصف درَّاقة جليسها بينما أكلت بتمام العافية النصف الآخر. كما يمكن لزوج قفازات معطر أن يسرّب عبر المسام مرضاً قاتلاً، وقد يوضع السم في طاقة ورد طبيعي يكفي شمها لمرة واحدة أن يذيق الموت، ويقال إن دون جوان دوتريش قد سمّم في جزمة[2].

كان الملك شارل التاسع على حق، إذا في فضوله، فما من أحد إلا ويتصور مدى الشكوك القاتمة التي تخالجه وتدفعه بلهفة إلى مفاجأة رينه في مخبره.

سهلت نافورة المياه القديمة الواقعة في زاوية شارع لابرسك (الشجرة الجافة)، والتي أعيد بناؤها بعد ذلك[3]، للعصبة النبيلة التسهيلات الضرورية للوصول إلى ذروة قرميد المنزل المجاور لمنزل رينه، الذي تظاهر الملك برغبته في زيارته، وراح الملك يتبعه صحبه ينتقل من سطح إلى سطح محدثاً الرعب لبعض البورجوازيين

---

(١) - هذا مافعله بلزاك أيضاً في قصة «وريثة بيراغ» عندما اعتبر المسمم مركيزاً مزعوماً وصانع «عطار إيطالي».

(٢) - دون جوان دوتريش (١٥٤٥ - ١٥٧٨) ابن سفاح لشارل كنت، قاد القوى البحرية الاسبانية ضد الأتراك، وغدا حاكماً لهولندة، مات في الثالثة والثلاثين من العمر بحمى غير معروفة واشتبه أن أخاه غير الشقيق الملك فيليب الثاني الذي غار من انتصاراته قد سعى إلى تسميمه، ويقول برانتوم «قيل إنه مات من طاعون نقلته إليه المركيزة داقره التي كان مغرماً بها لكن الأرجح أنه مات مسموماً بجزمة معطرة.

(٣) - هذه النافورة تعود إلى أيام فرنسوا الأول، وأعيد بناؤها، كما كانت موجودة في العام ١٧٧٥.

المستيقظين على حركة هؤلاء اللصوص المزيفين الذين ينادونهم بأسماء ساخرة، أو يستمعون إلى مجادلاتهم أو يتجسسون على متع حياتهم العائلية، أو يقومون ببعض تحطيمات عندما رأى الايطاليان تاڤان والملك يقفزان على سطوح المنزل المجاور لمنزل رينه، جلس المارشال دي ريتز مدعياً التعب، وبقي أخوه إلى جانبه، وقال الملك في نفسه وهو يرى جاسوسيه بعيدين عنه «هذا أفضل»، وسخر تاڤان من الفلورنسيين اللذين بقيا وحدهما وسط الصمت العميق، في مكان ليس فوقهما إلا السماء، وليس من يسمعها إلا الهررة[1]، كما أن الإيطاليين استغلا الظرف ليتبادلا الأفكار التي لا يمكنهما التعبير عنها في أي مكان آخر من العالم، والتي أوحت لهما بها أحداث السهرة:

قال قيم الثياب الملكية للمارشال: «ياألبير، إن الملك سينتصر على الملكة الأم، وسيكون حظنا سيئاً باستمرار ولائنا لكاترين، فإذا انتقلنا إلى مناصرة الملك في الفترة التي يبحث فيها عن أعوان له ضد أمه، ورجال مهرة لخدمته، فإننا لن نطرد كما الوحوش الضارية إن نفيت الملكة، أو سجنت أو قُتلت.

أجاب المارشال برزانة: «بأفكار كهذه لن تذهب بعيداً ياشارل، وستتبع ملكك إلى قبره[2]، إذ أن عمره لن يطول، فقد هدمه الإفراط، وقد توقع كوسم روجيري موته العام القادم.

أجاب شارل دي غوندي: «غالباً ماقتل الخنزير المحتضر الصياد، وهذه المؤامرة التي يتورّط فيها لامول وكوكوناس مع دوق آلنسون وملك نافار وأمير كونده، أكبر من فائدتها، فملك نافار الذي تأمل الملكة أن تفاجئه بالجرم المشهود يحترس منها، ولا يتدخل أبداً، إنَّه يريد أن يستغل المؤامرة دون أن يتعرض لأخطارها، وهاهم الجميع الآن يفكرون بوضع التاج على رأس دوق آلنسون الذي تبنى الكالفنية.

- أيها الشره!، ألا ترى أن هذه المؤامرة تتيح لملكتنا أن تكتشف مايمكن أن

---

(١) - في هذا ارتداد إلى الوراء واستعادة للصورة التي بدأت بها هذه القصة.

(٢) - توفي شارل دي غوندي بعد شهر من وفاة الملك في ١٥ حزيران ١٥٧٤.

يفعله الهوغنوت مع دوق آلنسون، ومايريد الملك أن يفعله مع الهوغنوت؟ ذلك أنه يفاوضهم، لكن من أجل إركاب الملك على حصان من خشب، فإن كاترين ستفضح له هذه المؤامرة التي ستحيّد مشاريعه.

قال شارل دي غوندي: آه! إنها استفادت من نصائحنا، لقد غَدَت أكثر قوة منا، وهذا شيء جيّد.

- إنه أمر جيد بالنسبة لدوق آنجو الذي يفضل أن يكون ملكاً على فرنسة من أن يملك على بولونية، وسأشرح له كل ذلك.

- ستسافر ياألبير؟

- غداً ألست مكلفاً بمرافقة ملك بولونية؟ وسألتحق به في البندقية حيث كلف نبلاؤه بتسليته.

- آه إنك مثال الحذر.

- أيها البهيم، أقسم لك أن ليس هناك أي خطر من بقائنا في البلاط، وإلا لما كنت سافرت، ولبقيت إلى جانب سيدتنا الطيبة.

- قال القيم: طيّبة! إنها امرأة تترك أدواتها بمجرد أن تشعر بثقلها!...

- أيها الجبان! تريد أن تكون جندياً. وتخشى الموت؟ لكل مهنة واجباتها، وعلينا واجب للحصول على الثروة، بتعلقنا بالملوك، مصدر كل قدرة زمنية، وهم يحمون، ويرفعون، ويغنون بيوتنا، فينبغي إذاً أن نخلص لهم الحب الذي يلهب السماء في قلب الشهيد، وأن نضحي من أجل قضيتهم، وإذا ضحوا بنا من أجل عرشهم، فيمكننا أن نهلك، لأننا نموت من أجل أنفسنا بقدر مانموت من أجلهم، لأن بيوتنا تبقى ولن تهلك، مفهوم.

- أنت على حق ياألبير، فقد أعطيت دوقية ريتز القديمة[1].

- أجاب الدوق دي ريتز: اسمع، إن الملكة تأمل الكثير من مهارة روجيري لتسوي أمورها مع ولدها، وعندما لم يرد تافهنا الاستفادة من رينه، عرفت الماكرة

---

(١) - سبق أن ذكرنا أنه لم يمنح هذه الدوقية إلا في العام ١٥٨١، وبعد أن تزوج في ١٥٦٥ البارونة دي ريتز.

اتجاه شبهات ولدها، ولكن من يعلم ماذا يخبىء الملك في كيسه؟ ربما يتردد فقط في المعاملة التي سيخص أمه بها، إنه يكرها، أتعي ذلك؟ لقد قال شيئاً من هذا القبيل المتعلق بأهدافه للملكة الشابة التي تحدثت بذلك للسيدة دي فيسك، وهذه نقلته حرفياً للملكة الأم، وهكذا راح الملك يتكتم على زوجته.

قال شارل دي غوندي: لقد آن الأوان.

سأل المارشال: من أجل ماذا؟

اجاب قيم الثياب الملكية: «من أجل إشغال الملك» وبدا بتصريحه يود ألا يظهر أقل بعد نظر بعد أن بدا أقل حماساً لكاترين.

قال المارشال لأخيه بلهجة ملؤها الرزانة: شارل، لقد شققت لك طريقاً ناجحاً، لكن إذا أردت أنت أيضاً أن تصبح دوقاً، فكن مثلي، النفس المتفانية لمعلمتنا، فستبقى ملكة إذ أنها الأكثر قوة هنا، فالسيدة دي سوف دائماً معها، والدوق والنسون، وملك ناڤار هما دائماً مع السيدة دي سوف، وكاترين ممسكة بزمامهم، وكما الأمر في عهد هذا الملك، كذلك سيكون في عهد هنري الثالث، إذ أن الله يريد ألا يكون هذا عاقاً.

- لماذا.

- لأن أمه فعلت الكثير من أجله.

- هتف القيم: إيه! إنني أسمع ضجة في شارع سان أونوره، وقد أغلق باب رينه، ألا تميز خطوات عدة رجال؟ إن الروجيريين قد أوقفا.

- آه! يالشيطان! هذا هو الحذر. إن الملك لم يتبع هواه المتهور المعتاد. لكن أين سيسجنهما؟ هيا لنرى ماذا يحدث.

وصل الأخوان إلى زاوية شارع النعامة في اللحظة التي كان الملك يدخل فيها إلى منزل خليلته، وعلى ضوء المشاعل التي يحملها البواب تمكنا من ملاحظة تاڤان والروجيريين. هتف القيم وهو يجري وراء رفيق الملك العائد باتجاه اللوڤر: إيه! تاڤان، ماذا جرى لكم؟

قال تاڤان بلهجة بين الجد والهزل: «لقد فاجأنا مجمَّع المشعوذين السحرة في

صميم انعقاده، فأوقفنا اثنين من أصدقائكما ليشرحا للنبلاء الفرنسيين بأية وسيلة توصلتما لوضع اليد على منصبين كبيرين في البلاط وأنتما لستما من البلاد».

قال القيم وقد أقلقه قليلاً جفاء تاڤان: «والملك؟».

- إنه باق لدى خليلته.

أجاب المارشال دي ريتز: «لقد وصلنا بإخلاصنا المطلق لأسيادنا، وهي وسيلة جميلة ونبيلة اتبعتها أنت أيضاً ياعزيزي الدوق.

سار رجال البلاط الثلاثة بصمت. وفي اللحظة التي افترقوا فيها ليلتحق كل منهم بأتباعه الذين سيرافقوه إلى قصره، كان هناك رجلان ينسلان بخفة على محاذاة أسوار شارع النعامة وهما الملك والكونت دي سولرن اللذان وصلا بسرعة إلى ضفة السين حيث كان هناك زورق ومجذفون من أتباع النبيل الألماني ينتظرونهما، وبعد لحظات وصل الجميع إلى الضفة المقابلة.

هتف الملك: إن والدتي مستيقظة، وسترانا، لقد اخترنا مكاناً سيئاً لموعدنا!

أجاب سولرن: ستظن أنها مبارزة ما، وكيف ستعرف من نحن على هذه المسافة؟

هتف شارل التاسع: إيه! وما همّني إن رأتني بعد أن بتّ مصمماً الآن!

قفز الملك وتابعه الأمين بسرعة إلى الضفة ومشياً بسرعة باتجاه پره أوكليرك وعند وصولهما صادف الكونت سولرن وكان يتقدم الملك، حارساً تبادل معه بضع كلمات انسحب على أثرها نحو جماعته، وظهر عند ذلك رجلان يبدو من مظاهر الاحترام التي أبداها حارسهما أنهما من الأمراء، وتقدما من وراء سياج الحقل السيء حيث كانا يختبئان إلى أن وصلا أمام الملك، فأحنيا ركبتيهما، لكن الملك أنهضهما بسرعة قائلاً «لا حاجة لهذه المراسم، فنحن كلنا هنا من النبلاء؟».

انضم إلى النبلاء الثلاثة عجوز مهيب[1] المنظر، كان يمكن أن يشتبه بأنه

---

(١) - من بين محاوري الملك يبقى العجوز غامضاً أما الأميران فهما بالتأكيد هنري دي بوربون وهنري دي كونده، فهنري دي بوربون وحده وهو ملك ناڤار يستطيع أن ينادي الملك: «ياأخي لأنه زوج أخته مرغريت، وأمير كونده هو الذي نصح بإلقاء الملكة الأم في النهر، كما أكدت هي بالذات، وهما رئيسا هذا الحزب الجديد المعارض في ذات الوقت لآل غيز ولكاترين دي مديسي وهذه المقابلة محتملة الوقوع تاريخياً في ظرف يقول فيه المؤرخ مزراي «أن الملك شارل التاسع أراد أن يحكم مملكته في سلام كبير.

لوسبيتال رئيس القضاء لو لم يكن قد توفي العام الفائت، وأسرع الأربعة إلى مكان يتداولون فيه على نحو لايسمعهم فيه أتباعهم، وتبعهم سولرن على مسافة قريبة، حراسة للملك. فهذا التابع الأمين كان حريصاً على توخي حذر شديد، لايشاطره إياه شارل التاسع، الذي أضحت الحياة بالنسبة له عبئاً ثقيلاً، فكان الشاهد الوحيد من طرف الملك على هذا الاجتماع الذي ساده الحماس سريعاً.

قال أحد مخاطبي الملك: «ياصاحب الجلالة، إن قائد الجيش دي مونمو رونسي، أعز صديق للملك والذكم والمؤتمن على أسراره، ارتأى مع المارشال دي سان آندره أنه ينبغي وضع كاترين في كيس، ولو أن ذلك قد تم، لكان الآن كثير من الأشخاص الشجعان على قيد الحياة.

أجاب الملك: «حسبي ياسيدي مايعاني ضميري من أحكام إعدام».

قال الأصغر سناً بين الأشخاص الأربعة: ايه! الواقع ياصاحب الجلالة، أن الملكة كاترين تعرف كيف تتدبّر الأمر وتجد معاونين لها من قلب المنفى، أليس لدينا مايكفي من الجزع من آل غيز الذين شكلوا منذ تسع سنوات مخطط حلف كاثوليكي مخيف لم تطلع جلالتكم على سره وهو يهدد عرشكم؟ هذا الحلف هو ابتكار من اسبانية التي لم تتراجع عن مشروعها لغزو البيرينه. ياسيدي إن الكالفنية تنقذ فرنسة بوضعها حاجزاً معنوياً بينها وبين أمة تحلم بامبراطورية تسود العالم، والملكة الأم إذا وجدت نفسها مبعدة فستعتمد على اسبانية وعلى آل غيز.

قال الملك: أيها السادة، اعرفوا أنكم بمساعدتي على إقامة السلام دون احتراس، فإنني أتكفل بأن أوقف كل انسان في المملكة عند حده. أقسم برأس الله المليء برفات القديسين[١]، لقد آن للمملكة أن تنهض، ووالدتي على حق في هذا، وهو يتعلق بكم كما يتعلق بي، فأملاككم وحظواتكم مرتبطة بعرشنا، فإذا سمحتم بتقويض الدين، فالأيدي التي استخدمتموها من أجل ذلك ستتناولكم وتتناول العرش بالأذى[٢]. أنا لا أخشى أن أصارع الأفكار بأسلحة قد لاتنال منها أبداً. فلنر

---

(١) - نوع من القسم الحانق الأقرب إلى التجديف.

(٢) - هذه فرضية بلزاك حول التعارض الجذري بين الاصلاح الديني والملكية، لكن يبدو أن الملك يؤمن بأن البروتستنتيين رعايا يمكن أن يرتضوا بتعايش الكنيستين.

إن كانت البروتستنتية ستحرز تقدماً إن تركناها تتصرف حرة لذاتها، لكن لنر ماذا تهاجم هذه الروح الحزبية. إن الأميرال، الذي نسأل الله أن يتقبله بغفرانه لم يكن عدوا لي، وقد أقسم لي أن تبقى الثورة في حدود العالم الروحي وأن تترك للسلطة الزمنية ملكاً سيداً ورعايا مطيعين. أيها السادة، إن كانت الأمور ماتزال في مقدوركم، فكونوا القدوة، ساعدوا عاهلكم على أن يكبح المتمردين الذين يعكرون صفو الهدوء من الجانبين، إن الحرب تحرمنا جميعاً من مواردنا وتدمر المملكة، إنني تعب من هذه الحالة من الشقاق، وإذا لزم الأمر فسأضحي بأمي، وسأذهب إلى أبعد من ذلك، سأحتفظ إلى جانبي بعدد متساوٍ من البروتستنت والكاثوليك، وسأضع فوق رؤوسهم فأس لويس الحادي عشر لأجعلهم متساوين[١]، وإذا دسّ السادة آل غيز اتحاداً مقدساً لمهاجمة عرشنا، فإن الجلاد سيبدأ مهمته بهم. لقد فهمت معاناة شعبي، وأنا مستعد لأقلّم أظافر الكبار الذين يسيئون في مملكتي[٢]. لا تهمني المعتقدات كثيراً، وأنا أريد من الآن فصاعداً رعايا ملتزمين بالعمل وفق إرادتي لازدهار الدولة. أيها السادة، إنني أعطيكم عشرة أيام لتتفاوضوا مع أتباعكم، ولتكفوا عن تحزباتكم، ولتعودوا إليّ لأكون والداً لكم، وإذا رفضتم فسترون تغيرات جذرية، سأعتمد على صغار الناس الذين سيلبون ندائي وينقضون على النبلاء، وسأسير على نهج ملك عرف كيف يحلّ السلام في مملكته بإخضاع أناس تمردوا عليه وكانوا أكثر بأساً مما أنتم عليه، وإذا أعوزتني الجيوش الكاثوليكية، فإلى جانبي أخي ملك اسبانية أطلب منه العون لمساعدة العرش المهدّد. أخيراً إن أعوزني وزير لتنفيذ خططي فسيعيرني دوق آلب[٣].

---

(١) - اشتهر لويس الحادي عشر بفرض سلطته الملكية بالإرهاب، وعلى حساب النبلاء. وبلزاك يستشهد فيه دائماً.

(٢) - يتفق المؤرخون دي تو، ومزراي، وڤاريا على أن الملك شارل التاسع عزم في العام ١٥٧٣ على أن يكافح أطماع الكبار ويقف في وجه تنافساتهم ليعيد اللحمة والسلام إلى مملكته.

(٣) - دوق آلب: (١٥٠٨ - ١٥٨٢) جنرال اسباني لدى شارل كنت ثم لدى فيليب الثاني، حكم الفلاندر ثم أخضع البرتغال الثائرة. اشتهر بحزمه.

قال له أحد مفاوضيه : في هذه الحالة، ياسيدي، سنلجأ إلى الألمان لمواجهة اسبانييكم.

أجاب شارل التاسع ببرود : ياابن العم، إن زوجتي تسمىّ اليزابيت دوتريش، فطلبكم المساعدة سيخيب من هذه الناحية، لكن ثق بي فلنكافح وحدنا دون أن نستدعي الأجنبي، إنكم في صراع مع كراهية أمي، وأنتم مهتمون بمساعدتي في الصراع الذي سيقوم بيني وبينها. حسَن، اسمعوا جيّداً، والتفت إلى من إجابه بجرأة. إنني أجدك جديراً بالتقدير بحيث اقدم لك منصب قائد الجيش العام ولن تخوننا كما فعل الآخر[1].

شدّ الأمير الذي خاطبه شارل التاسع بيده على يد الملك وهو يقول «لك قسمي ياأخي لنسيان كثير من الأخطاء السابقة، لكن ياسيدي، لايمكن للرأس أن يسير دون أن يتبعه الذيل، وذيلنا صعب القياد، فاعطنا أكثر من عشرة أيام، يلزمنا شهر على الأقل لنقنع أتباعنا، وما أن يمرّ الشهر حتى نكون السادة».

قال الملك : فليكن، لكم الشهر، ومفاوضي الوحيد هو ڤيلروا، فلا تثقوا بأحد غيره مهما قيل لكم قال النبلاء الثلاثة : «شهر واحد، هذه المدة تكفينا».

قال الملك : أيها السادة، إننا خمسة، خمسة أشخاص بقلب واحد، فإن حدثت خيانة فسوف نعرف من هو المسؤول.

ترك المفاوضون الثلاثة الملك شارل التاسع مظهرين مزيد الاحترام وهم يقبلون يده، وعندما عبر الملك نهر السين مجدّدا، كانت ساعة اللوفر تشير إلى الرابعة صباحاً، والملكة كاترين ماتزال مستيقظة.

قال الملك للكونت دي سولرن : «ماتزال والدتي ساهرة».

قال الألماني : إن لديها أيضاً كور حدادتها.

رد الملك بمرارة : عزيزي الكونت، كيف يبدو لك ملك مضطر للتآمر؟

- أرى ياصاحب الجلالة، أنك إن سمحت لي بإلقاء هذه المرأة في الماء، كما اقترح هذا الأمير الشاب فإن فرنسة ستنعم بالهدوء.

---

(١) - هذا الردّ موجه إلى هنري دي بوربون، الذي قورن، كما تمّ الأمر مع أبيه (في رواية الشهيد الكالفني السابقة) مع نسيبه قائد الجيش دي بوربون الذي خان فرنسوا الأول في العام ١٥٢٣.

قال الملك: قتل والدة، بعد سان بارتلمي[1]، ياكونت؟ كلا، كلا! ما أن تسقط والدتي حتى يبتعد عنها الجميع، ولن تجد خادماً، ولانصيراً.

قال الكونت: حَسَن ياسيدي، مُرني فأذهب للتوّ لإيقافها وإبعادها إلى خارج المملكة، فغداً قد تحوّل لك أفكارك.

قال الملك: حسن، تعال إلى كور حدادتي، فهناك لن يسمعنا أحد، كما أنني لا أريد أن تشتبه أمي بالقبض على الروجيريين، وإن لاحظت أنني هنا فلن تشتبه بأمر وسنتخذ الإجراءات الضرورية لإيقافها.

عندما دخل الملك يتبعه الكونت دي سولرن إلى القاعة المنخفضة التي يقوم فيها محترف الحدادة، أشار الملك إلى الكور وإلى أدواته باسماً وقال: لا أعتقد أن يصادف المرء بين ملوك فرنسة، ملكاً ثانياً ستروق له هذه الحرفة، لكن عندما سأغدو ملكاً حقاً، فلن أُحدّد سيوفاً بل سأجعلها تعود كلّها إلى أغمادها.

قال الكونت دي سولرن: متاعب لعبة الراحية، وعملكم في هذا المحترف، والصيد. - واسمح لي بالقول - وشؤون الغرام، كلها عربات يقدمها الشيطان للذهاب سريعاً إلى سان دنيس[2].

قال الملك بلهجة شاكية: سولرن، لو تعلم النار التي تتأجج في قلبي وفي جسدي! وما من شيء يخمدها. هل أنت واثق من الرجال الذين يحرسون الروجيريين.

- كثقتي بنفسي.

---

(١) - سان بارتلمي: المذبحة التي قتل فيها أكثر من ٣٠٠٠ بروتستنتي، أبرزهم الأميرال كوليني، وقد تمت في ٢٣ آب ١٥٧٢ وأحداث الرواية الحالية تبدأ في تشرين أول ١٥٧٣ أي بعد ١٤ شهراً من المذبحة.

(٢) - نُسب مرض شارل التاسع وموته إلى إفراطه في الملذات وفي الأعمال وذكر مزراي: «لم يكن الملك يعطي لنفسه ساعة من الراحة، ولم يكن له من التسليات إلا الأشياء القاسية والمجهدة: فهو إما في مطاردة الوعول، أو في تطريق الحديد، إلى أن تكل ذراعيه، أو في ملعب الراحية إلى أن يتصبب عرقاً. (تاريخ فرنسة) كما ذكر برانتوم هذين البيتين من الشعر كشاهدة على قبر:

الاستغراق في حب ديان وستييره أيضاً

كلتاهما قادتاني إلى هذا القبر ها هنا

وسان دنيس: هي الكنيسة التي كان يقبر فيها ملوك فرنسة.

- حسن، خلال هذا النهار، سأتخذ قراري، فكر بوسائل الإعدام، سأبلغك أوامري النهائية في الخامسة مساءً لدى السيدة دي بلفيل[1].

مع مصارعة أوائل ومضات الفجر مع وهج المحترف، سمع الملك، الذي تركه الكونت دي سولرن وحيداً مع كوره، الباب ينفتح، ورأى أمه ترتسم مع ضوء الشفق كشبح، ورغم عصبيته وسرعة تأثره، ورغم ما في ظهورها في هذا الوقت من مسحة قاتمة وغرابة لم يبد عليه الاهتمام.

قالت له: «سيدي، إنك تقتل نفسك. . .

أجاب مع ابتسامة مرّة: «إنني أتمّم كشف الطالع، ولكن ألست بدورك ياسيدتي مبكرة بقدر تبكيري؟

- سهر كل منا باسيدي إنما لمآرب مختلفة، وبينما كنت تتشاور مع ألدّ أعدائك، خفية داخل الحقول مختبئاً عن وجه أمك[2] بعد أن تظاهرت مع تاڤان والأخوان غوندي بأنكم تتجولون في المدينة، كنت أنا أقرأ ما وردني من تقارير سرية سريعة تحوي براهين على مؤامرة رهيبة يشارك فيها أخوك دوق النسون، وصهرك ملك ناڤار، وأمير كونده، ونصف نبلاء المملكة، وليس الهدف إلا اغتصاب تاجك بعد النيل من شخصك، فهؤلاء السادة يحركون خمسين ألف رجل من خيرة المقاتلين.

قال الملك بهيئة غير المصدّق: آه!

تابعت الملكة: إن أخاك ينحاز إلى الهوغنوت

هتف شارل وهو يهزُّ قضيب الحديد الذي كان يحمله في يده: «أخي مع الهوغنوت؟»

- نعم إن دوق آلنسون معهم قلباً، وسيكون معهم عملاً، وأختك ملكة ناڤار

---

(١) - السيدة دي بلفيل: هي ماري توشيه (١٥٤٩ - ١٦٣٨) خليلة الملك. والاسم وارد من اقطاعة وقصر منحتهما لها الملكة كاترين.

(٢) - عشية سان بارتلمي كان لكاترين الموقف ذاته، بالعبارة ذاتها وفقاً لما ورد في مذكرات تاڤان فقد قالت تخاطب شارل التاسع: «إنك تختبيء من أمك لتستشير أعدائك وقد كان لذلك التأثير نفسه «في إثارة وإدهاش وإرعاب الملك ليس من الهوغنوت بقدر ما هو من أمه».

ليس لها إلا بقية مودّة لك. فهي خالصة الودّ للسيد دوق آلنسون، وتحب بوسي، كما تحب أيضاً هذا الصغير لامول.

قال الملك: أي قلب!

قالت الملكة متابعة حديثها: ليغدو هذا الصغير لامول كبيراً، لم يجد أفضل من أن يعطي لفرنسة ملكاً على شاكلته ويقال إنه قد وعد بأن يغدو قائداً عاماً للجيش.

هتف الملك: يالمارغو اللعينة! هذا ماجلَبه علينا زواجها من هرطوقي... !

- هذا لاشيء، إنما هو تقريبك لرئيس الفرع الثاني من السلالة الملكية إلى العرش رغم معارضتي، سينتج عنه تذابحكم. إن ال بوربون هم أعداء آل ڤالوا، اعرف ذلك جيداً ياسيدي. إن كل فرع ثانٍ يجب أن يبقى في عزلة فقيرة لأنه يولد متآمراً، ومن الحماقة أن يُعطى سلاحاً عندما لايكون له، أو أن يترك بين يديه، عندما يحصل عليه، يجب أن يبقى كل ابن عاجزاً عن الضرر، هذا هو قانون العروش، وهكذا يفعل سلاطين آسية. إن البراهين هناك في الأعلى، في مكتبي، حيث رجوتك أن تتبعني عندما فارقتك البارحة مساءً، لكن كانت لك أهداف، خلال شهر إذا لم نتخذ الترتيبات المناسبة فسيكون مصيرك كمصير شارل البسيط[1].

هتف شارل التاسع وقد أذهله توافق التاريخ مع ماطلبه الأمراء من المهلة ذلك المساء، وخطرت في ذهنه عبارة «خلال شهر سنكون السادة». فالتفت إلى أمه وسألها بصوت عال: «هل لديك براهين ياسيدتي؟».

- إنها لاتدحض، ياسيدي، فهي آتية من ابنتي مرغريت[2]، وقد أرعبتها بالذات احتمالات مثل هذه التركيبة، ورغم إيثارها لأخيك دوق آلنسون، فإنها آثرت هذه المرّة عرش ال ڤالوا على أي شيء آخر، لكنها طلبت ثمناً لبوحها بهذا السرّ ألا

(١) - هو شارل الثالث الملقب «بالبسيط» خلع عن عرشه من قبل إقطاعييه وسجن في بيرونا حيث توفي بعد سبع سنوات في العام ٩٢٩.

(٢) - الحدث غير واقعي في تشرين أول ١٥٧٣ إذ أن المؤامرة التي شارك بها لامول وكوكوناس كانت في نيسان ١٥٧٤ ولم يكن لمرغريت دي ڤالوا دور في كشفها لكن في كانون أول ١٥٧٣، دفع توسطها لدى أمها أخاها دوق آلنسون إلى التخلي عن مشروعه الأول وهو الذهاب مع ملك نافار إلى سيدان للقيام بفتنة.

يُؤذي لامول لكن هذا الفظّ نذل خطير يجب التخلص منه، كما يجب التخلص من الكونت دي كوكوناس تابع أخيك الدوق آلنسون، أما أمير كونده هذا الفتى الذي يوافق على كل شيء شريطة أن يُلقى بي في الماء. فلا أعلم إن كانت هذه هي هدية العرس التي يقدمها لي بمناسبة زواجه بهذه المرأة الفاتنة[١]. إن هذا خطير ياسيدي، تتحدّث عن التنبؤات وكشف الطالع!... أعرف واحدة تعطي تاج آل ڤالوا لآل بوربون، وإذا لم نحترس فستتحقق، لاتحقد على أختك، فإنها تصرّفت جيداً الآن. توقفت برهة ثم استأنفت كلامها قائلة وهي تعطي للهجتها تعبير الحنان: «يابنيَّ، كثير من الأشرار التابعين للسيدين دي غيز يريدون بذر الشقاق بينك وبيني، بالرغم من أننا الوحيدان في هذه المملكة اللذان تضمهما مصالح واحدة: فكر في ذلك، إنك تلوم نفسك على سان بارتلمي، أنا أعرف ذلك، وأنت تأخذ علي إنني أقنعتك بها إن الكاثوليكية ياسيدي يجب أن تكون الرابطة بين اسبانية وفرنسة وإيطالية، ثلاثة بلدان إن اتبعت مخططاً معداً بمهارة وسرية تستطيع مع الزمن أن توحد في ظلّ آل ڤالوا، فلا تبعد هذا الحظ بإفلات الحبل الذي يضمّ هذه الممالك الثلاث في حلقة إيمان واحد. لماذا لاينفذ آل ڤالوا وآل مديسي لمجدها خطة شارل كنت التي كان ينقصها الرأس المدبر؟ فلنبعد إلى العالم الجديد أبناء سلالة جان لافول[٢] حيث يتورطون، فآل مديسي وهم سادة فلورنسة وروما يخضعون إيطالية لك، ويؤمنون لك جميع المزايا بمعاهدة تجارة وتحالف يعترفون فيها بإقطاعييك في بيمونت، ميلاني، ونابولي حيث لك حقوق. تلك هي ياسيدي أسباب الحرب التي نشنها حتى الموت على الهوغنوت، لماذا تضطرنا إلى أن نكرّر هذه الأشياء؟ لقد انخدع شارلمان بالتوجه نحو الشمال. نعم إن فرنسة جسم قلبه في خليج ليون وذراعاه اسبانية وإيطالية، وبذلك تسيطر على المتوسط وهو بمثابة سلّة تتجمع فيها ثروات الشرق ويستغلها الآن أسياد البندقية في غفلة من فيليب الثاني. وإذا كانت صداقة آل مديسي وحقوقك

---

(١) ماري دي كليف: كانت وهي في السادسة عشرة أجمل فاتنات البلاط الملكي وكان يرجى من تزويج أميره كونده الشاب بها إعادته إلى أحضان الكاثولكية.

(٢) - جان لافول (١٤٧٩ - ١٥٥٥) ملكة كاستي، ووالدة شارل كنت.

تمكنك من أن تؤمّل بايطالية، فإن القوة، أو المصاهرات، أو ربّما الإرث ستعطيك اسبانية[1]، وحول هذه النقطة احذر أطماع بيت النمسة الذين باعهم الغُلف[2] ايطالية، وهم يحلمون أيضاً باسبانية. وبالرغم من أن زوجتك من هذا البيت، فاعمل على الحطّ من النمسة. عانق هذه المملكة بشدة لتتمكن من خنقها، فهناك أعداء مملكتك، إذ أن المساعدات ترد إلى البروتستنت من هناك. لا تستمع إلى الأشخاص الذين يجدون الربح في خلافنا، والذين يقلقونك بإيهامك أنني عدوتك البيتية. هل منعتك من إنجاب ورثاء؟ لماذا أنجبت لك خليلتك ابناً بينما ولدت الملكة ابنة؟ لماذا لايكون لك الآن ثلاثة ورثاء يفقدون مثل هذه التمردات كل أمل؟ هل عليّ أنا، ياسيدي، أن أجيب على هذه الأسئلة؟ لو أن لك ابناً، هل كان السيد آلنسون يتآمر؟

ركزت كاترين، بانتهاء كلامها، على شارل التاسع نظرة طير جارح على طريدته. كانت ابنة آل مديسي تشع فتنة، وعواطفها الحقيقية تبرق على وجهها كما تبرق نظرة المقامر وقد أخذ بألف مطمح على المائدة الخضراء، ولم ير شارل التاسع فيها آنذاك أم رجل واحد. وإنما كما قيل عنها أم الجيوش والامبراطوريات، وقد نشرت كاترين جناحي عبقريتها، وحلّقت بجرأة في أجواء السياسة العليا لآل مديسي وآل ڤالوا، وهي ترسم الخطط العملاقة التي ارتعب منها سابقاً هنري الثاني، والتي انتقلت بعبقرية آل مديسي آلى ريشليو فبقيت مسجلة في ديوان ال بوربون. لكن شارل التاسع وقد رأى أمه تلجأ إلى كلّ هذه الاحتياطات، فكر في نفسه بضرورتها، وتساءل لأي هدف تتخذها، وأغضى ببصره وتردّد: فريبته لايمكن أن تزيلها الكلمات. ودهشت كاترين لعمق الشكوك التي تخالج قلب ولدها.

قالت: وبعد ياسيدي، ألا يمكنك إذاً أن تفهمني مطلقاً؟ ماذا نكون أنا وأنت أمام خلود التيجان الملكية؟ هل تفترض أن لدي مآرب أخرى غير تلك التي تحركنا ونحن في المستوى الذي يجب أن نسيطر فيها على الأمبراطوريات.

---

(١) - المشروع الذي ينسبه الروائي هنا للملكة الأم للبرهان على عبقريتها السياسية هو محض خيال لكنه يتوافق مع بعض وجهات نظره في مملكة سردينية وكورسيكا، والبرتغال أيضا.

(٢) - الغُلف والجيبلن: حزبان كانا يتنازعان ايطالية بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر، وكان الغُلف يدعمون الباباوات والجيبلن يدعمون الأباطرة الجرمانيين.

- سيدتي، سأتبعك إلى مكتبك، ينبغي التصرّف. . .

هتفت كاترين: التصرف! فلنتركهم يتحركون ولنأخذهم بالجرم المشهود، والعدالة ستنجيك منهم. استحلفك بالله ياسيدي، أن تظهر لهم البشاشة.

وانسحبت الملكة، وبقي الملك وحيداً، إذ أنه وقع فريسة إرهاق عميق.

هتف في نفسه: «في أية جهة تقع المكيدة؟ أهي التي تخدعني أم هم؟ أية سياسة هي الأفضل؟ يا ألهي، أظهر لي الصالح الحقيقي». وغلبته الدموع، فضرب بمطرقة على سندانه ضربة فيها من القوة ماجعل عقود اللوقر تهتز وقال: «الحياة تثقل عليّ، وأنا أفضل الموت، طبيعياً كان أم مدبراً، على هذه الصراعات المتناقضة.

قال وهو يندفع خارجاً وينظر إلى السماء: «يالهي، من أجل دينك المقدّس الذي أدافع عنه أعطني جلاء نظرتك لأنفذ إلى قلب أمي وأنا استجوب الروجيريين[1].

كان المنزل الصغير الذي تسكن فيه السيدة دي بلفيل، حيث أودع شارل التاسع أسيريه هو ماقبل الأخير في شارع النعامة، من جهة شارع سان أونوره، وكان باب هذا الشارع الذي تلتصق به مقصورتان من آجر يبدو بسيطاً جداً، في زمن كانت الأبواب فيه مع ملاحقها تعدُّ بشكل غريب. فهو يتألف من بارزتين عموديتين من حجر منحوت بشكل وجيهات ألماسة، ويمثل العقد امرأة مضطجعة وهي تمسك قرن خصب، والباب المزين بزخرفات حديديّة هائلة، كان فيه على مستوى النظر كوّة لتفحص الأشخاص الذين يريدون الدخول، في كل مقصورة كان يسكن بواب، ومتعة شارل التاسع المفرطة في نزوتيها تتطلب بواباً، ليلاً نهاراً.

كان للمنزل فناء صغير مبلط على الطريقة الفينسية[2] في ذلك العصر الذي لم تكن العربات قد اخترعت بعد، والسيدات ينتقلن على الخيل أو في محفة[3]،

---

(١) - هذه العبارة تشير إلى المدلول السياسي لاستجواب الروجيريين.

(٢) - أي بقطع رخام متعدّدة الألوان، وموزعة بدون تناظر.

(٣) - يذكر سوڤال في كتاب «آثار باريس» أن العربات لم تدخل باريس قبل نهاية «الجامعة» وأن النساء اللواتي استخدمن أول الزوارق في النهر وتجرها الخيل على الضفة بدلاً من الرهوانات أو المحفات وجه اليهن اللوم على تبذيرهن.

وبالتالي يمكن الاعتناء بجمال أفنية المنازل دون أن تفسدها العربات أو الخيول. يلزم التفكير بذلك الظرف دون انقطاع لتفسير ضيق الشوارع، وقلة عرض الأفنية، وبعض تفاصيل مساكن القرن الخامس عشر. ويتألف المنزل من طابق أرضي وآخر فوقه، وهو متوّج بطنف مزخرف يقوم فوقه سطح ذو أربعة جوانب ينتهي في قمته بمصطبة، وهذا السطح مخترق بكوى مزخرفة بمأطورات مثلثة وكفافٍ سننتها أزاميل فنان كبير وزينتها بنقوش متشابكة. كما أن النوافذ الثلاث في الطابق الأول تشتهر أيضاً بهذه التطريزات الحجرية التي يظهرها آجر الجدران، وفي الطابق الأرضي درج مدخل مضاعف مزخرف بدقة، تتميز منصته بزخرفة ثمانية[١] وهي توصل إلى بوابة ذات حديبات منحوتة على الطريقة الفينيسية بشكل وجيهات الماسية، وهو نظام زخرفة موجود أيضاً على نافذتي اليمين والشمال.

كانت حديقة منظمة، مزروعة على طراز ذلك العصر، تغرز فيها الأزهار النادرة تشغل في القسم الخلفي من المنزل مساحة تعادل مساحة الفناء، وعريشة كرمة تتسلق على الأسوار، وفي وسط المرج العشبي ترتفع شجرة صنوبر، وقد فُصلت الحواشي عن المرجة الخضراء بممرات متعرجة تصل إلى أيكة أشجار تزيينيّة مشذبة قائمة في أقصاها. والجدران مكسوة بفسيفساء مؤلفة من حصيات مختلفة منسقة تبدي للعين رسوماً غير متقنة، في الواقع، لكنها تسرُّ العين بغنى ألوانها المتناسقة مع ألوان الأزهار، وواجهة الحديقة مماثلة لواجهة الفناء تتقدمها شرفة جميلة تعلو المدخل وتجمّل نافذة الوسط وعلى الحديقة كما في الفناء تتقدم تزيينات هذه النافذة الرئيسة مسافة بضعة أقدام بحيث تشكل شبه رواق صغير مماثل لكوة، بينما مرتكزات النوافذ الأخرى مرصعة برخام ثمين يحيط بها من داخل الحجر.

رغم الذوق الرهيف الذي يوحي به ذلك المنزل، فإن له مظهراً كئيباً، فالنور محجوب عنه بالمنازل المجاورة، وبسطوح قصر آلنسون التي تسقط خلالها على الفناء وعلى الحديقة، عدا عن الصمت العميق السائد فيه، لكن هذا الصمت، وهذا الظلّ، وهذه العزلة تبعث الطمأنينة في الروح التي يمكن أن تنصرف إلى فكرة واحدة، كما في دير ينصرف فيه إلى التأمل، أو بيت هادىءينعم فيه بالحب.

---

(١) - هذه الزخرفة ∞ يطلق عليها اسم «بحيرة الحب» وقد كانت سائدة أمام مدخل القصور.

من لايخمن الآن الأبحاث الداخلية لهذه الخلوة، وهي المكان الوحيد الذي يمكن فيه للملك ماقبل الأخير من سلالة ال ڤالوا، أن يبسط ضمن مملكته روحه ويعبر عن آلامه، وينصرف إلى ذوقه في الفنون، ويقبل على الشعر الذي يحبه، وكلها رغائب تعاكسها هموم أكثر الممالك ثقلاً. هنا فقط تقدر روحه الكبيرة وقيمته العالية. هنا فقط انصرف خلال بضعة أشهر هاربة، وهي الأخيرة من حياته، إلى مُتَع الأبوة، وهي مباهج أقبل عليها بسعارٍ طبع فيه الإحساس بموت قريب ورهيب جميع تصرفاته. في بعد ظهر اليوم التالي كانت ماري قد أنهت زينتها في مصلاها، وهي غرفة جلوس ذلك الزمن، كانت ترتب بعض خُصل شعرها الأسود الجميل تحت عُصبة من مخمل أسود، وتتأمل نفسها في مرآتها.

قالت في نفسها: ها قد حلّت الساعة الرابعة، ذلك المجلس الطويل قد انتهى، وجاكوب قد عاد من اللوڤر، حيث ساد الانفعال بسبب عدد المستشارين المدعوين وطول تلك الجلسة. ماذا حدث؟ مصيبة ما! ياالهي، هل يعلم مدى ماتعانيه الروح في الانتظار عبثاً! ربما ذهب إلى الصيد؟ إن كان يتسلى، فكل شيء يسير إلى الأفضل. إن أره مسروراً أنس ما أعانيه من ألم.

أسندت يديها على خصرها لترتيب طيّة خفيفة، ثم التفتت جانباً لترى مواربة كيف يبدو ثوبها، لكنها رأت عند ذاك الملك وهو مستلق على أريكة استراحة، فالسجاجيد تصمُّ وقع الخطوات بحيث دخل دون أن تنتبه لقدومه.

قالت وقد أفلتت منها صرخة دهشة كتمتها بسرعة: «لقد أخفتني!».

قال الملك: «اكنت تفكرين بي؟».

أجابت وهي تجلس إلى قربه: «ومتى لا أفكر بك؟».

ونزعت عنه قلنسوته ومعطفه، ومرّرت يديها في شعره كأنها تريد تمشيطه بأصابعها، واستسلم شارل لحركاتها دون أن ينبس بكلمة، فجثت ماري على ركبتيها وهي مندهشة وراحت تتأمل وجه سيدها الملكي الشاحب، ولاحظت آثار تعب رهيب وكآبة أكثر إرهاقاً من الكآبات الأخرى التي سبق لها أن بدّدتها، فحبست دمعة، ولزمت الصمت كي لاتثير بكلمات متهورة آلاماً ماتزال لاتعرف أسبابها،

وفعلت ماتفعله في مثل هذه المناسبة المرأة الحنون فقلبت ذلك الجبين الذي انعقدت عليه تغضنات مبكرّة، والوجنتين المتشنجتين، مجربة أن تطبع نضارة روحها على تلك الروح القلقة، مغلفة مداعباتها الحلوة بلطافة مرهفة لم تلق أي نجاح. ورفعت رأسها إلى مستوى رأس الملك وأحاطته برفق بذراعيها الجميلتين وبقيت صامتة تسند وجهه إلى صدرها المتألم تنتظر الفرصة المناسبة لتسأل هذا المريض الخائر العزم: «ياحبيبي شارلو، ألا تفصح لصديقتك القلقة عن الأفكار التي تعكر هذا الجبين العزيز، وترمي الشحوب في هاتين الشفتين الجميلتين الحمراوين؟

قال بصوت مخنوق عميق: باستثناء شارلمان، فإن جميع ملوك فرنسة المتسمين باسم شارل قد انتهوا على نحو يرثى له[١].

ردت مسرعة: ويلي! وشارل الثامن؟

قال الملك: «هذا الملك المسكين، وهو في زهرة عمره، ارتطم رأسه بباب منخفض في قصر آمبواز، كان يزخرفه، ومات بعد آلام رهيبة، وبموته انتقل التاج إلى عائلتنا»

- لكن شارل السابع قد استرد مملكته[٢].

رد الملك بصوت منخفض: «ياصغيرتي، لقد مات جوعاً، وقد كان يخشى أن يسممه ولي العهد بعد أن عمل على موت جميلته آنييس، كان الأب يخشى ابنه، أما اليوم فالابن يخشى أمه!

- «لماذا تنقب في الماضي؟» قالت ذلك وهي تفكر بحياة شارل السادس المرعبة.

- ماذا تريدين ياحلوتي؟ يمكن للملوك أن يجدوا، دون اللجوء إلى العرافين، الحظ الذي ينتظرهم الذي لاقاه شارل البسيط الذي جرّد من تاجه، ومات في السجن بعد سبع سنوات من الأسر.

---

(١) - هذا الدرس التاريخي الذي ارتجله شارل التاسع لماري كوشه، قد يكون بلزاك استمده من مؤلف لبلفورست بعنوان: «تاريخ تسعة ملوك لفرنسة باسم شارل، يحوي حظهم، وفضيلتهم وساعتهم المحتومة وما قاموا به من أشياء رائعة»، وقد يكون بلزاك استعان بكتاب «تاريخ فرنسة (١٧٥٥ - ١٧٨٦) لڤيلي، وڤيلاره وغارنيه في ذكر اسباب موتهم.

(٢) - شارل السابع (١٤٢٢ - ١٤٦١) استرد معظم أراضي فرنسة من الانكليز بفضل جان دارك.

قالت بلهجة المنتصر : «إن شارل الخامس قد طرد الانكليز!»

- ليس هو بل غوسكلن، وقد سمم من قبل شارل دي نافار، وقضى أياماً واهنة.

قالت : وشارل الرابع؟

- تزوج ثلاث مرات دون أن ينجب ورثة، رغم الجمال الذكوري الذي كان يميز أبناء فيليب لبل، وبه انتهى أوائل آل فالوا، وسينتهي الجدد بذات الطريقة، فالملكة لم تنجب لي ولداً، وسأموت دون أن تكون حاملاً، فملك قاصر هو المصيبة الكبرى التي يمكن أن تُنكبَ بها مملكة، ومع ذلك فهل سيعيش ابني؟ إن اسم شارل هذا هو نذير شؤم، فشارلمان قد استنفد الحظ الطيب، لو أعود ثانية للملك على فرنسة فسأرتعش من تسميتي شارل العاشر.

- من يريد التطاول على عرشك إذاً؟

- أخي دوق آنسون يتآمر ضدي، وأرى الأعداء يتألبون علي . . .

قالت ماري وهي تمط شفتيها بحركة محببة : «سيدي، حدثني بأحاديث أكثر إبهاجاً!

عقب الملك بحدة : ياجوهرتي العزيزة، لا تخاطبيني أبداً بسيدي، حتى وإن كنت مازحة، فأنت تذكرينني بوالدتي التي تجرحني دون انقطاع بهذه الكلمة، التي تبدو لي وكأنها تريد أن تنتزع بها تاجي، بينما تخاطب دوق آنجو، أي ملك بولونية، بقولها : «ياولدي».

قالت ماري وهي تضمُّ يديها كأنها تتضرع إلى الله : «ياصاحب الجلالة، هناك مملكة أنت فيها معبود، وتملؤها بمجدك، وقوتك، وهناك كلمة سيدي تعني ياحبيبي المعبود» وفرَّقت يديها، وبحركة حلوة أشارت بإصبعها إلى الملك نحو قلبها.

كانت هذه الكلمات، وفق لغة ذلك العصر، «مموسقة» وهي تضجّ بألحان الحب فاحاط شارل التاسع بماري من خصرها، ورفعها بتلك القوة العصبية التي تميز بها، وأجلسها على ركبتيه ومسح جبينه برفق في خصلات شعر خليلته المسترسلة بدلال، ووجدت ماري أن اللحظة مناسبة فتجرأت على بعض قبلات تألم منها

شارل أكثر مما قَبِلها، ثم قالت له بين قبلتين: «إن كان أتباعي صادقين، يبدو أنك غامرت خلال هذه الليلة بالقفز على سطوح باريس كما كنت تفعل في أيام فتوتك، يوم لم تكن إلا ابناً ثانياً» في العائلة المالكة.

قال الملك وهو غارق في أفكاره: «نعم».

- ألم تضرب العسس وتسلب أموال بعض البورجوازيين الطيبين؟ ومن هما إذاً هذان الشخصان اللذان عهد لنا بحراستهما، واللذان بلغ من خطورة جريمتهما أنك منعت أي اتصال معهما؟ ما من فتاة أُرتج عليها بمثل هذه القسوة، حتى أن هذين الشخصين لم يشربا، ولم يأكلا، فألمان سولرن لم يدعوا إنساناً يقترب من الغرفة التي وضعا فيها. هل هي دعابة، أم هي قضية خطيرة؟

قال الملك وهو يستيقظ من أحلام يقظته: «نعم، البارحة مساءً رحت أقفز على السطوح مع تاڤان وغوندي، أردت أن يكون معي رفاق مغامراتي القديمة، إنما الساقان ليستا نفسيهما، لم نجروء على القفز إلى الشوارع، غير أننا اجتزنا فناءين ونحن نقفز من سطح إلى آخر. ومع وصولنا إلى جبهة جملون على بعد خطوتين من هنا وكنا مشدودين إلى حاجز مدفأة، قلنا في أنفسنا أنا وتاڤان إنه لاينبغي تكرار ذلك، ولو أن كلاً منا كان وحده، لما قام بهذه المحاولة.

- «إنني أراهن على أنك قفزت أولا، أليس كذلك؟»«فابتسم الملك». وتابعت «إنني أعرف لماذا تجازف بحياتك».

قال الملك: «أوه! ياللعرافة الجميلة!».

- إنك تعب من الحياة.

قال الملك وهو يستعيد هيئته الرزينة: «يابقية السحرة! لقد كانوا يتبعونني.

قالت وهي تبتسم: «إن سحري هو الحب، فمنذ اليوم السعيد الذي أحببتني فيه، غدوت أخمن أفكارك دائماً. وإذا سمحت لي بأن أقول لك الحقيقة فالأفكار التي تعذبك الآن ليست جديرة بملك.

أجاب بمرارة: وهل أنا ملك؟

قالت: ألا يمكن أن تكونه؟ كيف فعل شارل السابع، الذي تحمل اسمه، لقد استمع إلى خليلته[١]، ياصاحب الجلالة، واستعاد مملكته، وكانت مغزوة بالانكليز، كما هي مملكتك الآن مغزوة بالأحزاب الدينية، إن انقلابك الأخير شق لك طريقاً يجب اتباعه، اقضِ على الهرطقة.

قال شارل: كنت تستنكرين المكر، واليوم. . .

أجابت: إنه أمر قد تمّ، ومع ذلك، فأنا من رأي السيدة كاترين، فمن الأفضل أن تقوم به أنت نفسك من أن تجعل الفضل فيه لآل غيز.

- لم يكن أمام شارل السابع إلا رجال لمقاتلتهم، وأنا أجد في مواجهتي أفكاراً، يمكن قتل الرجال أما الكلمات فلا تقتل. الامبراطور شارل كنت رفض قتالها واستنفدت قوى ابنه الدون فيليب، وستهلكنا نحن الملوك الآخرين جميعاً. على من يمكنني الاعتماد؟ إلى اليمين لدى الكاثوليك أجد آل غيز يهددونني، وإلى اليسار لن يغفر لي الكالفنيون أبداً موت أبي المسكين كولينيي[٢]، ولامذبحة آب، كما أنهم يريدون إزالة العروش. أخيراً فأن أمامي أمي. . .

همست ماري في أذن الملك: «أوقفها واحكم وحدك».

- أردت ذلك البارحة، ولا أريده اليوم أبداً، إنك تعتبرين الموضوع سهلاً. . .
قالت ماري وقد سرّها أن تمزح حول الأصل المزيف الذي ينسبونه لكل منهما: «ليس الفرق كبيراً مابين ابنة صيدلي وابنة طبيب[٣]».

قطب الملك حاجبيه وقال: «ماري، لا أريد هذه الجرأة في الكلام أبداً، فكاترين دي مديسي أمي، ويجب أن تخافي من. . .».

---

(١) - هي آنييس سوريل، وقد مدح دور دو راديه في «طرف الملكات» تأثيرها على الملك شارل السابع.
(٢) - يسجل المعاصرون أن الملك كان يلقب عن طيبة خاطر كولينيي «بأبيه» ويفترض بعضهم أنه تظاهر بذلك ليخفي مشروع مذبحة سان بارتلمي.
(٣) - ذكر دور دو راديه قبل أن يؤكد على مركز والد ماري توشه كضابط في محكمة الإقطاعيين أن برانتوم قال عنها إنها ابنة صيدلي في أورليان. كذلك فإن هجائي كاترين دي مديسي ينسبون أصل عائلة مديسي بكاملها إلى طبيب (سبق ذكر ذلك في المعذب الكالفني).

- ممَّ تخاف أنت؟

قال الملك متسرّعاً: «من السمّ!».

صرخت ماري وهي تحبس دموعها بعد أن هزتها بعمق كثير من مشاعر القوة المقترنة بمظاهر الضعف: ياطفلي المسكين! آه! إنك تجعلني أكره السيدة كاترين التي كانت تبدو لي طيبة جداً، والتي تبدو لي طيبتها خداعاً، إذ لماذا تظهر لي كثيراً من الطيبة، بينما تضمر لك السوء؟ خلال إقامتي في الدوفينة، عرفت عن بداية تسلّمك العرش أموراً كتمتها عني، ويبدو لي أن الملكة والدتك قد سبّبت لك كثيراً من المصائب.

قال الملك وقد أبدى اهتماماً كبيراً: كيف، ماذا عرفت؟!

- إن النساء ذوات الروح والنوايا الطيّبة يستخدمن الفضائل للسيطرة على من يحببن من الرجال، أما النساء اللواتي لايُردن لرجالهن الخير فيعتمدن على نقاط استناد من الميول السيئة، والحال أن الملكة الوالدة حولت العديد من مزاياك الجميلة إلى نقائص، وجعلتك تعتقد أن الميول الطائشة فضائل. أهذا هو دور الأم؟ كن طاغية على طريقة لويس الحادي عشر، عمّم الرهبة العميقة، سر على منوال دون فيليب، أبعد الإيطاليين، طارد آل غيز، صادر أملاك الكالفنيين، سترتفع بهذه العزلة، وستنقذ العرش، فالفرصة سانحة وأخوك في بولونية[1].

- قال شارل بمرارة: إننا طفلان في السياسة، ونحن لانحسن إلا فعل الحب. للأسف، ياحلوتي، فكرت البارحة بجميع هذه الأشياء، أردت اتمام أمور كبيرة، إيه! نفخت أمي على قصور ورق اللعب التي شيّدتها. تبدو المشاكل من بعيد واضحة بسيطة كقمم الجبال، وكلٌّ يقول في نفسه: سأنتهي مع الكالفنية، سأكبح جماح السيدين دي غيز، سأنفصل عن وصاية رومة، سأعتمد على الشعب، وعلى البورجوازية، وأخيراً فكل شيء يبدو سهلاً من بعيد لكن عندما نريد تسلق الجبال،

---

(١) - ينسب بلزاك هنا إلى ماري توشه الفتاة التي أرادها «ساذجة» في البدء جرأة سياسية لاتناسبها أبداً، وكأن الملكة الأم هي الناطقة بهذه العبارات، أو أنه المؤلف بالذات.

تتكشف الصعوبات كلما اقتربنا منها، والكالفنية بذاتها هي آخر مايهم رؤساء حزبها، والسيدان دي غيز، هذان الكاثوليكيان الغضوبان، سيكونان بمنتهى القنوط إن رأيا الكالفنيين قد قهروا، كلٌّ يفتش عن مصالحة قبل كل شيء، والآراء الدينية تستخدم كقناع لمطامع نهمة. وحزب شارل التاسع هو أضعف الأحزاب، فلكل حزبه، لملك نافار، ولملك بولونية، ولدوق آلنسون، ولأمير كونده، واللأخوين دي غيز، ولأمي. وهذه الأحزاب يتحالف بعضها ضد بعضها الآخر ويتركونني وحدي حتى في مجلسي. ووالدتي وسط العديد من عناصر الاضطراب هي الأقوى وقد برهنت لي اليوم على بطلان مخططاتي. إننا محاطون باتباع يزدرون العدالة، وفأس لويس الحادي عشر التي تتحدثين عنها تنقصنا، فالبرلمان لن يدين آل غيز، ولا ملك ناڤار، ولا آل كونده، ولا أخوتي، إنه يعتقد بأنه يؤجج بذلك النار في المملكة يجب توفر شجاعة كشجاعة الإقدام على القتل، وسيضطر العرش يوماً إلى الوصول إليها مع هؤلاء السفهاء الذين ألغوا العدالة[1]، ولكن أين نجد الأذرع المخلصة؟ فالمجلس الذي انعقد هذا الصباح جعلني أشمئز من كل شيء، فالخيانات في كل مكان، والمصالح المتضاربة في كل مكان. لقد تعبت من حمل تاجي، ولاأريد إلا أن أموت في سلام». وراح في خمود كئيب.

ردّدت ماري توشه بألم، وهي تداري خدَر عشيقها العميق: «مشمئز من كل شيء!» كان شارل في الواقع فريسة أحد تلك الأوهان الكلية التي تنتاب الجسم والروح نتيجة إنهاك لكامل القدرات، وهي تتزايد بتثبيط العزيمة الذي يحدثه كبر البليّة والشعور باستحالة التغلّب عليها، أو مظهر الصعوبات التي تتضاعف إلى حدّ ترتعب العبقرية نفسها منها.

كان انهيار الملك بسبب هذه الجرأة الفائقة التي أبداها منذ بضعة أشهر والأفكار التي عانى منها، حتى أن عارضاً من كآبة عصبية متولدة عن المرض نفسه قد تولاه عند خروجه من الجلسة الطويلة التي عقدها في ديوانه. ولاحظت ماري جيداً أنه فريسة

---

(١) - تلميح إلى قتل الدوق هنري دي غيز في بلوا، في العام ١٥٨٨ بأمر من الملك هنري الثالث وعلى مرأى منه.

إحدى تلك النوبات، التي كلّ ما فيها مؤلم ومزعج، حتى الحب، فبقيت جاثية ورأسها على ركبتي الملك، الذي ترك يده غارقة في شعر خليلته، دون حركة، ودون أن تبدر كلمة أو تنهيدة عن أي منهما. كان شارل التاسع غارقاً في سبات العجز، وماري في ذهول المرأة العاشقة التي تلحظ الحدود التي ينتهي فيها الحب.

بقي العاشقان هكذا في أعمق صمت لمدة طويلة، في واحدة من تلك الساعات التي يحدث كل تفكير فيها جرحاً، حيث غيوم عاصفة داخلية تحجب حتى ذكريات السعادة. فقد خيل لماري أنها أحد أسباب هذا الضنى المروّع. وتساءلت ليس دون رهبة عما إذا كانت المباهج المفرطة التي استقبلها بها الملك، والحب العنيف الذي لم تشعر في نفسها القدرة على صده، لم تضعف نفس شارل التاسع وجسده وفي اللحظة التي رفعت فيها عينيها الغارقتين في الدموع كوجهها نحو حبيبها، رأت الدموع في عيني الملك وعلى وجنتيه الشاحبتين. هذا التفاهم الذي يوحِّد بينهما حتى في الألم أثر بشدة على شارل التاسع فأخرجه من خدره كجواد حثه المهماز، فأحاط ماري من خصرها، وقبل أن تدرك ما في خاطره وضعها على أريكة الاستراحة وقال: «لاأريد أن أكون ملكاً، لاأريد أبداً إلا أن أكون حبيبك، فأنسي كل شيء في متعة الحب، أريد أن أموت سعيداً، لاشقياً تضنيني هموم العرش».

سببت لهجة هذه الكلمات، البريق الذي سطع في عيني شارل التاسع الخامدتين منذ قليل عناء رهيباً لماري بدلاً من إمتاعها. ففي تلك اللحظة أتهمت حبها بالتواطوء مع أسباب المرض الذي مات فيه الملك.

قالت له وهي تنهض بعنف: «نسيت أسراك».

- ومايهمني من هؤلاء الرجال، إنني أسمح لهم باغتيالي.

- إيه ماذا؟! أهم قتلة؟

- لاتقلقي، إننا قبضنا عليهم، ياطفلتي العزيزة، فلا تهتمي بهم، بل بي أنا، ألا تحبينني إذاً؟

هتفت: سيدي!

ردّد وقد أبرق الشرر من عينيه، لعنف موجة الغضب الأولى التي أثارها احترام خليلته المفاجىء: «سيدي»، أنت متفاهمة مع أمي إذاً!

هتفت ماري وهي تنظر إلى مركع صلاتها وتجهد للوصول إليه لشدة شعورها بالحاجة إلى التضرع: «ياإلهي! اجعله يفهمني!»

تابع الملك وقد اكفهر وجهه: «آه! هناك إذاً ماتؤاخذين نفسك عليه؟» ثم ثبت عينيه في عيني خليلته وهي ترتمي بين ذراعيه وقال بمظهر شارد: «سمعت كلاماً عن هوى جامح يكنه لك شخص يدعى انتراغ، ويبدو أن له جداً هو القبطان بلزاك سبق أن تزوج في ميلانو إحدى سليلات عائلة فيسكونتي لذلك فإن التافهين لايستغربون شيئاً»[١].

نظرت ماري بأنفة إلى الملك نظرة أخجلته، وفي تلك اللحظة سُمع صراخ طفلهما شارل دي فالوا الذي استيقظ وأتت به دون شك مربيته إلى الصالة المجاورة.

قالت ماري: «تعالي يابورغونية» ثم انطلقت فأخذت طفلها من المربية وحملته إلى الملك قائلة وهي بين الغيظ والهدوء: «إنك أكثر طفولة منه!»

قال شارل التاسع وهو يحمل طفله: «إنه جميل جداً»

قالت ماري: «أنا وحدي أعرف كم يشبهك، إن له الآن حركاتك وابتسامتك.

---

(١) - بعد موت الملك فإن ماري توشه الحريصة دائماً على حظوتها في البلاط الملكي، تزوجت فرنسوا دي بلزاك دنتراغ، وليس أخاه الأصغر شارل - كما يذكر بلزاك فيما بعد - وقد ورد لدى دور دو رادية: «من الممكن أن يكون السيد دنتراغ مغرماً بماري توشه قبل موت الملك شارل التاسع» (طرف الملكات - الجزء الخامس).

وهكذا نرى أن بلزاك، مع تقديره الكبير لبطلته، لم يبتكر التفاصيل، أما مايتعلق بمصاهرة آل بلزاك دنتراغ مع آل فيسكونتي، فربما سمع بلزاك هذه الحكاية من كونتة غيدو بوني - فيسكونتي وكانت عشيقته في فترة ما وأعجبه هذا التقارب بين الاسمين، لكن التلميح ليس صحيحاً تماماً: فآن إنما هي قريبة لهم عن طريق جدتها والدة ابيها: ماري دي مونتوبان ابنة بون فيسكونتي، وليس هناك حلقة إيطالية في هذا الزواج الرومنسي.

سأل الملك وهو يبتسم: «على صغره؟»

قالت: «إن الرجال لايريدون الإقتناع بهذه الأشياء، لكن ياحبيبي شارل، خذه، لاعبه، انظر إليه! هوذا، ألا ترى أني على حق؟

هتف الملك مندهشاً بإحدى حركات الطفل التي بدت له وكأنها إحدى حركاته المصغرة.

قالت الأم: «ياللزهرة الجميلة، إنه لن يتركني أبداً، وهو لن يسبب لي الأكدار! راح الملك يلاعب ابنه، أطاح به في الهواء، قبله بحنو شديد وبعنف، ردّد له هذه الكلمات الهوجاء والمبهمة المحاكية للأصوات التي تعرف الأمهات والمربيات كيف يخلقنها. وقلد بصوته الأصوات الطفولية، أخيراً انفرج جبينه، وعاد السرور إلى وجهه، وانقشع حزنه، وعندما رأت ماري أن عشيقها قد نسي كل شيء، وضعت رأسها على كتفه، وهمست في أذنه بهذه الكلمات: «ألا تقل لي ياعزيزي شارلو، لماذا تسجن هذين القاتلين في بيتي؟ ومن هما هذان الرجلان؟ وماذا تريد أن تفعل بهما؟ أخيراً ماذا كنت تفعل على السطوح؟ آمل ألا يكون الأمر متعلقاً بامرأة ما؟

قال الملك مندهشاً من هذا الشعاع الجلي لإحدى هذه النظرات المتسائلة التي تعرف النساء كيف يلقينها في الوقت المناسب: «أتحبينني دائماً بهذا القدر؟!

قالت وقد دحرجت بضع دمعات بين أجفانها النضره الجميلة، «هل يمكنك أن تشك بي؟».

- كان في مغامرتي نساء، لكنهن من الساحرات، إلى أين وصلت من حكايتي؟

قالت ماري: «على خطوتين من هنا فوق جَمَلون بيت، في أي شارع؟»

قال الملك الذي بدا وكأنه عاد إلى طمأنينته، واسترد أفكاره، واراد أن يذكر لخليلته واقعة المشهد الذي حدث قريباً من منزلها: «في شارع سان - أونوره ياحلوتي، إذ بينما كنت ماراً البارحة للذهاب لقفز الأسطح، استرعي انتاهي ضوء

ساطع صادر عن سقيفة منزل رينه، العطار وصانع القفازات لأمي، ولك، وللبلاط. كانت تخالجني شكوك عنيفة بشأن مايجري لدى هذا الرجل، فإن دُس لي السم، فهذا السمُّ محضّر لديه.

- قالت ماري: «ساخلعه منذ الغد»

قال الملك وقد عاد الغمّ إلى وجهه: آه! تحتفظين به، بعد أن تخليت عنه، هنا حياتي، لاشك أنه وضع في مكان ما شيئاً يسبب موتي!».

قالت باسمة: «لكن ياطفلي العزيز، أنا عائدة من الدوفينة، مع وليّ عهدنا، ورينه لم يزودني بشيء منذ وفاة ملكة ناڤار، تابع، ماذا فعلت بعد أن قفزت إلى بيت رينه؟.

تابع الملك يقول: «نعم، وصلت بعد حين إلى موقع، وكان تاڤان يتبعني، استطعت أن أرى منه، ودون أن يراني أحد، ما بداخل مطبخ ذلك الشيطان، وأن ألاحظ أشياء أوحت إليّ بالاجراءات التي اتخذتها. ألم تلاحظي قط السقائف التي تعلو بيت هذا الفلورنسي اللعين؟ فالنوافذ من جهة الشارع جميعها مغلقة باستثناء الأخيرة التي يشاهد منها قصر سواسون والبرج الذي بنته والدتي من أجل فلكيها كوسم روجيري. في هذه السقائف مسكن ورواق لايأتيهما نور إلا من جهة الفناء، فعلى من يريد أن يرى مايجري فيهما، أن يذهب إلى حيث ما من أحد يفكر بالتسلق على ميزاب سور عال ينتهي إلى سطوح منزل رينه. إن الأشخاص الذين أقاموا هناك أفرانهم، حيث يقطرون الموت، كانوا يعتمدون على جبن الباريسيين حتى لاينكشف امرهم، لكنهم لم يحسبوا حساباً لوجود شارل دي ڤالوا، فأنا قد تقدّمت على مجرّة المزراب حتى إحدى النوافذ حيث تمكنت من التشبت عليها وأنا أحيط تمثال قرد يزخرفها بذراعي.

سألت ماري مرتعبة: «وماذا رأيت ياقلبي؟».

قال الملك: خلوة تحضر فيها ترتيبات شيطانية. وقع نظري أولاً على عجوز طويل القامة يجلس على كرسي، يتحلى بلحية بيضاء رائعة كلحية لوسبيتال الشيخ

ويرتدي، مثله، معطفاً من مخمل أسود، تسقط على جبينه العريض الذي خدّدته بعمق تجاعيد غائرة، وعلى هامة شعره الأبيض، ووجهه الهادى اليقظ، أشعة مركزة من مصباح ينبعث منه نور وهاج، وهو يوزع انتباهه بين مخطوطة قديمة يعود رقّها إلى عدة قرون سابقة، وفرنين متوهجين تطبخ فيهما مواد خارجة عن المألوف، وسقف الغرفة وأرضيتها لايريان لا من أعلى و لا من أسفل لكثرة ماعليهما من حيوانات معلقة، وهياكل ونباتات مجففة، وفلزات معدنية، وتوابل تملأ الجدران: هنا، كتب، وأدوات تقطير، وخزائن مليئة بأدوات السحر والفلك. وهناك شهادات كشف الطالع، وقوارير، ووجوه دمى، وربما سموم يورّدها إلى رينه ليسدد نفقات الضيافة والحماية اللتين يقدمهما له صانع قفازات والدتي، أوكد لك إنني ذهلت أنا وتاڤان من مظهر ترسانة هذا الشيطان[1] إذ أن مجرّد رؤيتها يوقع المرء تحت سحرها، ولو لم تكن مهنتي أن أملك على فرنسة لانتابني الخوف، فقلت لتاڤان «ارتعش عني وعنك» لكن عيني تاڤان كانتا معلقتين على أكثر المشاهد، غموضاً، فعلى أريكة قرب العجوز كانت تتمدّد فتاة ذات جمال غريب نحيفة طويلة كأفعى، بيضاء كقاقم، شاحبة كأنها ميتة، جامدة كأنها تمثال، ربما كانت امرأة انتشلت حديثاً من قبرها لتستخدم لتجربة ما، إذ بدت لنا كأنها ماتزال في الكفن، فعيناها جامدتان، ولم ألحظ أنها تتنفس، ولم يكن العجوز الغريب يعيرها أي انتباه. نظرت إليه بفضول غريب، حتى أنني اعتقدت أن روحه انتقلت إلي، ولشدة ملاحظتي له، انتهيت إلى الإعجاب بتلك النظرة الوقادة، الشديدة العمق، المليئة بالجرأة، رغم صقيع العمر، وبذلك الفم الناطق بالأفكار المنبثقة عن رغبة تبدو وحيدة، وتبقى منقوشة في ألف تجعيدة. كل ّشيء في هذا الرجل ينبىء بأمل لا يخيبه أمر ولاتثنيه عقبة. كانت وقفته مليئة بالارتعاشات في ثبات، وتلك القسمات النحيلة، المحفورة جيداً بهوى جدير بمهمة إزميل مثال، وتلك الفكرة المتركزة على محاولة جرمية أو علمية، وذلك

---

(١) - يجمع بلزاك هنا جميع اللوازم الخاصة لتوجيه انتباه قرائه نحو أسرار الكيمياء القديمة، وقد سبق له مثل هذا الوصف في «جان لويس» (إحدى روايات مطلع شبابه) كما أن ڤيكتور هوغو تصور مثل هذا لدى كلود فرولو في «نوتردام باريس».

الذكاء المنقب على درب الطبيعة، المقهور أمامها، المنحني لها، دون أن يتخلى عن تهور جرأته التي لم يتراجع عنها البتة، مهدداً الخلق بالنار التي يستمدها منها . . . كلُّ شيء فتنني للحظة، وجدت ذلك العجوز ملكاً تفوق قدرته قدرتي، لأن نظرته تعانق العالم وتسيطر عليه، صممت ألا أطرق سيوفاً بعد الآن، فأنا أريد أن أحلق فوق اللجج كما يفعل هذا العجوز، فقد بدا لي علمه كعرشٍ ثابت، أخيراً، فإني آمنت بعلوم السحر .

قالت ماري : أنت ابن الدين البكر، المنتقم للكنيسة الكاثوليكية المقدسة، الجامعة، الرسولية، الرومية؟

- أنا!

- ماذا حل بك؟ بدأت أخاف عليك، وأريد أن تبث بي الجرأة! .

- بعد أن تطلع الرجل إلى ساعته، خرج لا أدري من أين، لكنني سمعت النافذة المطلة على شارع سان أونوره تنفتح، ثم التمع ضوء، ورأيت من جهة برج قصر سواسون ضوءاً آخر يردُّ على إشارة العجوز، وهذا ماسمح لنا برؤية كوسم روجيري في أعلى برجه. قلت لتاڤان وقد وجدته مشتبهاً بهذا الوضع برهبة، ويشاطرني الرأي بوجوب القبض على هذين الرجلين وفحص محترفهما الغامض بسرعة : «آه! إنهما متفاهمان». لكننا أردنا أن نرى ما يجري قبل أن نعمد إلى ذلك[1] . بعد ربع ساعة، فتح باب المخبر، ودخل كوسم روجيري، مستشار والدتي، البئر الذي لاقعر له حيث تغوص أسرار البلاط، الذي تطلب منه النساء النجدة ضد أزواجهن، وضد عشاقهن، ويطلب العشاق والأزواج وسائل معاقبة الناكثات بعهودهن، الذي يتكسب من المستقبل وكذلك من الماضي متلقياً الهبات من جميع الأيدي، الذي يبيع كشف الطوالع، والذي يعتبر نصف إبليس وقال للرجل العجوز : «عمت صباحاً ياأخي»، وكانت تصحبه عجوز مرعبة، صغيرة القامة،

(١) - هذا اللقاء الليلي وما تلاه من استجواب هما من ابتكار الروائي، لكن يبدو أن شارل التاسع وبطانته ممن أثارهم فضول الكيمياء القديمة وأبحاثها حتى أن الملك قد أجرى في العام ١٥٦٧ عقداً مع كيميائي اسمه جان دي غالان تعهد فيه الأخير بأن يتوصل خلال سنتين إلى تحويل المعادن .

درداء، حدباء، عوجاء، عقفاء كأنها شويهة مفزعة، بل أكثر شناعة. كانت مجعدة كأنها تفاحة عتيقة، جلدها بلون الزعفران، ذقنها تلامس أنفها، فمها خط يكاد لايظهر، عيناها تشبهان نقطتين سوداوين على زهر نرد، جبينها يعبر عن مرارة، شعرها ينفلت خصلاً رمادية من تحت عصبة متسخة، وهي تمشي مستنده على عكاز، تبدو مثال الهرطقة والسحر، حتى بدا علي وعلى هاڤان الهلع من منظرها، إذ أنها بدت لنا امرأة غير طبيعية، فالله لم يخلق بين النساء من هي أكثر شناعة منها، راحت فجلست على كرسي منخفض قرب الأفعى البيضاء الفاتنة، التي أغرم بها تاڤان. ولم يُعر الأخوان أي انتباه للعجوز أو للمرأة الشابة اللتين شكلتا ثنائياً رهيباً، فمن جهة كانت الحياة في الموت، ومن جهة أخرى كان الموت في الحياة[1].

عقبت ماري على هذه العبارة الأخيرة وهي تقبل الملك «ياشاعري اللطيف!».

تابع الملك قصته: رد الكيميائي العجوز على أخيه «عمت صباحاً ياكوسم» ونظر الاثنان إلى الفرن. سأل العجوز كوسم: «ما قوة القمر اليوم؟» أجاب فلكي والدتي: «لكن ياعزيزي لورنزو، لم ينته مدُّ شهر أيلول بعد، ولايمكن أن نستدل على شيء في مثل هذه الفوضى» - «وماذا يقول لنا لوريان[2] هذا المساء؟» أجاب كوسم: «لقد اكتشف في الهواء قوة خلاقة تعيد إلى الأرض كل ما تأخذه منها، فاستنتج، كما نستنتج، أن كل ما في هذا الكون هو نتيجة تحول بطيء، إنما جميع التنوعات هي أشكال عنصر واحد». أجاب لوران: «هذا ما كان يفكر به سلفي، وقد قال لي برنار دي پاليسي[3]، هذا الصباح، إن المعادن تنتج عن انضغاط، وإن

---

(١) - «الحياة في الموت، والموت في الحياة»، أسطورة للشاعر الإنكليزي كراب يبرز في مشهد منها شخصيتين خرافيتين.

(٢) - كان بلزاك قد سجل في المخطوطة اسم أغريبا «المتوفي سنة ١٥٣٣» ويبدو أنه لقب للمحافظة على الغموض وهو مستمد من المفردات الماسونية، فالأوريان الكبير يشير إلى اجتماع ممثلي المحافل الماسونية في المقاطعات الفرنسية.

(٣) - پاليسي مؤلف كتاب: «المفصل في المعادن والكيمياء القديمة» إنما هو بعكس الكيميائيين القدماء لايؤمن بتحويل المعادن بواسطة النار بل يعتقد أن المعادن قد تولدت وتجمدت نتيجة الرطوبة (نشر الكتاب في باريس العام ١٧٧٧).

النار التي تقسم كل شيء، توحد كل شيء أيضاً، فلها القدرة على أن تضغط كما أن لها القدرة على أن تفصل. إن هذا الرجل عبقري».

بالرغم من أنني كنت في موضع لا أُشاهد فيه، قال كوسم وهو يتناول يد الشابة شبه الميتة فيسألها «هناك شخص قريب منا! فمن هو؟» فأجابت: «إنه الملك!».

ظهرت عند ذلك وقرعت الزجاج، ففتح لي روجيري النافذة، فقفزت إلى المطبخ الجهنمي يتبعني تاقان، وقلت للفلورنسيين اللذين ظهرا لنا وكأنهما مذعوران: «نعم، الملك، فرغم أفرانكم، وكتبكم، وعلمكم، لم تتمكنا من تخمين زيارتي، إنني جدّ مرتاح لرؤية هذا الشهير لوران روجيري الذي تتكلم عنه الملكة والدتي بمنتهى السرية[1]، والتفتت إلى الرجل العجوز الذي نهض وانحنى، فتابعت: «إنك في المملكة دون موافقتي، أيها الرجل، لمن تعمل هنا، وأنتم من الأب إلى الابن مقيمون في قلب بيت آل مديسي؟ اسمعوني جيداً! إنكم تغرفون المال من مصادر عديدة، حتى أن اشخاصاً جشعين قد أشبعوا ذهباً منذ مدة طويلة. أنكم أشخاص أكثر دهاء من أن تلقوا بأنفسكم بتهور في المسالك الجرمية، لكنكم لا ترمون أيضاً بأنفسكم طيشاً في هذا المطبخ، ولاشك أن لكم أهدافاً سرية، أنتم الذين لم ترتووا لا من الذهب ولا من السلطة، فمن تخدمون؟ الله أم الشيطان؟ ماذا تصنعون هنا؟ أريد الحقيقة كاملة، وأنا مستعد لسماعها، والاحتفاظ لكم بسرٍّ مشاريعكم، حتى وإن استحقت اللوم، وهكذا فإن عليكم أن تصرحوا لي بكل شيء، دون مواربة، وإن حاولتم خداعي، فستعاملون بقسوة. كفاراً أو مسيحيين، كالفينين أو من كاثوليك فلكم كلمتي الملكية بأن تخرجوا من المملكة دون عقاب، في حال لومكم على بعض الزلات. أخيراً فأنا أعطيكم مهلة هذا الليل وقبل ظهر غدٍ لتحاسبوا أنفسكم وترجعوا إلى ضمائركم فأنتم أسراي، وستتبعوني إلى مكان حيث تحرسون ككنوز ثمينة.

---

(١) - اقتصر كوسم هنا على دوره التاريخي كفلكي، وعرّاف ببعض شعوذة، فظهر في المستوى الثاني مفسحاً المجال لشخصية أخيه الخيالية لتجسد أهمية الكيمياء القديمة كما يحلم بها الروائي.

قبل أن يستسلم الفلورنسيان لي، استشار أحدهما الآخر بنظرة خفية، وقال لي لوران روجيري إنه ما من عذاب يمكن أن ينتزع منهما أسرارهما، رغم ضعفهما الظاهر، فليس للألم ولا للعواطف البشرية تأثير عليهما، وأن الثقة وحدها تجري على لسانهما مايحتفظ به فكرهما. لم أدهش في تلك اللحظة لتعاملهما كند إلى ند مع ملك لايعرف إلا الله فوقه، لأن فكرهما لايعود إلا لله وحده، وطالباني بثقة بقدر تلك التي يمنحاني إياها، والحال أنهما سألاني قبل أن يتعهدا بالإجابة دون مواربة أن أضع يدي اليسرى في يد الفتاة الشابة الموجودة هناك، ويدي اليمنى في يد العجوز، ولم أشأ أن أظهر لهما أنني أخشى أية رقية مؤذية، مددت يدي، فتناول لوران اليد اليمنى، وأخذ كوسم باليد اليسرى ووضعا كل يد بيد امرأة حتى غدوت كيسوع المسيح بين اللصين، وخلال الزمن الذي راحت فيه كل من المرأتين الساحرتين تتأمل يدي، قدم لي كوسم مرآة «راجياً أن أنظر فيها، بينما كان أخوه يتكلم مع المرأتين بلغة مجهولة لم أتمكن أنا، كما لم يتمكن تاڤان من فهم أية عبارة منها، وقبل أن نأتي بهذين الشخصين إلى هنا، وضعنا الأختام على جميع منافذ مستودع العقاقير هذا، وتعهد تاڤان بحراسته حتى لحظة صدور أمري الصريح باحضار برنار دي باليسي وطبيبي شابلن للكشف الدقيق على جميع العقاقير الموجودة والتي تصنع فيه، وكي لايعرفا بالأبحاث والفحوص التي تتم على مطبخهما، ولمنعهما من الإتصال بأي كان في الخارج، إذ يمكنها عند ذاك التفاهم مع أمي، فقد وضعت هذين الشيطانين لديك سراً بحراسة ألمان سولرن المعادلين لأسوار أفضل السجون، كما أن رينه محتجز في غرفته وكذلك الساحرتين من قبل مدرب السلاح لدى سولرن، وبما أنني ياحلوتي المحبوبة أمسك بمفتاحي القبلانية، وملكي التون[1] وزعيمي العرافة وأميري بوهيمية، وسيدي المستقبل، ووريثي أشهر المتنبئين بالغيب فإنني أريد كشف طالعك، ومعرفة قلبك، أخيراً سنعرف ماذا سيحدث

---

(١) - ينهي الملك قصته بالعودة إلى الصورة التقليدية للفلكيين الذين يتنبؤون بالمستقبل، فالقبلانية بمعناها الحرفي هي تفسير اليهود للتوراة صوفياً ورمزياً وفقاً للتقاليد القديمة، ثم غدت الكلمة تعني العلوم السحرية التي تمكن من الاتصال بالأرواح.

أما ملك التون فهو الاسم الذي حمله ملك الصعاليك في رواية فيكتور هوغو: نوتردام باريس.

لنا. قالت ماري دون أن تبدي أية خشية: «سأكون سعيدة جداً إن استطاعا كشف مابقلبي».

- أنا أعرف لماذا لاتخافين من السحرة، فأنت أيضاً تلقين السحر.

قالت وقد قدمت طبقاً مليئاً بالفواكه مع صحون من فضة مذهبة: «ألا تريد أن تأكل من هذه الدراقات؟ أترى هذه العناقيد من العنب؟ وهذه الإجاصات؟ لقد قطفتها بنفسي من ڤنسين.

- سآكل إذاً، مادام ليس هناك سمٌ آخر إلا أشربة الحب التي قطرتها يداك.

- يجب أن تأكل كثيراً من الفواكه ياشارل، فبها تركب الدم الذي تلهبه بكلّ ظواهر العنف.

- ألا يجب أن يكون حبي لك أقل أيضاً؟

أجابت: ربما إذا كانت الأشياء التي تحبّها تضرك و... أعتقد ذلك! فأنا سأستمد من حبي قوة الامتناع عنك. إنني ماأزال أعبد شارل أكثر مما أحب الملك، وأريد له أن يعيش دون هذه العذابات التي تجعله كئيباً شارداً.

- إنَّ الملك يفسدني.

عقبت بالقول: «نعم، لو أنك كنت أميراً فقيراً كصهرك ملك ناڤار، هذا المغازل مطارد الفتيات، المعدم، بمملكته الاسمية في اسبانية حيث لن يضع فيها القدم، ومقاطعة بيارن في فرنسة التي تكاد لاتسد رمقه، لكنت سعيدة، بل أكثر سعادة مما لو كنت حقاً ملكة فرنسة».

- لكن ألست أكثر سعادة من الملكة؟ فليس لها الملك شارل إلا ضمن مصالح المملكة، أليست الملكة أيضاً هي جزء من السياسة؟

ابتسمت ماري ومطت شفتيها بدلع وقالت: «هذا معروف، ياصاحب الجلالة، هل أعددت لي سوناتي[1]».

---

(١) - السونات: قصيدة من ١٤ بيتاً.

– ياصغيرتي العزيزة، إن القصائد بمثل صعوبة براءات إعادة السلام، لكنني سأنهي قريباً شعر غزلك. ياإلهي، إن الحياة مرحة هنا، ولا أريد الخروج من هذا المكان ابداً، لكن ينبغي استجواب هذين الفلورنسيين. قسماً بكل رفات القديسين، أن روجيرياً واحداً كافياً جداً للمملكة، وهاهي تحوي الآن اثنين. اسمعي ياحبيبتي الحلوة أرجو ألا تعوزك سرعة البديهة، وستكونين ضابط شرطة ممتازاً، إذ أنك ستخمنين كل شيء.

– لكن، ياصاحب الجلالة، نحن نفترض كل مانخشاه، والمحتمل بالنسبة لنا هو الحقيقي: وذاك كل دهائنا في كلمتين.

– ساعديني إذا على أن اسبر غور هذين الرجلين، فجميع قراراتي في هذه اللحظة معلّقة على هذا الاستجواب. هل هما بريئان؟ هل هما مذنبان؟ إن أمي وراءهما.

قالت ماري: أسمع صوت جاكوب على السلم اللولبي.

كان جاكوب خادم الملك الأثير، وهو الذي يرافقه في جميع أوقات متعته، وقد جاء يسأل إن كان الملك يرغب في التكلم مع الأسيرين.

ولدى الإشارة بالايجاب، أعطت سيدة المنزل بعض التعليمات. قالت: «جاكوب، إخلِ المكان من الجميع، ماعدا المربية وطفلي، ولي عهد أوفرني، فوحدهما يمكنهما البقاء الآن هنا. أما أنت فابق في القاعة السفلى. وقبل كل شيء، أغلق النوافذ، واسحب الستائر في الصالة وأضيء المصابيح.

كان تلهف الملك كبيراً حتى أنه جلس اثناء تلك الاستعدادات وأخذت خليلته الجميلة مكاناً إلى جانبه قرب زاوية موقد عال من الرخام الأبيض تتوهج فيه نار وضاءة، وكانت صورة الملك في إطار من مخمل أحمر على الحافة مكان المرآة. وقد أسند الملك ذراعه على طرف كرسي العرش ليتأمل الفلورنسيين جيداً.

بعد أن أغلقت مصاريع النوافذ، وأسدلت الستائر، أشعل جاكوب شموع شمعدان كبير من فضة منقوشة ووضعه على المنضدة التي سيكون الفلورنسيان

قربها، وهكذا سيتعرفان على تحفة مواطنهما بنفنوتو سليني. بدا عبر الأنوار غنى تلك القاعة المؤثثة على ذوق شارل التاسع، وبدا لون النجود الأحمر العنابي أجمل منه في ضوء النهار، وكان الأثاث الدقيق الزخارف يعكس من خلال سواد إبنوسه أنوار الشموع ولهب الموقد، والمذهبات الموزعة باعتدال هنا وهناك تبرق كالأعين وتحيي اللون الغامق في ذلك العش الغرامي القرمزي.

قرع جاكوب مرتين وبكلمة أمر أُدخلَ الفلورنسيان، وقد أُخذت ماري توشه فجأة بمهابة لوران التي تثير انتباه الكبار والصغار.

هذا العجوز الصارم ذو اللحية الفضية الوضاءة فوق فروّية من مخمل أسود، والجبين الشبيه بقبة من رخام، والوجه القاسي بعينيه السوداوين اللتين ينبعث منهما لهب حاد، كان يبثُ رعشة عبقرية صادرة عن عزلة عميقة يزيد من نفوذها تلك القدرة التي لاتتأثر بالاحتكاك بالناس، فكأنه شفرة سيف ماتزال بجدّتها.

أما كوسم روجيري فكان يرتدي ثياب رجال البلاط في ذلك العصر، وبدرت عن ماري إشارة للملك تفيد أنه لم يبالغ في قصته، ولتشكره على أنه عرّفها على هذا الرجل الفريد.

همست في أذن الملك قائلة: «كنت أودّ أن أرى الساحرتين أيضاً».

لم يجب شارل التاسع، وقد عاد إلى شروده، وراح ينفض باهتمام بعض فتات خبز علق على صدرته، وعلى سرواله.

قال الملك وهو يشير إلى الستائر التي زاد جو باريس الرمادي من قتامتها: «إن علومكم لاتتمكن من التطاول على السماء، ولا إرغام الشمس على الظهور، ياسيدي فلورنسة. هاهو نور النهار شاحب.

قال لوران روجيري: «تستطيع علومنا ياسيدي أن تهيء لنا سماءً على هوانا، والجو دائماً جميل لمن يعمل في مخبر على ضوء لهب الأفران».

قال الملك مستخدماً كلمة «أبي» التي اعتاد أن يخاطب فيها الرجال الشيوخ : «هذا صحيح ، حسَن ياأبي ، ألا تشرح لنا بوضوح هدف دراساتكم؟

- من يضمن لنا الافلات من العقاب؟

أجاب شارل التاسع وقد أثار فضوله هذا السؤال : «كلمة الملك»

بدا لوران روجيري متردداً ، فهتف شارل التاسع : «ما الذي يعيقك؟ إننا لوحدنا»

سأل العجوز الجليل : «أملك فرنسة هنا؟»

فكر شارل التاسع للحظة ثم أجاب : «كلا»

سأل لوران : «لكن ألن يأتي أبداً؟»

أجاب شارل التاسع وهو يكتم بادرة غضب : «كلا»

تناول العجوز الوقور كرسياً وجلس ، ولم يجسر كوسم ، وقد أدهشته جرأة أخيه ، على تقليده .

قال شارل التاسع بسخرية عميقة : «إن الملك ليس هنا ، أيها السيد ، إنما أنت لدى سيدة يجب أن تستأذن منها .

قال العجوز المهيب عندئذ : «إنّ من ترينه أمامك ياسيدتي هو فوق الملوك ، على قدر ما الملوك فوق رعاياهم ، وستجدينني لبقاً وأنت تتعرفين على مدى قدرتي .

عند سماع هذه الكلمات الجريئة المنطوقة بالتشدق الإيطالي ، تبادل شارل وماري النظرات وتطلّعا إلى كوسم الذي علقت عيناه على أخيه وكأنه يقول في نفسه : «كيف سيخرج من هذه الورطة التي نحن فيها؟»

والواقع أن شخصاً واحداً يمكنه أن يدرك كبر منطلق لوران روجيري ودهاءه ، ليس هو الملك ولا خليلته الشابة اللذين بهرهما العجوز بجرأته ، وإنما هو كوسم روجيري الداهية ، فبالرغم من أنه يفوق بذكائه أمهر من في البلاط ، بل ربما فاق كاترين دي مديسي حاميته ، فإن الفلكي يعتبر أخاه معلماً له .

كان هذا العالم الشيخ المتكتم في عزلته، قد خبر الملوك، وجميعهم تقريباً قد سئموا حركة السياسة المستمرة، التي كانت أزماتها في ذلك العصر كثيرة المفاجآت، والحدة، والاضطرام، وعدم التوقع. كان يعرف ضجرهم، ومللهم من الأشياء، ويدرك بأية حرارة يتابعون مايبدو غريباً، أو جديداً أو خارجاً عن المألوف، وبصورة خاصة مدى حبهم لأن يوجدوا في وسط ثقافي، ليتجنبوا البقاء دائماً في صراع مع الرجال والأحداث. فأمام أولئك الذين أضنتهم السياسة لايبقى إلا الفكر الصافي: وقد برهن شارل كنت على ذلك بتنازله عن العرش، بينما راح شارل التاسع ينظم الشعر ويطرق السيوف ليتملص من قضايا عصر مضنية، ليس موضوع العرض فيه أقل طرحاً للمناقشة من موضوع الملك، وحيث الملكية لاتعود إلا بالهموم بدلاً من أن تمنح المسرآت، وهاهو الآن يوقظ بشدة بالنفي الجريء لسلطته الذي سمح لوران لنفسه به. والزندقات الدينية ليس فيها أبداً مايدهش في زمن كانت الكاثوليكية فيه عرضة للنقد الشديد. لكن أن يكون الانقلاب على مذهب ديني أساساً لمحاولات هوجاء في فن غامض فهذا مايثير الملك بشدة وينتزعه من اهتماماته القائمة، ثم إن فوزاً يتعلق بالإنسان ككل هو هدف يجعل كل مصلحة مادية أخرى تافهة في أعين الروجيريين. بهذه الفكرة التي يجب إقناع الملك بها تتعلق تبرئة لايمكن للأخوين المطالبة بها إنما يجب الحصول عليها! فالأمر الرئيس هو دفع الملك إلى نسيان شكوكه وتوجيه اهتمامه إلى فكرة ما.

لم يكن الايطاليان يجهلان أن الرهان في هذه المغامرة الفريدة هو علي حياتهما بالذات، وهكذا فإن النظرات المهذبة والمعتزة في آن معاً التي كانا يتبادلانها مع نظرات ماري والملك النافذة والحذرة، كانت تشكل بذاتها مشهداً كاملاً[١].

قال لوران روجيري: «سيدي، طلبت مني الحقيقة، لكن لإظهارها لك عارية، يجب أن أبين مدى عمق البئر المتوجب سبره، واللجة التي يجب أن تخرج

---

(١) بهذا الاستهلال يحيط بلزاك بالغموض المديح الذي يكيله لوران للكيمياء القديمة، كما يذكّر بتفاهم الأخوين الإيطاليين بالإشارات والتعليقات المبهمة.

منهـا، فليغفر لي النبيل والشاعر الكلمات التي قد يعتبرها ابن الكنيسة البكر تجديفاً! فأنا لا أعتقد أن الله يهتم بالأشياء البشرية[1].

بالرغم من أن الملك كان عازماً على أن يحافظ على وقاره الملكي، فإنه لم يستطع أن يمتنع عن إبداء حركة دهشة. بينما تابع لوران روجيري كلامه: «دون هذا الاعتقاد لن يكون لي أي إيمان بالمهمة الخارقة التي نذرت نفسي لها، لكن من أجل متابعتها يجب الإيمان بها، وإذا كانت إصبع الله تتحكم بكل شيء، فأنا إذا مجنون. فليعرف الملك إذاً! إن الأمر يتعلّق بفوز يجب تحقيقه على المسيرة الحالية للطبيعة البشرية. إنني كيميائي ياسيدي، لكن لايخامرك الظن، كالعوام، أنني أحاول الوصول إلى صنع الذهب! إن التوصل إلى الذهب ليس هو الهدف، بل هو أمر عارض قد تصادفه أبحاثنا، وإلا لما سميت محاولتنا المهمة الكبرى. فالمهمة الكبرى إذا أمر أجلُّ من صنع الذهب. فإذا اقتنعت اليوم بوجود الله في المادة، ففي رأيي أن لهب الأفران المشتعل منذ قرون يجب أن ينطفىء غداً! لكن إنكار التدخل المباشر لله، لايعني إنكار الله نفسه، وأرجو عدم الخلط بين الأمرين. إننا نضع خالق كل شيء في مكان أسمى بكثير مما تريد الديانات أن تحطّه إليه. فلا تتهموا بالإلحاد أولئك الذين يسعون إلى الخلود. وعلى مثال لوسيفر[2] نحن نغار من الله، والغيرة تشهد على حبّ عنيف! وبالرغم من أن هذا المبدأ هو أساس أعمالنا فليس جميع التابعين مشربين به، فكوسم - وأشار العجوز إلى أخيه - كوسم هذا تقيٌّ ورع. يسدد ثمن قداديس لراحة نفس والدنا، ويذهب إلى الكنيسة لحضورها. ففلكي أمك يؤمن بألوهية المسيح، وبالحبل بلادنس، وبتحولّ القربان، وهو يؤمن بغفران البابا، وبالجحيم، وبلا محدودية الأشياء . . .

إن ساعته لم تأت بعد! إذ أنني كشفت عن طالعه، فسيعمر حتى المئة تقريباً: وسيعيش عهدين ملكيين آخرين. وسيشهد مقتل ملكين من ملوك فرنسة[3].

---

(١) هذا النوع من النفي من مميزات الشخصيات البلزاكية دون أن يكون بالضرورة ذا علاقة بفكر الكيميائيين القدماء.

(٢) - لوسيفر أحد الأسماء التي تطلق على الشيطان.

(٣) - هنري الثالث في العام ١٥٨٩ وهنري الرابع في العام ١٦١٠.

«من هما؟» سأل الملك . أجاب لوران :

«آخر آل ڤالوا ، وأول آل بوربون ، لكن كوسم يشاركني آرائي ، فالواقع أن من المستحيل أن يكون المرء كيميائياً وكاثوليكياً ، وأن يكون مؤمناً بسيطرة الانسان على المادة ، وبسيادة الروح .

قال الملك وقد بدت تقطيبة رهيبة بين حاجبيه : «أيعمر كوسم حتى المئة؟» .

أجاب لوران بمنتهى اليقين : «نعم ياسيدي ، وسيموت بكل طمأنينة وعلى سريره[1] .

قال الملك : «إذا كنت تملك القدرة على معرفة لحظة موت أخيك ، فكيف تجهل نتيجة أبحاثك؟»

ابتسم شارل التاسع بهيئة المنتصر وهو ينظر إلى ماري توشه .

تبادل الأخوان نظرة غبطة سريعة كانت تعني : «إنه يهتم بالكيمياء ، و لقد نجونا» .

أجاب لوران : «إن تشخيصاتنا تستند على الوضع الحاضر للعلاقات الموجودة بين الانسان والطبيعة وأبحاثنا تتعلق تماماً بتغيير كلي لهذه العلاقات» .

استأنف الملك : إذا كنتما متأكدين من الموت ، فأنتما متأكدان من إخفاقكما .

أجاب لوران وهو يرفع يده ويتركها تسقط بحركة مفخمة واحتفالية : كما كان أسلافنا !

إن فكركم قد قفز إلى نهاية مطاف العلم ياصاحب الجلالة ، بينما يجب العودة القهقرى ، وإذا لم تتعرفوا على الأساس الذي قام عليه بناؤنا ، فيمكنك أن تقول إنه سينهار ، وتحكم على العلم الذي رعاه كبار الرجال كحكم الإنسان العامي» .

بدرت من الملك إشارة موافقة ، وتابع لوران : «أنا أعتقد أن هذه الأرض تعود للانسان ، وأنه سيدها ، ويمكنه أن يحوز على جميع قواها ، وجميع عناصرها ، إن

(١) هذه المعلومة مستمدة من «**السيرة الشاملة**» لميشو .

الإنسان ليس مخلوقاً خرج مباشرة من بين يدي الله، إنما هو نتيجة مبدأ بذر في ما لانهاية الأثير حيث تتكاثر آلاف الخلائق، وما من واحدة تشبه الأخرى بين كوكب وكوكب، لأن شروط الحياة تختلف فيها. نعم ياصاحب الجلالة، إن الحركة الحاذقة التي نسميها الحياة قد استمدت منبعها مما وراء العوالم المرئية، وقد تقاسمتها الخلائق وفق الأوساط التي تقيم فيها، وأقل الكائنات تساهم فيها وتأخذ منها قدر ماتستطيع أن تأخذ، وعلى مسؤوليتها: وعليها أن تدافع عن نفسها ضد الموت. والكيمياء هنا بكليتها. فإذا كان الإنسان، وهو الحيوان الأكثر كمالاً على هذه الأرض، يحمل في ذاته جزءاً من الله، فإنه لن يهلك. لكننا نرى أنه هالك، من أجل الخروج من هذه الصعوبة، اخترع سقراط ومدرسته الروح، أما أنا، خليفة العديد من كبار الملوك المجهولين، الذين حكموا هذا العلم، فإنني من أنصار النظريات القديمة، ضد الجديدة، فأنا مع تحولات المادة التي أراها، ضد الخلود المستحيل للروح التي لاأراها، أنا لا أعترف بعالم الروح، فلو وجد هذا العالم، فإن العناصر التي تكون باجتماعها الرائع جسمكم، والتي هي في تمام بهائها لدى السيدة، لاتتسامى بعد موتكم لتعود منفصلة كل منها إلى أصلها البدائي، الماء إلى الماء، والنار إلى النار، والمعدن إلى المعدن، مثل فحمي الذي حين يحترق، تعود عناصره إلى جزيئاتها الأولية. وإذا ادعيتم أن شيئاً ما فينا يخلُد، فهذا ليس نحن، لأن كل ماهو أنا الحالي يهلك! والحال أن ماأريد أن أجعله يستمر إلى مابعد الأجل المحدّد لحياته هو الأنا الحالي! فالتحول الحاضر هو ما أريد أن أؤمن له أكبر مدّة ممكنة. ماذا! الأشجار تعيش قرونا، والناس لايعيشون إلا سنوات، بينما بعضهم منفعلون بعضهم الآخر فاعلون، هولاء ساكنون، لاينطقون، واولئك يتكلمون ويسيرون. ليس لمخلوق على هذه الأرض أن يفوقنا، لا في القدرة ولا في المدة. سبق لنا أن وسعنا حواسنا، ونحن نرى الآن ما في الكوكب! فينبغي أن نتمكن من أن نمدّ في عمرنا! قبل القدرة، أضع الحياة. ما فائدة السلطة إن كانت الحياة تنقصنا؟ على الإنسان العامل، في اهتماماته، ألا يفتش عن وجود حياة أخرى، وإنما عن السرّ الذي يستند عليه شكل حياته الحالية ليمدَّ بها هواه! تلك هي الرغبة التي شيبت شعري، لكنني أسير ببسالة

في الظلمات، وأنا أقود في هذه المعمعة العقول التي تشاركني في إيماني. وستكون الحياة في يوم ما لنا[1].

هتف الملك وهو ينهض بشكل مباغت: «ولكن كيف؟»

قال لوران: أول شرط في إيماننا هو الاعتقاد بأن الكون للانسان. يجب موافقتي على هذه النقطة.

أجاب شارل دي فالوا المتلهف وقد فتن: حسن، فليكن.

- الواقع ياصاحب الجلالة، أننا إذا أبعدنا الله عن هذا العالم، فماذا يبقى؟ الإنسان! فلنفحص عندئذ مجالنا، إن العالم المادي مكون من عناصر، وهذه العناصر لها بالذات جواهر، وهذه الجواهر تنتهي إلى جوهر فرد مجّهز بحركة. والعدد ثلاثة هو صيغة الخلق: المادة، والحركة، والناتج[2].

هتف الملك: «حسبك هذا! ماهو برهانك؟»

أجاب لوران: ألا ترون النتائج؟ لقد وضعنا في بوتقاتنا الثمرة التي ينبغي أن تنتج عنها شجرة البلوط، ووضعنا معها الجنين الذي ينتج الإنسان، أعطى هذا القليل من المادة عنصراً نقياً يجب أن ترتبط به قوة، حركة ما. ألا ينبغي لهذا العنصر مع عدم وجود خالق، أن يطبع في ذاته الأشكال المتنضدة التي تشكل عالمنا؟ إذ أن ظاهرة الحياة في كل مكان واحدة. نعم، بالنسبة للمعادن كما بالنسبة للكائنات، بالنسبة للنباتات كما بالنسبة للبشر، تبدأ الحياة بجنين دقيق جداً ينمي ذاته. هنالك جوهر بدائي، فلنلتقطه في النقطة التي يبدأ فيها بالتأثير على ذاته، حيث يكون واحداً،

---

(١) - هذا الخطاب المعبّر عن أحلام وفضول بلزاك يبقى محتمل الوقوع، إذ نجد فيه طموح الكيميائيين القدماء كما عبر عنه أحدهم وهو هستو دي نويزمن في «قصيدة فلسفية عن حقيقة الفيزياء المعدنية (١٦٢٠)» وأيضاً في «المفصّل في الموافقة والتركيب العام للملح الحقيقي، سر الفلاسفة والروح الكلي للعالم (١٦٢١)».

(١) - سبق لبلزاك بين ١٨٣٢ - ١٨٣٤ أن رسم نظاماً للكون يعطي هنا الأساس فيه: انظر، لويس لامبر، سرافيتا، البحث عن المطلق.

حيث يكون عنصراً قبل أن يصبح مخلوقاً، سبباً قبل أن يكون نتيجة، سنراه عند ذلك مطلقاً، دون شكل، قادراً على أن يتخذ كل الأشكال التي نراه فيها. عندما نتمكن من أن نقف وجهاً لوجه أمام هذه القسيمة الذرية، ونتمكن من التقاط الحركة في بدء انطلاقتها، سنعرف قوانينها[١]، سنكون إذ ذاك السادة فنفرض عليها الشكل الذي يروق لنا، من بين جميع الأشكال التي نراها لها، وسنمتلك الذهب لنمتلك العالم، وسنمد حياتنا قروناً لنستمتع بها، وهذا ما نبحث عنه أنا وشعبي، وجميع قوانا، وجميع أفكارنا مسخرة لهذا البحث، وما من شيء يلهينا عنه. فكل ساعة تبدّد في هوى آخر تعتبر سرقة من مجدنا! إذا كنت لم تفاجىء يوماً أحد كلابك وقد غفل عن الطريدة، وعن حصته من الصيد، فأنا بدوري لم أجد مرّة أحد رعاياي الجلودين تلهيه امرأة أو مصلحة جشعة، وإذا كان تابعي يريد الذهب والقدرة، فهذا الطموح يوظف لحاجاتنا: إنه يلتقط ثروة، كالكلب الظمآن يلعق وهو يجري شيئاً من الماء، ذلك أن أفراننا تحتاج إلى الماسة لصهرها أو إلى سبائك لسحقها ذروراً. ولكل مهمته! فهذا يتقصى سرّ الطبيعة النباتية، ويرقب حياة النباتات البطيئة، فيسجل تكافؤ الحركة في جميع الأنواع ويقارنها مع مكافيء التغذية، إنه يجد حاجتها كلها للشمس، والهواء، والماء، لتخصب وتتكاثر وتتغذى. وذاك يفحص دم الحيوانات. وثالث يدرس قوانين الحركة العامة وعلاقاتها مع حركة الأجرام السماوية، وجميعهم تقريباً منصبون على مصارعة طبيعة المعدن العصيَّة الحرون. فإذا صادفنا عدة عناصر في جميع الأشياء، فإننا نجد المعادن كلها مماثلة لذاتها في أدقّ الصفات، ومن هنا الخطأ المشترك في كافة أعمالنا. أترى هؤلاء المكدّين جميعاً، هؤلاء المصارعين الجلودين، المقهورين دائماً، وهم يتابعون الصراع بشكل دائم! إن الإنسانية جمعاء، ياصاحب الجلالة، خلفنا، كقائد كلاب الصيد خلف الرهط، تصرخ بنا: «اسرعوا! لاتهملوا شيئاً! ضحوا بكل شيء، حتى بشخص ما، أنتم الذين تضحون بأنفسكم! أسرعوا! اضربوا هامة الموت وذراعه، فهو عدونا!» نعم

(١) - يمزج بلزاك هنا مع ذكرى الأبحاث الكيميائية القديمة، الفرضيات الأكثر حداثة للكيمياء الاتحادية المطوّرة في عصره خاصة من قبل جان - باتيست دوما.

ياصاحب الجلالة، إننا مدفوعون بعاطفة تعانق سعادة الأجيال المقبلة، لقد دفنا عدداً كبيراً من الرجال، وأي رجال! ماتوا في هذا المسعى. إننا ونحن نضع القدم في هذا الطريق، يمكن ألا نعمل لأنفسنا، فقد نهلك قبل أن نكتشف هذا السر، وأي موت لمن لايعتقد بحياة أخرى! إننا شهداء قديسون، نحمل أثر الجنس البشري في قلوبنا، ونحيا في أخلافنا، نكتشف ونحن نشق الطريق أسراراً نجهز بها الفنون العمليّة والفنون الجميلة، فمن أفراننا ينبعث بريق يجهز المجتمعات الصناعية الأكثر تقدماً، فالبارود قد نتج عن أنابيقنا، وقد سيطرنا على الصواعق. وهناك انقلابات في السياسة نتيجة لليالينا الساهرة المجدة. هتف الملك وهو ينهض مجدّداً وبسرعة عن كرسي عرشه: «أهذا ممكن؟» قال السيد الأكبر لفرسان المعبد الجديد: «ولم لا! قد رأيت الشغل الذي أعطاه الله بني البشر ليشتغلوا به، صنع الكلّ حسناً في وقته وأيضاً جعل الأبدية في قلبهم[١]».

مرة أخرى، اسمعها: الإنسان سيد العالم، والمادة طوع يده. جميع القوى وجميع الوسائل تحت تصرفه. من خلقنا؟ حركة! أية قدرة تصون الحياة فينا؟ حركة! لماذا لايتمكن العلم من أن يقتنص هذه الحركة؟ ما من شيء في هذا الكون يضيع، ما من شيء ينفلت من كوكبنا ليضيع خارجه، وبوجه آخر فالنجوم يتساقط بعضها على بعضها الآخر، كما مياه الطوفان تتجمع في عناصرها، فلا تضيع منها نقطة واحدة. اذاً حولنا، تحتنا، وفوقنا، العناصر التي خرجت منها الملايين التي لاحصر لها من البشر الذين وطئوا هذه الأرض قبل الطوفان وبعده، ما المراد بذلك؟ مقابل مفاجأة القوة التي تفرقنا، سنفاجىء تلك التي تجمعنا. نحن ناتج صناعة مرئية. عندما غمرت المياة كوكبنا، خرج منه أناس وجدوا عناصر حياتهم في غلاف الأرض، في الهواء، وفي غذائهم. فالأرض والهواء يمتلكان إذاً جوهر التحولات الإنسانية، فهذه التحولات تتم تحت أعيننا، بما هو تحت أعيننا، يمكننا إذا أن نتوصل إلى هذا السر، بعدم اقتصار الجهود في هذه الأبحاث على شخص واحد، وإنما بجعلها تمتد عبر الانسانية بالذات. فنحن ندخل اذن في عراك مع المادة التي أؤمن بها وأريد وأنا

(١) - سفر الجامعة «الاصحاح الثالث ١٠، ١١».

الموجه الأكبر لفريق البحث أن أنفذ إليها. إن كريستوف كولومب قد اكتشف عالماً جديداً لملك اسبانية. وأنا أبحث عن شعب خالد لملك فرنسة! وأنا إذ أقف في مقدمة الحدود الأكثر بعداً التي تفصلنا عن معرفة الأشياء، وكملاحظ دؤوب للذرات، أهدم الأشكال، وأفرق الروابط في كل اندماج. إنني أحاكي الموت لأتمكن من محاكاة الحياة!

وأنا أخيراً أطرق دون انقطاع باب الخلق، وسأستمر في طرقه حتى آخر يوم في حياتي. وحين أموت فإن مطرقتي ستنتقل إلى أيد أخرى، هي بدورها لاتكل، كأيدي أولئك العمالقة المجهولين الذين سلّموني إياها[1]. صور أسطورية غير مفهومة مماثلة لأساطير برومثيوس، وأكسيون، وأدونيس، وپان، وغيرهم[2]، وهي تشكل جزءاً من المعتقدات الدينية في كل البلدان، وكل الأزمنة، تنبئنا أن هذا الأمل قد تولد مع السلالات البشرية في بلاد الكلدان، والهند، وفارس، ومصر واليونان، والمغرب، ومنها انتقل السحر، العلم الأسمى بين علوم العرافة

---

(١) - إن الكيميائيين القدامى ينتسبون عن طيبة خاطر إلى أسلافهم الأكثر قدماً، وقد ساد الاعتقاد في القرنين السابع عشر والثامن عشر أنهم كانوا متجمعين ويتجمعون دائماً في منظمات سرية ينقلون إليها علومهم.

(٢) - في الأساطير أن برومثيوس سرق النار السماوية، وإكسيون أراد استمالة جومون، وهما يمثلان الإنسان في سعيه لتجاوز حدود قدراته، وأدونيس وقد تحير بين بروزربين وڤينوس مات ليبعث من جديد. وبان قد جسّد الروح الكلية، والمادة الفعاله في العالم، وكلاهما يستحضر قوة الاستعداد الحيوي. وهذه الأسماء التي يستذكرها لوران تتوافق مع تقاليد الكيميائيين القدماء الذين يفتشون في الأساطير والحكايات العتيقة عن جذور فنهم.

(نشير إلى أن: **بروميثوس** هو ربُّ النار والحضارة في الأساطير الإغريقية

إكسيون: هو ملك لا بيت وقد ألجأه زيوس إلى جبل أولمب لكن **هيرا** غضبت عليه فعلّق على دولاب ملتهب يدور إلى ما لا نهاية.

جونون: ربّة الزواج الإيطالية وهي تقابل هيرا الإغريقية.

أدونيس: رب الجمال عند الفينيقيين وقد جرحه خنزير بري جرحاً مميتاً فحولّته أفروديت إلى زهرة شقائق نعمان تتجدّد كل عام.

بروزربين: ربّة الزراعة عند الرومان

ڤينوس: ربّة الحبّ عند الرومان تقابلها أفروديت عند الإغريق.

پان: ربّ الرعاة في مقاطعة أكارية الإغريقية وقد اعتبره الفلاسفة الرواقيون مجسّداً للحياة الكليّة).

والتنجيم، الذي يحفظ كوديعة ثمرة جهود كل جيل وسهر لياليه، من هنا كانت رابطة المؤسسة الجليلة الكبرى الرهبانية فرسان المعبد[1]. بإحراق هؤلاء الفرسان، ياصاحب الجلالة، لم يحرق أحد أسلافك إلا الرجال أما الأسرار فقد بقيت لنا. إن إعادة بناء الهيكل هي كلمة السرّ لأمة مجهولة، سلالات بحاثة بسلاء، توجهوا جميعاً نحو مشرق الحياة، جميعهم أخوة، وجميعهم متعاضدون، توحدهم فكرة، ويسمهم طابع العمل الدؤوب. أنا عاهل هذا الشعب، وأول من اختير بالانتخاب لا بالولادة، أوجههم جميعاً نحو خلاصة الحياة! فالمعلم الأكبر، والصليب - الوردي[2]، والرفقاء[3]، والنصراء، كلنا، نلاحق هذا الجزيء غير المحسوس، الذي يهرب من أفراننا، وما يزال يدق عن أنظارنا، لكننا سنعد له أعيناً ستكون أكثر استطاعة من الأعين التي وهبتنا إياها الطبيعة، سندرك الندرة الأولية. العنصر الجسيمي الذي بُحِثَ عنه بإقدام من قبل جميع الحكماء الذين سبقونا في تلك المطاردة السامية. ياصاحب الجلالة، عندما يركب رجل هذه اللجّة، ويطلب من غواصين بمثل شجاعة أخوتي سبر أغوارها، فإن المصالح البشرية الأخرى تبدو ضئيلة جداً، وهكذا فنحن لانشكل خطراً، فالمنازعات الدينية والمشادّات السياسية بعيدة عنا، ونحن أرفع منها، فمن يصارع الطبيعة، لايهبط إلى مستوى الأخذ بخناق بعض الرجال، ومن جهة أخرى فإن كل نتيجة لايستهان بها في علمنا، ويمكننا أن نقدّر جميع نتائجها، ونتنبأ عنها، بينما كل شيء متقلّب في التركيبات التي يتدخل فيها

---

(١) - رهبانية فرسان المعبد العسكري التي هدفت في البدء لحماية حجاج الأرض المقدسة وصلت إلى درجة من الغنى والقوة أقلقت المملكة، وقد أتهم أفرادها بالهرطقة وتدنيس المقدسات بالكشف عن أسرار طقوس مساراتهم. وقد حوكموا في عهد فيليب ليبل من قبل محاكم التفتيش وأحرق زعيمهم الأكبر جاك دي مولاي في العام ١٣١٤، وفي نهاية القرن الثامن عشر وحتى أيام لويس فيليب، فإن أحد المحافل الماسونية كان يدعي وراثة مبادئهم السرية: وهكذا فإننا نفهم سبب اعتبار لوران أنهم من أسلافه.

(٢) - لقب أطلق على الكيميائيين القدماء، لكن لم يجر ذكره في فرنسة قبل العام ١٦١٠، إنما يقال إن جمعيتهم قد تأسست في القرن الرابع عشر من قبل كريستيان روزنكروز الذي اطلع على علوم السحر والتنجيم في بلاد الكلدان ومصر وليبيا.

(٣) - لقب كان يطلق على الصناع الكيميائيين المساعدين في التجارب ولم يصلوا إلى مرتبة «معلم» كما أنه يطلق على المتسببين للجمعيات ويخضعون لشعائرها.

البشر ومصالحهم. سنذلّل الألماس في بوتقاتنا فنصنع الألماس، ونصنع الذهب، كما فعل أحد زملائنا في برشلونة، مراكب بقليل من الماء والنار[1]! سنستغني عن الرياح، سنصنع الريح، ونصنع النور، ونجدّد شكل الامبراطوريات بصناعات جديدة، لكننا لن ننزل أبداً إلى مستوى اعتلاء عرش تعذّبنا فيه الشعوب.

بالرغم من رغبة الملك بألايفاجأ بحيل الفلورنسيين الماكرة، فإنه وخليلته الساذجة قد طوقتهما وبهرتهما مواربات هذر هذا المشعوذ وخباياه، وعبرّت عينا العاشقين عن الافتتان الذي سببه لهما مرأى هذه النفائس الغامضة تنبسط أمامهما في وصف خيّل اليهما فيه أنهما في تلاحق سراديب ملأى براصدي كنوز في زحمة العمل. وبدّدت تلهفات الفضول احتراسات الشك فهتف الملك:

«ولكنكما سياسيان كبيران، وبإمكانكما تنويرنا»

أجاب لوران متصنعاً البراءة: «كلا ياصاحب الجلالة»

سأل الملك: «لماذا؟»

- سيدي، لم يوهب شخص التنبؤ عما سيحدث لتجمّع بضعة آلاف من الأشخاص: فبوسعنا أن نقول ماذا يفعل إنسان، وكم من الزمن سيعيش وهل سيكون سعيداً أم تعيساً، لكننا لانتمكن من أن نعرف كيف ستتصرف عدة إرادات مجتمعة، وحساب الحركات المترجّحة لمصالحها أمر أصعب أيضاً، إذ أن المصالح هي الناس والأشياء معاً، إنما يمكننا مع العزلة ملاحظة الخط العام للمستقبل. إن البروتستنتية التي تضنيكم سيصيبها الضنى بدورها عبر نتائجها المادية التي ستغدو نظريات في حينها.

إن أوروبة الآن في نزاع ديني، وغداً ستهاجم الملكية.

- هكذا فإن سان بارتلمي تعتبر إنجازاً كبيراً!...

---

(١) - هو سلمون دكو الذي نشر كتاباً في العام ١٦١٥ بعنوان «أسباب القوى المحركة» وقد نسبت هذه التجربة إلية خطأً إذ أنه من مواليد ١٥٧٦ بينما تعود التجربة إلى العام ١٥٤٣.

- نعم ياسيدي، لأن الشعب إذا انتصر فسيقوم بسان بارتلمي خاصة به وعندما يجندل الدين والملكية، سيتناول الشعب الكبار، وبعد الكبار سيتجه إلى الأغنياء. أخيراً عندما ستغدو أوروبة قطيعاً من البشر دون قوام، لأنها ستكون دون قادة، فستفترس من قبل كبار الغزاة. إن العالم قد كرّر هذا المشهد نحو عشرين مرّة حتى الآن، وأوروبة تعيده. إن الأفكار تفترس القرون، كما تفترس أهواء البشر، وعندما سيشفى الإنسان، فقد تشفى الإنسانية. إن العلم هو روح الإنسانية، ونحن أجباره ومن يهتم بالروح لايبالي كثيراً بالجسد.

سأل الملك: «إلى أين وصلتم؟».

- إننا نسير ببطء، لكننا لانخسر أية غزوة من غزواتنا.

قال الملك وقد ساءه أن يبدو صغيراً في حضرة هذا الرجل: «هكذا، أنت إذاً ملك السحرة؟».

ألقى المعلم الكبير المهيب على شارل التاسع نظرة صعقته وأجاب: «أنت ملك الناس، وأنا ملك الأفكار، أضف إلى ذلك، لو وجد السحرة الحقيقيون لما تمكنتم من حرقهم» ثم أضاف بلهجة ساخرة: «إن لنا نحن شهداءنا أيضاً».

استأنف الملك: لكن بأي الوسائل يمكنكم كشف طالع انسان؟ كيف عرفت البارحة أن الرجل الذي اقترب من نافذتكم هو ملك فرنسة؟ أيّة قدرة سمحت لأحدكما أن ينبىء أمي بمصير أولادها الثلاثة؟ أيمكنك ياسيد هذه العصبة التي تريد أن تعجن العالم أن تذكر لي بماذا تفكرّ أمي في هذه اللحظة؟

- «نعم ياسيدي» بدر هذا الجواب، قبل أن يتمكن كوسم من جذب كمِّ أخيه طالباً منه الصمت.

- «هل تعرف لماذا عاد أخي ملك بولونية؟»

- لماذا؟

- ليأخذ مكانك.

نهض الملك فجأة غاضباً، وراح يزرع القاعة جيئة وذهاباً بخطا واسعة وهتف: «إن ألدّ أعدائنا هم أقرباؤنا، ليس للملوك أخوة، ولا أبناء، ولا أم. لقد كان كولينيي على حقّ عندما قال لي: إن جلادي ليسوا في امكنة المواعظ وإنما هم في اللوفر، إنكما إما دجالان أو من قتلة الملوك! جاكوب، نادِ سولرن!.

قالت ماري توشه: «سيدي، أعطيت كلمة شرف للروجيريين. لقد أردت أن تتذوق شجرة العلم. فلا تتذمر من مرارتها.

ابتسم الملك وهو يبدي استخفافاً مراً، وجد ملكه المادي صغيراً أمام هذا الملك الفكري الواسع للوران روجيري العجوز. فشارل التاسع يمسك بصعوبة بمقاليد الحكم في فرنسة، بينما يسيطر زعيم الصلبان الوردية على عالم مثقف طيّع.

تابع الملك: «كن صريحاً، ولك كلمة شرف مني، في حال كون جوابك يعتبر اعترافاً بجرائم مروّعة، بألا تترتب عليه أية إدانة. هل تهتمان بالسموم؟

- لمعرفة مايبعث الحياة، يجب معرفة ما يسبب الموت.

- أنتما تمتلكان سرّ سموم عديدة.

- نعم، ياصاحب الجلالة: إنما نظرياً، وليس بطريقة عملية، إننا نعرفها ولكننا لانستخدمها.

قال الملك لاهثاً: «هل طلبت والدتي شيئاً منها؟»

أجاب لوران: ياصاحب الجلالة، إن الملكة كاترين أذكى من أن تلجأ إلى مثل هذه الوسائل. إنها تعرف أن العاهل الذي يستخدم السمّ يموت بالسم، فال بورجيا وكذلك بيانكا دوقة توسكان الكبيرة يقدمون مثالاً شهيراً على الأخطار الناجمة عن هذه المصادر البائسة[1]. كلّ شيء يُعرف في البلاط! يمكنك أن تقتل شيطاناً بائساً،

---

(١) - من آل بورجيا الكسندر السادس (١٤٣١ - ١٥٠٣) يعتبر ممن سمّم عدداً كبيراً من أعدائه، قبل أن يتناول هو بالذات شراباً مسمّماً كان قد دبره لأحد الكرادلة.

أما بيانكا كابلو (١٥٤٢ - ١٥٨٧) التي كانت تطمح لأن تغدو دوقة توسكان الكبيرة، فقد ماتت مع زوجها فجأة، وبعد معاناة آلام حادة، عقب وليمة دعت إليها عمّ زوجها الكردينال فرديناند دي مديسي الذي كان من معارضي الاعتراف بهذا الزواج.

فما الحاجة إلى السم؟ لكن هل هناك أي حظ من السرية في مهاجمة الأشخاص المرموقين؟ من أطلق النار على كولينيي؟ لايمكن أن يكون إلا أنت أو الملكة أو دي غيز. ما من إنسان ينخدع هنا. ثق بعدم القدرة على استخدام السمّ مرتين في السياسة دون عقاب. إذ أن للأمراء دائماً ورثة. أما الصغار، فإذا غَدَوا، كلوثر مثلاً، أسياداً بقوة الأفكار، أصبح من غير الممكن قتل مبادئهم بالتخلص منهم[1]، إن الملكة من فلورنسة وهي تعرف أن السمّ لايمكن أن يكون إلا سلاح انتقام شخصي، وأخي الذي لم يفارقها منذ مجيئها إلى فرنسة يعرف كم سببت لها السيدة ديان من شجون، ولم تفكر يوماً بالعمل على تسميمها، وقد كان باستطاعتها ذلك، ألم يقل الملك والدكم: «ليس من امرأة تمتعت بملء الحق مثلها، أو كانت أكثر يقيناً من إفلاتها من القصاص» ورغم ذلك فالسيدة دي فالنتينوا ماتزال حيّة ترزق.

قال الملك: والتمثيل بالدمى؟[2].

أجاب كوسم: ياصاحب الجلالة، إن هذه الأشياء برئية فعلاً، فلأجل إرضاء بعض الأهواء الهوجاء، نحن نُقِر بها، كالأطباء الذين يقدمون أقراصاً من فتات خبز إلى المرضى بالأوهام. إن امرأة في قنوطها تعتقد أنها إن غرزت سهماً في قلب صورة. فإنها تسبِّب مصيبة لحبيبها الخائن الممثل برأس الصورة. ماذا تريدون؟ هذه ضريبة ترتبت علينا!.

قال لوران روجيري وهو يبتسم: «إنّ البابا يبيع رسائل غفران!».

– هل مارست أمي التمثيل بالدمى؟.

– مافائدة هذه الوسائل اللاأخلاقية، بالنسبة لمن تستطيع كل شيء.

سأل الملك وهو مقطب الجبين: هل تتمكن الملكة كاترين من انقاذكما في هذه اللحظة؟.

---

(١) – سبق للملك أن استخدم مثل هذه العبارة: «يمكن قتل الاشخاص إنما لايمكن قتل الكلمات».

(٢) – في هذا تلميح إلى ماقيل بان كوسم روجيري قدّم للاموُل دمية تمثل الملك شارل التاسع وفي قلبه ابرتان مغروزتان.

أجاب لوران روجيري بهدوء: «ولكننا لسنا في خطر ياسيدي، فأنا أعرف قبل دخولي هذا المنزل أنني سأخرج منه سالماً، كما أنني أعرف التدابير السيئة التي سيأمر بها الملك بشأن أخي خلال بضعة أيام، وأن تعرض لبعض الأخطار فإنه سينجو في النهاية. فإن يسد الملك بالسيف، فإنه يَسُدُ بالعدالة أيضاً». أضاف ملمحاً إلى الشعار الشهير على المدالية التي صكّها شارل التاسع[1].

قال الملك وهو يخفي غضبه بتلهف مضطرب: إنكما تعرفان كل شيء، وسأموت قريباً، وهذا أمر طيب، ولكن سيموت أخي، وهو الذي سيكون وفقاً لنبوءتكم الملك هنري الثالث.

- بحادث عنف.

- والسيد آلنسون؟

- إنه لن يملك.

- سيملك هنري دي بوربون إذاً؟

- نعم، ياسيدي

- وكيف سيموت؟

- بحادث عنف أيضاً.

ثم سأل الملك وقد أشار إلى ماري توشه: «ماذا سيحلُّ بالسيدة، بعد موتي؟»

- إن السيدة دي بلفيل ستزوج، ياصاحب الجلالة.

قالت ماري توشه: أنتما دجالان! اطردهما ياسيدي!

ردّ الملك باسماً: «ياصديقتي، إنني أعطيت كلمة شرف للروجيريين» ثم سأل: «هل سيكون لماري أولاد؟»

---

(١) - مدالية وشعار شهيران نقشت عليها صورة الملك وبيده السيف، وهو يدفع برجليه المتمردين وقد كتب عليها: «التقوى تستثير العدالة».

- نعم ياسيدي، وستعيش السيدة أكثر من ثمانين عاماً[1].

قال الملك موجهاً الكلام لخليلته: «هل ينبغي شنقهما؟»

ثم سأل وهو يتوجه لإحضار ابنه: «وابني كونت أوفرني؟»

قالت ماري توشه للأخوين في اللحظة التي بقيت فيها وحيدة معها: «لماذا قلتما له إنني سأتزوج؟»

أجاب لوران بوقار: «سيدتي، طلب منا الملك أن نقول الحقيقة، وها نحن نقولها»

قالت: «هذا صحيح إذا؟»

- بقدر صحة الحب الذي يكنه لك حاكم أورليان حتى يكاد يفقد صوابه.

هتفت: ولكنني لا أحبه أبداً.

قال لوران: «هذا صحيح أيضاً، ياسيدتي، لكن كشف طالعك يؤكد أنك ستتزوجين الرجل الذي يحبك الآن».

قالت وهي تبتسم: ألا تستطيعان الكذب قليلاً من أجلي، فإن اعتقد الملك بتنبؤاتكما. . . !

قال كوسم وهو يوجه لخليلة الملك نظرة ملؤها الدهاء: «أليس من الضروري أن يعتقد ببراءتنا أيضاً، فالاحتياطات التي اتخذت حيالنا من قبل الملك، دفعتنا إلى التفكير خلال الوقت الذي قضيناه في سجنك الجميل، أن افتراءات عديدة قد وُجّهت ضد علوم العرافة والتنجيم.

قالت ماري: كونا مطمئنين، إنني أعرفه، وستتبدّد شكوكه سريعاً.

قال العجوز باعتزاز: «إننا أبرياء».

(١) - وفقاً لشاهدة قبرها التي ذكرها دور دوراديه في «**طرف الملكات**» فإنها توفيت في العام ١٦٣٨، عمرها تسع وثمانون عاماً.

قالت ماري: هذا أفضل، لأن الملك أرسل خبراء في هذه اللحظة لتحرّي مخبركم وأفرانكم ومحتويات قواريركم.

تبادل الأخوان النظرات مبتسمين، واعتبرت ماري توشه مُزاح براءة هذه الابتسامة التي تعني: «يالكما من أحمقين مسكينين، أتعتقدين أنت والملك أن من يعرف تصنيع السموم، يمكن أن يجهل أين يخبئها؟!

سأل كوسم: «أين رجال الملك؟»

أجابت ماري: «لدى رينه»

تبادل لوران وكوسم نظرة تعبّر عن فكرة واحدة: «إن قصر سواسون بعيدٌ عن التحري» نسي الملك شكوكه عندما ذهب ليأتي بابنه، وناوله جاكوب بطاقة مرسلة من شابلن، وفتحها متيقناً إنه سيجد فيها ماطلبه من طبيبه حول زيارة المختبر، وقد أفادت أن محتوياته تقتصر على تجهيزات الكيمياء.

سأل الملك وهو يقدّم ابنه للكيميائيين: «هل سيعيش سعيداً؟»

قال لوران وهو يشير إلى أخيه: «هذا من اختصاص كوسم»

أخذ كوسم يد الطفل وراح ينظر فيها بإمعان شديد.

قال شارل التاسع للعجوز: «إذا كنت تحتاج أيها السيد لنفي الروح للإيمان بإمكانية مشروعك، فاشرح لي كيف يمكنك أن تشك في من منحك القدرة، الفكر الذي تريد أن تلغيه هو المشعل الذي يضيء أبحاثك». ثم هتف الملك المغتبط لاكتشافه هذه الحجة، وهو ينظر بزهو إلى خليلته: آه! آه! أليس معنى هذا أنك تتحرك وتنكر الحركة؟

أجاب لوران روجيري: الفكر هو ممارسة حاسة داخلية، كما أن القدرة على رؤية عدة أشياء، وإدراك أبعادها وألوانها هي ممارسة حاسّة بصرنا! إن هذا لاعلاقة له أبداً بادعاء حياة أخرى. الفكر قدرة تتوقف حتى في حياتنا مع توقف القوى التي تنتجه.

قال الملك مندهشاً: «إنك منطقي، لكن الكيمياء علم ملحد.

- ماديّ ياسيدي، وهذا مختلف كثيراً. الماديّة هي نتيجة المبادىء الهندية المتنقلة مع أسرار إيزيس إلى بلاد الكلدان وإلى مصر، والمحمولة إلى اليونان مع فيثاغورث، أحد أنصاف الآلهة في البشرية: فمذهبه في التحوّلات هو رياضيات المادية، وهو القانون الحيّ لأطوارها. فكل من المخلوقات المختلفة التي تشكل الخلق الأرضي تمتلك القدرة على أن تؤخر الحركة التي تقودها إلى أخرى.

هتف الملك متحمساً: «الكيمياء إذاً هي علم العلوم. أريد أن أراكم وأنتم تمارسون أعمالكم.

- حسبما تشاء ياصاحب الجلالة، ولن تكون أقل صبراً من الملكة والدتكم. .

هتف الملك: آه! هذا هو السبب في محبتها الكبيرة لكما.

- إن بيت مديسي يرعى خفية أبحاثنا منذ أكثر من قرن.

قال كوسم: سيدي، هذا الطفل سيعيش مايقرب من مئة عام. سيواجه عقبات، لكنه سيكون سعيداً ومحترماً كشخص يجري في عروقه دم آل ڤالوا. قال الملك وقد استعاد بشاشته: سأذهب لزيارتكم. يمكنكم الإنصراف. حيا الأخوان ماري وشارل التاسع، وانسحبا، ونزلا برصانة الدرج، دون أن يلتفت أحدهما للآخر أو أن يكلمه، ولم يلتفتا أبداً إلى النوافذ عندما أصبحا في الفناء، متأكدّين من أن عين الملك ترقبهما، ولاحظا بالفعل شارل التاسع على النافذة عندما توجها نحو البوابة على الشارع. عندما أصبح الكيميائي والفلكي في شارع النعامة، التفتا بأنظارهما إلى الأمام وإلى الخلف ليريا إن كان أحد يتبعهماأو يسمعهما، ووصلا حتى حُفَر اللوفر دون أن ينطقا بكلمة. وعندما وجدا نفسيهما هناك، التفت لوران وقال بفلورنسية ذلك الزمن: قسماً بالله لقد استطعنا أن نفتنه تماماً.

قال كوسم: هذا سيدفعه إلى مزيد من التفكير، وعليه أن يخلص نفسه. على أي حال لقد قدّمنا خدمة كبيرة للملكة الأم وعليها معاملتي بالمثل.

بعد عدة أيام من هذا المشهد الذي أثر بماري توشه بقدر تأثيره في الملك، وفي إحدى هذه اللحظات التي يتحرّر فيها الفكر من قيود الجسد باكتمال الفرحِ، هتفت ماري: «شارل، لقد فهمت جيداً لوران روجيري، لكن كوسم لم يقل شيئاً.

قال الملك منذهلاً من هذه اللمعة المفاجئة: «هذا صحيح، كان في خطاباتهما من الحقيقة بقدر مافيها من التزييف، إن لدى هؤلاء الإيطاليين من الطلاقة بقدر ما في الحرير الذي ينتجونه من النعومة.

هذه الريبة تشرح الحقد الذي أظهره الملك ضد كوسم عند النظر في قضية مؤامرة لامول وكوكوناس: فعند اكتشافه أنه أحد الضالعين في هذه المكيدة، اعتقد أن الايطاليين قد تحايلا عليه، إذ تبيّن له أن فلكي أمه لاتقتصر اهتماماته على النجوم، وعلى مسحوق تحويل المعادن إلى ذهب، وعلى الذرة الخالصة. وكان لوران قد ترك المملكة.

رغم شك كثير من الناس بهذه القضايا، فإن الأحداث التي تبعت هذا المشهد، أكدّت النبوءات التي قال بها الروجيريان، فمات الملك بعد ثلاثة أشهر. وتبع الكونت دي غوندي شارل التاسع إلى القبر كما قال له أخوه المارشال دي ريتز صديق الروجيريين المؤمن بتكهناتهما، وتزوجت ماري توشه شارل[١] دي بلزاك مركيز دي انتراغ، حاكم اورليان، ورزقت منه بابنتين، غدت أشهرهما وهي أخت كونت أوفري من أمه. عشيقة لهنري الرابع، وأرادت خلال مؤامرة بيرون وضع أخيها على عرش فرنسة وطرد آل بوربون.

غدا كونت أوفرني دوق أنغولم، وعاش حتى ملكية لويس الرابع عشر، وكان يصكُّ النقود في أراضيه مخففاً من عياراتها، وقد تركه الملك يفعل ذلك احتراماً لدم آل فالوا في عروقه[٢].

---

(١) - سبق أن ذكرنا أنها تزوجت فرنسوا دنتراغ وليس أخاه شارل.

(٢) مفارقة تاريخية إذ أن لويس الرابع عشر كان في الثانية عشر من العمر عند وفاة شارل دي فالوا - دوق آنغولم. إنما يقال إن لويس الثالث عشر كان يسأله مازحاً «كم يربح سنوياً من تزييف النقود».

عاش كوسم روجيري حتى عهد لويس الثالث عشر، وشهد سقوط بيت مديسي في فرنسة، وسقوط ال كونسيني، وقد حرص التاريخ على أن يذكر أنه مات ملحداً أي مادياً أما المركيزة دنتراغ فقد تجاوزت الثمانين عاماً.

تتلمذ على يد لوران وكوسم روجيري الكونت الشهير دي سان جرمن[١] الذي أحدث ضجّة في عهد لويس الخامس عشر، فهذا الكيميائي الشهير عمرّ، على الأقل حتى المئة وثلاثين عاماً، وهو العمر الذي يقدره بعض أصحاب السير لماريون دي لورم[٢]. وقد أمكن للكونت أن يعرف عن طريق الروجيريين بعض حكايات سان بارتلمي، وطُرَفاً عن ملكية آل ڤالوا، التي كان يروق له أن يتحدث عنها بضمير المتكلم وكأنه شهدها. كان الكونت دي سان جرمن آخر الكيميائيين القدامى الذين شرحوا هذا العلم شرحاً جيداً لكنه لم يكتب شيئاً. والمبدأ القبلاني المعروض في هذه القصة صادر عن هذا الشخص الغامض.

شيء غريب! ثلاثة أجيال من البشر، جيل العجوز الذي أدلى بهذه المعلومات، وجيل الكونت دي سان جرمن، وجيل كوسم دي روجيري[٣]، كانت كافية للإحاطة بالتاريخ الأوروبي اعتباراً من فرانسوا الأول حتى نابوليون! يكفي إذاً خمسون مثلها للوصول إلى المراحل الأولى المعروفة من تاريخ العالم. «وما أهمية الخمسين جيلاً لدراسة أسرار الحياة؟» وفقاً لما كان يقوله الكونت دي سان جرمن.

تشرين ثاني - كانون أول ١٨٣٦

---

(١) - وفقاً لمذكرات السيدة دي هوسه (١٨٢٤) أو السيدة دي جنليس (١٨٢٥) اللتين عرفتا الكونت دي سان جرمن وذكرتا أنه كان يبدو في الخامسة والأربعين بينما هو قد تجاوز المئة، وكان يتكلم عن القرن السادس عشر وكأنه عاش فيه، ويمتلك العديد من أسرار الكيمياء ومنها على الأرجح سر أكسير لا طالة الحياة. ويذكر شارل دي هس في مذكراته - التي لم تنشر حتى العام ١٨٦١ - أنه كان من أتباع آخر آل مديسي، لكن ما من أحد يذكر أنه تتلمذ على أحد الروجيريين. ولعل بلزاك أراد من ربط قصته بشخصية لها هذه الشهرة أن يؤمن «لمبدأ القبلانية الذي وضعه في قلبها بعض الأصالة والاستمرارية. وقد توفي في العام ١٧٨٤.

(٢) - ماريون دي لورم: (١٦١١ - ١٦٥٠) امرأة اشتهرت بمغامراتها وجمالها، وقد جعلها فيكتور هوغو موضوعاً لمسرحية شعرية من خمسة فصول في العام ١٨٣١.

(٣) - توفي كوسم دي روجيري في العام ١٦١٥ أي في عهد لويس الثالث عشر.

القسم الثالث

الحُلُمان

الحُلُمان

كان بودار دي سان جمس[1] أمين صندوق البحرية في العام ١٧٨٦ أحد ماليي باريس الذين كانوا يثيرون بترفهم الانتباه والنمائم في المدينة؛ فقد شيّد في تلك الحقبة، في نويي، قصره الشهير[2]، واشترت امرأته لتتويج ظلّة سريرها زينة من الريش أذهلت بثمنها الملكة. كان من السهل آنذاك التلاؤم مع ذوق العصر وإثارة اهتمام باريس حول شخص ما بإطلاق إشاعة أو بنزوة امرأة.

كان بودار يمتلك القصر الرائع في ساحة ڤندوم الذي أخلاه منذ فترة قريبة محصّل الضرائب العام دانجه مرغماً[3]، إذ وافت المنيّة هذا الابيقوري الشهير، وفي يوم دفنه حبكت النكتة مع السيد بيڤر، صديقه الحميم فقال: «الآن يمكن عبور ساحة ڤندوم دون خطر»[4]. كان هذا التلميح إلى المقامرات الكبيرة، الممارسة لدى المرحوم، هو كلّ ماقيل من تأبين في رثائه؛ في ذلك القصر المواجه لوزارة العدل.

لو شئنا أن نوجز بكلمتين قصة بودار، لذكرنا أن هذا الرجل التعس قد أعلن إفلاسه بعجز قدره أربعة عشر مليوناً بعد تفليسة الأمير دي غييمنه.

---

(١) شخصية تاريخية (١٧٣٨ ـ ١٧٨٧) لم يبالغ بلزاك في ماذكره عنها.

(٢) تمّ بناء هذا القصر في العام ١٧٨٦ وهو الآن مع مابقي من المنتزه الذي كان يحيط به يشكل مدرسة ثانوية للبنات في نويي.

(٣) سكن بودار قصر المحصّل العام هوكار دي مونغرمي، في الرقم ١٢ حالياً من الساحة. لكن الممول دانجه كان يسكن أيضاً في ساحة ڤندوم.

(٤) هذه العبارة وردت في مذكرات باشومون «مذكرات سرية ١٧٧٧» ونكتة السيد بيفر تحمل الطباق بين الاسم DANGÉ وكلمة DANGER وهي «الخطر».

والخطأ الذي ارتكبه هو أنه لم يسبق التفليسة الاحتيالية الأميرية - وفقاً للتعبير الذي استخدمه لِبَرن بيندار -[1] فلم يثر انتباه أحد، ومات كما بورفالة، وبوره[2] وعديدين غيرهما في سقيفة.

كان هوس السيدة دي سان - جمس أن تستقبل لديها أصحاب المقامات الرفيعة[3]؛ وهي نقيصة قديمة تتجدّد دائماً. فقبعة البرلمانيين بالنسبة إليها قليلة الأهمية، فهي تريد أن ترى في صالوناتها شخصيات ذات ألقاب ممن يشهدون على الأقلّ الاحتفالات الكبرى في ڤرساي؛ قد يكون من المبالغة القول إن العديد من أصحاب الأوسمة الزرقاء[4] كانوا يؤمّون قصر زوجة المموّل، إنما من المؤكّد أنها نجحت في استقطاب ملاطفات بعض أعضاء عائلة روهن واهتمامهم، كما برهنت على ذلك فيما بعد قضيّة القلادة الشهيرة[5] في إحدى الأمسيات، وهي على ما أعتقد خلال شهر آب ١٧٨٦، دهشت لمصادفتي في صالة تلك المموّلة، المتصنعة الحياء فيما يتعلّق بالأدلّة، وجهين جديدين يبدوان دون مستوى روّاد المنزل؛ فانتحيت عن قصد زاوية نافذة، وسألتها، عندما

---

(١) كان والد بلزاك وهو أمين سرّ مقرّر المجلس الملكي للتجارة هو الذي نظم ضبط تفليسة بودار - وما له وما عليه - في العام ١٧٨٧ أما تفليسة روهن - غيمنه فتعود للعام ١٧٨٢، وقد بلغت ديونه ثلاثة وثلاثين مليوناً. كان الأمير هو الحاجب الرئيس في القصر الملكي وزوجته هي مربية أبناء الأسرة المالكة وهكذا كانت الفضيحة كبيرة نظم فيها لبرن - بيندار وهو أحد من دمرتهم التفليسة قصائد هجائية عديدة منها: «لما الأمير الوسيم، صاحب السمو النصّاب، خفّف عنا ثلاثين مليوناً. . .».

(٢) طبيبان آصابا ثروة أعقبها افلاس. فبورفاله سجن في العام ١٧١٦، وصودرت أملاكه وتوفي في ١٧١٩ وبوره اشتهر بترفه وتبذيره وتوفي مفلساً في العام ١٧٧٧.

(٣) ذكر الأب جيورجل في مذكراته (١٨٢٠) أن سان جمس كان كجميع حديثي الثراء يطمع بالمكانة والشهرة مضحياً في سبيلهما بالمال.

(٤) وسام الفرسان من درجة «الروح القدس» برئاسة الملك. ولايمنح إلا لنبلاء توارثوا اللقب من أجيال عديدة.

(٥) التوقيت غير دقيق: فقضية القلادة تعود إلى ١٥ آب ١٧٨٥ وهو تاريخ توقيف الكردينال دي روهن و٣١ أيار ١٧٨٦ تاريخ إصدار الحكم، وكان بودار قد استدعي كشاهد بعد أن حاول الكردينال أن يستدين منه مبلغاً كبيراً من المال لشراء القلادة، متوهماً أن ذلك بتكليف من الملكة.

جاءت إليّ، وأنا أشير، بطرفة عين مستفسراً، إلى أحد المجهولين:

«أخبريني من يكون هذا «الصنف»؟ وكيف تمّ استقباله لديك؟».

- هذا الرجل شخص ظريف.

- أترينه من ضمن موشور الحبّ، أم أنني منخدع؟

قالت وهي تضحك: «لاتنخدع إنه قبيح كدودة، لكنه قدّم لي خدمة جليلة لاتتوقّع امرأة تلقيها من رجل.

وعندما رأتني أنظر إليها بخبث أسرعت إلى القول: «لقد شفاني تماماً من داء العدّة الوردية الذي كان يصبغ بشرتي بالبقع الحمراء البشعة ويجعلني أشبه بفلاحة» هززت كتفيّ بسخرية وهتفت: «إنّه مشعوذ!».

أجابت: «كلا إنه جرّاح أتباع الأمير، وهو رجل شديد الذكاء، أقسم لك، أضف إلى أنه أديب كاتب؛ وهو عالم طبيب[1].

قلت وأنا ابتسم: «أرجو ألا يكون أسلوبه كوجهه، ومن الآخر؟

أجابت: أي آخر؟

- هذا السيّد القصير القامة، المتكلّف، المتأنّق، النضر كدمية، والذي يبدو كأنه قد شرب عصيراً حامضاً؟!

قالت: إنه رجل من أصل عريق تقريباً، وقد وصل من مقاطعة لم أعد أذكر اسمها! آه! من آرتوا[2]، وهو مكلّف بأن ينهي قضية تعود للكردينال، وقُدّم من

---

(١) هومارا، وقد كان طبيب الحرس الشخصي لكونت دارتوا، وفي العام ١٧٨٠ عرف الشهرة لشفائه بعض الأمراض المستعصية، كما راج اسمه بمناسبة النظريات الجديدة المتعلّقة بالمائع الناري وبالكهربائية.

(٢)تقديم لروبسبيير، لكن يبدو أنه في العام ١٧٨٦ لم يكن قد ترك أراس، إنما اشتهر كمحام وتدخّل في قضايا الكردينال دي رُوهن حيث كانت تقوم بينه وبين رهبان دير سان ـ ڤاست الذي أقطعه إياه البابا قضية تتابعت فصولاً عديدة.

نيافته بالذات للسيد سان ـ جمس. واختار كلاهما سان جمس حكماً؛ ولم يبرهن الريفي بهذا الاختيار عن ذكاء، لكن من هم أولئك المغفلون الذين يكلّفون رجلاً كهذا بقضية؟ إنّه وديع كحمل، وخجول كفتاة، وقلب نيافته عامر بالطيبة نحوه.

- وماهي تلك القضيّة إذاً؟

قالت: مبلغ ثلاثمئة ألف ليرة.

قلت وكأنني أتحفز لوثبة خفيفة: «إذاً فهو محام؟!».

أجابت: نعم.

وبدت وكأنها خجلة من اعترافها المخزي، فتركتني وذهبت لتأخذ مكانها في لعبة فرعونية[1].

كانت جميع طاولات اللعب قد شغلت، ولم يعد لي ماأعمله أو أقوله، وكنت قد خسرت ألفي إكو مع السيد لافال الذي صادفته لدى إحدى الغواني، فتوجهت لأستلقي على أريكة قرب المدفأة، وإذا كان من انسان على وجه الأرض قد أصيب بالدهشة ساعتئذ، فأنا هو بالتأكيد، وذلك عندما لاحظت في الجهة الأخرى من الموقد وفي مواجهتي مراقب المالية العام السيد دي كالون[2]. كان يبدو خامداً مرنّق العينين أو أنه منصرف إلى إحدى تلك التأملات التي تنتاب غالباً رجال الدولة. عندما نبّهت بومارشه[3] القادم إليّ بإشارة إلى وجود الوزير. فسّر لي والد مسرحية فيغارو هذا السرّ دون أن يتفوّه بكلمة،

---

(١) لعبة ورق اشتهرت في أيام لويس السادس عشر وكانت من بين الألعاب التي ساهمت بها الملكة.

(٢) تشير الموسوعة إلى أن المراقب العام كان بمثابة وزير للمالية.

(٣) بومارشه (بيير) «١٧٣٢ ـ ١٧٩٩» كاتب فرنسي، مقامر وفاجر، اشتهر بمضارباته ودعاويه القضائية، ونقده للمجتمع الفرنسي في مسرحياته وأشهرها حلاق اشبيلية (١٧٧٥) وزواج فيغارو (١٧٨٤).

عندما أشار لي بالتناوب إلى رأسي وإلى رأس بودار بحركة فيها بعض المكر، وهي تقوم على توجيه إصبعين من يده نحونا وترك الأصابع الباقية مغلقة. كانت الحركة الأولى التي بدرت مني هي أنني نهضت لأقول كلمة ما قارصة لكالون؛ لكنني توقفت لأنني فكّرت أولاً أن أقوم بحيلة على هذا الأثير؛ ثم إن بومارشه أوقفني بدالّة من يده.

قلت له: «ماذا تريد ياسيدي؟»

أشار لي بطرف عينه إلى المراقب العام. وقال بصوت منخفض: «لاتوقظه فنحن سعداء جداً حين ينام».

قلت: «لكن النوم هو أيضاً خطة مالية».

أجابني رجل الدولة وقد خمّن كلماتنا من حركة الشفاه: «بكل تأكيد، وإن شاء الله سنتمكن من النوم طويلاً، ولن يتمّ هذا الاستيقاظ الذي ستشهدونه».

قال المؤلّف المسرحي: «ياصاحب المعالي، إن لك عليّ واجب الشكر».

- لأي سبب؟

- إن السيد دي ميرابو قد سافر إلى برلين، ولا أعلم إن كنّا في قضية المياه هذه سنغرق كلانا[1].

عقب الوزير بجفاف وقد بدا عليه أنه متكدّر لإفشاء أحد أسراره أمامي:

---

(١) هذا الاجتماع لدى بودار سان جمس الذي ضم كالون وبومارشه والملاحظات المثارة تبدو محتملة في آب ١٧٨٦ فبومارشه وبودار من المساهمين في «شركة المياه» وقد دعم كالون إصدار أسهم جديدة وكان على صلة وثيقة ببومارشه الذي يعتبر حليفاً له، وفي كانون أول ١٧٨٥ بدأ بين بومارشه وميرابو جدل عنيف حول فائدة الشركة، وناور كالون لفترة ضد الشركة، لكنه فرض على ميرابو بعد ذلك إيقاف هجومه، وذهب ميرابو إلى برلين في بداية ١٧٨٦ ثم عاد، لكنه تلقى أمراً جديداً بالخروج من المملكة.

«إن لديك كثيراً[1] من المذكّرات وقليلاً من عرفان الجميل.

قال بومارشه وقد أغضبه ذلك: «هذا ممكن، لكن لي من الملايين ما يمكن أن يدّعم الحسابات بشكل جيد». فتظاهر كالون بأنه لم يسمع هذا الجواب.

توقّف اللعب حوالي الساعة الثانية عشر والنصف، وجلسنا إلى المائدة. وكنا عشرة أشخاص: بودار وزوجته، ومراقب المالية العام، وبومارشه، والمجهولان، وسيدتان جميلتان يجب أن يبقى اسمهما مكتوماً، ومحصّل ضرائب اسمه على ماأعتقد لافوازيه[2] من الثلاثين شخصاً الذين وجدتهم عند دخولي في القاعة، لم يبق إلا هؤلاء المدعوون العشرة، حتى أن هذين الغريبين لم يبقيا على العشاء إلا بعد إلحاح السيّدة دي سان جمس، التي اعتقدت أنها وفت ماعليها تجاه الأول بإطعامه، ودعت الآخر لترضي زوجها الذي كانت تتعمّد الغنج حياله، دون أن أدري سبباً لذلك، فالسيد كالون، بعد كل حساب، كان ركناً قوياً، وإن كان لأحد أن يتكدّر فهو من يحدثكم.

بدأ العشاء مملاً حتى الموت فهذان الشخصان ومحصّل الضرائب سبّبوا لنا الإزعاج. بدرت مني إشارة لبومارشه لأحرضه على أن يُسكر ابن اسكولاب[3] الموجود إلى يمينه، مفهماً إياه أنني سأتكفّل بالمحامي، إذ لم يبق لنا إلا هذه الوسيلة لتسليتنا، وهي تعدنا من جهة هذين الرجلين بسفاهات ستزيد من تسليتنا. وابتسم السيد دي كالون لمشروعي، وخلال ثانيتين شاركت السيّدات الثلاث في مؤامراتنا الباخوسية. وتعهدن بغمزات أعين معبّرة جداً على أن يقمن بدورهن

---

(١) المذكرات التي أطلقها بومارشه ضد خصومه في العدلية بقيت شهيرة وأهمها ماكان ضد كوزمان، في ١٧٧٣ و١٧٧٤ وتحدثت عنها باريس، لكن في هذه القصة التي تعود أحداثها إلى آب ١٧٨٦ فإن تلميح كالون يشير إلى قضية كورنمن التي تعود إلى ١٧٨٧.

(٢) كان لافوازيه فعلاً محصل ضرائب؛ وعبارة ـ على ماأعتقد، تشير إلى ازدراء من قاص ارستقراطي أبقى بلزاك اسمه مكتوماً.

(٣) اسكولاب أو آسكلبيوس: ربّ الطبّ وابن ابولون في الميتولوجية الإغريقية.

الفعّال. وتوّجت خمور سيلّري[1] أكثر من مرّة الأقداح بزبدها الفضي. أبدى الجرّاح بعض التساهل، لكن جاري ذكر لي بعد الكأس الثانية التي أردت صبها له، وبتهذيب مراب بارد أنه لايشرب أكثر من ذلك.

في تلك اللحظة أثارت السيدة دي سان جمس، دون أن أدري مناسبة ذلك، موضوع احتفالات العشاء الفخمة التي أقامها الكونت دي كاغليوسترو لدى الكاردينال دي روهن[2]. لم أكن أوجّه انتباهي لما قالته سيدة المنزل؛ إذ أنني كنت ألاحظ بفضول منيع وجه جاري، منذ أن تلقيت جوابه الحازم؛ هيئته شاحبة تتكلّف اللطف، ميزتها الرئيسة أنف أفطس ومستدق في آن معاً تجعله أشبه بنمس أحياناً. وفجأة تلونّت وجنتاه وهو يستمع إلى السيّدة دي سان جمس وهي تتخاصم مع السيد دي كالون.

قالت بلهجة حاسمة: «أؤكّد لك ياسيدي أنني رأيت الملكة كليوباترة».

أجاب جاري: «إنني أثق بذلك ياسيدتي، فأنا قد تحدثّت مع كاترين دي مديسي».

قال السيد دي كالون: «أوه! أوه!».

هذه الكلمات التي نطق بها ابن المقاطعات القصير كانت بصوت فيه جَهورَية يتعذّر تحديدها؛ إن جاز لنا استعارة هذا التعبير الفيزيائي، هذا الوضوح المفاجىء في نبرة الصوت لدى رجل لم يتكلّم حتى الآن إلا قليلاً، وبصوت منخفض، وبأحسن لهجة ممكنة أدهشتنا إلى آخر حدّ.

هتف الجرّاح وقد جعله بومارشه في حالة من الإنشراح: «ها هو يتكلّم!».

فردّ الناقد الساخر: «لعل جاره حركّ أحد النوابض فيه».

---

(١) سيلري قرب ريمس وهي مشهورة بخمور شمبانية.

(٢) اتهم كاغليوسترو أيضاً في موضوع القلادة، وأوقف بعد الكردينال دي روهن بقليل في ٢٦ آب ١٧٨٥، لكنه كان قد أقام ولائم عشاء فاخرة حيث استحضر للمدعوين الأحياء أرواح أموات شهيرين: سقراط، وهنري الرابع، والسيّدة نينون دي لنكلو، ومونتسكيو وفولتير.

احمرّ وجه جاري قليلاً وهو يسمع هذه الكلمات رغم أنها قيلت همساً.

سأل كول: وكيف كانت المرحومة الملكة؟

تابع المحامي وهو يسند أطراف أصابعه بخفة على المائدة ويرتد بكرسيّه قليلاً الى الخلف، وكأنه يريد التحدّث طويلاً: «أنا لاأؤكد أن الشخص الذي تعشيت معه البارحة كان كاترين دي مديسي نفسها، فهذه المعجزة تبدو مستحيلة بالنسبة لمسيحي وكذلك لفيلسوف؛ ومع ذلك يمكن أن أقسم أن تلك المرأة تشبه كاترين دي مديسي، وكأنّهما أختان. تلك التي رأيتها، كانت ترتدي ثوباً من مخمل أسود مماثل لذلك الثوب الظاهر في الصورة التي يمتلكها الملك؛ ورأسها معتمر بتلك القلنسوة من المخمل المتميّزة جداً، أخيراً كانت بذلك اللون الباهت والوجه الذي تعرفونه، لم أستطع الإمتناع عن إبداء دهشتي لنيافته. لكن سرعة الاستحضار بدت لي مذهلة حتى أن الكونت دي كاغليوسترو لم يستطع تخمين اسم الشخصية التي أردت اللقاء معها. فقد كنت مرتبكاً؛ فسحر المشهد الذي يقدمه عشاء تظهر فيه سيّدات شهيرات من الأزمنة الفائتة قد أبعد عني كلّ حضور ذهني، وكنت استمع دون أن أجرؤ على السؤال؛ وعندما تحرّرت قبيل منتصف الليل من شباك هذا السحر، شككت حتى بنفسي. لكن هذا الأمر العجيب كله بدا لي طبيعياً بالمقارنة مع الهلوسة الغريبة التي ماأزال أعاني منها. فأنا لاأعلم بأية كلمات يمكنني أن أصف حالة حواسي، إنما أصرّح فقط، وبكل مايحمله قلبي من صدق طويّة اني لن أدهش أبداً من وجود نفوس في السابق كانت على درجة من الضعف أو من القوة حتى آمنت بأسرار السحر وبقدرة إبليس. فبالنسبة لي، وإلى أن تعطي زيادة البحث كشفاً جديداً تبدو لي ممكنة تلك الظهورات التي تحدث عنها كاردان وبعض مدّعي المعجزّات.

تلك الكلمات التي نطقت بلهجة لا تصدق فصاحتها، أثارت بطبيعتها فضولاً فائقاً لدى جميع المدعوين، وهكذا تحولت أنظارنا نحو المتكلّم الفصيح، وبقينا ساكنين، كانت أعيننا فقط تعبّر عن الحياة وهي تعكس ألق ضوء

الشموع. ولشدّة تأمّلنا، لذلك الانسان المجهول، بدا لنا وكأننا نرى مسام وجهه، بل تلك التي في جبينه وهي بصورة خاصة تفسح المجال أمام عاطفة داخلية تنفذ منها. هذا الرجل، الذي يبدو في الظاهر بارداً ومتكلّفاً، ظهر وكأنه يحوي في ذاته بؤرة خفيّة تؤثر بلهبها فينا جميعاً[١].

تابع المتحدث كلامه: لاأعلم إن كان الوجه المستحضر قد تبعني بعد أن غدا غير منظور، لكن ما إن استقرّ رأسي على وسادتي، حتى رأيت ظل كاترين الكبير ينهض أمامي، شعرت غريزياً اني في جوّ وضّاء، لأنّ عينيّ تعلّقتا بالملكة بثبات غير محتمل لا تشاهدان غيرها. وفجأة مالت عليّ.

عند هذه الكلمات بدت من السيّدات حركة فضول جماعية.

تابع المحامي: لكني لاأعلم إن كان علي الاستمرار بالرغم من أني حملت نفسي على الاعتقاد بأنه مجرد حلم؛ إذ أن مابقي علي أن قوله فيه شيء من الخطورة.

قال بومارشه: هل يتعلّق الأمر بالدين؟

وسأل كالون: إن كان في الأمر بعض الفحش، فهؤلاء السيّدات يغفرن لك.

أجاب المحامي: بل إن الأمر يتعلّق بالحكومة.

قال الوزير: هيّا، فڤولتير وديدرو وشركاؤهما قد بدؤوا في تطويع آذاننا على أحسن وجه.

بدا المراقب العام شديد الانتباه، كما بدت جارته السيّدة دي جنليس[٢] مهتمّة كثيراً، وبقي محامي المقاطعات متردداً، فقال له بومارشه بحيوية: «هيا

---

(١) كان افتتان الحضور المتولّد مسبقاً عن الأمور غير الواقعية، وهذه النظرة الجديدة الملقاة على المحامي؛ مما كوّن عنه صورة لم تظهر له في البدء.

(٢) هي إحدى السيدتين الجميلتين اللتين لم يُذكر اسمهما في البدء، فقد تردد بلزاك في ذكر اسم سيدة كانت لاتزال على قيد الحياة وهي بالرغم من شهرتها ولقبها «فرنيه قصر المساواة» تعتبر في «**مذكراتها**» مربية يتعذر لومها، كما أنّها أظهرت قبل ١٧٨٦ سلوكاً صارماً متقشفاً.

إذاً، ياحضرة المحامي، ألا تعلم أن القوانين حين لا تترك إلا القليل من الحرية فإن الشعوب تنتقم بمزيد من التحرّر في العادات؟».

عند ذلك واصل المدعو كلامه:

«سواء كانت بعض الأفكار قد تخمرت في نفسي دون علمي، أو أنني دفعت بقوة خارجية فقد قلت لها: آه! ياسيدتي، إنك ارتكبت جريمة كبرى».

أجابتني بصوت رصين: أية جريمة؟ - تلك التي أعطت إشارة البدء فيها ناقوس القصر يوم ٢٤ آب» ابتسمت باستخفاف، وارتسمت بعض تجاعيد عميقة على خديها الشاحبين وأجابت: «أتسمي هذه جريمة؟ بينما لم تكن إلا مصيبة[١]، فالمشروع قد فشل بإساءة تطبيقه، فلم ينتج لفرنسا، ولأوروبا، وللكنيسة الكاثوليكية الخير الذي كنا ننتظره. ماذا تريد؟ لقد أسيء تنفيذ الأوامر، لم نعثر على العدد اللازم من أمثال مونلوك[٢]؛ والأجيال التالية لم تأخذ بالاعتبار نقص الاتصالات التي منعتنا من أن نعطي لهذا المشروع وحدة الحركة الضرورية للضربات الحكومية الواسعة، من هنا كانت المصيبة! لو أن ٢٥ آب لم يُبق ظلاً لهوغنوتي واحد في فرنسا[٣]، لبقيت حتى بالنسبة للأجيال الأكثر بعداً الصورة الجميلة للعناية الالهية. كم مرة أدانتني النفوس البعيدة النظر، سراً، من أمثال

---

(١) يتذكر بلزاك من أجل هذا التبرير، إنّما بشكل متناقض مسرحية لشارل روترمون، وهو من مؤيدي حرية الأديان والتعبّد يهاجم فيها بعنف كاترين دي مديسي وقد ورد في المشهد الخامس منها: «إن الليلة الدامية التي وطّدت العرش المهتز لم تكن جريمة إنما هي شرّ لابدّ منه» (انظر: شارل توماس دوترمون ١٨٢٦ ـ سان بارتلمي).

(٢) مونلوك: (١٥٠٢ ـ ١٥٧٧) مارشال فرنسي، دافع عن سيين في ايطاليا عام ١٥٥٥.

(٣) هذه هي وجهة النظر السياسية التي عبّر عنها غبرييل نوده منذ عام ١٦٣٩ في اعتبارات حول الانقلابات، فهذا النصر لمكيافلي ينتقد بدوره «تنفيذ المذبحة» «التدبير غير المفيد لأنه لم يكتمل وفي رأيه» أنه لو تمّ القضاء على جميع الهراطقة لما بقي منهم أحد على الأقل في فرنسا يلوم عليها، كما أن الكاثوليك بدورهم ماكانوا ليفعلون ذلك نظراً لما يحققه لهم من راحة وخير!».

سكست كنت[1]، وريشليو، وبوسويه، لأنني فشلت في الإنجاز الكامل للمشروع الذي تجرأت على تصوّره، وكم من الحسرات رافقت موتي!.. فبعد ثلاثين سنة من سان بارتلمي استمرّ الداء، وأسال من الدم النبيل في فرنسا عشرة أمثال الجزء الذي كان متوجباً الاستمرار في سفحه في سان بارتلمي في ٢٦ آب ١٥٧٢. والنكوص في براءة نانت التي صككتم لها المداليات كلّف مزيداً من الدموع ومزيداً من الدم والمال وقتل من الازدهار في فرنسا ثلاثة أضعاف ماسببته سان بارتلمي.

لقد عرف لاتليه أن يتمّم بجرةّ قلم القرار الذي أصدره العرش سراً في أيامي، لكن إذا كان ذلك الإجراء الواسع في ٢٥ آب ١٥٧٢ ضرورياً؛ فإن ٢٥ آب ١٦٨٥ لم يكن ذا فائدة، ففي عهد الابن الثاني لهنري دي فالوا كانت الهرطقة في بدء حملها، أما في عهد الابن الثاني لهنري دي بوربون، فإن هذه الأم الخصبة قد نثرت كالسمكة بيضها على العالم كلّه، تتهمونني بارتكاب جريمة وترفعون التماثيل لابن آن دوتريش! بينما جربّت أنا وإياه فعل أمر واحد: وقد نجح وفشلت[2]؛ لكن لويس الرابع عشر وجد البروتستنت دون سلاح، أمّا في أيام ملكي فكان لهم جيوش قوية، ورجال دولة، وقادة، ومن ورائهم ألمانيا تدعمهم».

شعرت في نفسي بارتعاش داخلي وأنا استمع الى هذه الكلمات تنطق ببطء، وخلت أنني أتنشق رائحة الدم وأرواح الضحايا الذين لاأعرفهم؛ وكبرت كاترين، وبدت لي كأنها جنيّ شرير، وأنها تريد أن تنفذ إلى وجداني لتستقر فيه.

قال بومارشه بصوت منخفض: لقد حلم بهذا، إنه لم يخترعه بالتأكيد.

---

(١) سكست كنت: انتخب بابا في عام ١٥٨٥ معارض عنيف للاصلاح الديني والبروتستنتيه، دعم في فرنسا الجامعة وآل غيز حتى أنه مدح جاك كلمنت لقتله هنري الثالث.

(٢) انظر مسرحية اوتربون: سان بارتلمي ١٨٢٦، المشهد السابع، حيث يقول: «اعرفوا أن الضعف وحده هو جريمة الملوك، وأن النجاح يبررّ كل شيء، وكل شيء مسموح به من أجل الحصول عليه».

قلت للملكة وقد اختلطت الأمور في ذهني: «إنّك تمجّدين أمراً أدانته ثلاثة أجيال واستهجنته و . . . . » لكنها قاطعتني قائلة: «أضف أن جميع الأقلام كانت جائرة عليّ أكثر من جور معاصري؛ ما من أحد تولّى الدفاع عني، اتهمت بالجشع وأنا الغنيّة والملكة[1] واتهمت بالقسوة، وأنا التي لاأحمل إلا وزر رأسين قُطعا[2]؛ كما أنني مازال، على الأرجح، بالنسبة للحياديين المنصفين معضلة كبرى لم يتوصلوا إلى فهمها. أتعتقد إذاً أنني كنت تحت تأثير عاطفة الحقد، وأنني لاأتصرف إلا بدافع الانتقام والعنف؟» ثم ابتسمت ابتسامة المشفق وقالت: «كنت هادئة، مُلْئي البرود كالعقل نفسه، حكمت على الهوغنوت دون شفقة، لكن دون نَزَق، كانوا البرتقالة الغضة في سلتي. لو أنني ملكة انكلترا لحكمت الحكم ذاته على الكاثوليك إن أعلنوا التمرّد والعصيان فلكي تكون لسلطتنا حياة في ذلك العصر ينبغي أن يكون في الدولة إله واحد، وإيمان واحد، وسيّد واحد[3]. ولحسن حظي فإنني سجّلت تبريري بكلمة واحدة: عندما أعلن لي بيراغ، خطأ، خسارتنا في معركة درو[4]، هتفت: «حَسَن، سنتحول جميعاً إلى الموعظة!» هل هذا حقد على من يتّبع مذهباً دينياً؟ إنّني أقدرهم كثيراً دون أن أعرفهم. وإذا كنت قد شعرت بنفور من بعض رجال السياسة، فنفوري كان من ذلك الخسيس الكردينال دي لورين، ومن أخيه الجندي الخبيث والفظ، اللذين كانا كلاهما يبثان حولي الجواسيس، وهذان هما عدوا أولادي، أرادا أن ينتزعا منهم العرش، كنت أراهما كل يوم، وقد أرهقاني؛ لو لم نقم بسان

---

(١) في المقدمة، والمعذب الكالفني، واعتراف الزوجيريين، يؤكّد بلزاك، عكس ماجاء هنا، على طموح الملكة كاترين.

(٢) تلميح إلى تنفيذ حكم الإعدام بلامول وكوكوناس.

(٣) هذه العبارة وردت في المقدمة وهي من رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس.

(٤) في معركة درو في عام ١٥٦٢ تأرجح النصر بين البروتستنت والكاثوليك، حتى أن بعض الهاربين أشاعوا هزيمة الكاثوليك قبل أن يتمّ النصر النهائي للدوق دي غيز.

بارتلمي، لقام بها الأخوان دي غيز بمساعدة روما ورهبانها. والجامعة التي لم تغد قوية إلا عند شيخوختي بدأت في عام ١٥٧٣. سألت: «ولكن، ياسيدتي، بدلاً من أن تأمري بهذه المذبحة الرهيبة - واعذري صراحتي - لماذا لم تستخدمي مصادرك السياسية الواسعة، وتمنحي الاصلاحيين الدينيين تلك المؤسسات الواعية التي جعلت ملكية هنري الرابع ممجّدة يسودها السلام والهدوء؟»

ابتسمت أيضاً، وهزت كتفيها، فخلعت تجاعيدها المتغضنة على وجهها الشاحب تعبيراً مليئاً بالسخرية والمرارة وقالت: إن الشعوب تحتاج بعد صراعات ضارية الى الاستراحة: وهذا هو سرّ هذه الملكية؛ لكن هنري الرابع ارتكب خَطَئَين غير قابلين للتصحيح؛ لم يكن عليه أن يرتدّ عن البروتستنتية، ولا أن يترك فرنسا كاثوليكية بعد أن صار هو نفسه كذلك، فقد كان وحده القادر على تغيير وجه فرنسا من غير ان يحدث هزّة، فإمّا البطرشيل وإما الموعظة! كان عليه أن يتبنى هذه الفكرة. أمّا أن يترك في الدولة مبدأين متعاديين دون موازنة بينهما فهذه جريمة ملك إذ أنه يَبذُر بذلك الثورات[1]، فالله وحده هو القادر على أن يتحكّم في الخير والشرّ إن وجدا دون انقطاع في مكان واحد. لكن ربّما كان هذا القرار مدرجاً في خفايا سياسة هنري الرابع، وربّما سبب موته، إذ يستحيل ألا يكون سولّي قد ألقى نظرة اشتهاء على هذه الأملاك

---

(١) هذا النقد «للملك الصالح» مستنبط بالضرورة من نظرية بلزاك حول ضرورة الوحدة الدينية لكن معاصراً لهنري الرابع، هو ابن المارشال تافان، قد صاغها أيضاً في مذكراته عن أبيه، «إن مملكة ذات حزبين أو عصبتين هي في حرب أو أنها ستدخل فيها قريباً، وإذا كان الملك هنري الرابع باقياً في سلام وممسكاً بهذين الحزبين الدينيين، فذلك عائد إلى كمية الأضرار والدمار الناتجة عن الحروب الماضية بقسوتها التي يحتقرها الجميع.»

كذلك يؤكّد نوفي دي كافيراك، في القرن الثامن عشر، وفي «دفاع عن لويس الرابع عشر» عن استحالة تعايش الديانتين في دولة ملكية ويقول: «ديانتان في دولة هما جيشان في مواجهة دائمة، والتاريخ يعلمنا ذلك، ومن لايعتبر من الماضي لأجل المستقبل فالعاقبة عليه.

الواسعة للإكليروس، والتي لايملكها الكهنة كلياً، لأن النبلاء يبذرون على الأقل ثلثي مداخيلها. وسولي البروتستنتي لم يكن لديه أقل من ذلك من الأديرة». ثم توقفت وبدا عليها التفكير قبل أن تتابع: «لكن فكّر في أنك تطلب من ابنة شقيق بابا تبريراً لولائها لكاثوليكيتها؟» وبدرت منها حركة لامبالاة وهي تضيف: «بعد كل حساب كان بإمكاني أن أغدو كالفنيةً عن طيبة خاطر[1]. إن الرجال الفائقين في عصركم مازالوا يعتقدون أن للدين علاقة بهذه القضية وهي الأوسع بين القضايا التي حكمت بها أوروبا؛ ثورة شاملة أعاقتها أسباب صغيرة لم تكن لتمنعها أن تعمّ العالم لو لم أخنقها؟ ثم ألقت عليّ نظرة عميقة وقالت: «ثورة تسير دائماً، ويمكنك أن تتمّها. نعم أنت الذي تسمعني!» فارتعشت؛ فقالت: «عجباً! ما من شخص فهم حتى الآن أن المصالح القديمة، والمصالح الجديدة قد رفعت روما ولوثر كالأعلام! عجباً! لتجنب صراع مماثل تقريباً، ساق لويس التاسع[2] جمهوراً يعادل مئة ضعف من أدنتهم فتركهم فوق رمال مصر ليستحق اسم قديس، أما أنا؟ أما أنا فقد فشلت!

مالت برأسها وبقيت صامتة للحظة. ولم تعد ملكة تلك التي أراها، وإنّما إحدى تلك الكاهنات الدرويديات القديمات اللواتي يضحين بالرجال ويعرفن كيف يبسطن صفحات المستقبل وهن يبتعثن معلومات الماضي، لكن سرعان مارفعت رأسها الملكي الجليل وقالت: «بتوجيه انتباه جميع البورجوازيين حول تعسفات الكنيسة الكاثوليكية، ولّد لوثر وكالڤن في أوروبا روح التقصّي التي

(١) سبق لبلزاك أن أكّد على اللامبالاة الدينية لكاترين دي مديسي منذ عام ١٨٢٣ على هامش ملاحظات رواية مطلع الشباب «وان كلور».

(٢) لويس التاسع (١٢١٤ ـ ١٢٧٠) الملقب بالقديس لأنه قاد الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٨ ـ ١٢٥٤) وتوجّه فيها أولاً إلى مصر حيث استولى على دمياط، لكنه هزُم وأُسِر في المنصورة عام ١٢٥٠ فعقد الصلح مع المصريين لقاء فكّ أسره وتوجه إلى فلسطين حيث بقي حتى العام ١٢٥٤ عاد بعدها إلى فرنسا.

قادت الشعوب إلى الرغبة في امتحان كل شيء[1]، والامتحان يقود إلى الشكّ، وبدلاً من إيمان ضروري للمجتمعات، جروا وراءهم، وعن بعد، فلسفة فضولية، مسلّحة بالمطارق، متعطشة للدمار. وانطلق العلم برّاقاً من هذه الجلاءات المزيّفة في قلب الهرطقة، وتعدّى الأمر اصلاح الكنيسة إلى حريّة غير محدّدة للانسان، هي موت كلّ سلطة. وكانت نتيجة النجاحات التي أحرزها البروتستنتيون في صراعهم ضد الاكليروس، الأكثر تسلحاً، والأكثر رهبة من التاج، تهديم السلطة الملكية التي وطّدها لويس الحادي عشر بعد جهود مضنية على أنقاض الإقطاعية. لم يكن المراد أقل من تدمير الدين والملكية حيث أرادت كل بورجوازيات العالم أن تتحالف على أنقاضهما. هذا الصراع كان إذاً حرباً حتى الموت بين التركيبات الجديدة، والقوانين والمعتقدات القديمة. وكان الكاثوليك هم التعبير عن المصالح الماديّة للملكية، والنبلاء، والكهنوت. كانت تلك مبارزة إبادة بين عملاقين، ولم تكن سان بارتلمي للأسف إلا جرحاً. تذكّر أننا ونحن نتجنّب سَفح بضع قطرات من الدم في الوقت الملائم تسببنا في إهراق سيول فيما بعد. إن الذكاء المحلّق فوق أمّة لايمكن أن يجنّبها نكبة: فالنكبة في ألا تجد الحكماء الأكفاء لتقدير أهمية الأحداث التي تعاني منها البلاد، وقد كان حكمائي نادرين والحمقى يشكّلون الأكثرية؛ كل شيء يتفسّر بهاتين المقولتين؛ وإن كان اسمي مكروهاً في فرنسا فمردّ ذلك إلى العقول الضيّقة التي تشكل الأغلبية في جميع الأجيال، ففي الأزمات الكبرى التي تعرضت لها، لم يكن الحكم عقد جلسات، واستعراض حرس شرف، وتوقيع مراسيم. قد أكون ارتكبت أخطاء، فما أنا إلا امرأة.

---

(١) انظر شارل دوتربون: مسرحية سان بارتلمي ـ المشهد السابع: «إذا توقفتم أمام البروتستنتية فستفترسكم.. ضحوا بأعداء أكثر خطراً من مذهبهم الملحد، المضاد للملكية، الذي يهدّد بنتائجه ليس فقط فرنسا وإنما أوروبا بكاملها بما سيحدثه من انقلابات سياسية..» وأيضاً في المشهد الرابع والخمسين: «جان هوس، ولوثر، وزونيكل، وكالفن أثاروا في العقول فضولاً عصيّاً على الأشياء المقدسة، واندفاعاً في التدقيق بكل ماكان محترماً، وميلاً إجرامياً إلى العصيان.».

لكن لماذا لم نقع على رجل يعلو على عصره؟ لقد كان دوق آلب رجلاً فولاذياً، وفيليب الثاني مخبولاً بالمعتقدات الكاثوليكية، وهنري الرابع جندياً مقامرا فاسقاً، والأميرال كولينيي مثالَ العناد. جاء لويس الحادي عشر مبكراً، وجاء ريشليو متأخراً. قد يقال عني فاضلة أو مجرمة؛ وسواء نسبت إلي سان بارتلمي أم لا فإنني أتحمّل وزرها، فأنا بين هذين الرجلين العظيمين كحلقة رابطة في سلسلة مجهولة.

سيتساءل كتّاب ذوو رأي مخالف ذات يوم، إن كانت الشعوب لاتطلق أحياناً اسم الجلادين على الضحايا. لن تكون هذه هي المرّة الوحيدة التي تفضل فيها البشرية أن تضحّي بإله بدلاً من أن تدين نفسها. اتجهتم جميعاً إلى ذرف الدموع على مئتي فظٍّ ضحّي بهم في الوقت المناسب، بينما ضننتم بها على آلام جيل، أو عصر أو على العالم بكامله. ونسيتم أخيراً أن الحرية السياسية، وطمأنينة أمة، والعلم نفسه، هبات يطلب عنها القَدَر ضرائب من الدم». هتفت والدموع في عيني: «ألا يمكن للأمم يوماً أن تنعم بالسعادة بسعر رخيص؟

أجابت: إن الحقائق لاتخرج من مكامنها إلا لتستمر في حمامات من الدم تتبرد فيها، والمسيحية نفسها هي، منبع كل حقيقة، لأنها واردة من الله، هل توطّدت دون شهداء؟ ألم يَسِلِ الدم فيها غزيراً؟ ألا ينتظر أن يسيل دوماً؟! ستعرف ذلك أنت الذي ينبغي أن تكون أحد بناة الكيان الاجتماعي الذي بدأه الرسل. مادامت مسواتك تتجول فوق الرؤوس ستحظى بالتصفيق، ولكن ما أن تأخذ الملمّسة حتى تقتل. دمٌ! دمٌ. رنّت هذه الكلمة في أذنيّ كالطنين فقلت: «في رأيك إذاً؛ يمكن للبروتستنتية أن تتعلّل بحجج مماثلة لحججك؟ عند ذاك اختفت كاترين كأن هبّة ريح أطفأت النور غير الطبيعي الذي أتاح لخيالي أن يرى تلك الصورة وقد اتخذت نسباً عملاقة. ووجدت فجأة في ذاتي، جزءاً من ذاتي يتبنّى المبادىء الشرسة التي استنبطتها تلك الإيطالية. استيقظت باكياً، وأنا أتصبّب عرقاً، في اللحظة التي خاطبني فيها عقلي المنتصر، بصوت عذب، أن

ليس من حقّ ملك، بل ولا من حق شعبٍ، أن يطبّق هذه المبادىء الجديرة بجمعٍ من الكفّار[1].

سأل بومارشه: «وكيف يمكن إنقاذ الملكيات التي تنهار؟»

أجاب جاري: «إن الله يتكفّل بذلك».

عقّب السيّد دي كالون بتلك الخفّة غير المعقولة التي تميّزه[2]: إذاً، لدينا المصدر الذي يدفعنا إلى الإعتقاد، وفقاً لإنجيل بوسويه، بأننا أدوات الله».

ماإن لاحظت السيّدات أن الموضوع بين الملكة والمحامي قد اقتصر على المحادثة حتى رحن يتهامسن؛ بحيث أنني ضربت صفحاً عن العبارات ذات نقاط التعجب التي أطلقتها عبر خطاب المحامي، غير أن هذه الكلمات: «إنّه مضجر حتى الموت!»، «ولكن ياعزيزتي، متى سينتهي؟» بقيت تتردّد في أذني.

عندما توقّف الغريب عن الكلام، صمتت السيدات، وكان السيد بودار يغطّ في النوم، والجرّاح نصف ثَمل، بينما كنت أنا وبومارشه ولافوازيه المنتبهين الوحيدين لهذا الخطاب، أمّا السيد دي كالون فكان يلهو مع جارته. في تلك اللحظة بدا الصمت مهيباً، وبدا لي بريق ضوء الشموع بلون سحري[3].

كان إحساس واحد يشدّنا بروابط غامضة إلى ذلك الرجل، فهو من جانبه يسرّ لي أن أتصوّر آثار التعصب التي يتعذّر تفسيرها. لم يكن ينقصنا إلا الصوت

---

(١) في عام ١٨٣٠ لم يكن بلزاك يصرّح مباشرة بإعجابه؛ وقد سمح له الحكم الذي أطلقه روبسبيير بأن ينضمّ إلى الرأي العام السائد.

(٢) هذا هو الرأي الأغلب الذي سجله المعاصرون عن دي كالون، إضافة إلى ميله إلى ملاطفة النساء بل إن إحدى الأغنيات الهجائية تجعله يقول: ذلك أن القلب متقلّب، والرأس خفيف. . (وفق المذكرات السرية لباشومون: ١ كانون ثاني ١٧٨٦) كما يسجّل الأب جيورجل: «يتهمه أعداؤه بالخفّة وبالمجون» (المذكرات ١٨٢٠).

(٣) تذكير بالمظهر الذي سبق بدء الخطاب وتجسيم الغرابة.

الأجشّ للمجهول الآخر المجاور لبومارشه ليوقظنا من دهشتنا وهو يهتف: «وأنا أيضاً حلمت حلماً!».

نظرت عند ذلك بإمعان إلى الجرّاح وشعرت بإحساس من الرعب لاأدري كنهه[1] فلونه الترابي، وملامحه البشعة والبارزة تعطي تعبيراً دقيقاً لما يدعوني بعد أن أستأذنكم الى تسميته الوغد[2]، وكانت بثور زرقاء وسوداء تنتشر على وجهه كآثار الوحل وعيناه تشعّان ببريق مشؤوم. وبدا لي ذلك الوجه أكثر قتامة مما هو في الواقع بسبب شعر مستعار يعمر رأسه بلون أبيض صقيعي.

قلت لِجاري: «هذا الرجل قمين بأن يدفن أكثر من سقيم.

أجابني: إنني لاأعهد إليه بمداواة كلبي.

- إنني أكرهه بالرغم عني.

- وأنا أحتقره.

- مع ذلك فيا للظلم!

عقب جاري الآخر المجهول: أوه! ياإلهي، بعد غد يمكن أن يغدو بمثل شهرة الممثل ڤولانج[3] أشار السيد دي كالون إلى الجرّاح بحركة من يده كأنه يودّ القول لنا: «يبدو لي أن هذا سيكون مسلّياً!».

وسأله بومارشه: «وهل حلمت أنت أيضاً بملكة؟

---

(١) تحوّل آخر مماثل لذلك الذي ركّز فيه على المحامي.

(٢) تسمية محقّرة، استخدمها سباستيان مرسيه في كتاب «الحانات العوراء» عندما تحدّث عن السوَقة من الدهماء «الأوغاد».

(٣) عرف هذا الممثل نجاحاً كبيراً أولاً في «مسرح المنوعات المسلية» تحت اسم جانو، ثم في «الكوميديا الإيطالية» تحت اسم ڤولانج» حتى أن العربات كانت تحيط ببيته عندما كان مريضاً كما أن دُمى نصفية من بورسلان سيفر تمثله كانت تباع في عام ١٧٧٩ وتتبادل كهدايا (عن مذكرات سرية لباشومون ٣٠ كانون أول ١٧٧٩).

أجاب بتشدّق أثار ضحكنا: «كلا حلمت بشعب، وكنت آنئذ أداوي مريضاً ينبغي أن أقطع له فخذه غداة حلمي».

سأله السيد دي كالون: «وهل وجدت الشعب في فخذ مريضك؟»

أجاب الجراح: «تماماً!»

هتف الكونتة دي جنليس: «كم هو مسل!»

قال المتكلم دون أن يتضايق من مقاطعته وهو يضع يديه في جيبه: «دهشت بعض الدهشة عندما وجدت من أحدثه عن هذا الفخذ، وتمكّنت بقدرة فريدة من أن أدخل في مريضي، وما أن دخلت تحت جلده، حتى لاحظت كمية عجيبة من الكائنات الصغيرة التي تتحرك، وتفكّر، وتحاكم؛ بعضها يعيش في جسم هذا الرجل، وبعضها الآخر في فكره، كانت أفكاره كائنات تولد، وتكبر، وتموت، كانت مريضة، ومسرورة، وبصحة جيدة، وحزينة، وأخيراً كانت لها كلها هيئات خاصة، كانت تتصارع أو تتداعب[1]؛ وبعض منها تنطلق إلى الخارج، وتذهب لتعيش في العالم الفكري؛ وأدركت فجأة أن هناك عالمين: العالم المنظور والعالم غير المنظور، وأن الأرض كالانسان لها جسم ولها روح. وتنوّرت الطبيعة أمامي، وقدّرت سعتها بملاحظة هذا المحيط من الكائنات التي تنتشر في كل مكان، أنواعاً ومجموعات، مشكّلة مادّة حيّة نشطة واحدة ووحيدة من الزحام حتى الله. مشهد رائع! باختصار، كان في مريضي كون كامل، وعندما غرزت مشرطي في فخذه المصاب بالغنغرينا، قضيت على نحو ألف من تلك البهائم[2].

---

(١) هذا الحلم الثاني يعطي، بشكل مختصر كابوس، قناعات بلزاك حول جوهرية التفكير والقدرة الفيزيائية للأفكار مما سيكرّره ويفصله بين ١٨٣٢ و١٨٣٤ في «لويس لامبر والشهداء المجهولين...»

(٢) إعلان عن مذابح عهد الارهاب خلال الثورة الفرنسية، وعن مقتل مارا.

والتفت إلى السيدات قائلا: «أيضحككنّ، ياسيداتي، إن علمتنّ أنه قد عُهد بكنّ إلى بهائم؟!»

قال السيد دي كالون: «بدون تجريح، تحدّث عن نفسك وعن مريضك».

ارتعب مريضي من صراخ تلك الدويبات، وأراد إيقاف العملية، فقلت له إن حيوانات مؤذية تنخر عظامه، وبدت منه حركة مقاومة إذ لم يدرك ماذا كنت أفعل من أجل خيره؛ ودخل مشرطي في جنبي.

قال لافوازيه: إنه أحمق.

أجاب بومارشه: كلا، إنه ثمل.

هتف الجراح: لكن، ياسادة، إن لحلمي معنى!

صرخ بودار الذي استيقظ: أوه! أوه! إن ساقي متخدّرة.

ردت عليه زوجته: إن حيواناتك قد قتلت، ياسيدي.

هتف جاري، وقد كان يتأمل الجرّاح برباطة جأش وهو يتكلّم: «إن لهذا الرجل قَدَر» تابع المدعو الدميم: إنه بالنسبة لحُلُم السيد كالفعل بالنسبة للكلمة، والجسم بالنسبة للروح[1] لكن لسانه الثقيل تشوّش، ولم ينطق بعد ذلك إلا بكلمات غير مفهومة.

بعدئذ اتخذ الحديث لحسن الحظ منحى آخر، وبعد نصف ساعة نسينا جرّاح تابعي الأمير وقد غلبه النوم، وراح المطر ينهمر سيولاً عندما نهضنا عن المائدة.

قلت لبومارشه: «هذا المحامي لابأس بذكائه».

- أوه! إنّه ثقيل وبارد، لكنك تراه يُظهر أن المقاطعات لاتزال تحتوي على أشخاص جيّدين يهتمون جدّياً بالنظريات السياسية وبتاريخنا الفرنسي. إنّها خميرة ستفعل فعلها.

---

(١) لم تدرك الرابطة بين الحلمين إلا بالنسبة للشخصيتين الحالمتين.

سألتني السيّدة دي سان جمس: «ألديك عربتك؟»

أجبت بخشونة: كلا، إذ لم أكن أعلم أنها ستلزمني هذا المساء. لعلك تريدين أن أوصل مراقب المالية العام. أم آنه جاء إليك كولد متسكع[1]؟ هذا التعبير في تلك الآونة كان يستخدم للإشارة إلى من يأتي متخفياً بزي حوذي إلى مارلي.

ابتعدت السيّدة سان جمس بسرعة، وقرعت جرساً وطلبت عربة سان جمس زوجها، وانتحت بالمحامي جانباً، وقالت له: «سيّد دي روبسبيير هل تتكرّم بأن توصل في طريقك السيد مارا إلى منزله إذ أن حالته لاتسمح له بالعودة وحده.

أجاب السيد دي روبسبيير متظرفاً: «بكل طيبة خاطر، ياسيدتي، كنت أرغب لو كلفتني بأمر أكثر صعوبة».

باريس: كانون ثاني ١٨٢٨[2].

(١) وفقاً لتعبير السيدة كامبان (١٧٥٢ ـ ١٨٢٢) في «مذكّراتها»، وقد كانت سكرتيرة لماري انطوانيت، فقد كان بعض النبلاء يأتون متنكرين إلى ضاحية «مارلي» حيث كان يوجد قصر بناه لويس الرابع عشر، وأحيطت به أجنحة خلوات، وقد هدمت أثناء الثورة.

(٢) كان هذا التاريخ في طبعة «وردة» (كانون ثاني ١٨٣٠) ويبدو أن بلزاك قد عدلّه في طبعة «سوڤرن» رغبة منه، على الأرجح، لإظهار قناعاته المؤيّدة للملكية وكأنها سابقة لثورة ١٨٣٠.

دراسة حول الرواية والمؤلّف

إعداد نيكول كازورَن

يهمل المعجب بالروايات البلزاكية عن طيبة خاطر؛ ما لم يكن يجهل كلياً، هذا القسم من **الملهاة الانسانية** الذي يبدو للوهلة الأولى وكأنه قطعة مضافة؛ ويصعب عليه أن يشارك لور سورفيل في إعجابها بهذه الرواية التي تعتبرها واحدة من «أجمل كتب أخيها»، والبرهان على «المرتبة السامية» التي وصل إليها «كمؤرخ». بل قد يشيح عنها، على الأرجح وكأنها مسخ هجين، يشكّل التاريخ والتخيل فيه أسوأ مشاركة، فليس فيها شيء من الغموض الآسر كما في **المعلم كورنليوس**، ولا من الجاذبية الحائرة كما في **الولد الملعون**: «يصطدم المرء وبقطع متفرقة قدمت بوصفها مجموعة، وإن أمور القرن السادس عشر وأشخاصه، في كل قسم، قد وضعوا بدقة في موضعهم وحرّكوا فيه، فقد لبثوا أسرى ماض بعيد لم يقع أحد فيه على أثر للترابط الناطق بالحياة؛ فالمرء يفتقد المزج الحميم للدقة في المرجعيات بالواقع، وحرية خلق الشخصيات ومصائرهم، وهو المزج الذي يكوّن القوة المباشرة للعديد من القصص الحديثة. ويمكن لكل شيء مع توالي هذه الصفحات التعليمية في غالبيتها، أن يبدو رسالة ميتة.

هل يبعث هذا على الاستسلام كأن ليس هنا إلاّ الخطأ والفشل لروائي نَكَثَ بالمهمة التي تصدى بنفسه لأدائها وعزم على الكتابة حول فرنسا القرن التاسع

عشر، حول «التاريخ المنسي من قبل كثير من المؤرخين، وهو تاريخ الطبائع»؟.
إن هذا يعني الاستخفاف بالاصرار الذي أظهره من أجل تمحيص لوحته عن فرنسا بين ١٥٦٠ و١٥٧٣، مثل إصراره على استئناف تصوير ملامح الملكة التي وقع اختياره عليها كوجه مركزي. ذلك أن الدراسات حول **كاترين دي مديسي** منذ أن بدىء بالإعداد لها، والتقدير التام لتنوعّها، لاتدع المجال سهلاً لاستبعادها من هذه **الملهاة الإنسانية** التي أراد لها مؤلفها أن تأخذ مكاناً فيها، ولا نملك أن نقدّمها دون أن نقنع أنفسنا بتقريظها، وأن نحثّ القارىء على أن يمنحها شيئاً من الانتباه المتأنّي. فهناك مادّة لمفاجآت سارّة لمن لاتحمد همته: فبلزاك يباشر عمله، وهو أمين مع نفسه وسط مظاهر القسر الأكثر قسوة، ولتطبيقه تطويع الخيال لمعطيات التاريخ.

يمكن أن تبدو القصص الثلاث وكأنّها قطع من لوحة جدارية غير تامة، وبدلاً من أن تكون متناسقة التصميم من طرف إلى آخر، اتخذت لا على التعيين شكلاً ولوناً في بعض الأماكن فقط. ألم يجمعها بلزاك في العام ١٨٤٢ تحت عنوان **كاترين دي مديسي موضّحة** بعد أن قرن بها **مقدّمة** طويلة، حيث أكد في آن واحد على سعة دراساته التاريخية ووحدة منظوره؟ لكن يكمن هنا جانب من وهم، أو من سوء نيّة، وصدى حلم تُوبع مدة طويلة، على قدر التقويم وربما أكثر، لمحاولة وجدت أخيراً إتمامَها بفضل تنسيق جديد. لأجل توضيح مايربط هذه الدراسات حول **كاترين دي مديسي**، وما يميّز بينها، علينا أن نتذكّر كيف ترسّخ جميعها، من **المقدمة** الإرشادية حتى القصة القصيرة «الخيالية»، التي تبدو وكأنها تختم السلسلة، في مطمح مشترك وقراءات غزيرة؛ وكيف أن لكلّ واحدة من القصص ولادتها وحياتها الخاصتين إلى أن تجمّعت أخيراً وبعد تنقيحات متفرقة ومقدّمة موافقة للمقام.

I

إن المقدّمة، ونذكّر أنها كتبت متأخّرة، لنحول بين القارىء وبين توقفه عند هذا الانقطاع الظاهر في تلك السلسلة، تلخّص تاريخ المؤلّف، وهو أيضاً بطريقة ما «التاريخ الثقافي» للكاتب، حيث تأخذ موهبته كروائي مؤرّخ أهمية فريدة - لاتذكر لنا التوطئة عنها شيئاً، عدا هذا التلميح غير المباشر عن ملاحظات تتعلّق بوالتر سكوت - وهو قبل الفترة التي التفت فيها نحو عصره ليكتب «تاريخ الطبائع الجارية»، تسنّى له الوقت لدراسات طويلة ودقيقة عن «العهود الملكية الرئيسة» كما أبدى رغبته بكتابة «تاريخ فرنسا مثير للإعجاب»؛ وبالتوازي مع إيزابيل دي باڤير، وماري دي مديسي، برزت كاتزين دي مديسي ملكة القرن السادس عشر، شيئاً فشيئاً بكلّ جمالها وعظمتها الحقيقية، وحافظت على مكانتها المتميّزة حين أضحى المشروع فلسفياً أكثر، وتجددت المكانة مع العزم على «إظهار الفكر الذي سار على هديه كل قرن [. . .] من أجل البرهان على فعالية الأفكار وقدرتها». . ونعخدع بالاعتقاد أن نزوة ما دفعت بالروائي لتنصيب نفسه مؤرخاً، والحث على النظر إلى علمه؛ فالوثائق تؤكّد بأنّ ذلك كان لدى مؤلّف **الملهاة الانسانية** حلماً معاصراً لرواياته الأولى التي نشرها باسم مستعار، وهو أكثر استمرارية مما يتوقّع المرء له، وقد تدعّم بقراءات عديدة ودقيقة جداً

ماكاد يبيع قصة **وريثة بيراغ** التي لاتمتُّ بصلة للتاريخ، رغم أن الحَدَث واقع في مطلع القرن السابع عشر؛ حتى فكّر بمواضيع تاريخية فعلاً. **اختلال عقل شارل السادس، عصبتا الآرمنياك والبورغينيون، مؤامرة أمبواز، سان بارتلمي، الأزمنة الأولى في تاريخ فرنسا**، هذه هي العناوين التي يذكرها لأخته لور في رسالة بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٨٢١، ويهمّه أن يعرف مدى توفّر «كثير من الكتب عن تاريخ فرنسا، وخاصة مذكّرات شخصية تسلّط الضوء على العصور» في بايو أو كان حيث تقيم لور. ومن المؤكّد أن كل ذلك لم يتعدّ المشاريع الوهمية التي تتلاءم مع ذوق

عصر يستهويه التاريخ القومي، حيث يطمح أي كاتب مبتدىء للسير على نهج والتر سكوت. وبدلاً من أن نرى أونوره الشاب ينخرط سريعاً في العمل؛ نراه على العكس يجرّب حظّه، ويسعى إلى النجاح بروايات لاتتطلّب أي بحث علمي ولا تستلزم الارتباك في تدقيقات المؤرّخ. ومع ذلك فإنّ في هذا البرنامج المبكّر دلالة فضول قد استيقظ، وربّما الاعتراف بإيثار للعصور المضطربة، وتلك الحروب الأهلية التي أشار نودييه منذ العام ١٨١٧ الى «جاذبيتها الروائية»؛ ومن المسوغ ونحن نرتدّ إلى الماضي، أن نرى في هذه الترددّات البريئة حول اختيار الرواية التي يريد وضعها، ولم يفعل، البادرة الأولى غير المتميّزة لمشروعه «لتاريخ مثير للإعجاب لفرنسا».

لكن يبدو حقّاً أن مثل هذا الطموح الواسع لم يتضح قط في تفكيره قبل العام ١٨٢٥، وأنه بدأ يتعاظم خلال السنوات التي صرف النظر فيها عن السعي إلى الثروة عن طريق الأدب، ليعمل ناشراً، ثم صاحب مطبعة، وحتى سبّاك أحرف. ويتفق كل من البير پريو، وموريس باردش، وريمون ماسان حول هذه النقطة. وإذا لم نشأ أن نعدد هنا؛ قوائم العناوين، وهي عناوين غير مؤرخة، التي تشكّل لوحة جدارية تاريخية كاملة، بدءاً من شارلمان حتى عهد وصاية دوق أورليان، أو من ملكية شارل الرابع حتى سقوط نابوليون، يمكننا بسهولة أن نحدّد الأهمية التي يأخذها التاريخ في موهبة بلزاك الذي لم تمنعه أعماله من أن يتهيّأ سرّاً ليصبح نظيراً لوالتر سكوت. هل ينبغي التأكّد من تطلّعه الطموح؟ في ١٩ تموز ١٨٢٥ يذكر للدوقة دابرنتس «تاريخه المثير للإعجاب عن فرنسا» وكأنه مشروع جرى البتّ بأمره، ليضيف أن ليس لديه المعلومات الكافية حول «الحلي، والأثاث، وأزياء اللباس، لأيّ من العهود الملكية» وفي صيف العام ١٨٢٨ عندما يعلن عن نفسه مجدداً كرجل أدب، يكتب للجنرال دي بومرول بأنه منصرف إلى «مؤلّفات تاريخية ذات أهمية كبيرة» وأنّها تحتاج إلى وقت. بينما يعلن في الافتتاحية التي يضعها آنذاك لكتاب **«الفتى»**، الصيغة الأولى لرواية **الثائرين الملكيين**، بصوت

فيكتور موريون، وهو الاسم المستعار الأخير الذي كان آخر قناع له، أنّه ينوي «وضع تاريخ بلاده في متناول جميع الناس».

أتريدون الإحاطة بمتطلباته، وكم هو بعيد من الآن فصاعداً عن الإكتفاء بحبكة نزوة تستعيد من التاريخ زخرفتها وحواشيها؟ يكفي مقارنة **المحروم**، وهي الرواية التي وضع عنوانها واختار موضوعها منذ العام ١٨٢٣، وبدأ بإنشائها في العام ١٨٢٤؛ مع افتتاحية **الفتى**؛ وإذا كنا لانتمكن من قراءة **المحروم** إلا في نسخة العام ١٨٣٧، فمن المؤكد أنّ المخطط الذي صمّمه لها بلزاك في العام ١٨٢٤ يحتوي، كما الرواية التي روجعت لتنتهي أخيراً بمساعدة كل من بلوا وغرامون، لصالح **الأعمال الكاملة** لهوراس دي سانت اوبن، على جدول لاضطرابات المملكة وتحليل المنافسات السياسية بين جان سَنْپور (جان المقدام) ولويس دورليان، وهي تتراءى في خلفية مغامرات خيالية يخوضها أومبر ولاروش-كوربون وجميلته كاترين، مع إثاراتها النزوية ونهايتها على الطريقة الصقلية. في افتتاحية **الفتى** أراد بلزاك من اسمه المستعار ڤيكتور موريون، المتهيّء لنشر رواية عن القرن الخامس عشر، أن يعرف «دون تكلّف فترات العصر الوسيط وتقاليده» بحيث يكون قادراً على أن يرسم صورة مجتمع ذلك العصر، وعاداته، وآثاره، بأكثر الألوان حيوية؛ وأن يدرك بعد أن يدرس بتمعّن «التاريخ بمؤلّفاته العديدة المتناقضة» كيف يدعم إرشاداته «بحقيقة التفاصيل الشاملة». هذه النسخة المختلقة عن الروائي يمكنها هكذا، دون زهو، أن تجرّب «تقديم لوحات من النوع الذي يتلوّن فيه التاريخ الوطني بأحداث مجهولة من تقاليدنا وعاداتنا، وأن يظهر بشكل محسوس، وقريب لجميع العقول، عواقب الخلافات الملكية التي يعاني منها السكان بمجموعهم». هذه هي الرواية التاريخية التي يحلم بها بلزاك عشية ظهوره كروائي، باسمه الصريح هذه المرّة، ويعرف أولى نجاحاته مع **آخر الثائرين الملكيين، ومشاهد من الحياة الخاصة**.

ومع الأهداف الواسعة الطموح تجاوبت في تلك السنوات ذاتها محاولات متنوّعة، ومواظبة على الإطلاع بقي لنا منها آثار مؤكّدة؛ فقد نسخ بلزاك بيده فهرسات طويلة، موضوعة بالنسبة للقرن السادس عشر على الأقلّ؛ وفقاً **لمكتبة فرنسا التاريخية** للأب ليلون، المتميّزة برصانتها. وقد استخدمها، كما يبرهن تتبع آثاره، في المكتبة الملكية، ثم في مكتبة تور؛ والتي نشرها ج. ا. دوكرنو، ور. بييرو: لاشيء فيها عن ملكية شارل السادس، والأرجح أنه أوّل الملوك المدروسين، لكن منذ العام ١٨٢٥، ومجدّداً في العام ١٨٢٧ يعدّ الوثائق عن ملكية فرانسوا الأوّل وملكية شارل التاسع، وفي العام ١٨٢٨ عن ملكية شارل كنت ومدينة غان، وفي العامين ١٨٢٩ و١٨٣٠ عن مازارن وريشليو، فهناك برنامج عمل كامل، وروزنامة قراءات تساعد على تأريخ المخططات المتناثرة، وعلى إعطائها وزناً غير متوقّع. وقد جمع ج. ا. دوكورنو كل مايعود في أوراق بلزاك الى مشروعه: **تاريخ فرنسا المثير للاعجاب: المحروم** في صيغة العام ١٨٣٧، وكذلك أيضاً في مخطط البداية المؤرخ في حوالي ١٨٢٤، مع ملاحظات عجلى، مختلطة مع أسماء علم، وتدقيقات حول طقس الحرمان؛ شَذَرة قصيرة عن هذا **الضابط دي بوتفو**، لوحة لباريس أيام شارل السادس تُطرّق إلى ذكرها في افتتاحية **الفتى**، وتوزّع شخصياته في ثلاث زُمَر: البلاط، والجامعة، والبورجوازية؛ ومطلع رواية بعنوان **ابنة الملكة** تقع أحداثها في ڤندوم في العام ١٥٧٠، وبقي لنا منها صيغتان، على ظهر الأولى منهما مخطط للفصل التالي؛ وبداية أخرى **لملك العقّادين** وهي تتصدّى لثورة أهل غان ضد شارل كنت، حيث كانت ستظهر وجوه تاريخية عديدة، كما تشير قوائم الأسماء الملحقة في جزء من المخطوطة؛ وملاحظات ومخطط للفصل الأوّل من **الكرادلة الثلاثة** حيث كان سيصادف مازارن وريشيلو والأب جوزيف، وقائمتان من أسماء أخيرة تبدوان متميزتين، مهما قال ر. ماسان وج. ا. دوكورنو عن مشروع **ابنة الملكة**، حيث تتجاوز، كما في مواضع أخرى، أسماء تاريخية وأسماء مختلفة، ولكن حيث يتميّز بعناية حول كاترين دي

مديسي الأرملة، الكالفنيون والكاثوليك. ويتردّد والتر سكوت المستقبلي في اختيار مادته، وهو يجد مشقّة دون شكّ في تكييف هذه الروايات التاريخية التي يستشفّ مخططاتها غير أنه لم ينه أيّاً منها، فهو يهجرها مع بداياتها؛ لكن طبيعة قراءاته وسعتها، والمواضيع التي تستوقفه، تشهد في آن واحد، على أنه كان مصمّماً بدءاً من العام ١٨٢٧ خاصة، على أن يضع رواياته في ماض تام، مدروس برصانة المؤرّخ، وأنه في ايثاره لأزمنة الحروب الأهليّة المضطربة قد أعطى رأيه في القرن السادس عشر، وربّما أيضاً بكاترين دي مديسي التي يشير منذ العام ١٨٢٣ أنها لم تكن تصارع من «أجل الدين» ويوضّح في مكان آخر وعلى ورقة غير مؤرخة «وإنّما لإخضاع الكبار».

أما وأن نجاحاته الأدبيّة الأولى تعود إلى تحليل العالم والصور الواقعة تحت عينيه، أو العائدة إلى ماض قريب يختلط دائماً بالحاضر، فقد كان بوسعها، بل كان ينبغي أن تحرفه عن ذلك الماضي البعيد، والصعب إحياؤه. لكن الغريب أن شيئاً من هذا لم يحدث، مع أنّه هو بنفسه قد ادّعى، في العام ١٨٣١، أن الجمهور قد ارتوى من تاريخ فرنسا على طريقة «والترسكوت»[1] لكنه مع هذا لم يَعدُل عن المواضيع التاريخية بل تعلّق بها إلى حدّ دفعه إلى أن يقترح بعناد على ناشريه روايات لم يكتبها أبداً: **الكرادلة الثلاثة** التي باعها لمام منذ العام ١٨٣٠، ثم وعده بها مجدداً في العام ١٨٣٢، وكذلك أيضاً **الامتياز** «لوحة لباريس في مطلع القرن الخامس عشر» التي أعلنها لغوسلن في العام ١٨٣٣، و**آلام مبتكر** التي وجب أن يكون بطلها برنار باليسي والتي يذكرها بكل طيبة خاطر بين سنتي ١٨٣٢ و١٨٣٤ حتى أنه يحدّد موعد ظهورها في تصوّرها مع توزيع القسم الخامس للدراسات الفلسفية المتوقّع في آذار ١٨٣٥. لكن هذا المنظور التاريخي يغيب متلاشياً كلّما ارتسم عالمه الروائي وعَمُرَ، إنّما في ١٧ نيسان ١٨٣٤ يؤكّد وهو يرسم مخططاً

---

(١) انظر مقدّمة «جلد الحَبَب» (ص ١٥ في الترجمة العربية ـ منشورات وزارة الثقافة السورية ١٩٩٤).

لمشاريعه «أن هناك تتمة للروايات التاريخية التي يشكّل **الثائرون الملكيون** جزءاً منها، وفي كانون أول ١٨٣٦ يسجّل لنفسه فقط أنه «عازم على أن يدخل في الدراسات الفلسفية عدداً من المشاهد التاريخية على عدد القرون ليبيّن دمار الأفكار السامية في السياسة»؛ وهكذا تحيا وتكبر لدى المؤلّف، وقد غدا شهيراً ومتمكناً من فنّه، أحلام الشاب الذي كان يسترشد طريقه.

ستكون دهشتنا أقلّ، عندما نأخذ بالاعتبار كل مايمكن أن يشجّع هذه الأحلام الطموح، المجموعات الجديدة التي تدعوه لمتابعة قراءاته السابقة بوضعها في متناوله مذكّرات أو مستندات مثيرة للفضول؛ وكضمان للنجاح رواج الصنف التاريخي، الذي يبدو أن لاشيء يوهنه حتى ولا المحاولات الأكثر رداءة، أو الأكثر لامعقولية. كان العصر الوسيط ينتصر في كلّ مكان، وبصورة خاصة القرن السادس عشر بحروبه الدينية: في الرسم، كما في الأدب؛ وفي المسرحيات الهزلية الخفيفة (ڤودڤيل)، كما في الأوبرا، وبجميع النغمات، المأساوية، أو المتأنّقة وحتى الطريفة. ماذا نذكر منها الآن؟ **هنري الثالث وبلاطه** لدوماس، أو **وقائع ملكية شارل التاسع** لميريمه؛ أو **الهوغنوت** لسكريب ومايربير؟ لكن الباريسي آنذاك، ورجل الأدب يرى مع كرّ السنين بين ١٨٢٩ و١٨٣٦، في إعلانات المسارح، التتابعات التالية: **كاترين دي مديسي في اجتماعات المجالس في بلوا**، إعداد ل. آرنو؛ و**سيدة اللوفر** لـ ب. بليسيه، و**أيام المرافع في عهد شارل التاسع** للوكروا وآرنو؛ و**آب ١٥٧٢** للغيّون؛ و**مغامرة في عهد شارل التاسع** لسوليه وبادون، و**شارل التاسع** لروزيه. أو من بين الاصدارات الجديدة للمكتبات **ليل الدم**، **موت كوليني**، **ماري توشه** حيث يكرّر لغيّون مأساته **آب ١٥٧٢**، و**نوسترادراموس** لهبوليت بونّليه؛ و**برج الأسير** لسيزار خامن؛ و**مؤامرة آمبواز** لڤيكتور بورو، و**فيلق فرسان الملك الطائر** للبارون دي بازنكور؛ وأكتفي بهذا القدر. مما يعني المصادفة دون انقطاع لصور كاترين دي مديسي وأبنائها، أيّاً كانت فظاظة رسمها. وفي هذا مايحرّض روائياً يجد نفسه بحقّ أكثر استعداداً

وقدرة من غيره على رسم القرن السادس عشر. ومع ذلك يبدو بلزاك متردّدا في المجازفة. ربّما أكثر من التأمّل في مراجعاته النقدية **لمسلسل الصحف السياسية**، حول صعوبات صنف يريده مسخّراً بدقّة «للحقيقة التاريخية» ومكرّساً «ليعيد للوقائع معناها الحقيقي».

مهما يكن، فقد تأخّر في الانتقال من المشروع إلى العمل؛ و«دراساته» حول كاترين دي مديسي التي أمكن لكثير من المطالعات أن تعطيه المادة، والتي تتوافق تماماً مع ذوق العصر، بعيدة عن أن تكون قد أنشئت في حماس إيحاء متواصل، لافي الترتيب ولا ضمن الشكل الذي نقرؤها فيه، وقد غدت لحظات إظهار ولاء واحد لملكة غير مقدّرة.

II

يرى ألبير ماري شميدت بلزاك يستحوذ على «أميرته» كما مكيافلي في «أميره» ليضعها في مركز «معاهدة أسطورية في السياسة العامة»؛ لكن التماثل لايظهر إلا بالمجموع الذي أراد تحقيقه، العام ١٨٤٢، في الأجزاء الثلاثة التي ضمّتها **كاترين دي مديسي موضّحة** ففي ظل هذه الوحدة المحدّدة عن عمد، والمعززة آنئذ برسم خدّاع بارع، من السهل بتذكّر ولادتها فقط تقدير الزمن والجهد اللذين لزما لتجد هذه المجموعة تمامها، وليجد كل قسم فيها أبعاده.

الجزء الذي كتب أولاً وبقي مدة طويلة دون تتمة سيقرأ من الآن فصاعداً كقسم أخير، ففي ٨ أيار ١٨٣٠ ظهرت قصة **الحلمين** في مجلة «لامور»، وفي العام ١٨٤٢ وضعها بلزاك كتتمة نهائية قصيرة، بعد القصتين الأخريين اللتين وضعتا بعد الأولى بمدّة. والتنسيق المعدّ بهذه الطريقة يتلاءم مع البَون الذي استعيد به تاريخ القرن السادس عشر؛ وأمكن للملكة التي لم تكن في الجزء

الأخير إلا شبحاً في حُلُم أن تتمثّل بسهولة في صورة نهائية؛ وبتشكيلها اهتدى بلزاك، بإحدى تلك المواربات التي غدت مألوفة لديه إلى فنّ التخلّص من قَسْر الصنف التاريخي، والتصدّي للماضي دون جعله موضوع «دراسة» ففي **المُبعدين**، وفي القسم الأول من **الولد الملعون** لايظهره إلا كزخرف، وفي **المعلم كورنليوس** راقت له حالة فريدة جداً جعل فيها لويس الحادي عشر شخصاً ثانوياً في قصته؛ وفي **الحلمين** كانت «حفلة عشاء محدودة الضيوف» تتمّ في العام ١٧٨٦، وتؤطّر قصة الهلوسة التي تبرز فيها كاترين دي مديسي بشكل شبح يدعو في خطابه إلى التأمّل في مذبحة سان بارتلمي؛ إنّما ينبغي **أن** نرى هنا إلى جانب المنظور التاريخي، صدى الوضع السياسي المباشر فعشية العام ١٨٣٠ أو في غده، كان الأحرار زيادة في الإيحاء برعب التعصب الديني واستبداد الحكم الملكي المطلق لايفتؤون يذكّرون بوحشية مذبحة الملكة الوالدة وجرائمها؛ ولمهاجمة نصير الملكية لورنتي، رئيس تحرير **لاكوتيديين**، رُوّج عنه أنه «تجرّأ على وصف مذبحة بارتلمي **بضرورة انقاذية**[1]»؛ واحتدمت الحرب الكلامية من صحيفة إلى أخرى، لعدة أشهر. ويبدو أن بلزاك الروائي تذكّر ذلك فقام بتشخيص الشبح الملكي لكنه لم يهتم بتبنّي هذه المقولة، ووجبت المقدّمة المنشأة في العام ١٨٤٢ للتعبير عن نظام إيجابي وإبداء التقريظ «لملك كبير» لم يُفهَم وافتري عليه؛ وانصرف عند ذلك إلى أن يضمن عرضه عن المذبحة لوحة صغيرة عن القرن الثامن عشر، حيث يمكن في آن واحد اكتشاف الجاذبية والانحطاط الذي لامفر منه لعالم في طريقه الى الانتهاء، وتشكيل «حُلُم» يكشف الحالم وجبروته القريب.

إذا تناولنا **الحلمين** كلاً على حدة أمكن لنا أن نعلّل كيف اعتبرا على التوالي بين ١٨٣٠ و١٨٣١ «كقطعة» من **مشاهد عن الحياة السياسية** قيد التحضير،

---

(١) مداخلة من شارل دوپن في المجلس النيابي بتاريخ ٢٦ نيسان ١٨٤٨ سجّلت في «جورنال دي دبا» وملاحظة من لورنتي في «لاكوتيديين» بتاريخ ٢٧ نيسان ١٨٢٨.

و«كحكاية خرافية»، و«كقصة فلسفية» حيث لزم أن يكتشف فيها «فكرة فلسفية جريئة بقدر ماهي عميقة» لكنها مااعتبرت يوماً قصة تاريخية. ويخاطر القارىء بين فوق الطبيعي في الأحلام المنذرة، وبين تناقضات الأخلاق السياسية، بأن يهمل صورة كاترين دي مديسي التي تدين بكثير من بروزها، بالنسبة إلينا، الى تطابقها من بعد مع صور أكثر تعقيداً وواقعية ارتسمت في **المعذب الكالفني**، وفي **اعتراف الروجيريين**: فهي لم تكن آنئذ إلا خيالاً شبه منفصل عن حقائق زمنه.

تغيب الشخصية بعد ذلك من نتاج بلزاك لسنوات عديدة، وكلّ مايمكن ملاحظته في **دراسة عن وضع الحزب الملكي** نشرت في العام ١٨٣٢، إشارة تعود الى «واقعية» تلك الملكة الرهيبة من أجل كيل المديح لها دون تحفظ، واكتشاف مايبرز «مجدها في أعين رجال الدولة غير المبالين بالأحكام المسبقة»؛ وما من تخيّل يذكّر بها باستثناء طرفتين من العشريّة الثانية من **قصص ماجنة** سجّلت بشكل مضحك تحت عنوان: «شريحة جيدة من ملكيّة» حيث لاتظهر إلا كشخصية ثانوية؛ كذلك لاذكر لها في المراسلات أو في الملاحظات المخطوطة مما يستشفّ منه أي مشروع تأخذ فيه الدور الرئيس، ويجب انتظار العام ١٨٣٦ ونشر **سر الروجيريين** (العنوان الأصلي **لاعتراف الروجيريين**) لنجدها مجدّداً وقد سلطت عليها الأضواء في قصة ستصبح الجزء الثاني من دراسة حول **كاترين دي مديسي**.

كان بلزاك قد حلم قبل ذلك، بين تشرين أول ١٨٣٥ وكانون ثاني ١٨٣٦، بمسرحية يصور فيها وضع فرنسا في العام ١٥٧٢ وهموم شارل التاسع من غير أن يخرجها. ووضع لها عنواناً **ماري توشه** وهو اسم خليلة الملك، وقد بقي لنا منها المخطط المكتوب من قبل فرديناند دي غرامون، سكرتيره آنذاك، هذه المشاهد المتحيّرة بين التاريخ والخيال، دون أن تتوصل إلى صهرهما، حيث الفعل يشعشع دون أن ينعقد أو يتقدّم، تشهد، على الأقلّ، على اهتمام يتوجّه من جديد نحو

«عهد» كاترين دي مديسي، ويتركّز في آن واحد، ضمن منظور سياسي، على تطلّعات الملك لينتزع من أمّه حكم المملكة، وبطريقة حالمة أكثر على شخصية ماري التي تعتبر غرامه الوحيد. وهو عهد مضطرب حيناً، ممتلىء بالدسائس والتوتّرات، تعبّر قصائد الهجاء والمذكّرات عن انعكاساته، وبطلة تجمّلت بكل الاغراءات، إضافة الى أنها تزوّجت، فيما بعد، واحداً من آل بلزاك دنتراغ، هؤلاء الذين يودّ بلزاك ووالده، بكل طيبة خاطر، أن يجعلا منهم أجداداً لهما؛ وهذا يكفي، على مايبدو، لتنشيط ابتكار بلزاك ككاتب مسرحي، غير أنه يهجر مع ذلك مشروعه ولايتحدّث عليه بكلمة بعد ٣٠ كانون ثاني ١٨٣٦؛ ولكن بعد بضعة أشهر يكتشف قرّاء مجلة **«وقائع باريس»**، في قصة **سر الروجيريين** المنشورة فيها مسلسلة، ماري توشه العاشقة، والخالية من العيوب؛ وشارل التاسع المتحفّز للثورة على أمّه، وقد امّحى ممثلو المسرحية قبل ظهورهم ليولدوا مجدّداً شخصيات في رواية.

لم يتمّ ذلك من غير انعطاف أخير للالهام، وبدا البون أكبر مما يظهر أيضاً بين المخطّط الدرامي والقصة وفقاً للشكل الذي أخذته، حسب قول بلزاك، ذات ليلة من أيلول ١٨٣٦؛ فالتاريخ المختار لم يقتصر فقط على وضعنا بعد وقوع المذبحة، وليس قبلها؛ كما لم يقتصر على بروز توزيع جديد للأدوار؛ فغدا الكيميائيان بطلي عقدة الحدث، بينما اختفت الشخصية الخيالية الاصطلاحية للنبيل الشاب المخلص لماري بدافع حب فتيّ سابق؛ ولكن لايمكننا أن نحدّد حالياً الى أي مدى بقي التاريخ آنذاك شبه غائب عن **سرّ الروجيريين** الذي اقتصر في صيغته الأولى على تاريخ علوم السحر والتنجيم. ففحص المخطوطة المنقسمة الى فصلين متميّزين، وفحص المسوّدات الطباعية الناتجة عنها يفرضان على كل من طبقهما مثل هذا الاستنتاج المفارق: فالفصل الأول، «ليلة شارل التاسع»، الذي يعرض فيه بلزاك بدقّة العلاقات بين الملك وأمه، يبدو أنه قد

أنشىء بعد فوات الأوان؛ ويشكل الفصل الثاني وحده كل القصة التي كتبت «خلال ليلة واحدة» تحت العنوان الذي بقي بعد ذلك للقصة كلّها «سرّ الروجيريين» وقد كشف و. ل. كرين عن ذلك منذ العام ١٩٤٢، كما تسنّت لـ ر. دي سيزار الفرصة للعودة الى ذلك بدراسة عمل بلزاك في أيلول ١٨٣٦، وأمكنني من جهتي أن أبرهن على ذلك في **محاولة دراسة نقديّة**. ولنقتصر هنا على الايضاح أن ترقيم الصفحات وإضافاتها، وإشارات تركيب الصفحات، والتصحيحات والزيادات على المسوّدات الطباعية تكفي للبرهان على ماذكر. وهكذا فلا وجود في الفترة الأولى من الابتكار للوحة البلاط الملكي، ولا وصف مباشر لجولة شارل التاسع الليلية، ولا مواجهة سريّة مع زعماء المستائين، ولا مقابلة وجهاً لوجه مع الأم التي نجحت بحديثها في زرع الشك والعجز في نفس ولدها. فالقصة كانت تقتصر على زيارة ماري توشه واستنطاق الكيميائيين اللذين لم يودعا فيها سجينين تحت الحراسة، ولم تكن طويلة، وكان بوسع بلزاك أن يضعها في الجزء الثالث عشر من **دراسات فلسفية** بين **قداس الملحد** و **فاسينو كان**؛ بينما زيدت في صيغتها النهائية بالفصل «الأولّ» وبإضافات عديدة، تكفي لتشغل لوحدها هذا الجزء الثالث عشر. خاصة وأنها لاتمت إلا بصلة بعيدة للتاريخ السياسي، ويمكن قراءتها دون الاهتمام بتلك الدسائس التي كانت تحيكها غداة المذبحة الشخصيات الكبرى في المملكة. فهي تبدأ كحكاية تستذكر في شارع من باريس القديمة «ضيق ومعتم» مكاناً، هو قصر صغير بين بين فناء وحديقة، ممتلىء بتحف رصينة، تشغله بطلة هي «امرأة ذات جمال بارز اسمها ماري لم تعشق إلا رجلاً واحداً». ولا يظهر شارل التاسع إلا في هذه الخلوة التي يلجأ إليها عندما يحتاج لتهدئة «انفعالاته المغيظة»، ولا يتصدّى لمتاعبه إلا للاعتراف بفتور همته؛ ولا وجود لكاترين دي مديسي إلا في مسّاراته التي يبوح بها لماري. والروجيريان أخيراً، وهما في مركز اللوحة لايبديان الاهتمام إلا بأبحاثهما الغامضة، وما من شيء يدلّ على علاقتهما مع الملكة الأم، ولا على

رغبتهما في تحويل انتباه الملك بمهارة لإزالة شكوكه: فكلّ تلك الخلفية التي تثقل بالغموض المداولة حول الكيمياء القديمة تتسرّب إليها في إضافات على المسوّدات الطباعية، أو حتى فيما بعد أيضاً، عند رحيل كوسم ولوران المسجّل على هامش الدفعة الأولى من تجارب المطبعة. أما في المخطوطة فإن «ملك الأفكار» يفتن ملك فرنسا دون الاعتماد على أيّة مهارة سياسية تضاعف كشف مملكته الخفيّة.

وجب في آن معاً العرض الإرشادي البارع الذي يتواجه فيه الملك مع أمّه مظهراً تعقّد المصالح الجارية؛ وتتابع الأحداث المتعلقة بهذا الصراع الخفي، ليربطا بالتاريخ ويسجّلا في اللوحة الدقيقة لنهاية عهد، ما لم يكن أولاً إلا نزوة عابرة حول الكيمياء القديمة ومكانتها؛ وفي الوقت الذي يتضاعف فيه المؤلف، إن صحّ التعبير، ويأتي المنظور الجديد ليعدّل التصوّر الأول لسرّ **الروجيريين** بحيث يمكن أن يتحوّل بيسر إلى دراسة عن كاترين دي مديسي وباجتهاد بلزاك في انجاز هذا التحوّل، ورسم وشرح مااقتصر على تخطيط مجمل في البدء، انصرف، دون أن يتجنب لمدة أطول مظاهر القسر، الى المهمة، التي حدّدها منذ العام ١٨٣٠ للروائي التاريخي.

وبينما كان يعمل هكذا في تغيير النسب وتعديل بنية قصته يكتشف المشهد الذي سيشكّل موضوع **الشهيد الكالفني**، ولم يتردّد في المجازفة باستطراد ليهيّء له مكاناً في الصورة السياسية التي كان يرسمها للملكة في الفصل الجديد، ولم يتراجع إلا عندما تقدّم **الشهيد الكالفني** على **سرّ الروجيربيين** في **كاترين دي مديسي موضحه**: «كيف لم تستحوذ الرواية والمسرحية حتى الآن على مغامرة هذا التاجر الفرّاء، المسمّى لكاموس، الذي حمل للملكة الأم بذريعة عرض فراء عليها معاهدة مع الكالفنيين لدراستها؟ وتفاجأ كاترين بكنّتها التي شكّت بالفرّاء فتسلّم الأوراق للأخوين دي غيز اللذين يخضعا التاجر للاستجواب تحت التعذيب،

ويحافظ الرسول المضحّى به على الصمت العميق صائناً سرّ الملكة الأم؛ فأيّ رجال «كان بورجوازيو ذلك الزمان؟».

لئن مرّت عدة سنوات قبل أن يصل بلزاك الى وضع رواية تجمع «الدراسات» الثلاث التي أبرز فيها كاترين دي مديسي، فمن الملاحظ أنه كان يتوقع تكوين هذه الرواية؛ بل إنه لم يتأخّر في التحدّث عنها وكأنها عمل جاهز للظهور، مستشفاً في وحدته التي يؤكّد عليها في مقدّمته، وقد تتجلّى هذا المنظور منذ ٢٨ أيار ١٨٣٧ عندما كتب الى السيدة هانسكا: «أنهيت دراسة صغيرة بعنوان **المعذّب**، وهي مع **سرّ الروجيريين والحلمين** تكمل دراستي عن طبع كاترين دي مديسي».

أما هذا **المعذّب** فقد كان يتوقّع منذ عدة أشهر نشره في **الدراسات الفلسفية**، ومع توالي البطاقات التي ينظم بها تسليم الكراسات المتتابعة، كان يغيّر العنوان دون أن يتخلّى عن الموضوع: **مُعذّب**، **فرّاء الملكة** أو **فرّاء الملكتين**؛ وأيضاً كما ورد في الاعلان على ظاهر الجزء الثاني عشر **ابن الفرّاء**. هذه التغيّرات في العنوان راحت تستمر إلى أن ظهر الفصل الأوّل من لكاموس في مجلة «**القرن** LE SIÈCLE» في ٢٣ آذار ١٨٤١. وينبغي الاعتقاد، أيّاً كان قول بلزاك، أنه قد عانى كثيراً وتأخّر كثيراً في إنهاء «دراسته»؛ لأنه انتظر طويلاً لنشر عمل لم يفتأ يشير إليه في إعلاناته، أو يَعِدُ به في عقوده. من المؤكد أنّه كان قد بدأ، لأنّه حرص عندما استبدله **بالشهداء المجهولين** في الجزء الثاني عشر من **الدراسات الفلسفية**، على الإشارة إلى الطابع كيف يوزّع الملازِم المنشأة في الجزء الرابع عشر المقبل؛ لكن من المرجح أنه قد توقف سريعاً، وأن هذه البداية لم يكن لها تتمة قبل ١٨٤٠. يبقى أنه لم يتخلَ كليّاً، في مخيّلته على الأقل، عن كاترين دي مديسي وعصرها، منذ أن عاد لدراستهما في خريف ١٨٣٦. وبانتظار أن يأخذ مشروعه شكله الملائم، فإنّه وجّه جهوده،

وطموحاته، في **رجل كبير من المقاطعات في باريس**[1] الى «لوسيان روبمبره» الذي أراده أن يكون مؤلّف رواية تاريخية، والى «دانييل دارتز» الذي يجعل منه الناقد المتسامح: فكان الأول يعمل بحمية في تصحيح «الأخطاء المروعة» في **نبّال شارل التاسع** ويطمح إلى أن يظهر «بجلاء حقيقي الصراع بين الكاثوليك الذي يدعمون الحكومة المطلقة، والبروتستنت الذين يريدون إقامة حكم جمهوري» أما الثاني فقد نصحه ببيان «الأخطاء الشعبية» وبالجرأة «على تصحيح صورة كاترين الكبيرة والرائعة» المضحّى بها نتيجة أحكام مسبقة، وقد شجعه على تصورّ «تاريخ فرنسا المثير للإعجاب» حيث تُوصف الملابس، والأثاث، والمنازل. . . ؛ والحياة الخاصة مع منح كل شيء روح عصره». كيف لايمكن التعرّف هنا على أحلام بلزاك في سني شبابه، العام ١٨٢٥، وعلى نظرية الرواية التاريخية التي أجملها في العام ١٨٢٨ بصوت فيكتور موريون؟ لكن تلك هي أيضاً على وجه الدقّة مقولات **المقدّمة** التي تطمح الى تنظيم مجموع رواية **كاترين دي مديسي الموضّحة**.

في ربيع العام ١٨٤١ تنشر «**القرن** LE SIÈCLE» أخيراً مسلسلة **لكاموس** المعلن عنها في شباط ١٨٣٩، ويتصدّى بلزاك هذه المرة ودون مواربة لتاريخ القرن السادس عشر، فيستخدم لذلك مادة عمله الدرامي، من البداية حتى النهاية، وجميع شخصياتها الرئيسة وحتى معظم الأشخاص الثانويين؛ ولكن إن كان هذا هو موضوع **الشهيد الكالفني** فإنه لايتعدى التخطيط، ولا تأخذ الرواية أبعادها، وايقاعها إلا في الأشهر التالية، ويغير بلزاك للمرة الأخيرة عنوانها، ويوسّعها، لينشرها في مجلّد، فيلحظ لها التقسيم الجديد سبعة عشر فصلاً بدلاً من عشرة. فقد ضوعفت بعض الفصول لإبراز مايجذب ويثير الاعجاب، أو للتدقيق في الطبوغرافية، أو للتفصيل في حدث روي في البدء باختصار. وتسلّط ثلاثة فصول

(١) هو القسم الثاني من رواية «أوهام ضائعة» التي نشرت في حزيران ١٨٣٩.

جديدة كلياً، الضوء على شخصية كالفن، وعلى وضع كاترين بعد موت فرنسوا الثاني. أما الحكاية المكتشفة منذ العام ١٨٣٦، والتي تبقى عقدة الحَدَث، فإنّها قد أخذت في لوحة أكثر تعقيداً تهدف إلى زيادة تعظيم الملكة، والى توضيح كلّ الأهمية السياسية للبروتستنتية.

لم يكن بلزاك يهدف، بإعادة صياغة روايته إلى إفشال التزوير البلجيكي فقط كما ادعى، هذا التزوير الذي كان يعيد طبع النص كما ورد في المسلسلة؛ لكنه كان ينشىء المجموعة الجديدة كما تصوّرها في خياله، وبعد أوّل اتفاق مع شوڤرن باعه فيه **لي لكاموس** كما ظهرت سابقاً[1] مع ثلاثة روايات أخرى، فقد تقرّر أن يضمّ إليها **الروجيريين** و **الحلمين** ووافق المؤلّف على إضافة يجريها لرواية الشهيد الكالفني، بهدف ربط هذا المؤلّف مع المؤلّفين الآخرين» هذه الإضافة كانت **المقدمة**، ومنذ شهر كانون أوّل ١٨٤١، راح بلزاك يصحّح المسوّدات الطباعية بعد أن أعطى المجموعة عنوان **كاترين دي مديسي موضحة**.

للإنتهاء من الولادة البطيئة لهذه المجموعة التاريخية التي تبدو أقسامها كثيرة التميز بتاريخها، وطولها، ومادتها؛ لايبقى إلا أن نبيّن كيف جهد بلزاك في توضيح الوحدة التي أراد فرضها على قرّائه. ليس لأن ليس لهذه الوحدة جذورها في النصوص المكتوبة على التتابع في الأعوام ١٨٣٠، و١٨٣٦، و١٨٤١: فمنذ **الحلمين** كان قد توطّد تفوّق ملكة قادرة على تصوّر الرابطة بين الملكية والوحدة الدينية، وضرورة الصراع ضد الاصلاح الديني في بداياته؛ وفي **سرّ الروجيريين**

---

(١) تمّ هذا الاتفاق في ١١ نيسان ١٨٤١.

نشهد انتصارات، حيناً في مشهد صريح، وحينا آخر في الخفاء، لوعيها، ومهارتها، وفنّها في مزج الحقيقة بالأكاذيب بطريقة ماكرة؛ بينما تظهرها رواية الشهيد الكالفني أقل عمراً بثلاثة عشر عاماً، لكنها كانت منذ ذلك الحين مشابهة للوضع الذي عرفت فيه، شاحبة، مرتدية ثياب الحداد السوداء، عميقة الغور عصية على الفهم، لاتبالي بشيء إلا بالسلطة التي تريد الفوز بها، وهي محاطة بالأشخاص أنفسهم. يمكن للقارىء الواعي في الرواية الأولى كما في الأخرى أن يجد مجدّداً أيضاً الريبة القديمة والمستمرة تجاه إصلاح ديني تكفي روحه لتدمير الملكية. بذلك لايبقى إلا جمع القصص الثلاث في منظور واحد، وإعطاء كل منها المكان الملائم له، وإصلاح التنافرات، والإشارة الى التماثلات: ومن هنا أهمية تلك **المقدّمة** التي أعلن بلزاك عن الرغبة في وضعها، وضرورة بعض التغييرات في بعض المقاطع.

أمكن لبلزاك بسهولة، بقلب ترتيب الإنشاء، أن يظهر الاستمرارية الزمنية عبر انقطاع المشاهد، **فالشهيد الكالفني** في العام ١٥٦٠، وسر **الروجيريين** في العام ١٥٧٣، تظهران وفقاً لما تقول لنا **المقدّمة** أول الصعوبات الكبرى وآخرها في حياة كاترين دي مديسي السياسية. أما **الحلمان** فهاهما يبيّنان في **محاورة بين كاترين دي مديسي وروبسبيير** ماقصد إفهامه من «الضرورات السياسية لمبدأ السيطرة» سواء أكانت ديمقراطية أم ملكية مطلقة؛ لكن هذه القصة القصيرة تعرض أيضاً، بشكل خاتمة، الصورة النهائية للملكة، متخيّلة خارج الزمن في حقيقتها الرئيسة. بينما تخطّ **المقدّمة**، وهي تتمة واستهلال تاريخ عائلة الملك و«خلاصة» عن حياتها، قبل فترة رواية **الشهيد الكالفني**. أخيراً فالعنوان **كاترين دي مديسي موضحة** يصوغ الطموح الموجّه للمجموعة التي نُظّمت على هذا الشكل. وقد حرصت المقدمة على تفسير المجموعة بتحليلها لشخصية الملكة، ووضعها الصعب، مع تبرير سلوكها في مكائدها، كما في عنفها. فالروائي منحاز إلى

بطلته، مدافع عنها دون أي تحفّظ، واضع حداً للتعارض الذي رسم خطوطه منذ عام ١٨٣٠ وماض به حتى النهاية.

حين قام قبل فترة، في العام ١٨٣٦، فأعاد النظر في **الحلمين** من أجل الجزء الثاني عشر من **الدراسات الفلسفية**، التي شكّل **سر الروجيريين** الجزء الثالث عشر منها فيما بعد؛ أجرى بلزاك على القصة بعض التعديلات هنا وهناك مستوحياً الرواية الصغيرة التي أنهاها: فأدخل بعض التدقيقات في التفصيل بشكل خاص، ليظهر صدى نوايا شارل التاسع ولوران روجيري، كما أبرز ماقاله خيال الملكة عن مخاطر المبدأ البروتستنتي.

ومابين ١٨٤١ و١٨٤٢ كان دور **سر الروجيريين** في المراجعة، لتتوافق في آن واحد مع المقدمة، ومع **الشهيد الكالفني** الذي يقرأ من الآن فصاعداً كجزء أوّل، وتمّت تعديلات عديدة، وخاصة في العرض التاريخي وهي تهدف إلى تنسيق المجموع. وحذفت بعض المقاطع، فأزيلت الإشارة إلى مغامرة لكاموس، وكذلك بعض التفاصيل المثيرة التي وجدت مكاناً أكثر تلاؤماً لها في **الشهيد الكالفني**، وتذكيرات تشير في لوحة بلاط ١٥٧٣ إلى مأساة ١٥٦٠، وإلى صراع الملكة الوالدة مع الأخوين دي غيز؛ وأخيراً بعض تصحيحات تؤمّن ترابطاً داخلياً أكثر متانة؛ ففي الشهيد الكالفني يحرص كالفن على إضفاء اسمه على حركة الاصلاح الديني؛ وفي هذه الصيغة الجديدة من **سر الروجيريين** تمّ تكرير ذلك في إضافة لها وحلّ تعبير «الكالفنية» والكالفني مكان «البروتستنتية» و«البروتستنتي». أما صورة كاترين دي مديسي فقد حُسنت بحذق ومهارة وسلّطت عليها أضواء جديدة، حتى لايمكن لأمر أن يؤثّر على مكانتها السياسية التي أشيد بها في **المقدمة** وفي الرواية الأخرى.

في الأجزاء الثلاثة الجاهزة في العام ١٨٤٢ والمنشورة في العام ١٨٤٤ انتصرت الوحدة، المستشفّة منذ زمن من قبل المؤلّف، في ذلك المنظور المرسوم

بعناية لإبراز صورة كاترين دي مديسي في المقام الأوّل، ولم تتمّ إضافة شيء الى المجموعة، عندما أخذت في العام ١٨٤٦ العنوان الأقل مغالاة وهو «**حول كاترين دي مديسي**» الذي ظهرت فيه ضمن الجزئين الخامس عشر والسادس عشر من **الملهاة الانسانية**.

III

أراد بلزاك إذاً وبإصرار أن ينظر قراؤه الى دراساته **حول كاترين دي مديسي** ككل، وأن يروا في كل منها لوحة من التاريخ تجهد فيها ملكة القرن السادس عشر إلى تثبيت الملكية، وسط أحزاب متآمرة، ورغم القوة الهدّامة للبروتستنتية، لكن لا **المقدمة** ولا الروايتان ولا القصة تمكّن من استخلاص ذلك؛ وإذا أريد النظر بجديّة الى الناحية التاريخية، بفحص المصادر واستخدامها، وجب الانتباه أيضاً الى بنية كل قطعة وحسن تقدير الميزة الروائية التي لاتتقيد بالمكان ولا باستمرار تمثيل الماضي وصحة التعبير عن روحه؛ فعلى طول هذه الدراسات، وبتوفيق مختلف الدرجات، وعلى مختلف النبرات، يسير بلزاك في إنشائه بين التاريخ والرواية، وتكفي بعض المعالم لمتابعة حركته.

المقدمة، بالتعريف، تبقى على الهامش، وتبدو في البدء إرشادية كلياً، الى درجة قد تدفع الى التحول عنها سريعاً. أتريدون الاستمرار في السعي لاكتشاف بلزاك مؤرخاً فيها؟ من السهل تفكيك قطع الفسيفساء التي ركّبها، حتى يبدأ الشك يخامرنا في أن شيئاً من الابتكار أو وجهة نظر شخصية تسربا اليها. ربّما كان تاريخ آل مديسي النواة البدائية في هذه المقدمة؛ إذ أن ملاحظة بخطّ المؤلّف تعطي هذا العنوان للقسم الأوّل منها، وهو مستخلص مباشرة من المواضيع المتنوّعة عن آل **مديسي**، **وستروزي وبازي** في مؤلّف **السيرة الشاملة** المنشور من قبل لويس غبرييل ميشو، والموجود في مكتبة بلزاك. بينما كل مايتعلق بكاترين دي مديسي

وحاشيتها، من الطُرَف المذكورة في البداية لتبرير سياستها حتى عناصر سيرتها الذاتية، العام ١٥٦٠ مستمدة من مجموعة من القرن الثامن عشر هي **مذكرات تاريخية ونقدية وطُرَف عن ملكات فرنسا والوصيات على عرشها** لدرو دو راديه: ففيها نعثر حتى على المقارنة بين فردنموند وبرونهو[١]، وحتى لقب **أمّ الجيوش**، وحتى القصائد الهجائية اللاتينية اللاذعة ضد ديان دي بواتيه؛ وكما فعل في عرض الروجيريين، فإن بلزاك قد غرف دون أن يتعب من هذه الفصول الموثّقة جيّداً، وهوِ مدين لها إلى الحدّ الذي حرص فيه على أن يتكتّم على مصدره، بينما كان يعنى بأن يضع أمام أسماء المؤرّخين عناوين مقالات النقد التي تتلاءم مع قراءاته السابقة، إنّما عثر عليها مجدداً في المكان المناسب لدى ذلك المؤلّف الذي لايذكره. لكن قلّة أمانته لم تمنعه من أن يعمل على طريقته في استكمال ماتقوله تلك **الطُرَف** أو في التحقّق منها، معدّلاً في التفاصيل، عاكساً الحكم، مضيفاً استشهادات طويلة مأخوذة من مذكرات غيّوم دي بلّي، أو مستعارة من برنتوم لإعطاء «لهجة التقاليد» وإبراز قرن سادس عشر مثير للإعجاب و«ماجن» يحرص على تصويره. لكنه لم يستطع مع ذلك أن يحول دون أن تشي تلك المقدمة باستعاراتها المتعدّدة والمكشوفة بافراط؛ وإذا كانت قد حافظت على مكانها في **الملهاة الإنسانية**، بينما استبعدت مقدمات أخرى عديدة غيرها فذلك لأنّها تبرز المنظور الذي أراده بلزاك «تاريخياً» للدراسات الثلاث؛ لكن هذا لايمنع، من أن تبقى، بمعنى ما، عملاً اقتضاه الظرف، وربّما على قياس الصفحات الضرورية لإتمام الأجزاء الثلاثة المتوقعة، أو وفقاً لتعابيره بالذات، أحد هذه «الأعمال الملحقة» التي يجب كتابتها علاوة على كل شيء.

لكن من الخطأ الإعتقاد أنه ما من شيء، عدا إرادة تسليط الضوء على عصر وشخصيته، قد دفع بذلك البَسْط الكثير التحذلق ودعمه؛ وبإمعان التأمّل فيه، نرى

---

(١) **فردنموند**: زوجة شيليبريك الأول (٥٤٥ ـ ٥٩٧م) ملك نوسترية «وهي مملكة بين اللوار وبريتانيه في ذلك العهد وقد خنقت غالسونيت الزوجة الأخرى لشيلبريك وقامت منافسة حادة بينها وبين برونهو أخت غالسونيت.

طباقاً ماهراً يرتسم بين الماضي والحاضر، وحركة مستمرة مثقلة بالمعنى بين التاريخ والحِكَم السياسية؛ فإذا كانت السيرة الذاتية لكاترين دي مديسي، ولوحة بداياتها في البلاط، وحياتها كملكة لم تزخر بالحياة قط بفعل الفن الروائي، فإنّا نقع فيها على التبصّر في قواعد الحكم، ومزايا رجل الدولة التي يصوغها بلزاك غالباً بشكل نظري، بعد أن حالت الظروف بينه وبين تطبيقها عملياً. وهو يضمّن اللوم، الموجّه إلى البروتستنت «الذين يحلمون بجمهورية مستحيلة» ويشجعون روح النقد التي تهدّد المجتمعات الحديثة»، إدانة الليبرالية البورجوازية المنتصرة في ظلّ ملكية تموز التي يحلّلها بقسوة في **طبيب الريف** وفي **كاهن القرية**: فجميع المساوىء التي يستهجنها في فرنسا لويس فيليب، يرى بذورها الأولى ضمن فرنسا القرن السادس عشر، عبر الاضطرابات الدينية، وفي المهابة التي تلتصق منذ ذلك الحين «بالكلمات الرهيبة: الحرية، والتسامح، والتقدّم، والفلسفة». وهو يقرن بمديح بطلته، التي لم تتراجع البتّة عن استخدام «الوسائل الضرورية» والتي صانت الملكية بوعيها ومكرها، تمجيد السياسة التي تجسّدها؛ ويجعل من مكيافلية وعنف، ملائمين للظروف بكل براعة، ثوابت في سلوك كبار رجال الدولة، الذين يجيدون المحافظة على سلطة قويّة، وعلى وحدة الأمة دون أن تربكهم الوساوس، والذين يكفي نجاحهم لإقامة الشرعية، فيستمد حتى من تاريخ آل مديسي، البراهين على صحة هذه المبادىء المعاكسة «للقواعد التي تشكل الأخلاق الخاصة»؛ و يحرص في سياق مقالات قاموسه السياسي على أن ينوّه بكل مايشير لدى أولئك الأعيان، والأمراء، والبابوات الذين يتذكر ارتقائهم، إلى ازدرائهم المضاعف «للشرعية» و«للاستقامة»؛ فهو يرى في ذلك الكثير من الحالات النموذجية، ويرى تاريخ الرجل السياسي، كما يقول بصراحة وتاريخ السياسة الأبدي، هو تاريخ المغتصبين والغزاة». هكذا دأب بلزاك بدعوى إنشاء استهلال تاريخي على إعطاء المقولات المتفرقة في القصص كل مدلولاتها وترابطاتها، والتي أسّست في **عقيدته الاجتماعية**، غير المكتملة وغير المنشورة «نظريته في النظام» و«فلسفته في السلطة». وفيما نحن نقرأ على ضوء هذه **المقدمة** الدراسات

الثلاث التي تليها، نستطيع أن نعثر فيها، كما فعل ألبر ماري شميدت على «أهمية إيديولوجية حيّة أو كما قال من قبله پول بورجه على «التعبير الأكثر طلاقة للتخيل» وعلى «نظرية سياسية متينة».

تبدو رواية **الشهيد الكالفني** وكأنها تريد أن تستجيب، نقطة بعد نقطة، للطموحات المعبّر عنها في مدخل قصة الفتى، أو في نصائح دانييل دارتز؛ فكل شيء فيها يسهم في رسم ذلك الوسط من القرن السادس عشر المختار زمناً للرواية ومادة لها: تحليل دقيق، وسرد للتغيّرات الروائية، وصور كاملة لزعماء القضايا الأمراء أو المشاهير، وتلميحات متعددة لأحداث البلاط المختلفة، مع مشاهد أيضاً من الحياة الخاصة بصحبة بورجوازيين متأنّقين، معروفي الموارد والهموم والطموحات. وديكور مضاعف أيضاً ليستخدم خلفية لتلك اللوحة المضاعفة: لوحة القصور الملكية في اللوفر أو في بلوا؛ ولوحة المتجر في حي «السيته» الباريسي برواقه ذي العضادات وبابه على مياه النهر «والقاعة الكبيرة البنيّة» حيث تجتمع العائلة؛ وفي كل مكان من هذه المنعكسات المتعددة للماضي البعيد يسعى بلزاك على طريقته للقيام بمهمة المؤرّخ إلى درجة يضمن فيها أدق التفاصيل.

امتنع بلزاك في اللوحة السياسية والدينية عن الاختلاق، مراوغاً فقط في التحديد الزمني التاريخي ليضمّن قصته أحداث آمبواز، وقد وجد موضوعه في مقال **كاترين دي مديسي** من كتاب السيرة الذاتية، حيث ذكرت مغامرة لكاموس «ابن تاجر الفراء» بتفاصيلها، بدءاً من المهمة السريّة التي كلّفه بها الوزير البروتستنتي شوديو حتى فشل خدعته، دون استثناء المشهد الروائي الذي تقوم فيه ماري ستوارت بمباغتة كاترين دي مديسي وهي تقرأ «المذكرة» المسلّمة لها. وإذا كان قد خلط قليلاً بين التواريخ والأجيال، فجعل من «دي تو المؤرّخ المشهور» عرّاباً لبطله، ورئيساً لبرلمان باريس؛ فذلك لأن هذا الأخير قد ذكر في **تاريخه العام** إنه عرف بصورة خاصة الشاب كاموس، وأنّ أباه كريستوف، إن لم يكن هو، قد

شغل منصب رئيس البرلمان في العام ١٥٦٠ . ولتوسيع المنظور، يحشر بعناية مغامرة «معذّبه» في ملكية فرانسوا الثاني، مستعيناً بأفضل المؤرخين الذين تحدثوا عنه - دي تو، ومزراي، ولي لابورور - لكنه يفرط في الاستعارة بكلّ طيبة خاطر من المسرحية الغامضة التي نشرها صديقه جرمو في الخفاء، العام ١٨٢٩ ، حيث ينتشر اللون التاريخي بإسراف، فهو يأخذ مشاهد كاملة من **الاصلاح الديني في العام ١٥٦٠** ليعيد وصف المؤامرة وتنفيذ حكم الإعدام بالبروتستنتيين في آمبواز، واجتماع مجلس الطبقات، وموت الملك الشاب، ومحاورة فرانسوا الثاني مع ماري ستوارت، أو أفراد الحاشية الملكية فيما بينهم سواء في بلوا أو في أورليان. عَدَدٌ من «الألاميس المختلسة» كما يعترف بلزاك فيما بعد في إهداء إلى المؤلّف. . . وقد لزمه أيضاً لإثارة المزيد من الإعجاب طُرَف وجدها في أمكنة أخرى: في **قطع أدبية ممتعة غير معروفة** لبيير انطوان دي لابلاس كتلك التي يرى فيها امبرواز پاره ينتزع نصل سهم من رأس الدوق دي غيز، أو في **السيرة الشاملة** كالحادثة المزعجة لآميوت الضائع بين خطوة الفتى شارل التاسع وحَنَق الملكة الأم.

لكنه عندما ينصرف إلى وصف أبطال الرواية فإنه يتقيّد بمصادره، فهو يجد ملامح لاتنقصها الدقة في مسرحية جرمو، ويعطيها مزيداً من الوضوح والحقيقة بتذكّره قراءات أكثر تمحيصاً وعلى الأرجح بضع صفحات وضع فيها مزاري، حتى قبل أن يبدأ سرده التاريخي حول عهد فرنسوا الثاني صفاً كاملاً من صور الأشخاص. وهو يجدّد خاصة صورة كاترين دي مديسي، التي لم يكن لها دور كبير، ولامظهر بيّن في المسرحية: فهي نادراً ماتظهر، وغالباً مستكينة سلبية، ومترددة دوماً، وليست مدينة بانتصارها النهائي إلا للحظّ فقط. لكن بلزاك لاترضيه بطلة ضعيفة حتى في محاولاتها الإجرامية: فهو يستعيد القسمات التي سبق أن سجّلها في **الروجيريين**: - الميل إلى السلطة، وفنّ المواربة، والجرأة في الوسائل، والإيمان بالسحر والتنجيم - وينجح كل النجاح في إظهارها في مرحلة الفعل والفترة الملائمة لوصف سياستها البارعة، أليست هي الفترة نفسها التي اختارها لي لابورور وغيره من المؤرخين لتحليل نجاحها، وتعريف «الأسس»

لاسيما التي تلهمها سلوكها في سياق رواية الشهيد الكالفني؟ «وأولها، كما يقول، هي المحافظة على العرش لأبنائها، وثانيها تثبيت نفسها في سلطة الحكومة، وثالثها زعزعة الثقة بآل لورين. . . كانت تحرص على التوازن، دون أن تكون مدينة بتوطيد سلطانها إلا لذكائها. أخيراً إذا ظلّت الصور المقابلة لتيودور دي بيز وكالفن على هامش الحركة السردية، فإن بلزاك لم يقلّل من عنايته في رسمها. وهو يدين أيضاً لمسرحية جرمو بفكرة المقابلة الوجاهية بينهما ولتفاصيل الحوار الذي جرى، لكنه حرص على أن يقصّ حياة كالفن كلهاوفقاً **للسيرة الشاملة**، وأن يضفي عليه ملامح جسمانية مدهشة تتناقض مع الصور التقليدية لكالفن المتقشف، دون أن يكون مرد ذلك الى نزوة من الروائي، بل هو انعكاس أمين ومنمنم للصورة التي رآها معروضة في «أروقة فرساي التاريخية»، أما تيودور دي بيز فغالباً ماجرت الإشادة «بفكره الجريء والممتع، ووجه الفرح، وحركاته المستحبة، ومسحة البلاط في مظهره» بحيث يمكن أن يظهر في **المعذب الكالفني** كفارس أنيق ويأخذ مكانه بجدارة في المقابلة التي حددتها له الملكة الأم.

أما عندما يرسم بلزاك أطر ديكوراته، فما من ارتجال البتّة، وما من تفنّن؛ فهو يكتفي بالنسبة للسيته، ولشارع فيي-بلتري، والمنزل على النهر بما يمكن أن يرى، أو مارؤي سابقاً، في هذا الحي من «باريس القديمة» التي تختفي يوماً بعد يوم. أما ماكتبه عن اللوفر، وهندسته المعمارية، وتوزّع أقسامه، فمصدره دراسة دقيقة جداً قام بها الكونت دي كلاراك محافظ متحف الأثريات ووضعها في مقدمة كتابه **متحف النحت**، ومن أجل أن يضيف إلى الصيغة الأولى من روايته الوصف الدقيق لقصر بلوا، ولتحريك شخصياته بشكل صحيح، فإنه لم يركن إلى انطباعاته وملاحظاته كزائر لقصر بلوا بالرغم من أنه يزهو بتفحصه للقصر كمؤلّف مدقّق، وإنما اعتمد أيضاً وبدقة على كتاب **تاريخ قصر بلوا** الذي نشره حديثاً لاسوسي حيث وجد عدا الطرف العديدة طبوغرافية كاملة للأجنحة الملكية موضحة بمخططات مناسبة.

يمكن إذاً القول، دون مبالغة، إن هذا القسم التاريخي فعلاً من رواية **المعذّب الكالفني** يرتكز على عمل دقيق من التجميع ومن التداخل؛ وإذا كانت الاستعارات أحياناً كثيرة التطابق مع الأصول، فغالباً ماتوصل بلزاك إلى استخدامها مع ملائمتها بمهارة للمناسبة.

لكن في هذه القصة حيث لايعود الفضل في عقدة الحبكة بالذات، وإثاراتها الأكثر روائية لابتكار الروائي؛ يأخذ البورجوازيون مكاناً غير متوقّع؛ والرواية التي عرف بلزاك كيف ينشئها عن آل لكاموس هي أفضل أيضاً من «الدراسة» عن كاترين دي مديسي وحاشيتها. من المؤكد أن مشاهد الحياة اليومية تعود أيضاً للتاريخ، وبشكل أدقّ إلى مايأسف بلزاك على رؤيته مهملاً من قبل المؤرخين، وقد أراد كما في رواياته الحديثة تجذيره في الواقع بتفاصيل متعددة، فالعجوز لوكاموس، نقيب في اتحاد حرفته، وكيل في إدارة أملاك دائرته الكنسية، مأمور مسؤول في حيّه، يمثّل بدقّة أحد أولئك البارزين من وجهاء التجّار، المقدّرين حتى أن نساءهم يحملن لقب «آنسات» على عرف ذلك الزمن، وهم يوشكون على الانصهار في «نبلاء الثوب»؛ وإذا كانوا لايرتدون الحرير ولايتقلّدون سلاسل الذهب، فذلك للانسجام مع ترتيبات ذلك العصر الإدارية كما وردت في كتاب **المفصل عن الشرطة** للامار؛ وإذا كانت الصلة التي تربط بين آل لكاموس العام ١٥٦٠؛ والعائلة البرلمانية المتنفّذة والكبيرة العدد أيام لويس الرابع عشر تبدو متخيّلة، فإنها تتيح على الأقلّ أن تعطي لارتقائهم حقيقة اجتماعية يؤكّدها أيضاً تنويه عائلات بورجوازية كبيرة أخرى لايمكن للقرّاء أن يجهلوا أسماءها. ومع ذلك فقد وقع بلزاك لدى بورجوازيي القرن السادس عشر هؤلاء، في مواجهته للواقع، على الحريّة الضرورية ليخلق ماأسماه في مقدمة قصة **حجرة العاديات القديمة** «الصدق الأدبي» الذي ينبغي «أن يعكس روح الأحداث لاحرفيتها» أما عن ابن لكاموس، فلم يذكر له التاريخ شيئاً لايلامس مباشرة مهمته لدى الملكة الأم، وذكره أقلّ عن

أبيه، إذ يحدّد حرفته فقط. لكن ها هو الروائي يعمل سريعاً ليكتشف لكل منهما ماضياً ومستقبلاً، وحتى حاضراً، لايقتصر على علاقاتهما مع رؤساء البروتستنتيين والعائلة المالكة: انهما شخصيتان تظهران جنباً إلى جنب؛ محام شاب لايختلف إلا في الظاهر عن أهل التجارة المتحدرّ منهم، وتاجر عجوز يتميّز بعمق وجهات نظره وسموّها.

يظهر كريستوف في بداية الرواية إلى جانب روحه الطيبة ورقته الشعبيّة متميّزاً بحيوية سمحة وجرأة يتحلّى بها الشهداء، لكن المرحلة البطولية تبدو لديه قصيرة الأجل؛ وتكشف التجربة في «الفتى» الذي كان، الرجل الذي سيغدو حذراً حريصاً على مصالحه، والذي لم يعد يمكنه، وفقاً لكلمة صريحة من شوديو أن يضحّي في سبيل مبدأ. أما والده فإنّه، في وعيه وفنّه في الكتمان والمناورة، يحتل مكانة بين هؤلاء الطموحين النموذجيين في **الملهاة الانسانية**، فهو مماثل بشكل غريب لتلك الملكة الوالدة حتى يستطيع أن يتبيّن بحق، بوصفه «سياسياً متعمّقاً» انه مساوٍ لها. فهو الذي ينتصر في نهاية غير متوقعة يتحقق له فيها مأراده وحضّر له في الخفاء، يوماً بعد يوم، طيلة مسيرة حياته الهادئة كتاجر فراء.

ترتسم على ذلك النحوبتطابقٍ مع التعليقات المغرقة في الارشاد ومع زخرفة مشاهد البلاط الموصوفة بعناية، رواية بورجوازية كاملة بطلها الحقيقي هو العجوز لكاموس، ومن صنعتها نكتشف كيف يعرف بلزاك أن يمنح طامحيه، وفقاً لحسن تعبير بودلير، «عبقرية» دورهم.

في **اعتراف الروجيريين** يبدو الانسجام عسيراً بين التاريخ والقصة الخيالية، فالتاريخ في بدايتها لم يكن إلا انعكاساً لماض ملائم لأسرار الكيمياء القديمة، ومن أجل إعطائه مكانه في القصة، ولإحياء ظلال كلّ رجال البلاط في بضع صفحات، وتوضيح المصالح التي تتصادم حول الملك، اهتم بلزاك بوجود معتمدين، «وليل شارل التاسع» وهو الفصل الذي أضيف إلى «سرّ الروجيريين» يثبت هذا الاهتمام.

وُصف حي اللوفر. وخط تجوال الملك بعناية كبيرة، ويحتمل أن يكون ذلك قد تمّ استناداً للتوزيعات الأولى لكتاب متحف النحت الذي أعطى فيه الكونت دي كلاراك لمحة تاريخية عن القصر، ومعلومات مدققة عن الشوارع المجاورة له، كما أن روح العصر تتجلّى بتلميحات الى الأحداث الراهنة المتنوعة من ذلك الزمن وبكلمات شهيرة مستمدّة غالباً من **طُرَف الملكات** لدرو دوراديه. أما الأداور الثانوية كتلك التي تظهر فيها اليزابيت دوتريش، أو ماري توشه، فإنها ترد مباشرة فلا يكاد الروائي ينقح فيها شيئاً، مشدداً على كآبة الملكة الشابة ومخاوفها، ناسياً للخليلة حبّاً وفياً خالياً من الغرض نحو ذلك الملك التعس، فهو غرامها الوحيد؛ متقيّداً في ذلك بمرجعه حتى في إحالاته الى برانتوم أو الى لابورور.

هنا أيضاً يوحي إليه درو دوراديه بصورتي شارل التاسع وكاترين دي مديسي، إنما كان له في رسم هاتين الشخصيتين الرئيسيتين طريقة خاصة به، ومادة لاتُستمد فقط من **طرف الملكات**، فقد تناول مجدّداً كلّ ماعرف عن الملكة الأم، وتناثر في المذكرات أو الأهجيات التي يحدّدها درو دوراديه، ونظر إليها بدوره إنما ضمن منظور مجمل، تنتظم فيه التفاصيل وفق موضوع مضاعف من «السيطرة والتنجيم» وحرص على صياغة جمود عاطفة بطلته، منكراً «إيثارها» لهنري الثالث المقبل، مفضلاً كما يعترف معارضة معظم المؤرخين، على أن يَقبَلَ لديها عاطفة أخرى غير هوى السلطة، وهو يزيد أيضاً على مؤلّفيه لكي يصف وجهاً تتراءى الروح التي تقطنه من خلال عظمته المقلقة. وهو يعرف كيف يكيّفه وفقاً للوحة في رواق اللوفر، حيث الشحوب يتمايز ضمن سواد الثوب والقلنسوة، مكرّراً مع تجديد حاذق صورة نشرتها الرسوم في كل مكان؛ ثم يزيد أكثر في إبراز ملامح وجه الملك؛ فيضيف إلى ماكان قد قال عنه درو دوراديه في فصليه عن كاترين دي مديسي، وماري توشه أو في **دفاتر**. **مذكراته عن ملوك فرنسا**، ذكريات قراءات متنوعة، كما يغرف مما وَرَدَ لدى برانتوم وپاپير ماسون اللذين يذكرهما لي

لابورور، ومن تو ومزاري، وربما أيضاً من دافيلا، وقاريّا أو من پيير ماتيو، ولا يهمل شيئاً من هذه الطرف المتعددة حول ملذات الملك ومغالاته فيها، وحول عنفه، وضناه في نهاية حياته، وحبّه لماري توشه، ومناورات أمّه من أجل إفساده، وإبعاده عن شؤون الحكم. لكنه جهد في أن يعتّم على العيوب الناتجة عن التربية، وإلى تسليط الضوء على المناقب الطبيعية لملك أراد أن يجعل منه «رجلاً عظيماً مجهولاً» واحترس من أن يتهمه بهول مذبحة يعاني بسببها من «تبكيت الضمير»، دون أن يكون قد أعدّها أو قرّرها. وبلزاك لم يبتكر شيئاً، وإنّما بسّط ليجمّل الشخص المعقّد، الذي اقترحه عليه، عبر التفرّدات والتناقضات، المخبّرون والهجاؤون، والمؤرخون، وليس شارل التاسع الذي يرسمه إلا أميراً تعيساً، نَشِطاً ومعذّباً، يحلم بالحركة وتخمد همّته سريعاً، وقد أنذر بموت مبكّر وسيطرت علَيه كآبة شبه رومنسية.

أخيراً فهو مهتم بأن يحدّد طبيعة العلاقات السائدة في العام ١٥٧٣ بين الأم والابن وسط بلبلة ساسية لاتفتأ تتغيّر. وبعد المذبحة لاقبلها كما بدا لبلزاك في مشروع مسرحيته - يحاول شارل التاسع، وهو حتى ذلك الحين أشبه بشخصية خرساء في هرجة وفقاً لقول أحد الناقدين، أن ينتزع من أمّه السلطة التي اغتصبتها منه. كان درو دوراديه قد ذكر هذه «المأساة»؛ وألحّ المؤرخون على العزيمة المتأخرة للملك «التي تبدّل فجأة كرجل يستيقظ من نوم عميق» وذلك بقدر إلحاحهم على احتراس الملكة الأم التي أحاطته بالجواسيس، وقدّرت تجربتها العميقة مخططاته الأكثر كتماناً. كانت تلك أيضاً، بفارق عدة أشهر، الفترة التي ظهر فيها العصيان المشوّش للدوق ألنسون الذي حاول أن يجرّ من ورائه جميع المستائين: وانتهت مكيدة «السياسيين» في ربيع ١٥٧٤ بإعدام لامول وكوكوناس، بعد محاكمة اتهم فيها كوسم روجيري بأنه جهّز لامول بتمثال من شمع لإظهار التمثيل بالملك. ولم يحتج بلزاك إلى إمعان تفكير ليرى في ذلك مناورة ماهرة من كاترين دي مديسي: كانت تلك هي فرضية درو دوراديه وهو

يقصّ مايسميه «المؤامرة الوهمية» ومنذ القرن السادس عشر رُؤي في تلك القضية التي كشفت في لحظة مناسبة جداً للملك ضرورة أن يعاقب بشدة أخاه الأصغر، وهنري دي ناڤار؛ «حجر ملائم في يد الملكة الأم». وفيما كان بلزاك يعمل على تحديد **سر الروجيريين** بالضبط، وقع في الوقت نفسه على الوسيلة الفضلى لتقديم الفلكي الذي لم يكن له في الفصل البدائي من الحقيقة التاريخية أكثر مما يبدو في مسرحية دوما[١] أو لوكروا وآرنو[٢]. فصار كوسم يحمل من الآن فصاعداً اسمه الحقيقي[٣]، وعرف القرّاء مكانته في البلاط، وثروته في فرنسا، ودوره قرب الملك الأم، ومصيره بعد القضية، وكل ماورد حوله في **طُرَف الملكات**، ومقالات **السيرة الذاتية الشاملة** و**قاموس** بايل.

في اعتراف الروجيريين، حيث استمر رغم النصوص المختلفة القسم الرئيس من صيغة القصة الأولى، أعطى بلزاك لنفسه مزيداً من حرية التصرّف القصصي أو المثير للإعجاب على حساب التاريخ السياسي، ويبدو أنّه اعتمد فقط على ذاكرته أو على تفنّنه في رسم ديكور يبرز فيه الملك ويقدّم فيه أيضاً فلكي الملك الأم. وإذا كان قصر ماري توشه قد جمّل، حتى يتناسب مع منزل أنشىء نحو العام ١٥٢٠ لاخت فرانسوا الأول، بمستحدثات الفن المعماري الإيطالي، فيكفي لاستحضاره في الذهن التمتّع بذوق هاوي أثريات، أو التسلّي بتصفح **ذكريات باريس القديمة**[٤]؛ تلك التي تشهد الألبومات آنئذ على شهرتها. أما مخبر الروجيريين فيمثل بكل بساطة أيضاً الأمكنة العامة لذلك العصر، وكلّ شيء فيه كما في صومعة كلود فرولو في رواية **نوتردام باريس** يحتوي على المعدّات اللازمة للأبحاث الكيميائية؛ فالقصر والمخبر يطمحان كلاهما ليعطيا لسير الأحداث في الرواية إطاراً يلائمه، ولينقلا القارىء الى ماض بعيد، لكنّهما لايمتّان بصلة تقريباً

---

(١) مسرحية هنري الثالث وبلاطه (١٨٢٩).

(٢) أيام المرافع خلال ملكية شارل التاسع (١٨٣٢).

(٣) كان اسمه في المخطوطة كلود، كصانع الأسهم النارية في القرن التاسع عشر.

(٤) عنوان «البوم» نشره توربن دي كريسه في العام ١٨٣٥.

إلى عمل المؤرخ. أما شارل التاسع فيقع دوره تقريباً بين التاريخ والتخيّل. وقبل أن يعدّ بلزاك المقدّمة التاريخية، كان يعرف مايكفي لإظهاره خلال زيارته لماري، ملكاً معذّباً قلقاً بسبب المصالح المتضاربة التي تتصادم من حوله، واعياً لضعفه ومرتاعاً من أمّه؛ لكنّه وضعه في مغامرة مُختَلَقة، يلعب كما يحلو له في ما أوحى له به التاريخ. فالتجوّل على السطوح يأتي من ذكرى غير صحيحة لتقليد شهير؛ وإذا كان غاسبار دي تاڤان قد قفز فعلاً على السطوح في أيام فتوّته، فإن ذلك لم يكن برفقة شارل التاسع الأحدث عمراً منه بكثير، إنّما مع شارل دورليان آخر أبناء فرانسوا الأوّل. لكن التطرّق لمثل هذا المشهد أعطى لوناً بطولياً هزلياً لمغامرة ليلية خطرة، يظهر فيها هذا الملك المضنى بجرأة ساحرة. ما من شيء يبرهن على أن الملك شارل التاسع كان مفتوناً بعلوم السحر والتنجيم، ولقاؤه مع الكيميائيين منبثق من ابتكار الروائي، الذي يتوافق تماماً مع الذوق الرومنسي المناصر لهؤلاء الهواة المنصرفين إلى الأبحاث الأكثر طموحاً والمسيطرين على أسرار رهيبة؛ وقد كان القرن السادس عشر وبلاط كاترين دي مديسي زماناً ومكاناً لبسط نفوذهم، بل لقد بقي لنا اتفاق غريب بين الملك وشخص يدعى جان دي غالانس يتعهد فيه هذا الأخير «بتحويل جميع المعادن الناقصة الى ذهب وفضة خالصين»[1]؛ فالخيال إن فاتته الحقيقة هنا يلاحق على الأقل مايبدو له محتملاً تاريخياً.

يظهر أخيراً في حبكة القصة العالم الشهير لوران روجيري ونظريته في علوم السحر والتنجيم، فيما لاوجود لهما إلا في دنيا **الملهاة الانسانية**، لذلك ليس من المدهش أن يكون بلزاك في سياق إنشائه الأوّل للقصة، قد قدّمه كشخصية «أفلتت حياتها الخفيّة من التاريخ»: وأينما بدرت الإشارة للفلكي كوسم، فما من شيء عن عائلته، فإن لم يذكر أنّه مجهول النسب، ذُكر فقط أن الأب كان الطبيب المشهور للدوق أوربن، لكن ما من أثر لذلك الأخ البكر «الملقب **بالكبير** من قبل المؤلّفين القبلانيين»، مع أن له الدور الأوّل في القصة،

---

(١) نشرت في «المجلة الاستعادية ـ الجزء الأوّل ـ العدد الثالث ـ كانون أوّل ١٨٣٣.

مجسّداً الكيمياء بكل عظمتها، بينما كان «كوسم الصغير عبد تنجيم» كما قيل عنه في علاقات القضية، فهو ليس هنا إلا ليثبت روابط الروجيريين بآل مديسي، وليدخل في دنيا التاريخ ذلك الأخ الغامض الذي يظهر ويختفي في الوقت المناسب لإبهار الملك برؤاه.

ما من قسر تاريخي بشأنه عبر خطاباته. أمكن لبلزاك أن يمدّد بحريّة حلم يقظة طويل بدأ من العام ١٨٢٠ في **فالثورن**، ثم تابعه في نوع القصّ الخرافي في **المعمّر المئوي** ليتناوله مجدّداً في طراز طريف ورد في استهلال **الجنيّة الأخيرة**، ثم وجد شيئاً فشيئاً مرتكزه وتماسكه في نظريات الكيميائيين الحديثين حول المادة التي لاقت صداها في **لويس لامبير وسرافيتا**، وبصورة خاصة في **البحث عن المطلق**، لكن دوره ككيمائي قديم في القرن السادس عشر **يعطيه**، في جملته، حقيقة لم يحظ بها في **المعمّر المئوي** العجوز بريّنغهلد الذي يعبر بيُسر القرون أو المسافات، ومكاناً خارجاً عن المألوف، وثقة لاتقاوم حُرم منها بلتزار كلايس المتصارع مع الإخفاقات وعقبات الأمور اليومية. يمكنه دون أن تكذّبه التجربة يوماً، مادام يؤجّل عمداً انتصاره للغد، أن يؤكّد إيمانه بعلم يهون أمامه كل شيء وما من شيء يعكّر لديه بين رغبة عارمة في قدرة كليّة على العالم، وبين القناعة في قدرة الذكاء على بلوغه وضرورة بلوغه. كيميائي قديم هو حتى في النظرية التي يلخّصها والنبرة التي يتخذها. وبالرغم من أن بلزاك قد اكتفى لجعله يتكلم بذكريات منتشرة، غير واضحة ومضخّمة وفقاً لإيحاءاته، فإن لوران عرف كيف يستحضر، كتلك الأبحاث القديمة، المعنى الخفيّ للأساطير العتيقة، والأسرار المتناقلة جيلاً بعد جيل بين بعض الخبراء، وعرف كيف يبيّن ضرورة دراسة

---

(١) هو الحجر المسمى «حجر الفلاسفة» وبواسطته يمكن تحويل المعادن إلى ذهب.

(٢) **المختصر الفلسفي** لنيكولا فلامل في **التحوّل المعدني**-باريس ١٥٦١؛ هستو دي نويزمن، **قصيدة فلسفية عن حقيقة الفيزياء المعدنية**-باريس ١٦٢٠، **والمفصل في التناسق والتركيب العام للملح الحقيقي**-باريس ١٦٢١.

المادة، وتفكيك العناصر ليتحكّم بجوهرها، ولم تكن حماسته نفسها غريبة عن بعض الشعراء الكيميائيين القدامى الذين يمجّدون «حديقة» الفلاسفة، والبحث عن «حجرهم العظيم»[١] و«الروح ـ الجسد» التي هي مفتاحه «والبداية والنهاية لكل جسم قابل للفساد»، وأيضاً الرغبة في إطالة الحياة البشرية من «أجل إمكان الوصول الى المعرفة الكليّة للأشياء»[٢]. فتبقى القصة، بواسطة هذا البطل الخيالي والساحر، رغم تحويلها إلى سرد تاريخي، إبداعاً خيالياً يمجّد علوم السحر والتنجيم التي يرفض الروائي أن يفصلها عن العلوم الأخرى.

كيف يمكن قراءة **اعتراف الروجيريين** بغير تلك النبرة المضاعفة، حيث تتجاور وتتشابك حرية القصّاص الحالم بالكيمياء مع التطبيق الضروري لتمثيل صحيح لواقعة التاريخ؟ إن اللقاء الحالم بين الملك والكيميائيين قد تغلب عبثاً على عرض المكيدة السياسية ومخططها الاجمالي المضافين إليه، فقد طرأ عليه تعديل من بعد بهذه الخلفيّة الجديدة: فيضيف الروجيريان إلى سر «أبحاثهما» لعبة مضاعفة تخدم الملكة الأم، أو إغراءات الكيمياء القديمة فتبرق خدّاعة دون أن تتخلّى عن مطابقتها للواقع. كان بوسع الغموض ان يزيدها جاذبية، لو نجح بلزاك في ان يوفق داخل العَمل المكتمل بين الحقيقة السياسية التي أراد وصفها وبين حلم اليقظة الذي راق له إنشاؤه. لكن تاريخ القرن السادس عشر رغم دقّة التفاصيل يبقى في القصة شيئاً ميتاً وان «رواية الكيميائي» التي يراها كورتيوس[١] في القصة ليست إلا مخططاً لايكفي تماماً لإغرائنا.

في مقدمة ١٨٤٢، يدعونا بلزاك لقراءة **الحلمين** وفهمهما وكأن العنوان **حوار بين كاترين دي مديسي وروبسبيير**. كان ذلك بمثابة توضيح، فيما هو عازم على التأكيد على نقد الاصلاح الديني ونظرية سلطة قوية قد راح يصوغهما؛ وليس ذلك سوى الاحتفاظ بجزء من نصّ ١٨٣٠ يأخذ كلّ معناه من المجموع الذي

---

(١) في الصفحة ٦٤ من الفصل الثاني من كتابه «بلزاك» باريس ١٩٣٣.

يندرج فيه. وملكة القرن السادس عشر وفلسفتها السياسية هما في المقام الأولّ، إنما ليس في حبكة قصّة تدين بقوّتها إلى خرافة بارعة جداً.

تبدو صورة الملكة، عبر خطابها لروبسبيير، شبه مجرّدة؛ وشروحها عن سان بارتلمي لاتفصّل جدول الحدث، ولا تقصّ ظروفه. ومن أجل تبرير تصرّفها تحلّل في آن واحد طبيعة الإصلاح الديني، وطبيعة السلطة الملكية، دون أن تعتمد في مجموع أدلتها على أي رأي للمدافعين عن المذهب الكاثوليكي في القرن السادس عشر الذين يعتبرون القائلين بالاصلاح الديني عصاة متمردين ويعتبرون المذبحة قصاصاً عادلاً لهم. لكن في خطابها صدى المواضيع التي دافع عنها بكل طيبة خاطر محررو **الكوتيديين** حول ضرورة الوحدة الدينية، والقرابة بين الإصلاح الديني والثورة، اللذين يدفعان حتى النهاية القصوى بما قاله منظّرو الطرفين، منذ مدة طويلة، على الروابط بين الاصلاح الديني والجمهورية. أما بشأن مواجهتها مع روبسبيير فإنّها تعود أيضاً بمعنى ما الى فهرس الصحفيين والمعنيين بالأدب؛ كانوا يخلطون غالباً بين سان بارتلمي وعهد الإرهاب فيحيطونهما بالنقمة ذاتها. بينما راق لبعضهم كنوديه، حبّاً في المناقضة أن يظهر روبيسبيير، وقد نعت بالإنسان غير القابل للفساد بمظهر رجل نظام راح ضحيّة جهوده في إعادة تنظيم المجتمع وتثبيت «السلطة المطلقة». إذا وجب أخيراً ذكر مصدر محتمل لهذا الخطاب، أو نموذج تسهل معرفته فإننا نتحول الى مسرحية من العام ١٨٢٦، جدليّة كلّياً في عداوتها الساذجة والعنيفة للتعصب، وقد رأت فيها مجلة **الغلوب** بسخرية: «العمل الأكثر فلسفة في العالم لكنه الأقل ما أمكن تاريخاً» تلك المسرحية هي **سان بارتلمي** لشارل دوتربون، وفيها تعلن الملكة كما في **الحلمين** لامبالاتها الدينية، وترى في المذبحة «انقلاباً» ليس «بجريمة» وإنما «بلوى ضرورية» كما ترى في البروتستنتية مذهباً «ضد الملكية» يهدّد بافتراس «النظام الملكي».

تعود القوّة العدوانية التي تضعها البطلة البلزاكية في خطابها إلى تغيّر في قرار اتهام غدا دفاعاً، والى ثقتها المطمئنة في النظر إلى المذبحة من وجهة نظر سياسية كليّاً، دون أي تأثّر أو تبكيت ضمير. لكن حضورها يبقى حضور ظلّ، دون أن تحصر الشخصية وزمنها في تفرّدها من قبل قصّاص يريد أن يكون مؤرخاً، ويريد أن يعيدهما إلى الحياة بواسطة هلوسة ينسبها إلى روبسبيير. فنصيب التاريخ يقتصر هنا على النظرية في التاريخ التي تُستَشفُّ من سياق الخطاب، والتي على الذكاء بمقتضاها أن يكتشف في تلاحق الأحداث قوانين تفسر الماضي وتبشّر بالمستقبل. فنحن هنا بعيدون عن الطموح المعلن عنه في مقدمة رواية **الفتى** والقائم على «رسم التفاصيل الواسعة في حياة القرون».

إن كان للقصة مع ذلك لونها التاريخي فلأن ذلك «العشاء المحدود» يعرض علينا انعكاساً صحيحاً تماماً للقرن الثامن عشر الموشك على الانتهاء. وقد أمكن لبلزاك من أجل صياغته، أن يكتفي باستعادة ماوعته ذاكرته من أقاصيص رواها المحيطون به ممن عرفوا المجتمع الباريسي عشية الثورة؛ وخاصة والده، أمين السرّ في المجلس الاستشاري للملك منذ العام ١٧٧٦. لكن لأدق التفاصيل مرجعها الموثوق في الصحف، أو المذكرات أو القواميس، سواء تعلق ذلك بلعبة الورق المسماة فرعونية أو زيارات الى مارلي **كنبيل متسكّع متنكّر**، أو نجاح الممثل فولانج أو التلميحات الجارية حول حفلات عشاء كاغليوسترو، وقضية العقد، وتفليسة روهن-غِمينهِ.

ما من أمر مستبعد في اجتماع الشخصيات لدى بودار دي سان جمس؛ بل بالعكس، فكالون وبومارشه والمالي كانوا يشتركون في العديد من المضاربات، وغالباً مانجدهم مقرونين معاً سواء في الأصداء الساخرة لريشة بعض المعاصرين، أو في وثائق دور المحفوظات المستكشفة من قبل ج. سِيَباشِر للكشف عن دسائس فيغارو-بومارشه. أمّا «المجهولان» الغريبان عن هذه الحلقة، فقد ضما إليها بعناية فائقة، فقيل لنا إن المحامي وافد من آرتوا «لإنهاء قضيّة تتعلّق بالكردينال» وقد

رافع روبسبيير فعلاً في آراس في القضية المعقدة جداً القائم بين الكردينال دي روهن ودير سان ـ ڤاست. كما ازدهي بمارا الطبيب و«العالم الفيزيائي» والواقع أنّه عرف بعض الشهرة عندما كان طبيب حرس الكونت دارتوا بحيث أمكنه أن يزهو ببعض شفاءات شهيرة كما ساهم في أبحاث النظريات الأكثر حداثة المتعلّقة بالضوء والكهرباء، إلى درجة دفعت مجلة «مركور دي فرانس» ـ بناء على طلب من بومارشه ـ إلى الاشارة إلى اكتشافاته في العام ١٧٧٦.

في هذا الإطار المرسوم بعناية تمسي الفلسفة السياسية التي اكتشف روبسبيير مبادئها الأساسية في الحلم مدار الحديث لفترة. وتنفصل بطريقة ما عن القرن السادس عشر لتنضم إلى مجتمع العام ١٧٨٦ كما أظهره لنا ذلك الصالون في ساحة ڤندوم أما موقعها ذو البنية المعقدة، حيث تأخذ الكلمات ووقعها مكان التغيّرات فهو الذي يجعلها مرهوبة الجانب. ما من أمر يحدث خلال «العشاء المحدود» الذي ينتهي بمغادرة المدعوين، لكن الأمر الخارق ينساب إلى تلك الجلسة بحركة الزمن وحدها، حيث يختلط الماضي بالحاضر وبالمستقبل. فهناك شخصيتان تبدوان تافهتين في البدء بين تلك المجموعة المتميّزة. لكنّهما يلعبان الأدوار الأولى، وقد كشفا بغموض عبر «حلمين»، أحدثا واقعاً غريباً، عن حقيقتهما، التي لاتزال مجهولة لهما وللآخرين: فالمحامي ينذر بنظام حكم شديد القسوة مقتدياً بذكرى ملكة عديمة الشفقة، والجرّاح قادر على التهلّل وهو يبيد «الحيوانات المؤذية» التي تسبّب الغنغرينة لشعب مريض. لكن الحلم الثاني، وهو أكثر تهديداً من الحلم الأوّل، يتحوّل الى دعابة، والافتتان الذي ساد لحظة نسي سريعاً، بينما يسلّط قصّاص ١٨٣٠ الضوء بطريقة الاسترجاع، خلال مدى سرده وحده، على تلك الأمسية المعاشة من العام ١٧٨٦، وقد أصبح المستقبل الذي تلاها من بعد ماضياً. ولا يمكن للقارىء أن ينخدع فيه، فظل الرعب الذي يذكّر بالمذابح السابقة الأكثر هولاً يخيّم على هؤلاء الضيوف اللامبالين، ويلتقي عالمان متناقضان دون أن يتعارفا في صالون بودار دي سان جمس.

كيف لانقبل كخاتمة بأن للقارىء الجاد بعض الحقّ في أن يبقى متحيّراً أمام هذه الدراسات **حول كاترين دي مديسي**؟ بينما هي تعبّر لدى من نصب نفسه رسّاماً «للمجتمع الحديث في حركته» عن رفض للتخلي عن الرواية التاريخية، وإصرار على أن يؤلّف مجموعة مكرّسة لملكة القرن السادس عشر، وإذ بها تكشف عن روائي ملزم غالباً باستعارة مادته وحتى شكل مشاهده وصور شخصياته التاريخية، كما هو ملزم بالعثور خارج التاريخ على ديناميكية قصصه الثلاث، فكاترين دي مديسي ليست قط البطلة فيها تماماً، حتى يبدو وجودها في التنسيق النهائي وكأنه يتراجع متلاشياً، فسياستها ذات أهمية في رواية **المعذّب الكالفني** على قدر ثروة آل لكاموس؛ لكن مكيافليتها في **اعتراف الروجيريين** لاتثير الاهتمام بقدر جاذبية الكيمياء القديمة؛ أما ظهورها في **الحلمين** فيشحب أمام حقيقة المحامي الذي يستحضرها، عدا عن أن خطابها المختلق لايقلق بقدر الروابط الغامضة التي تستشفّ بين الحالِمَين وما حلما به. إنّما يمكن مع ذلك تقدير تعلق المؤلّف ببطلته وصعوباته في منحها المكان المناسب في عالم **الملهاة الانسانية**.

تبدو كاترين دي مديسي عبر الصورة التي تركتها عن نفسها، وفي الوضع الذي حافظت عليه طويلاً، مهيّأة لتغدو إحدى هذه الشخصيات التي يعرف بلزاك جيّداً كيف يجسّد فيها إرادة القوّة وتذوّق السياسة؛ ألم يكن عليها أن تأخذ غلاباً وتأخذ مجدّداً ودون انقطاع، سلطة لم تمنح سلفاً لالزوجة الابن الثاني لفرنسوا الأوّل؛ ولا لملكة أهملها زوجها لمصلحة خليلة ذات نفوذ كبير؛ ولا لأم ملك قاصر وسط خلافات في مملكة تحترس من حكم النساء، وحيث «الزنابق لاتتتابع»؟ ألم تكتب في العام ١٥٦١ وبعد موت ابنها البكر فرانسوا الثاني: «الأمر الأساسي هو أن لي، ولله الحمد، كل القيادة». إن الروائي يمكنه أن ينسب إليها،

دون تفنّن، «تعطّشاً للسيطرة» سيغدو أحد تلك الأهواء المانعة الصادّة؛ إحدى تلك الأفكار الثابتة الخاصة بجميع أولئك الذين يؤمنون بأنهم أصحاب موهبة ورسالة من أبطاله. كما يمكنه أن يختار عدم إظهارها البتّة في السلطة، وإنّما في سنوات تدرّجها التي تخطّها **المقدمة**؛ وبصورة خاصة في مواجهة العقبات التي وجب عليها أن تقهرها من أجل أن ترتقي إلى المصاف الأوّل في العام ١٥٦١ أو لتثبت فيه في العام ١٥٧٣، وهو لايتناولها إلا في «أوقات متقطعة» كما أشار جان روسه بالنسبة لدى مارسي الرهيب[١]؛ دون أن يهتم بتسليط الضوء على اللحظات التي اطمأنّت فيها إلى ممارسة الحكم. ويمكنه أن يحتفظ، كسمات مميزة لها، بالمواربة وفقدان أي اهتمام ظاهر، ولا مبالاتها بالرجال وبالأشياء أيضاً، وهذه قواعد في «لعبة الطموح» كما حدّدها فوترن ـ هريرا للوسيان[٢]؛ وكما مارسها مكسيم دي تراي أو دوتيّه، وكورنتن أو دي مارسي، ونوسنجن أو فوترن بذاته؛ كل في محيطه وعلى قدر مستواه.

لكن التعرّف في الشخص التاريخي على كل مايمكن، ومايجب أن ينسب إلى مخلوقات الروائي المبتدعة، وإلى مصائرها؛ لايجعل مهمة بلزاك أكثر سهولة؛ فكيف أمكنه أن ينسى في دراساته كل مايتوقّعه، ومايتطلبه في الرواية التاريخية؟

في العام ١٨٤٠، **وفي المجلة الباريسية**، وبإعطائه درساً قاسياً جداً لأوجين سو الذي يكتفي «بلمحة تاريخية لاتستلزم جهداً كبيرا» يبقى بلزاك أميناً للطموحات التي تكلّم عنها في العام ١٨٢٨ على لسان ڤيكتور موريون. فهو يريد الحقيقة «في كافة التفاصيل»، وفي لوحات الحياة الخاصة، التي يدعمها تنقيب كثير التدقيق، كما يلزمه أن تمتزج مع الحبكة الروائية، وجوه كبيرة، وأحداث كبيرة، تظهر دون

(١) «ملاحظات عن السلطة الخفيّة لدى بلزاك» تريفيوم ١٩٥١، الجزء الثاني ص: ١٠١.

(٢) في رواية أوهام ضائعة.

تفنّن أو تقريب؛ وينبغي أخيراً أن يوضع كل شيء في منظور يعبّر فيه الفكر دون أيّة مفارقة تاريخية عن «روح عصر». ويخشى على كثير من الطموحات في مثل هذه الشروط القاسية، من أن تضرّ بانطلاقة الخيال، وتزيد من تعقيد الصعوبة الخاصة بالرواية التاريخية، التي يراها جيّداً پول بورجه في تقارب «فسيفساء» الأحداث الحقيقية والأحداث المتخيلة، مع المحافظة على وهم فترة معاشة.

لم يشأ بلزاك عملياً، أن ينقص شيئاً من نظريته؛ فهو في **اعتراف الروجيريين** كما في **المعذّب الكالفني** يتحوّل الى عالم آثار لوضع ديكوراته ووصف العادات، وإلى إخباري مدقّق ليعرض تغيّرات الحياة العامة، وإلى «فيلسوف» أيضاً ليحلّل الأسباب والنتائج، وليسلّط الضوء على روح الإصلاح الديني منذ ولادتها. وإذا كان قد قدّم عن بطلته صورة مفارقة، فلأنه يطمح إلى أن يردّ الأمر إلى حقيقته، وأن يجد عوامل مدحها في لواذع الهجائين: اللجوء إلى السحر والتنجيم، وجمود العاطفة، والمكائد، واللجوء إلى العنف في السياسة على الطريقة الإيطالية، «كلّ شيء يتبرّر لمجد تلك المرأة الخارقة». لقد قال ذلك في **مقدمته**، ودأب على إظهاره في قصصه. في هذا الجهد للإطاحة بحقيقة كائن، وقرن من الزمان، لايهمّ كثيراً التوقّف أحياناً أمام مصادر مشكوك في صحتها، أو أن يتسنّى له معالجة جميع هذه المعطيات التاريخية بذات القدر من الجرأة التي يعالج بها مايخضع لتجربته ولملاحظاته كرجل من القرن التاسع عشر. لقد خاب دخول الملكة الى عالم **الملهاة الإنسانية**. فلا الشخصيات التي تحيط بها، ولا أشياء زمنها، ولا هي بالذات، تفرض حضورها على قدر الديكور، والأشخاص الثانويين والأبطال في الروايات الحديثة. فكثير من الشروح، والاستطرادات، والتعليقات، وكثير من التبحّر الظاهر ترد ـ على نحو مايقوله حقاً وهو ينقد الآخرين ـ «لتخميد كذبة... أمام نداء التاريخ» ولتحطيم الوهم. أما التقاط الصور المتتابعة فسيبقى مجزّاً، دون أن تُشعرنا مناطقُ الظل، كما في لقاءاتنا مع راستنياك أو دي مارسي، بسرّ القدر،

أو وطأة الزمن الذي ينقضي. وتبقى سياسة الملكة الوالدة ذات وجهين؛ فهي ناتجة حيناً عن طمع أناني، لايبالي بخير الدولة؛ ومندمجة حيناً آخر «بعاطفة الملكية» وإرادة «إنقاذ التاج» دون أن يعطي غموض الحكم للشخصية ظلاً كثيفاً حيّاً.

هكذا على مفترق التاريخ والخيال، لاتغدو كاترين دي مديسي بطلة بلزاكية تماماً؛ والدراسات التي رصدت لها هي انعكاس جذّاب لهذا التحوّل غير المكتمل.

نيكول كازورن



الفهــرس

١٥٠٠ ط١ /٨/ ٢٠٠٠

رواية من الدراسات الفلسفية تتألف من مقدمة تاريخية، وثلاثة أقسام: الشهيد الكالفني واعتراف الروجيريين، والحلمان.

المقدمة: تستعرض تاريخ آل مديسي أمراء فلورنسة ونشأة كاترين (١٥١٩ - ١٥٨٩) وزواجها من هنري دي فالوا الابن الثاني لملك فرنسا وكلاهما في الرابعة عشرة من العمر والأبهة الملكية والبابوية التي رافقت زواجهما، ثم موت ولي العهد مسموماً ومعاصرة كاترين لخمسة *ملوك حميها وزوجها وأولادها الثلاثة وفلسفتها في الحكم.*

الشهيد الكالفني: عرض للصراع الكالفني الكاثوليكي بشكل قصة تتلخص بنقل الشاب كريستوف لكاموس ابن تاجر الفراء لمشروع معاهدة من الكالفيين إلى كاترين وسفره من باريس إلى قصر بلوا والقبض عليه وتعذيبه. كما تتعرض القصة لفتنة أمبواز وإعدام قادتها بحضور الأسرة المالكة ومساعي والد كريستوف الكاثوليكي لانقاذ ولده في العام ١٥٦٠.

اعتراف الروجيريين: هما الأخوان الفلورنسيان لوران وكوسم العاملان في السحر والتنجيم المقربان لكاترين وقد قبض عليهما الملك شارل التاسع خلال هواية رياضية يقوم بها في القفز بين السطوح، العام ١٥٧٣ (أجرى بلزاك هذه الإزاحة *التاريخية* متجنباً التعرض لمجزرة سان بارتلمي التي حدثت في العام ١٥٧٢). قام شارل التاسع بالتحقيق مع الأخوين في قصر خليلته ماري توشه وبحضورها. وهذا القسم عرض للصراع على السلطة بين شارل ووالدته كاترين.

الحلمان: في شهر آب ١٧٨٦، وأثناء سهرة في قصر سان جمس أمين صندوق البحرية يقص محام شاب ظهور كاترين دي مديسي له في الحلم لتبرر مذبحة سان بارتلمي، وتعدها «بلوى» كانت ضرورية لصيانة المصلحة العامة. كما قص عالم فيزيائي وجراح حلماً استدعي فيه لمعالجة جريح فوجد ساقه تأكلها الغنغرينة والديدان *فبترها*. كان المحامي الحالم روبسبيير والفيزيائي الباتر مارا.

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة
دمشق ٢٠٠٠

سعر النسخة داخل القطر
٢٢٥ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل
٤٥٠ ل.س